المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة



فرانتس كافكا

القصر

ترجمة وتقديم

مصطفى ماهر

ميراث الترجمة



1343



تأليـــــــف: فرانتس كافكا

ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر



٢٠٠٩

القصـــر

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ١٣٤٣
- القصر
- فرانتس كافكا
- مصطفى ماهر
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية

Das Schloss

Franz Kafka

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

كافكا، فرانتس (١٨٨٣ - ١٩٢٤)
القصر؛ تأليف: فرانتس كافكا، ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩م.
٣٥٨ ص؛ ٢٠سم
١- القصص الألمانية
أ- ماهر، مصطفى (مترجم ومقدم)
ب- العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٠٣٠٩
الترقيم الدولى: 2 -255 -479 -977 -978
طبع بمطابع مصر للطيران

مقدمة

ولد فرانتس كافكا فى الثالث من شهر يولية عام ١٨٨٣ فى مدينة براغ التى كانت فى ذلك الوقت تجمع بين ثقافتين الثقافة الألمانية من ناحية والثقافة التشيكية من ناحية ثانية ، ويبدو أن الطبقة التى كانت تحمل الثقافة الألمانية كانت هى الطبقة المرموقة التى يتوق الناس الى الوصول اليها والاندماج فيها والسير على طريقها · وكانت أسرة كافكا أسرة فى أصلها رقيقة الحال ، كان الجد يعمل بالجزارة ويسعى هو وأولاده باللحم الى الزبائن ، أما الأب فقد رسم لنفسه طريقا للصعود الاجتماعى سلكه فى حزم عنيف ، فبدأ بالرحيل من القرية الى المدينة - براغ - وتزوج من واحدة من أصحاب الثراء من بين الأسر المتكلمة باللغة الألمانية ، وتمكن من احتراف التجارة وكسب المال ، ودفع أولاده رغما عنهم الى الاتجاه الى قطاعات من التعليم والعمل كان يرى فيها دليلا على الرفعة والوجاهة ، وكان فى معاملته أولاده عنيفا شديد العنف ، لا يكاد يدع لهم متنفسا فى حضرته ، فاضطرمت نفس فرانتس كافكا منذ وقت مبكر بنار الثورة على أبيه ، واتجه بينه وبين نفسه الى الهروب من البيئة القاسية الى الأحلام أحلام اليقظة والى الخيال الابداعى بعد ذلك ، وربما تحملت شخصية فرانتس كافكا بشىء من العصابية التى كان بعض أفراد أسرة أبيه وأسرة أمه يعانون منها · ووجد فرانتس كافكا نفسه فى المدرسة الألمانية فى براغ ، فلما أتمها دفعه أبوه الى دراسة القانون حتى يتمكن من الانخراط فى سلك الموظفين ، والاندماج فى هذه الطبقة التى تدير الأمور وتهيمن على المقدرات · أما فرانتس نفسه فكان يتمنى أن يدرس الفلسفة والآداب والفنون ·· وشتان ما بين الاتجاهين من تباين ! واذا كان فرانتس كافكا قد اضطر الى ارضاء أبيه بدراسة القانون ، فقد عرف فى الوقت نفسه كيف يرضى شغفه بالفلسفة والآداب والفنون ، فقرأ وحده ما استطاع واستمع الى كثير مما كان يلقى فى الجامعة من محاضرات فى هذه التخصصات · وأتم كافكا فى عام ١٩٠٦ دراسة القانون وحصل على الدكتوراه وتدرب فترة فى المحاكم شاهد فيها بعينيه كيف يتم التقاضى وعرف الصعوبات التى تتعرض لها أصحاب الحاجات فى متاهات القانون وكيف يساقون من مكتب الى مكتب

ومن دائرة الى دائرة ، يلقفهم هذا الموظف ، ثم ذاك المحامي ، ويقعون في براثن هذا المتعجرف أو ذاك الآفاق ، يرجون الوصول الى العدالة وكلما اقتربوا منها في ظنهم بدت عنهم في الواقع المرير · وانتقل بعد فترة التدريب هذه للعمل في شركة للتأمينات العامة ثم الى مؤسسة التأمين على العمال وظل بها حتى استقال لمرضه في عام ١٩٢٢ ـ وأتاحت له هذه السنوات الطويلة من العمل معرفة المزيد من أسرار العمل في الدواوين ، وتصور الانسان العصري سجينا في أغلالها · وانتهى فرانتس كافكا ضحية السل في الثالث من يونيه عام ١٩٢٤ وعمره يقل عن ٤١ سنة قليلا ·

وتتكون الأعمال الأدبية التي خلفها كافكا من مجموعة القصص التي نشرها في حياته ، ومجموعة الروايات التي نشرت بعد وفاته ثم طائفة من الرسائل واليوميات والمذكرات · وقد أخرجنا من قبل في مطبوعات « دار الكاتب العربي » ترجمة كاملة لرواية « القضية » ونقدم اليوم هذه الترجمة لرواية « القصر » ونرجو أن نتمكن من متابعة الترجمة حتى تصبح في متناول يد القراء العرب مجموعة الأعمال الكاملة لكافكا · (١)

أحداث القصر :

في وقت متأخر من مساء يوم من أيام الشتاء يصل رجل اسمه ك (انطق « كا » مفخمة) الى قرية لا نعلم من اسمها الا « القرية » تقع عند أسفل التل الذي ترتفع عليه مباني القصر ، أتى بعد رحلة على الأقدام ليعمل موظفا للمساحة بناء على دعوة يقول انه تلقاها من أصحاب الشأن · ويذهب الى خان الجسر بالقرية ويحاول أن يقضي الليلة في هدوء حتى يأتي الصباح ويجري اتصالاته ويبدأ عمله ، ولكن أهل القرية يواجهونه بالشك والريبة ، ولا يتركه صاحب الخان يبيت الا بعد اجراء اتصال تليفوني مع القصر يسمح بهذا المبيت · ويعتقد ك أن هذا التصريح بالمبيت يعني أن الأمور كلها تسير على أحسن وجه وان الشك والريبة السابقين لايزيدان عن أن يكونا من قبيل الخطأ أو سوء الفهم · و ك لا يعرف من أمر القرية والقصر الا القليل ، وهو يظن أن الجراف أو الأمير في القصر رجل عظيم يحسن تدبير كل شيء ، ويعطي الموظفين والعاملين لديه أجرا حسنا ، وكان ك يمني نفسه بشيء من الكسب يوفره ويعود به الى بلده · فلما أصبح

---

(١) أنظر مقالنا «القضية لكافكا» في العدد ١١ من مجلة تراث الانسانية عام ١٩٦٧ ؛ ففيه عرض مفصل لحياة فرانتس كافكا وأعماله ، وكذلك كتابنا «صفحات خالدة من الأدب الالماني» بيروت ١٩٧٠ وخاصة ص ٤٥٩ ـ ٤٨٠ و ٦٦٨ ·

الصباح خرج الى القرية التى كانت تتوارى تحت الثلوج المتراكمة ، ونظر الى الافق فوجد القصر فوق التل لا يغطيه من الثلج الا القليل وتبين ان القصر يتكون من مجموعة من المبانى التى توشك أن تكون مدينة صغيرة وان له برجا واحدا لا يعلم الناظر اليه هل هو برج كنيسة أو مسكن . ثم أطال النظر فتبين أن القصر الذى كان فى البداية يظنه منيفا رائعا لايزيد عن أن يكون مدينة بائسة من الحجر الهش الذى يتساقط فتاته ويفقد طلاءه . وتذكر ك بلدته فلم تكن تقل تقريبا عن هذا القصر المزعوم . — وتبين ك حواليه فى القرية كنيسة ومدرسة ، والتقى بمدرس حاول أن يتكلم معه عن القصر والجراف ، ولكن المدرس لفت نظرك الى وجود أطفال أبرياء بجانبهما لا يصح الخوض فى هذا الأمر على مسمع منهم ! وسار ك يحاول أن يصل الى القصر ، ولكنه أحس بالتعب يتملكه فجأة ، وتبين أن الطريق الى القصر لا تصل اليه ، وان كانت تصل الى مكان قريب منه ، وانها مع ذلك طويلة طولا لا نهاية له . وانحرف ك عن طريق القصر واتجه الى بيوت القرية ، ودخل أحدها فوجد رجلين يستحمان فى حوض كبير ، وأطفالا يلعبون ونساء يغسلن ورأى امرأة باهتة اللون شاحبة علم انها تتصل بالقصر ، أو على حد تعبيره « بنت من القصر » ، وأخذه النعاس هناك ، فلما أفاق قيل له ان عليه أن ينصرف ، فخرج ، وقابل رجلين متشابهين كل التشابه علم منهما انهما مساعداه ، عينهما الديوان له ، على الرغم من أنه كان ينتظر وصول مساعديه الحقيقيين ومعهما أجهزة المساحة . واضطر الى قبول هذين المساعدين ، وعلم منهما ان الانسان لا ينبغى له أن يطأ القصر الا بتصريح ، وكلفهما بالسعى للحصول على تصريح له فابلغاه بأن القصر يرفض ، وحاول هو أن يتصل تلفونيا بالقصر فلم يفهم شيئا . ثم التقى ك بشاب اسمه برناباس علم منه انه يعمل ساعيا بين القرية والقصر وانه يحمل اليه رسالة من رئيس الادارة العاشرة واسمه كلم ، يبلغه فيها بأن عليه أن يتصل برئيس القرية ليعرف منه تفصيلات مهمته ، ويبلغه فيه بأن برناباس وضع تحت تصرفه ليكون همزة الوصل بينه وبين الديوان . وسار ك معتمدا على ذراع برناباس ليتحدث معه فى أمر الخطاب والرد عليه ، وطال السير حتى وصل الاثنان الى بيت برناباس ورأى ك هناك والدى برناباس وأختيه أماليا وأولجا . وما ان تبين ك أن بيت برناباس لا يتصل بالقصر حتى غضب وأراد الانصراف ، وانتهز فرصة ذهاب أولجا الى الخان لاحضار شىء من البيرة ، فرافقها الى هناك . ولم يكن هذا الخان هو خان الجسر الذى نزل به فى الليلة الماضية والذى أعطاه به حجرة الخادمة لينام بها حتى يصدر قرار بشأنه . كان هذا

الخان الجديد هو خان السادة . وعلم ك من صاحب خان السادة ان المبيت به مقصور على السادة الذين ينزلون من القصر الى القرية ، وان مبيته فيه ضرب من المستحيل . ورأى ك كيف أحاط الخدم بأوليا واسترسلوا معها في الرقص والعبث . وتعرف ك في قاعة الشراب أو خمارة الخان بفريدا خادمة الشراب التي جذبت انتباهه اليها بنظرتها التى عبرت بها عن تفوق شديد . وعلم منها أنها عشيقة كلم ، وانها تستطيع أن تتيح له امكانية النظر اليه . وبالفعل رفعت سدادة بالباب ونظر ك من خلال ثقب فرأى رجلا جالسا : انه كلم ! واتفق ك مع فريدا على أن تمكنه من المبيت هنا . وكانت ليلة ارتبط فيها قلباهما بالحب . لقد امتلك ك فريدا وأصبح يعتقد انه يمتلك كل شيء بامتلاكه اياها ، وكان يعتقد فوق ذلك انه كسب من كلم شيئا عظيما بالغ العظمة . وكان على فريدا أن تترك عملها في خان السادة وأن تتبع ك الى مقره في خان الجسر . وسار الاثنان الى هناك ، وكان المساعدان يتبعانهما خطوة خطوة ولا يرضيا بمفارقتهما لحظة ، حتى وصلا الى داخل الحجرة فلم يخرجا منها . كان ك يغلظ لهما ويرجو التخلص منهما أو على الأقل ابعادهما عن ملاحقته حيثما ذهب ، وكانت فريدا ترفق بهما وتحنو عليهما . ومهما يكن من أمر فقد أصاب ك بعض الراحة وأصبح يستطيع التفكير في الذهاب الى رئيس القرية ليعرف منه تفصيلات عمله . ولكنه كان في الوقت نفسه ، وربما بالدرجة الأولى ، مهتما بسبر اغوار القصر ومعرفة حقيقة كلم ، وقد جرى بين ك وبين صاحبة خان الجسر حديث طويل حول هذه الموضوعات من ناحية ، وحول علاقته بفريدا من ناحية ثانية . والرأى عند صاحبة الخان أن ك أضر بفريدا ضررا بليغا بابعادها عن كلم ، وانه ارتكب حماقة بشعة بذهابه الى بيت برناباس ، وأنه يسعى سعيا سخيفا للقاء كلم ولدخول القصر ، وأنه قبل هذا كله جاهل شديد الجهل ، جاهل على نحو لا سبيل الى اصلاحه .

وذهب ك الى رئيس مجلس القرية فوجده مريضا يلازم الفراش ، وجرى بين الاثنين حديث طويل عن نظام عمل الدواوين وكيف يمكن أن يحدث أن يستدعى الى القرية موظف مساحة لا حاجة للقرية به ، وكان رئيس القرية يخشى أن يسبب شرحه المطول لروتين الحكومة الجرافيـة الملل لمحدثه ، وكان ك على العكس يجد حديث رئيس القرية مسـليا . وكيف يمكن الا تكون القرية بحاجة الى ك موظفا للمساحة وقد تلقى من خطابا من كلم اعتبره تأكيدا لتعيينه في هذا المنصب ؟ ولكن رئيس القرية يرى ان هذا الخطاب خطاب خاص ليست له الصفة الرسمية ، وأن ك يستطيع الرحيل ان شاء . ولكن ك رفض الرحيل ، وأصر على نيل حقه،

وكيف يمكنه العودة الى بلده هكذا وقد خابت رحلته ، وتبددت آماله ، وضاع ماله ، واستحال عليه العثور على عمل مماثل وارتبط هنا بفتاة وعدها بالزواج ؟ وانصرف ك غاضبا • وما ان وصل الى الحان حتى تبين ان صاحبة الحان قد قررت طرده من حانها وانها اضطرت الى ملازمة الفراش من فرط ثورتها عليه • فذهب اليها ليهدئها ودار بينهما حديث طويل ، قصت فى خلاله على ك قصة زواجها وحصولها على الحان ، وارتباط هذا كله بكلم الذى كانت عشيقة له ، وصلاتها الكثيرة بأصحاب الحل والربط ، ووعدت ك بأن تحاول توصيل طلبه محادثة كلم بشرط أن يعدها هو بألا يفعل شيئا من تلقاء نفسه • وعندما عاد ك الى حجرته وجد فريدا مع المعلم الذى جاء ليبلغ ك بأن رئيس القرية يخشى أن يقوم ك بعمل متهور ، ولذلك فهو يعرض عليه أن يقبل وظيفة خادم المدرسة حتى تقرر الدواوين الأميرية شيئا نهائيا فى مسألته • ورفض ك العرض ثائرا عليه ، ولكنه اضطر فى النهاية الى قبوله مؤقتا لأنه يتيح لفريدا وله مكانا يسكنان فيه ، ومصدرا للرزق • ولم يكن مكان السكن الجديد سوى حجرة من حجرتين تتكون منهما المدرسة ، سيسمح لفريدا و ك بالنوم فيها ليلا ، على أن يخلياها مبكرين قبل حضور التلاميذ • وترك ك فريدا والمساعدين وهم يتأهبون للانتقال الى المدرسة ، وذهب هو يحاول الالتقاء بكلم • ذهب الى حان السادة • وهناك بحث عن الثقب الذى كان قد رأى كلم من خلاله بالأمس فلم يعثر له على أثر • والتقى ببيبى خادمة الحمارة التى خلفت فريدا ، ودار بينهما حديث علم منه أن كلم ليس بالحجرة ، فليست هذه حجرته ، وانه يوشك على الرحيل الآن بالزحافة • وأسرع ك الى الخارج ، وذهب الى الفناء المغطى بالثلوج ، ورأى زحافة تقف فيه ورأى الحوذى وتكلم معه ، وعلم منه انه يستطيع التسلل الى الزحافة واستخراج زجاجة كونياك منها لكى يشرب منها جرعة ، ويشرب منها الحوذى كذلك • ودفع البرد ك الى قبول النصيحة وركب الزحافة ونعم بما فيها من دفء ورفاهية ، وشرب شيئا من الكونياك اشتدت به أوصاله • وفوجىء ك بالنور يضاء ورجل يأتى • ولكن هذا الرجل لم يكن كلم • ودار بين ك وبين هذا الرجل حديث علم منه أنه لن يلتقى بكلم بحال من الأحوال ، سواء انتظر أم لم ينتظر • وأصر ك على الانتظار ، فأمر الرجل الحوذى بأن يعيد الزحافة والحصانين الى الاسطبل • وأيقن ك من أن انتظاره لن يؤدى الى نتيجة ، فعاد أدراجه الى الحان وجلس فى قاعة الشراب • وهناك سمع صوت انطلاق الزحافة : لقد رحل كلم بعد ان زالت العوائق من طريقه ونظفوا الفناء من آثار

الأقدام التى كانت قد ارتسمت فيه • وجاء اليه رجل اسمه موموس قدم نفسه على أنه سكرتير كلم فى القرية ، وطلب اليه أن يأتى ليستجوبه، فرفض ك رفضا قاطعا على الرغم من أن صاحبة الخان ـ التى كانت حاضرة ـ نصحته بالقبول فلا يصل شىء الى كلم الا عن طريق سكرتيره • وقابل ك على الباب وهو يتأهب للانصراف ، صاحب الخان الذى لامه على أنه لم يقبل أن يستجوبه موموس •

وخرج ك ليذهب الى المدرسة • وقابل فى الطريق المساعدين ثم برناباس الذى جاء اليه بخطاب من كلم • وفتحه ك فوجد أن كلم يتوجه اليه بالشكر على ما تم من اعمال المساحة ويحثه على أن تصل الأعمال الى نهايتها المرجوة • ودهش ك لمضمون الخطاب فهو أكثر الناس علما بأنه لم يقم بشىء يمت الى المساحة بصلة • وتوقع ك أن يكون فى الأمر خطأ ، ورجا برناباس أن يبلغ السيد المدير ردا على خطابه التماسه بالمثول بين يديه ولو لفترة صغيرة جدا • وسار ك طريقه الى المدرسة بين حانق على برناباس لأنه فى تصوره لا يقوم بالعمل على ما ينبغى ، ومستميل له لأنه على أية حال الصلة الوحيدة بينه وبين القصر • ووجد ك فريدا فى المدرسة وقد أعدت فى أحد الفصلين مكانا لسكناهما ، وكان الفصل يحتوى على أجهزة الرياضية البدنية • وتناول ك وفريدا معا طعام العشاء ولم يكن ينغص على ك راحته شىء أكثر من وجود المساعدين معهما والتصاقهما بهما ومضايقتهما لهما • ولكن ك لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا للتخلص منهما ، وكان ينظر بدهشة الى حنو فريدا عليهما • وحان وقت النوم وكانت الحجرة باردة برودة لا سبيل الى احتمالها ، فحطم ك مخزن المدرسة بالبلطة وأخرج منه خشب الوقود وأوقد به المدفأة ، وتمدد وصاحبته على جوال مملوء بالقش ، وكلف المساعدين التناوب على ملاحظة المدفأة حتى لا تنطفىء وتبرد الحجرة فى هذا الشتاء القارس • وهكذا انقضت الليلة لم يعكر هدوءها الا مرور قطع على فريدا أثناء نومها ، فصحت مفزوعة وقامت تبحث عنها فانتهز احد المساعدين الفرصة وتمدد مكانها على جوال القش ولم يبرحه الا بعد أن نهره ك • ـ فلما أصبح الصباح تواترت مشكلات هذه الحياة المؤقتة التى لا تقوم على مقومات صحيحة • فقد أتى التلاميذ مبكرين على عادتهم ، ولكن المدرسة لم تكن قد تهيأت بعد لبدء الدراسة ، فلم تتم أعمال النظافة ، ولم يحدث شىء من ترتيب ، وهذا فصل من الفصلين قد تحول الى حجرة نوم لا يصحو من فيها ! وكانت المعلمة جيزا غاضبة لأن قطتها أصيبت بجرح ـ ربما

على أثر معركتها بالليل مع فريدا ـ ولم يهدأ غضبها الا بعد أن تكفل ك وفريدا بانعنـــاية بالقطه الجريحة ، وكان المعـلم ثائرا لاضطراب حال المدرسة • وانتهى الأمر بالمعلم الى فصل ك من العمل ، ولكن ك رفض الفصل ، فجمع المعلم التلاميذ جميعا فى الحجرة الأخرى ، ونصح ك بأن يفكر فيما يفعل وألا يسترسل فى الحماقات • وبدأ ك يدبر أموره ، ففصل المساعدين اللذين كان سخطه عليهما قد تجاوز كل حد ، وطاردهما ما استطاع ، وتركهما خارج المدرسة يقفان وسط الثلوج المتراكمة • وتبين ك ان فريدا حزينة وانها بين آسفة على ترك عملها فى الحـــان وساعية الى دفعه الى أن يتركا هذا المكان الصعب ويهـــاجرا الى جنوب فرنســا أو اسبانيا • ولكن ك كان مصمما على البقـــاء • وقرع الباب بعضهم ، فظنه ك أنه برناباس أتى اليه برد من كلم • ولكن القادم لم يكن برناباس بل كان صبيا من صبية المدرسة صعب عليه ما حدث فأتى ليواسى ك • واكتشف ك أن هذا الصبى هو ابن المرأة الواهنة التى كان ك قد رآها فى يومه الأول بالقرية والتى قيل له انهـــا بنت من القصر ، وحاول ك بشتى الطرق الملتوية أن يحمل الصبى على تدبير مقابلة بينه وبين هذه المرأة حتى تمكنه من الاتصال بالقصر ، فاستجاب الصبى ووعده بأن يحاول • واشتد غضب فريدا من ك ، واتهمته بأنه يتجاهلها ، وبأنه يدعى أنه يريد الوصول الى كلم وهو فى الحقيقة يخفى نوايا خبيثة • ودافع ك عن نفسه ما استطاع وخرج يلتمس برناباس ، وذهب الى بيته على الرغم من تحذير فريدا اياه من آل برناباس • وكان ك فى الحقيقة يريد ان يسأل سؤالا واحدا وينصرف ، ولكنة لبث الساعات يتحدث مع أولجا اخت برناباس التى فتحت قلبها وقصت عليه قصـــة الأسرة والمصيبة التى حلت بها •

كانت الأسرة تتمتع بسمعة طيبة فى القرية وكان الناس يحبون أفرادها ويحترمونهم حتى أقامت القرية احتفالا بفرقة المطافىء حضره أحد موظفى القصر واسمه سورتينى وما ان رأى أماليا اخت برناباس الأخرى حتى تعلق بها أشد التعلق ، وارسل اليها فى الليلة نفسها الى البيت خادمه محملا بخطاب بذىء يطلب اليها ان تأتى اليه فى خان السـادة • فغضبت أماليا لكرامتها ومزقت الخطاب والقته فى وجه الخادم • وانتشر الخبر فى القرية • ولم يكن الخبر الذى انتشر هو دفاع اماليا عن كرامتها وشرفها ، بل كان تجاسرها على اهانة خادم سورتينى وسورتينى نفسه لسبب ما لم يكن هناك من يريد ان يعرفه أو يهتم له • واصبحت القرية

تري فى فعلة أماليا بشناعة لا قبل لأحد بها ، فانصرف الناس عن أماليا وذويها ، وبارت تجارة الأب وتدهورت حالة الأسرة • وحاول الأب أن يتصل بالقصر ليصلح الأمر وليشكو من الظلم ولكنه خسر ماله وصحته ولم يصل الى شيء • أوخيرا فكرت أولجا فى أن تحل المشكلة بطريقتها ، فاستسلمت لخدم القصر الذين ينزلون مع السادة الى القرية ويقيمون فى حظيرة حان السادة • وتمكنت أولجا من الوصول ببرناباس الى العمل فى القصر ساعيا ليست له صفة رسمية ، فهو يقف فى الدواوين الساعات وربما الأيام حتى يجد رسالة يحملها الى القرية ، وكان الخطاب الذى حمله الى ك هو أول عمل يكلف به • وبينما أولجـــا و ك يتحـــدثان ويتناقشان ويتبادلان الآراء ، دق بعضهم الباب فنظرت أولجا وتبينت أنه أحد المساعدين• وتناولك الخطاب وخرج من الباب الخلفى عبر الحديقة وتسلق الجدار ليفاجيء الرجل ويضربه • ولكنه لم يضربه بل دخل معه فى حديث فهم منه أن المساعد الآخر قد ذهب الى القصر ليشكو من أن ك لا يفهم المزاح ، ولقد كانت المهمة التى كلفهما بها القصر هى مصاحبة ك وتسليته• وعلم ك من هذا المساعد واسمه يريمياس ، انه التحق بالعمل خادما فى حان السادة ، وان فريدا كذلك قد تركت المدرسة وعادت الى عملها فى الخمارة ، فلم تعد تحتمل خيانة ك وذهابه الى بيت آل برناباس واتصاله بالبنتين الفاجرتين • واتجه ك من فوره الى خان السادة وهو يظن انه سيتمكن من أصلاح مافســـد من أمره مع فريدا • وفى الطريق التقى ببرناباس الذى أبلغه أن السيد ارلانجر ، أحد سكرتيرى كلم الأوائل يريد مقابلته ، وانه ينتظره فى حجرته بالخان •

واتجه ك الى الممر الذى تطل عليه غرف السادة ، وهى غرف كثيرة متشابهة لايستطيع الانسان أن يميز الواحدة عن الأخرى • وأشـــار الخادم الذى رافقه الى هناك الى واحدة منها ، وقال انها حجرة ارلانجر، وحضه على الانتظار حتى يصحو ارلانجر من النوم ويستدعيه لاستجوابه• وانتظر ك• وبينما ك ينتظر هناك رأى فريدا تحمل صينية فاتجه اليها، وتكلم معها محاولا اعادة المياه الى مجاريها ، ولكن فريدا أصرت على اتهامه بخيانتها والى قطع كل صلة قامت بينهما ، وتركته وذهبت الى حجرتها التى كانت تقيم فيها مع يريمياس • وعاد ك الى غرف السادة وحاول التعرف على حجرة ارلانجر فلم يستطع ، ولم يكن هناك من يستطيع ارشاده اليها • ففكر فى أن يفتح أى غرفة وينظر هل ارلانجر بداخلها ، فان لم يجده فقد يجد من يستطيع ارشاده • وساقته هذه الحيلة الى

حجرة سكرتير آخر هو السكرتير بورجل الذى دعاه للدخول ، وأجلسه على حافة السرير وأخذ يتحدث معه عن الديوان وعن أعمال الموظفين وكيف تجرى حتى استبد التعب بـ ك واستغرق فى نوم عميق • وصحا ك على صوت يناديه • كان ارلانجر فى الحجرة المجاورة وعلم بوجود ك ، فطلبه اليه ليتحدث اليه بسرعة قبل أن ينصرف فقد أزف موعد انطلاقه الى القصر • وأسرع ك اليه فأبلغه ارلانجر بأن علاقته بفريدا قد تسببت فى تركها العمل فى الخمارة وقد أدى هذا الى شىء من الارتباك الذى ربما أثر على كلم ، ولهذا كان من الضرورى أن تعود فريدا الى عملها على الفور • وانصرف ارلانجر • ووقف ك فى الممر يرقب توزيع الملفات على غرف الموظفين ، وكانت عملية تتم فى صعوبة بالغة لأن غرف الموظفين ظلت مغلقة أو شبه مغلقة ، وكان الخادم المكلف بالتوزيع لا يستطيع لهذا السبب التفاهم مع الموظفين فى أمر الملفات التى تخصهم • وفجأة دق جرس هناك دقا عاليا مستمرا واتى صاحب الخان وزوجته مهرولين وكان كارثة حلت • وتبين ك أن وجوده فى هذا المكان فى هذا الوقت هو الذى تسبب فى كل هذه التعقيدات ، فلم يكن الموظفون يحتملون رؤية شخص مثله فى مطلع النهار ! واقتيد ك الى الخمارة حيث قضى الليلة نائما على لوح من الخشب • وفى الصباح جرى بينه وبين بيبى حديث طويل عن الفرق بينها وبين فريدا ، وعن المحنة التى تردت هى اليهـــا اذ ارتقت الى خادمة خمارة ثم انحطت بعد ذلك من جديد • الى مرتبة خادمة حجرات ، وكان رأيها أن ك هو السبب فى ذلك • ومهما يكن من أمر فقد جمعت الظروف السيئة بينهما ، فما أشبه ما يحدث له بما يجرى عليها ! واقترحت بيبى على ك أن يأتى خفية الى حجرة الخادمات ويعيش معهن دون أن يراه أحد ، فاذا جاء الربيع وشاع الدفء وعثر ك على مكان أفضل فله ان شاء أن يغادر حجرة الخادمات ، ووضحت له أنه بذلك لا يفقد حريته ، كل ما سيكون عليه هو أن يختبىء عن الأعين وأن يطيع الخادمات فى كل أمر • فلما سأل ك عن الربيع وموعده أجابت بيبى بأن الشتاء فى القرية طويل طولا مسرفا ، ولكن الربيع سيأتى يوما ما ، فلكل فصل موعده الذى يحل فيه • وشرحت بيبى لـ ك مكان البـــاب الموصـــل الى حجرة الخادمات واتفقت معه على الدقات التى ينبغى عليه أن يدقها حتى يعرفنه • واتت صـاحبة الخان فجـاة وقطعت عليهمـا الحـــديث ، وتحدثت هى مع ك ثم اصطحبته الى حجرة ملابســها ليرى الثياب الكثيرة التى تمتلكها لعله يتراجع عن الفكرة التى تظن انه قد كونها عن هندامها • لقد كان على مايبدو يتصور انها لا تحسن اختيار

ثيابها ، فاذا به يتبين أنها مغرمة بالثياب لاتشبع منها · وصحح ك الفكرة قائلا انه لم يقل من شأن هندامها ، بل ذهب الى أنهـا ليست صاحبة حان فقط ، فصاحبة الحان لا شأن لها بهذه الثياب ، ثم اشتد فى التعبير فقال انه يعنى أنها تكذب · وكان ردها عليه أنه كذلك يكذب ، فهو ليس مجرد موظف مساحة · وتنتهى الصفحات التى وصلتنا من الرواية بحكم صاحبة الحان على ك بأنه : اما مجنون أو طفل أو انسان شرير جدا ، خطير جدا ·

حول « القصر » :

تشترك هذه الرواية مع كثير من أعمال كافكا فى أنها نشرت بعد وفاته اعتمادا على مخطوطات لم يكن قد أعدها للنشر ، بل ولم يكن يعتقد أنها تصلح للنشر على حالتها : فقد كانت مفككة لم يحدد تتابعا لفصولها ·· وكانت تتضمن الكثير من المحاولات فى الموضع الواحد ·· وكانت تشتمل على فقرات كثيرة مشطوبة ·· وكانت مكتوبة فى أجزاء كثيرة منها باختزال خاص · ولكن الرواية كتب لها البقاء وظهرت مطبوعة لأول مرة فى عام ١٩٢٦ · وتوالت الطبعات بعد ذلك وقد أضيفت اليها زيادات قال الناشر انها من المخطوط · ولاتزال الشكوك قائمة الى الآن حول الصورة التى ينبغى ان تكون عليها الرواية ، وان كان من المستبعد أن يكون النص قد تناوله تحريف كبير ·

والمعروف ان هذه الرواية نشأت فى الفترة بين عام ١٩٢١ و ١٩٢٢· وكان كافكا قد تعرف فى عام ١٩٢٠ بميلينا يزينسكا ، ابنة أستاذ فى جامعة براغ ، وزوجة طالب ـ هو ارنست بولاك ـ لا يفرغ من دراسته أبدا · وكانت ميلينا شخصية فريدة ، عميقة الفهم ، مرهفة الحس ، ميالة الى المبالغة وتحطيم القيود فقد ثارت على أبيها فحبسها فى مصحة فهربت الى فيينا وسارت فى طريقها مستقلة تفعل ما يحلو لها ·· وعلى الرغم من أنهـا كانت متزوجة من ارنست بولاك فقد كانت تسـعى الى الحب الجنونى ولا تجد فيه عيبا · وعلى الرغم من أن كافكا مال اليها وأحبها ، فقد سعى الى ردها وكان مريضا بالسل وكان يكبرها بسنوات كثيرة (هو ٣٨ وهى ٢٥) وكان يعرف انه شخصية صعبة كثيرة الشكوى · ولكنه فى الوقت نفسه يعرف أنه لن يستطيع الاستغناء عنهـا فقـد أصبحت له · واستمرت العلاقة بينهما وان ظلت فى أغلب الأحوال قاصرة على المراسلات ، ويبدو أنها أثرت على فكره وابداعه تأثيرا كبيرا · وكانت

هى من أقدر الناس على صبر أغواره ، وهى التى قالت مستحضرة حاله : « أن الأمر ليبدو كأننا قادرون على الحياة ؛ لأننا لذنا ذات مرة بالكذب أو العمى أو الحماس أو الاقتناع أو التشاؤم أو غير ذلك • ولكنه هو لم يلذ قط بملجأ واق ؛ فهو لا يستطيع مطلقا ان يكذب ، تماما كما أنه لا يستطيع أن يسكر • انه يفتقر الى الملجأ والمأوى • ولهذا فهو يتعرض لكل ما نحن بمنأى عنه ، مثل العريان بين المستورين ٠٠٠ ان وجوده وجود محتوم فى أصله وجوهره وهو يفتقر الى كل العناصر التى كان يمكنها أن تعينه على تصوير الحياة على نحو ما جميلا كان أو بائسا ٠٠٠ وهو زاهد زهدا عاريا عن البطولة ٠٠ ان البطولة فى نظره كذب وجبن ٠٠٠ انه ليس انسانا يتخذ الزهد وسيلة الى هدف ، بل هو انســـان اضطرته شفافيته الفظيعة ونقاوته وعجزه عن قبول الحلول الوسط الى الزهد ٠٠٠ انه على ما أعرف لا يرفض الحياة ، بل يرفض هذا النوع من الحياة » • ـ ويبدو ان الزهد الذى تتحدث عنه ميلينا زهد من نوع الزهد الصينى الذى نقرأ عنه فى « الطريق والفضيلة »(١) •

وفى أواخر العام سافر كافكا الى مصحة المصدورين فى مالتيارى فى جبال تاترا العليا (بتشيكوسلوفاكيا) وظل بها عدة أشهر يلتمس الشفاء من مرضـــه الخطير • وكانت حالته المعنوية سيئة تضطرب بين اليأس والخوف ، الا من اشراقات عابرة قليلة • وعاد كافكا الى براغ فى سبتمبر ١٩٢١ دون أن يفيد من المصحة شيئا ، ودون أن تعنيه الاجازة على استجماع نفسه • ولكنه لم يكف عن الكتابة • حتى كانت بداية عام ١٩٢٢ فشرع يكتب رواية « القصر » ليعبر بها عن ذات نفسه ـ وكانت فى بداية الأمر رواية ذاتية تبدأ ب « أنـــا » ثم حولها الى صيغة الغائب بعد ذلك ـ وليعبر بها عن مجموعة من مشكلات الانسان عامة ، وانسان عصرنا هذا خاصة • كان كافكا قد وصل فى تأملاته الذاتية الى أنه أفسد حياته وأضنى بدنه ولم يصل الى شىء ، وكان يكيل اللوم لنفسه قبل أن يصب غضبه على المؤثرات الخارجية • فها هو ذا يسجل فى يومياته : « ٠٠٠ لقد لاح لى الأمر كأننى أوتيت مركز دائرة مثلى فى ذلك مثل كل انسان آخر ، وكأننى أوتيت نصف القطر الموصل الى المركز ، مثلى فى ذلك مثل كل انســـان آخر ، حتى أسير عليه ثم أخط المحيط الجميـــل

---

(١) انظر الطريق والفضيلة ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوى سلسلة الألف كتاب

لتكتمل دائرتى حولى • ولكننى كنت دائما لا أبدأ الخطو على نصف قطر الا لأقطعه وأبدأ على غيره ••• حتى لم يعد هناك مكان لمحاولة جديدة ، لم يعد هناك مكان بسبب الشيخوخة وضعف الأعصاب ، وان العجز عن المحاولة من جديد ليساوى النهاية • واصبحت لا أتقدم خطوة على نصف قطر الا لتسوء حالى بدلا من أن تتحسن ••• » ولعله صنع موظف المساحة فى القصر شاكلته ، فجعله انسانا يكثر المحاولة وينوعها ولا يصل فى النهاية الى هدف •

أما ان فرانتس كافكا صنع الرواية من حياته فأمر تشهد عليه العناصر المكونة للمشاهد الرئيسية فى « القصر » • منظر القرية فى القاع والقصر على الربوة العالية ، منظر رآه كافكا فى تسيراو عام ١٩١٧ •• منظر الدواوين وما يجرى فيها منظر عرفه ك فى عمله سواء فى المحاكم أو فى مؤسسة التأمين •• منظر حان السادة اقتبسه كافكا من حانة كان بعض الأدباء يرتادونها فى فيينا وكانوا يسمونها فيما بينهم حانة الفاجرات •• ومنظر الثلوج والكنيسة والحديقة وغيرها كثير • وكذلك الشخصيات التى رسمها فى الرواية نقلها على طريقته عن شخصيات عرفها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : ارنست بولاك •• فيليتسه باور •• ميلينا يزينسكا •• ولكن هذه العناصر الواقعية كانت تتحول على يديه الى عناصر تتجاذبها المتناقضات ويحيط بها التناقض والغموض •

وعكف كافكا على الكتابة عندما سافر الى شبيندلموله فى فبراير سنة ١٩٢٢ فأتم فى أربعة أسابيع جزءا وفيرا منها ثم تناولها بعد ذلك عندما عاد الى براغ ، واستمر يكتب حتى شهر يونية ، وأخذها معه الى بلانا ولوشنيتس ليكملها ، فكتب وكتب ثم توقف فى سبتمبر ولم يعد اليها بعد ذلك •

ويختلف النقاد اختلافا كبيرا فى تفسير رواية « القصر » فى مجموعها ، ويختلفون اختلافا أقل فى تفسير عناصرها •

فهناك من ذهب الى أن هذه الرواية عمل فنى لا يقصد الى شىء آخر سوى الفن ، ولهذا لا محل فيها للأفكار الفلسفية أو المضامين الصوفية أو المفاهيم الاجتماعية • ويرى هذا الفريق من النقاد أن كافكا ابتكر هذا النوع من التأليف الفنى الذى يقوم على تحويل الأحلام الى كلام ، وأن القارىء يصيب اذا فهم الرواية على أنها حلم أو مجموعة من الأحلام ، ويخطىء اذا حملها غير ذلك •

وهناك من ذهب الى ان كافكا أراد أن يبين بأعماله الأدبية حدود التفكير الانساني ، ويبين النقطة التى ينتهى فيها المعقول ويبدأ اللامعقول، فهو يعرض بهذا مشكلة أساسية من المشكلات التى يعانى منها الانسان عندما يتورط لسـبب أو آخر فى الخلط بين المعقول واللامعقول ، أو يضطرب بصره فلا يميز بين الاثنين ٠

وهناك من تصور ان كافكا يريد أن يصور حيرة الانسان الذى تهفو نفسه الى المنة الالهية ، فهو ينظر اليها فى عليائها ، ويتطلع اليها فى أفقها البعيد ، ويجرب كل سبيل يعرض له عله أن يصل اليها ، ولكنه يتورط فى الخطأ المرة بعد المرة ، وينساق تارة الى هذه الناحية وتارة الى تلك ، فلا يقترب من المنة ، بل يغوص فى أعماق الحضيض ، وقد يهلك فيه ، وقد تتاح له فرصة حياة هى أدنى حياة ٠

وهناك من أبرز عنصر النقد الاجتماعى فرأى أن كافكا يصور السادة فى القصر المنيف العـالى والعامة فى القرية المنخفضة البائسة والبـلدة يستبدون بالأمر كله ، ويفعلون بالناس ما يحلوا لهم ، ويعتمدون فى ذلك على أجهزة خبيثة ، وموظفين لئام ، والعامة يعانون من الظلم والتجبر ويفقدون فى المحنة كل شىء ، وقد تفسد ضمائر بعضهم فى هذا الجو القاتم فيصطنع لنفسه شيئا من السلطان يؤذى به مواطنيه الأبرياء ٠

وليس هناك شك فى أن هذه الدراسات النقدية باتجاهاتها المختلفة قد ألقت الضوء على جوانب أدب كافكا فاتضح منه الكثير ، وهو أدب رمزى يحتاج الى كثير من الجهد للوصول الى فهمه لكى يرتاح له الانسان ٠ والسـؤال الأساسى الذى تقوم على اجابته كل محاولة لتفسـير الرواية هو : من هو كلم ؟ ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر هو : من هو ك ؟

كلم رمز اتخذه كافكا ليعبر به عن « مقومات الحياة » ٠ انه ذلك الشىء الذى لا يحتاج الانسان بالضرورة الى علم أو حرفة للوصـول اليه، فربما وصل اليه أناس لم يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير الكثير ، والتعمق فى أسرار الكون وغوامض البشر ٠ وليس هذا الشىء واحدا بالنسبة للناس جميعا ، ولكنه جوهرى لا يكون للانسان كيان بين الناس الا به ٠ فهذه صاحبة الحان تحلم بكلم أو تعشقه ، وبعبارة مجردة من الرمزية ، تحلم بمقومات حياتها ، وتجدها فى زوج مطيع لها منضو لارادتها ، وحان تقوم على تدبيره وتحسن أمره ٠ وصاحبة الحان امرأة بسيطة ، وكافكا يرمز الى بساطتها بالصورة الباهتة التى تحتفظ بها وتحرص عليهـا ،

والتي لا تمثل كلم بل تمثل الساعي الذي كان الصلة بين كلم وبينها .
فهي اذن لم ترتفع الى ذلك المستوى الفكري الذي يبحث في مقومات الحياة و تنهها ، ويكفيها انها احاطه بها على نحو ما ، وأن تتحقق بها .

أما ك فانسان أتى الى مجتمع قائم بحسناته وسيئاته ، بميزاته وعيوبه ، ليحاول في ستة أيام أن يقيم لنفسه حياة فيه . (والستة أيام رمز استقاه كافكا من قصة الخليقة المعروفة في الأديان السماوية كلها : انها المدة التي يتكون فيها الكون . والخادمة بيبي ، وهي بنت بسيطة مازالت تسعى لتحقيق مقومات حياة لها في المجتمع ، تشير الى هذه الفترة . فقد سنحت لها فرصة محببة الى نفسها ، وهي فرصة العمل في قاعة الشراب ، ولكنها لم تؤت الأيام الستة كاملة لتتم فيها بناء كيانها ، ولهذا فشلت وعادت ادراجها) . أتى ك اذن الى المجتمع القائم ليعيش فيه . ولكنه أخذ يحلق بفكره الى آفاق عالية لم يؤت القدرة على التحليق فيها . لقد أتى ليعمل موظفا للمساحة ، ثم تبين أن القرية لاتحتاج اليه ، فما باله يبقى ويصمم على البقاء ؟ وما هي هذه القوة التي يعتمد عليها ليفرض نفسه ؟ لقد ذكروا له الأسباب المعقولة التي تجعل من تعيين موظف مساحة بها ضربا من السخف ، فهي صغيرة، وأهلها لا يتنازعون على حدود ممتلكاتهم . ولكنه كان قد بدأ يعمل فكره للتعمق في مقومات الحياة في هذه القرية ، فهو يسأل عن الجراف (الأمير) ، وعن الديوان ، وهو يفرض نفسه بهيأته الحالمة المتأملة الغريبة على البسطاء الذين لم يألفوا هذا النوع من الناس . انه يندفع الى نوع من السلوك لا طاقة له به . فهو انسان ضعيف البنية سريع التعب ، يغلب عليه النعاس ، ويعجز عن المشي ، ويكاد يعتمد على الغير .. وهو يظهر ما لا يبطن ويضمر في نفسه ما لا قبل لأحد على معرفته .. وهو عنيد بغير ارادة .. وهو مكابر ينقض كل رأي ، ويدعي انه يعرف كل شيء وهو لا يعرف شيئا . ولهذا فهو يتورط في الخطأ بعد الخطأ ويضل طريقه ، فبدلا من أن يندفع الى هدفه مباشرة يسلك السبل المتطرفة فيحاول غواية فريدا ، ويحاول اصطياد كلم في الفناء ، ويحاول الوصول بطرق ملتوية الى بنت القصر ، ويحاول استغلال أسرة برناباس .

ولكن الرواية تحتمل تأويلات أخرى فنحن لا نعرف ك قبل وصوله الى القرية ، وربما كانت تصرفاته المضطربة في القرية نتيجة للظروف السيئة التي تعرض لها . ومهما يكن من أمر ك ومن أمر شخصيته المضطربة ، فان فساد الأحوال في القرية ، وتعسف السادة في حكمها

يظهران فى الصورة التى يرسمها كافكا فى الروايه على نحو يثير النفس ويحض على الثورة · فهذا هو أحد السادة على سبيل المثال يعجب بواحدة من بنات الشعب فى القرية فلا يتورع عن دعوتها الى الفجور ، فلما امتنعت وأهانت ساعيه تعرضت للضر الشديد هى وأسرتها ، وتجاهل الناس المشكلة الحقيقية ونظروا الى المشكلة الفرعية الثانوية وحدها وما كانت الا دفاعا مشروعا عن النفس · الى هذا الحد وصل استبداد أهل القصر بأهل القرية · ولقد حاول الوالد أن يرد الحق الى نصابه وجرب الاتصال بأولى الشأن فى الديوان ذى القوانين واللوائح فضاع فى متاهاته ، وخسر صحته وماله ، واضطرت البنت الشريفة الى الصمت يقينا منها بأنه اذا لم يكن وراء السعى نفع فمن الفطنة ان يركن الانسان الى السكوت ، أما البنت الأخرى فقد هوت الى طريق الفجور تريد ان تصل عن طريقه الى رد شرف الأسرة !

واذا لم يكن كافكا فى أعماله المختلفة يحدد طريق النجـاة الذى يتصوره ، فانما يرجع ذلك الى أنه كان يؤثر أن يلقى الأسئلة لتستغل بها الأذهان وتحسن فهمها وتجد لها الحلول المناسبة ، ويؤثر أن يعبىء نفس القارىء بالثورة على الظلم والجهل والضلال · وكان كافكا بصفة عامة بعيدا عن التيارات السياسية ، ولكنه كان ينظر الى تقدم الاشتراكية فى العالم راضيا · ولقد روى بعض أصدقائه عنه تعليقا على الاشتراكية السوفييتية قال فيه : « ان الناس فى روسيا يحاولون اقامة عالم تسوده العدالة الكاملة » ·

وفى عام ١٩٦٣ انعقد فى قصر ليبليس قرب ميلنك بتشيكوسلوفاكيا مؤتمر هام لدراسة كافكا وأعماله ومكانته ومكانتها فى البلاد الاشتراكية، وكانت أكاديمية العلوم التشيكية هى الداعية اليه · وقدم المشتركون دراسات مختلفة عبروا بها عن آرائهم وعن أثر أدب كافكا فى الأعمال الطليعية فى العالم المعاصر كلـه ، فقد كان طليعة للحرية على طريقته الضاحكة الباكية · وكان من رأى ارنست فيشر ، المفكر النمساوى الاشتراكى المعروف ، ان كافكا كان يميل الى تأويل الأشياء المرهونة بعامل الزمن تأويلا ميتافيزيقيا ، والى تجميد اللحظة التاريخية لتصبح بالنسبة للانسـان حالة دائمة ، ولكن استطراده الجدلى من كل اجابة الى سؤال جديد ، ومن كل قضية الى نقيضها كان يحطم هذا التجميد على الدوام ·

دكتور مصطفى ماهر


Twitter: @ketab_n

الأسماء الواردة بالرواية

كلم	Klamm
فريدا	Frida
بيبى	Pepi
شفارتسر	Scharzer
برناباس	Barnabas
جاردينا	Gardena
هانس	Hans
موموس	Momus
فلابينه	Vallabene
برونسفيك	Brunswick
أماليــا	Amalia
لازيمــان	Laseman
أوتو	Otto
جيزا	Gisa
أولجــا	Olga
جيرشتيكر	Gerstäcker
أرلانجر	Erlanger
أرتور	Artur
يريمياس	Jeremias
سورتينى	Sortini
سوردينى	Sordini
بورجــل	Bürgel
فيسفيست	Westwest
فريتس	Fritz
فريدريش	Friedrich
أوسفالد	Oswarld
بارتماير	Bartmeier
هنريته	Henriette
ايميليه	Emilie



الفصل الأول

كان الوقت ليلا عندما وصـــل ك • كانت القرية غارقة فى ثلوج كثيفة ، ولم يكن الناظر الى التل الذى يقوم عليه القصر يرى شيئا ، فقد كان الضباب والظلام يحيطان به كل الاحاطة ، ولم يكن هناك شعاع من نور ، ولو خافت ، يظهر شيئا من ملامح القصر الكبير • ووقف ك طويلا على الجسر الخشبى الذى يصـل من الطريق الزراعية الى القرية ، ورفع بصره الى أعلى ناظرا الى فراغ ما هو بفراغ •

ثم سار يبحث عن مكان يأوى اليه فى الليـل • لم يكن الناس فى الحان قد انصرفوا للنوم بعد • ولم يكن لدى صاحب الحان حجرة يؤجره اياها ، ولكنه قد دهش واضطرب لمقدم الضيف فى هذا الوقت المتأخر ، عرض على ك أن ينام على جوال قش فى قاعة الحـان • ووافق ك • كان هناك بعض الفلاحين يحتسون البيرة ، ولكن ك لم يشأ أن يذهب ليتسامر معهم ، وأحضر بنفسه جوال القش من حجرة الخزين فوق السطح ، وتمدد عليها قرب المدفأة • كان الجو دافئا ، وكان الفلاحون ساكنين ، فتفحصهم قليلا بعينيه المتعبتين ، ثم نام •

وبعد قليل أيقظه بعضهم • وكان هذا الذى أيقظه شابا يرتدى ملابس أهل المدن ، وجهه يشبه أوجه الممثلين ، وعيناه ضيقتان ، وحاجباه كثان ، وكان يقف مع صاحب الحان بجواره • وكان الفلاحون لا يزالون هناك ، وكان بعضهم قد أداروا كراسيهم حتى يروا ويسمعوا على نحو أفضل • واعتذر الشاب بأدب جم لايقاظه ك ، وقدم نفسه اليه على آنه ابن المشرف على القصر ثم قال :

— ان هذه القرية ملك القصر ، ومن يسـكن هنا أو يقضى ليلته ، فهو كمن يسكن أو يقضى ليلته فى القصر • وما ينبغى لأحد أن يفعل هذا بدون تصريح من الجراف(١) • أما أنت فليس لديك مثل هذا التصريح أو أنت ، على الأقل ، لم تقدم هذا التصريح •

---

(١) لقب من ألقاب الامراء والنبلاء - المترجم

وكان ك قد هم بالقعود ، ومسح على شعره ليسويه ، ونظر الى الرجلين من أسفل الى أعلى وقال :

ــ ماهى هذه القرية التى ضللت السبيل اليها ؟ وهل هنا قصر ؟

فقال الشاب ببطء بينما أخذ الرجال يهزون رءوسهم دهشة لما فعله ك :

ــ طبعا هنا قصر ، قصر السيد الجراف فيستفيست ٠

وسأل ك وكأنما أراد أن يتأكد من أن المعلومات السابقة ليست أضغاث أحلام :

ــ وعلى الانسان أن يحصل على تصريح بقضاء الليلة ؟

وكانت الاجابة :

ــ لا بد من الحصول على التصريح ٠

وانصبت السخرية على ك شديدة عندما مد الشاب ذراعه وسأل صاحب الحان والجالسين هناك :

ــ أم هل ينبغى ألا يحصل الانسان على التصريح ؟

وقال ك متثائبا يبعد الغطاء عن جسمه وكأنه يريد أن يقف :

ــ اذن سيكون على أن أحصل على التصريح ٠

فسأل الشاب :

ــ وممن يا ترى ؟

فقال ك :

ــ من السيد الجراف ٠ فلم يعد هناك مفر من ذلك ٠

فصاح الشاب وتراجع الى الوراء خطوة :

ــ الآن ، عند منتصف الليل ، تريد أن تحصل على التصريح من السيد الجراف ؟

فسأل ك بفتور :

ــ أليس هذا ممكنا ؟ فلماذا أيقظتنى اذن ؟

وهنا ثار الشاب ثورة فقد فيها التحكم فى أعصابه :

ــ يا لها من أخلاق الرعاع ! اننى أطالبك باحترام حكومة الجراف ٠ لقد أيقظتك لابلغك بأنه ينبغى عليك أن تغادر أراضى الجراف على الفور٠

وقال ك بصوت منخفض انخفاضا واضحا :

ــ كفى مهازل !

ورقد وسحب الغطاء على جسمه وأضاف :

ــ انك أيها الشاب تبالغ • وسيكون لى غدا كلام فى كيفية تصرفك حيالى • وصاحب الخان ، والسادة هناك شهود ، اذا كنت سأحتاج الى شهود • ودعنى أقول لك اننى موظف المساحة الذى أستقدمه الجراف • وسيأتى مساعداى غـدا بالعربة ومعهما الأجهزة • ولقد سبقتهما لأننى أحببت ألا تضيع منى فرصة السير فى وسـط الثلوج ، ولكننى ضللت الطريق عدة مرات ، ووصلت لهذا السبب متأخرا • أما أن الوقت متأخر لايناسب الذهاب الى القصر والابلاغ بمقدمى ، فهو ماكنت أعرفه بمفردى، ودون ما حاجة الى تعليم منك • ولهذا اكتفيت راضيا بهذا المخدع ، الذى أبت عليك وقاحتك ــ وهذه أخف عبـارة يمكننى استعمالها ــ الا أن تقضه • وبهذا أختم بياناتى ، تصبحون على خير ، ياحضرات السادة •

واتجه ك الى المدفأة • وسمع وراءه من يتساءل فى تردد :

ــ موظف المساحة ؟

ثم ساد سكون شامل • ولـكن الشـاب عاد فتمالك نفسه ، وقال لصاحب الخان بصوت مكتوم ، يمكن القول بأنه كتمه مراعاة لك، مسموع لا يصعب عليه الالمام به وفهمه :

ــ سأسال تليفونيا •

كيف ذلك ؟ هل هناك تليفون فى الخان فى هذه القرية ؟ لقد كانوا مجهزين تجهيزا ممتازا • كانت التفصيلات تثير عجب ك ولكنه كان قد توقع بطبيعة الحال أن تكون الأمور فى مجموعها على هذا النحو • وتبين ك أن التليفون مركب فوق راسه تقريبا ، ولعله لم يلتفت الى ذلك من قبل لأن النعاس كان يغلبه • واذا كان على الشـاب أن يتصل تليفونيا فانه لن يستطيع ذلك دون أن يقلق نوم ك ، وهكذا أصبح الأمر رهنا ب ك هل يتركه يستعمل التليفون أم يمنعه ، وقرر ك أن يسمح بذلك • ولم يكن هناك ، والحال هذه ، معنى لتصنع النوم ، ولهذا عاد يرقد على ظهره • ورأى الفلاحين ينكمشون فى رهبة ويتناقشون ، فلم يكن وصول موظف المساحة بالشىء الهين • وكان باب المطبخ قد انفتح وملأت زوجة صاحب الخان بجسمها الضخم فتحة الباب ، واقترب منها صاحب الخان على أطراف أصابعه ليبلغها • ثم بدأت المكالمة التليفونية • كان مدير القصر نائما ، ولكن وكيل القصر ، أو على الأحرى أحد وكلائها ، رجل اسمه السـيد فريتس ، موجودا • وحكى الشـاب ، الذى ذكر ان اسمه هو شفارتسر ، كيف وجد ك ، ووصفه بأنه فى الثلاثينات ، وأنه يرتدى الأسمال البالية ، وينام على جوال قش ، ويضع رأسه على حقيبة ضئيلة من النوع الذى يحمل على الظهر ، ويضـع عصا ذات عقد على مقربة من

يمناه حيث رقد • وقال انه أثار الشبهة بطبيعة الحال ، ولما كان صاحب الخان قد أهمل واجبه اهمالا جليا ، فانه وجد ان من واجبه هو ، أى واجب شفارتسر ، أن يحقق فى الأمر تحقيقا دقيقا • وقال ان ك تلقى عملية الايقاظ من النوم ، والاستجواب ، والتهديد الواجب بالطرد من أراضى الجراف ، مغيظا ، ربما بحق ، كما اتضح فى النهاية ، عندما ذكر انه موظف المساحة الذى استقدمه السيد الجراف • وقال ان الواجب الشكلى يفرض بطبيعة الحال على الأقل التحقيق فى هذا الادعاء ، ولهذا فان شفارتسر يرجو السيد فريتس أن يستعلم من الادارة هل تنتظر بالفعل مقدم موظف مساحة ، وأن يبلغه بالاجابة على الفور تلفونيا •

ثم ساد سكون • كان فريتس يستعلم هناك ، وكان من هنا فى انتظار الاجابة • وبقى ك فى الوضع الذى اتخذه ، فلم يتحرك أدنى حركة ، ولم يبد عليه الفضول ، بل كان ينظر أمامه • ولقد أعطته رواية شفارتسر ، بما إختلط فيها من شر وحيطة ، صورة عن التكوين الديبلوماسى الذى أوتى اياه حتى الصغار من أمثال شفارتسر فى القصر • كذلك تبين أن ادارة القصر لا تفتقر الى النشاط ، يدل على ذلك انها تعمل بالليل كذلك وتجيب على ما يبدو بسرعة • فها هو ذا فريتس يدق التليفون • ويبدو أن كلامه كان قصيرا جدا ، لأن شفارتسر ألقى السماعة مغضبا ثائرا وصاح قائلا :

ـ هذا هو ما قلته • ليس هناك أصل على الاطلاق لموضوع موظف مساحة ، انه صعلوك دنىء كذاب ، ويبدو انه أشد خطرا •

وفكر ك لحظة ، وتصور ان الجميع ، شفارتسر ، والفلاحين ، وصاحب الخان ، وزوجة صاحب الخان ، سينقضون عليه • وزحف تحت الغطاء منكمشا ليتفادى الهجمة الأولى على الأقل • وعاد التليفون يدق من جديد ، ويدق ـ على ما لاح لـ ك ـ بقوة تفوق المألوف • وأخرج ك رأسه ببطء • وعلى الرغم من انه كان من المستبعد أن يكون لهذا الرنين علاقة بموضوع ك ، فان الجميع تسمروا فى أماكنهم ، وعاد شفارتسر الى التليفون • وسمع شفارتسر فى التليفون بيانا مفصلا مسهبا قال بعده بصوت منخفض :

ـ انه خطأ اذن ؟ هذا شىء يؤسفنى جدا • تقول أن مدير المكتب اتصل بنفسه ؟ شىء عجيب ، شىء عجيب • وكيف يمكننى أن أشرح ذلك للسيد موظف المساحة ؟

وأرهف ك السمع • اذن لقد عينه القصر موظفا للمساحة • ولقد كان هذا الخبر من ناحية فى غير صالحه ، لأنه يدل على انهم فى القصر

يعرفون عنه كل ما ينبغي معرفته ، وانهم قدروا امكانياته وبدأوا النضال باسمين ، ولكنه كان من ناحية أخرى في صالحه ، لأنه يؤكد ، في رأيه ، أنهم لا يحفلون به ، وانه سينعم من الحرية بأكثر مما كان يرجو في بادىء الأمر • واذا كانوا قد ظنوا إنهم يستطيعون ، بما يعرفونه عنه وعن عمله في المساحة ـ وهي معرفة تعطيهم بكل تأكيد تفوقا فكريا عليه ـ أن ينزلوا الرعب به بصفة مستمرة ، فانهم واهمـــون ، كل ما حدث ان شيئا من الفزع حل به بسهولة •

وأشار ك الى شفارتسر الذي كان يقترب منه خجلا أن يبتعد ، ورفض الامتثال لالحاحه عليه بأن ينتقل الى حجرة صاحب الخان • ولكنه قبل شرابا منوما من صاحب الخان ، وقبل من صــاحبة الخان طستا وصابونا ومنشفة ، ولم تكن به حاجة الى أن يطالب باخلاء المكان ممن فيه ، لأن الرجال اندفعوا خارجين مشيحين بوجوههم حتى لا يكون في مقدوره أن يتعرف عليهم في الغد • وأطفىء المصباح ، ونعم ك أخيرا بالهدوء • ونام نوما عميقا حتى الصباح لم يعكر عليه راحته الا حفيف بعض الفيران مرة أو مرتين على مقربة منه ، ولكنه لم يكن أمرا ذا بال •

وبعد أن تناول ك افطاره ، الذي دفع القصر ثمنه ، كما تكفل بطعامه كله ـ على نحــو ما علم من صاحب الخان ـ أراد أن يذهب من فوره الى القرية • ولكن صاحب الخان ، الذي لم يكن ك نتيجة لتصرفه بالأمس قد تكلم معه الا أقل القليل ، كان يحوم حوله برجاء صامت ، فأشفق عليه ، وسمح له أن يجلس اليه هنيهة •

وقال ك :

ـ أنا لم أتعرف على الجراف بعد ، ولقـــد سمعت أنه يدفع أجرا جيدا للعمل الجيد ، فهل هذا صحيح ؟ فان الانسان ، مثلي ، عندما يرحل بعيدا عن الزوجة والولد ، يرجو أن يعود بشيء الى الدار •

ورد صاحب الخان قائلا :

ـ ما ينبغي يا سيدي أن تخشى شيئا من هذه الناحية ، فلم نسمع من أحد شكاية من سوء الأجر •

فقال ك :

ـ ثم أنا لست من الذين يخجلون ، ويمكنني أن أقول رأيي حتى للجراف وان كان من الأفضل بطبيعة الحال أن ينهي الانسـان أموره مع السادة وديا •

كان صاحب الحان يجلس في مواجهة ك على حافة مسطبة النافذة، فلم يجرؤ على الجلوس جلسة يرتاح فيها أكثر من ذلك ، وكان ينظر إلى ك بعينين واسعتين دكناوين خائفتين . وكان في بداية الأمر يقترب من ك اقترابا شديدا ، واذا به يبدو كانه يرجو لو استطاع أن يجرى . هل كان يخاف أن يسأله ك عن الجراف ؟ هل كان يشك في اخلاص السيد ــ فقد كان يعتبر ك سيدا ؟ وكان على ك أن يسرى عنه وأن يلهيه . فنظر الى الساعة وقال :

ــ سيأتي مساعداى عما قريب ، فهل سيكون في مقدورك ان تهيىء لهما مكانا للنوم هنا ؟

فقال :

ــ بكل تأكيد يا سيدى ، ولكن الن ينزلا معك في القصر ؟

هل هكذا يضيع بهذه السهولة ، وبهذا الرضـــا النزلاء الذين يعرضون له ، وبخاصة ك الذى أكد له ان مكانه القصر لا محالة ؟

وقال ك :

ــ لم يتأكد هذا حتى الآن، ولابد ان أرى أولا العمل الذى ينتظرنى . فاذا كان على ان اعمل هنا أسفل التل ، فسيكون الأصوب أن نقيم هنا . هذا الى أننى أخشى الا تروق لى الحياة في القصر فوق التل . اننى أريد ان أكون دائما حرا .

فقال صاحب الحان بصوت منخفض :

ــ أنت لا تعرف القصر .

فقال ك :

ــ هذا صحيح ، وما ينبغى على الانســان أن يتسرع في الحكم . وأنا لا أعرف حتى الآن عن القصر الا أن من به عرفوا كيف يختاروا العليم بالمساحة . وربما كانت هناك ميزات أخرى .

ونهض ليخلص منه صاحب الحان الذى كان يعض شفتيه من فرط القلق . لم يكن من السهل اكتساب ثقة هذا الرجل .

وبينما ك يهم بالانصراف لفتت انتباهه صورة داكنة في اطار داكن معلقة على الحائط . وكان ك قــد لمحها من مرقده ، ولم يميز من البعد تفصيلاتها ، وظن ان الصورة قد نزعت من الاطار وأن ما تراه العين هو الظهر الأســـود . ولكنها كانت ، كمــا تبين الآن ، صـــورة نصفية لرجل في نحو الخمسين من عمره . وكان الرجل يخفض رأسه على صدره

على نحو شديد لم يكد يكون من الممكن معه أن يرى النـــاظر شيئا من عينيه ، وبدا أن السبب الحاسم لخفض الرأس هو الجبهة المرتفعة الثقيلة والأنف الكبير الملتوى لأسفل • وكانت اللحية الكثة ، التى انضغطت فى الذقن نتيجة لوضع الرأس ، تبدو مبتعدة الى أسفل • وكانت اليد اليسرى تندس ، وقد تباعدت أصابعها ، فى شعره الكثيف ، ولم يعد يستطيع أن يرفع رأسه •

وسأل ك :

ـ من هذا ؟ هل هو الجراف ؟

ووقف أمام الصورة ولم يلتفت حوله لينظر الى صاحب الحان •

وقال صاحب الحان :

ـ لا انه ليس الجراف ، انه مدير القصر •

وقال ك :

ـ ان لكم لمديرا جميلا فى القصر ، هذه حقيقة • ولكن من المؤسف أن يكون له ابن سيء الخلق •

فقال صاحب الحان :

ـ لا •

وجذب ك الى أسفل قليلا وهمس فى أذنه :

ـ لقد كان شفارتسر بالامس يبـــالغ ، فليس أبوه ســوى وكيل القصر ، بل أحد صغار الوكلاء •

وفى هذه اللحظة ظن ك صاحب الحان طفلا • وقال ك ضاحكا :

ـ النذل !

ولكن صاحب الحان لم يشترك معه فى الضحك ، بل قال :

ـ ولكن أباه أيضا ذو سلطان •

فقال ك :

ـ هكذا ! انك تظن أن كل شخص ذو سلطان ! فهل تراك تظننى ذا سلطان ؟

فقال فى خجل ولكن بجد :

ـ أنت ، أنا لا أعتبرك ذا سلطان •

فقال ك :

ـ اذن فأنت تعرف كيف تحسن الملاحظة . فالحقيقة ـ وهذا كلام بيني وبينك ـ إنني لست ذا سلطان . ويبدو أنني أكن لذوي السلطان من الاحترام ما لا يقل عما تكن أنت لهم ، ولكنني لست صريحا مثلك ولا أعترف بذلك دائما .

وربت ك على خد صاحب الخان برفق ليواسيه وليجتذب ميله اليه. فابتسم قليلا . لقد كان فعلا صبيا بوجهه الناعم الذى يوشك ألا يكون له لون . كيف تزوج بهذه المرأة العريضة ، المسنة التى يراها الانسان وراء الطاقة المجاورة تعمل فى المطبخ وقد تباعد مرفقاها عن جسمها ؟ ولكن ك لم يشأ أن يستمر الآن فى سبر أغواره . ولم يشأ أن يضيع الابتسامة التى ارتسمت على شفتيه فى النهاية ، واكتفى بأن أعطاه اشارة أن يفتح له الباب ، وخرج الى الصباح الشتوى الجميل .

ورأى فوق التل المرتفع القصر واضح المعالم في الجو الصافى ، يزيده وضوحا ذلك الثلج الذى تراكم فى كل مكان وكون طبقة رقيقة ، وعكس كل أشكالها . ولقد بدا أن فوق التل من ثلج أقل بكثير مما فى القرية ، حيث وجد ك صعوبة فى السير لاتقل عن الصعوبة التى لقيها بالأمس على الطريق الزراعية . كان الثلج هنا يصل الى نوافذ الأكواخ ويثقل فوق الأسطح المنخفضة ، أما فوق التل فكانت الأشياء كلها تبرز منطلقة وخفيفة ، أو كانت على الأقل تبدو كذلك لمن يتطلع اليها من هنا .

وكان القصر ـ على قدر مابدا من هنا ـ يوافق فى مجموعه ماتوقعه ك ولم يكن بناء جديدا منيفا ، بل كان منشأة ممتدة الأطراف تتكون من مبان قليلة من دورين وأخرى كثيرة متقاربة تقاربا شديدا . ولو لم يكن الانسان يعرف من قبل أنها قصر لظنها مدينة صغيرة . ورأى ك برجا واحدا ، ولم يتبين هل هو برج كنيسة ، أو برج مسكن . وكانت هناك أسراب من الغربان تحوم حوله .

وتقدم ك موجها عينيه شطر القصر لا يهتم بشىء سواه . ولكنه عندما اقترب خيب القصر توقعاته ، فلم يكن سوى مدينة صغيرة بائسة أشد البؤس ، تتكون من بيوت قروية ، تتميز بميزة واحدة هى أنها تكاد تكون كلها من الحجر . ولكن الطلاء كان قد زال منذ زمن بعيد ، وبدأ الحجر هنا يتفتت . وتذكر ك عابرا مدينته الصغيرة ، فلم تكن تقل فى شىء تقريبا عن هذا القصر المزعوم . ولو كان ك قد أتى الى هنا لمشاهدة هذا القصر فحسب ، لكانت رحلته جهدا يرثى له ، ولكان الأصوب أن يزور وطنه القديم الذى طال غيابه عنه . وأخذ ك يقارن بين برج الكنيسة فى بلده وبين البرج الذى فوق التل . كان ذلك البرج ، يتجه بلا تردد الى

أعلى مستقيما متصابيا ، عريض السطح ، منتهيا بالقرميد الأحمر ، بناء دنونيا بكل تأكيد ـ وهل يمكن أن يكون غير ذلك ـ ولكنه كان ذا هدف أسمى من عامة البيوت المنخفضة ، وتعبيرا أصفى من التعبير العادى العكر • كان البرج هنا فوق التل ـ البرج الوحيد الظاهر ـ برج مبنى سكنى كما اتضح لـ ك ، ربما برج القصر الرئيسية ـ بناء مستديرا رتيبا يغطيه فى بعض أجزائه اللبلاب حانيا عليه ، له نوافذ صغيرة ، كانت فى هذا الوقت ترسل أشعة وضاحة ـ وكان فى ذلك شىء من الجنون ـ : وكان البناء ينتهى من أعلى بسطح جدرانه مسننة تندس بشكل مضطرب مرتبك مفتت كأنما رسمتها يد طفل مهملة أو مرتاعة ، وكانت هذه الأطراف المسننة تندس فى السماء الزرقاء • وكان الناظر يحس كأنما أراد أحد السكان المختلين أن يحبس نفسه فى أبعد حجرة بالبيت ، فخرق السطح ، ونهض ليظهر أمام العالم •

ووقف ك ساكنا مرة أخرى ، وكأنما كانت قدرته على الحكم تزداد عندما يقف • ولكن شيئا عكر عليه سكونه • فقد كانت هناك مدرسة ، خلف كنيسة القرية التى وقف بجانبها ـ والحقيقة انها كانت كنيسة صغيرة وسعوها على هيئة الشونة لتتسع للجمهور الغفير • كانت تلك المدرسة بناء طويلا منخفضا يجمع على نحو عجيب بين صفة البناء المؤقت والبناء القديم العتيق ، وكانت تقع وراء حديقة مسورة تحولت الآن الى مساحة من الثلوج • وفى هذا الوقت خرج منها الأولاد مع مدرسهم • وكانوا يحيطون بالمدرس فى مجموعة متزاحمة وكانت عيونهم مركزة عليه وكانوا يثرثرون من كل ناحية فلا يكفون عن الثرثرة • ولم يفهم ك شيئا من كلامهم السريع على الاطلاق • ولمح المدرس ك من بعيد ، ولقد كان ك على أية حال الانسان الوحيد عدا مجموعة التلاميذ فى تلك المنطقة الواسعة المترامية الأطراف ، وكان المدرس شابا فى مقتبل العمر قصيرا ، ضيق الكتفين وان لم يبد لذلك مشيرا للضحك • وبدأ ك ـ لأنه كان غريبا ـ بتحية الرجل القصير الذى كان يتصنع السلطان •

فقال ك :

ـ صباح الخير ، يا سيدى المدرس •

وسكت التلاميذ فجأة ، ولعل هذا السكون المفاجىء أعجب المدرس كتمهيده لكلماته • وسأل المدرس ك على نحو أكثر رقة منا كان يتوقع ولكن بنبرة تنم عن أنه لا يرضى عما فعل ك :

ـ أنت تتطلع الى القصر ؟

فأجاب ك :

ــ نعم . فأنا غريب على المكان لم أنزله الا بالأمس .

فسأل المدرس مسرعا :

ــ فالقصر لا يعجبك ؟

فرد ك بسؤال وقد اندهش قليلا :

ــ كيف هذا ؟

ثم أعاد السؤال بصورة مخففة :

ــ هل القصر يعجبني ؟ ولماذا تفترض أن القصر لا يعجبني ؟

فقال المدرس :

ــ انه لا يعجب الغرباء .

وحول ك موضوع الحديث حتى لا ينطق بشيء لا يلقى ترحيبا ، فسأل :

ــ لا شك أنك تعرف الجراف ؟

فقال المدرس :

ــ لا

وأراد أن ينصرف . ولكن ك لم يتراجع وعاد يسأل :

ــ كيف هذا ؟ ألا تعرف الجراف ؟

فقال المدرس بصوت منخفض :

ــ وكيف لى أن أعرفه ؟

ثم أضاف بصوت مرتفع باللغة الفرنسية :

ــ خذ فى اعتبارك وجود أطفال أبرياء .

فاستقى ك من هذه العبارة حق توجيه هذا السؤال :

ــ هل يمكنني ، يا سيدى المدرس أن أزورك ؟ فسأبقى هنا مدة ليست بالقصيرة ، ولقد بدأت منذ الآن أشعر بشيء من العزلة ، فأنا لا أنتمى الى الفلاحين ، ولا أنتمى بطبيعة الحال كذلك الى القصر .

فقال المدرس :

ــ ليس هناك فرق كبير بين الفلاحين والقصر .

فقال ك :

ـ ربما · ولكن هذا لايغير من وضعي شيئا · هل يمكنني أن أزورك؟

فرد المدرس :

ـ أنا أسكن في حارة البجع عند الجزار ·

كانت هذه العبارة أقرب الى بيان العنوان منهـــا الى الدعوة ، ومع ذلك فقد قال ك :

ـ حسن · سآت ·

وهز المدرس رأســه واستأنف طريقه مع التلاميذ الذين عادوا الى التصايح · واختفوا بعد وقت قليـــل في حارة صغيرة منحدرة انحدارا شديدا ·

كان ك مشتت الفكر ، وكان الحديث قد أغضبه · وأحس لأول مرة منذ وصوله بتعب حقيقي · لم يكن قد أحس حتى الآن بأن الطريق الطويل قد أتعبه ، ولقد سار على قدميه أياما ، هادئا ، خطوة ، خطوة · أما الآن فقد ظهرت عواقب الاجهاد المفرط ، في وقت غير ملائم بطبيعة الحال · وأحس دافعا ، لا سبيل الى التغلب عليه ، الى التعرف على الجديد ، ولكن كل معرفة جديدة كانت تزيد من تعبه · وهو اذا استطاع اليوم في هذه الحالة أن يجبر نفسه على الوصول بمسيرته على الأقل الى مدخل القصر· فقد فعل أكثر مما يطيق ·

وهكذا استـــأنف السير ؛ ولـــكن الطريق كان طويلا · ولم يكن الطـــريق الرئيسي للقرية ، يــؤدي الى تل القصر نفســــه ، بل كان يؤدي الى مكان قريب منه ، ثم كان ينحني ـ وكأنما كان ذلك عن قصد ـ وان لم يكن يبتعد عن القصر ، فلم يكن على أية حال يقترب منه · وظل ك يتوقع أن ينتهي به الطريق الى القصر ، وظل لهذا الســـــبب يستمر في السير ، ويبدو انه ، نتيجة لتعبه ، تردد في ترك الطريق ، وتعجب في الوقت نفسه لطول القرية طولا لا ينتهي الى نهاية · وتوالت عليه البيوت الصغيرة ، والنوافذ التي تكونت طبقة من الثلج على زجاجها ، والجليد ، ووحشة المكان ـ وأخيرا انتزع نفسه من هــذا الطريق الذي استبد به ، وتلقفته حارة صغيرة ضيقة ، كان الجليد بها أكثر كثافة ، وكان اخراج الأقدام بعد غوصها فيه عملا صعبا ، وتصـــــبب ك عرقا ، وفجأة وقف ، ولم يستطع الاستمرار في السير ·

ولم يكن ك وحيدا في مكان مهجور ، كانت هناك عن يمنيه وشماله أكواخ الفلاحين · وتناول شيئا من الجليد وصنع منه كرة القاها على أحد النوافذ · فانفتح على التو باب ـ كان هو أول باب ينفتح طوال سيره في

شارع القرية ــ وظهر فيه فلاح مسن ، ودود ، ضعيف ، يرتدى سترة من الفراء ويميل برأسه الى ناحية • وقال ك :

ــ أتسمح لى بأن آتى اليكم قليلا ؟ اننى شديد التعب •

ولم يسمع ما قاله الرجل المسن ، وتقبل شاكرا اللوح الذى دفع به الرجل اليه وأنقذه به على الفور من الجليد ، وما سار الا بضع خطوات ، حتى كان فى الحجرة •

كانت تلك الحجرة حجرة واسعة خافتة الضـوء ، لا يرى الداخل فيها من الخارج فى أول الأمر شيئا • وترنح ك متعثرا فى اناء الغسيل، فامتدت اليه يد امرأة وسندته • وأتى من أحد الأركان صـــخب شديد يصدره بعض الأولاد ، وتصاعد من ركن آخر دخان يتلوى ويحيل الضوء الخافت الى ظلام دامس • ووقف ك وكأنه فى وســط السحاب • وقال بعضهم :

ــ انه سكران بطبيعة الحال •

ــ وصاح صوت نبرته نبرة أصوات السادة ، والظاهر أنه كان موجها الى الرجل المسن :

ــ من أنت ؟ لماذا أدخلته هنا ؟ أيصح أن يدخل الانســان الى هنا كل شىء يجوس فى الحوارى ؟

فقال ك :

ــ أنا موظف المساحة لدى الجراف

وحاول على هذا النحو أن يدافع عن نفسه حيال أولئك الذين ظل حتى تلك اللحظة لا يراهم •

وقال صوت نسائى :

ــ آه انه موظف المساحة •

ثم أتت فترة سكون مطبق • وسأل ك :

ــ أنت تعرفيننى ؟

وقال الصوت ملتزما بالايجاز نفسه :

ــ مؤكد •

ولم يجدك خيرا فى أن هناك من يعرفه •

وأخيرا تبدد الدخان قليـــلا ، واستطاع ك أن يتبين الأمور شيئا فشيئا ويبدو أن اليوم كان يوم الغسيل المعتاد • فقد كان هناك بجوار

الباب من يغسل . اما الدخان فكان يأتي من الركن الآخر ، وكان فيه اناء خشبي كبير لم ير ك من قبل اناء خشبيا في حجمه ـ كان في حجم سريرين تقريبا ـ يستحم في مائه الذى يتصاعد بخاره رجلان . أما الركن الأيمن فكان أكثر مفاجأة ، وان لم يكن ك يعرف بدقة كنه المفاجأة . كانت هناك فجوة كبيرة ، هي الفجوة الوحيدة في الحائط الخلفي للحجرة ، يدخل منها ، على الأرجح من الفناء ، ضوء جليدى باهت ، يضفى على ثوب امرأة كانت تجلس في أقصى الركن على كرسى وثير مرتفع ، وواهنة وكأنها ترقد، مسحة كأنها مسحة الحرير . وكانت المرأة تحمل رضيعا الى صدرها . وكان هنـــاك بعض الأولاد ، يدل منظرهم على أنهم من أولاد الفلاحين ، يلعبون حولها ، أما هي فقد بدا عليها انهـــا ليست منهم ، لأن المرض والضعف يضفيان على الفلاحين بطبيعة الحال سمة الرقة .

وقال أحد الرجلين :

ـ اجلس .

كان هذا الرجل كث اللحية ، وكان له علاوة على اللحية شارب ، وكان يفتح من تحته فمه دائما لاهثا ولا يقفله ، وكان منظره يثير الضحك، وأشار بيده من فوق حافة الاناء الخشبي الى خزانة هناك ، ورش في هذه الأثناء شيئا من الماء الدافيء على وجه ك كله . وكان هناك من يجلس فوق الخزانة ناعسا حالما ، انه الرجل المسن الذى أدخل ك . وكان ك راضيا شاكرا للسماح له بالجلوس . وهاهوذا يجلس ولا يهتم به أحد . كانت المرأة المشتغلة بالغسيل ، وهي امرأة شقراء الشعر ، في ريعان الصبا ، تغنى بصوت منخفض أثنـــاء العمل ، وكان الرجلان في الحوض يضربان بأرجلهم ويتلويان ، وكان الأولاد يريدون الاقتراب منهما ، ولكنهما كانا يردانهم برش ماء كثيـــف عليهم ، أما المرأة التي في الكرسى الوثير ، فكانت ترقد كالميتة ، ولم تكن حتى تنظر الى الطفـــل الذى تحمله الى صدرها ، بل كانت تنظر نظرة غير محددة الى أعلى .

ولا بد أن ك تطلع طويلا اليها ، الى هذه الصورة الجميلة الحزينة غير المتغيرة ، ولا بد انه استغرق بعد ذلك في النـــوم ، لأنه عندما أفزعه صوت عال من نومه ، كان يركن رأسه على كتف الرجل العجوز بجواره. كان الرجلان قد فرغا من الاســـــتحمام ، وكان الأولاد . قد نزلوا في الحوض وأخذوا يعبثون فيه ، والمرأة الشقراء تراقبهم . ووقف الرجلان يرتديان ملابســهما أمام ك . وتبين أن الرجل ذا اللحية الكثة والصوت الصارخ هو أقل الرجلين شأنا . ذلك أن الرجل الثانى ، لم يكن أطول قامة من ذى اللحية الكثيفة ، وكانت لحيته أخـف بكثير من لحية الآخر ،

كان رجلا هادئا ، ذا أناة فى التفكير ، وكان عريض البدن ، عريض الوجه ، وكان يطأطىء رأسه . وقال :

ـ يا سيادة موظف المساحة ، لا يمكن أن تبقى هنا . وأرجو ألا تؤاخذنى على قلة الأدب هذه .

وقال ك :

ـ وأنا لا أريد أن أبقى ، كل ما كنت أريده هو أن ارتاح . ولقد ارتحت ، وسأنصرف الآن .

وقال الرجل :

ـ يبدو انك تدهش لقلة اكرام الضيف ، ولكن اكرام الضيف ليس من عادتنا ، فنحن لسنا بحاجة الى ضيوف .

وفرح ك بهذه الكلمات الصريحة ، وكان النوم قد أنعشه قليلا ، وجعله أكثر قدرة على السمع من ذى قبل ، واذا هو الآن يتحرك بمزيد من الانطلاق ، ويضع عصاه مرة هنا ، ومرة هناك ، ويقترب من المرأة فى الكرسى الوثير ، وكان ك أطول من بالحجرة قامة .

وقال ك :

ـ مؤكد . فما حاجتكم الى الضيف ؟! ولكن الناس يحتاجون رغم ذلك من حين لآخر الى ضيف ، الى ، موظف المساحة ، على سبيل المثال .

فقال الرجل بتؤدة :

ـ لا أعرف . واذا كانوا قد استدعوك ، فلا بد ، على ما يبدو ، أنهم يحتاجون اليك . وهذه حالة استثنائية . أما نحن ، صغار الناس ، فنتمسك بالقاعدة ، وليس لك أن تؤاخذنا على ذلك .

فقال ك :

ـ لا . لا . بل أنا مدين لكم بالشكر ، لكم وللجميع هنا .

واستدار ك فجأة ، على غير انتظار من أى انسان ، وقفز قفزة فوقف أمام المرأة . ونظرت المرأة الى ك بعينين واهنتين زرقاوين ، وكان هناك منديل حريرى شفاف يتدلى من فوق رأسها الى منتصف جبينها ، وكان الرضيع ينام على صدرها . وسأل ك :

ـ من أنت ؟

وقالت وكأنها تقذف الاجابة قذفا ، ولم يكن واضحا هل تصب التحقير على ك أو على اجابتها هى :

ـ بنت من القصر ·

حدث هذا كله في لحظة واحدة ، واذا بالرجلين يقفـان ، هذا الى يمين ك وذاك الى شماله ، صامتين ، كأنما لم تكن هنـاك وسيلة أخرى للتفاهم ، وجراه بكل قوة الى الباب · وفرح العجوز بشيء مافى هذا وصفق بيديه · وكذلك الغسالة ضحكت وهي عند الأولاد الذين أحدثوا فجأة صخبا شديدا كأنما أصابهم جنون ·

أما ك فكان قد وصل الى الحارة ، ووقف الرجلان بالباب يرقبانه · وكان الجليد قد عاد الى السقوط ، ومع ذلك فقد بدا كأن الضوء ازداد شيئا من الوضوح · وصاح الرجل ذو اللحية الكثيفة وهو لايطيق صبرا:

ـ الى أين تريد الذهاب ؟ هذا هو اتجاه القصر ، وذاك اتجاه القرية·

ولم يجب ك عليه ، بل اتجه الى الآخر الذى لاح له على الرغم من تفوقه أسهل فى المعاملة قائلا :

ـ من أنت ؟ الى من أزجى شكرى على الوقت الذى أمضيته هنا ؟

وكانت الاجابة :

ـ انا المعلم الدباغ لازيمان · وليس عليك أن تشكر أحدا ·

وقال ك :

ـ حسن · ولعلنا نلتقى مرة أخرى ·

فقال الرجل :

ـ لا أظن ·

وفى هذه اللحظة صاح الرجل ذو اللحية الكثيفة رافعا يده :

ـ صباح الخير يا أرتور · صباح الخير يا يريمياس ·

والتفت ك خلفه · معنى هذا أن هناك فى هذه القرية أناس يظهرون فى الحوارى · كان هناك شابان يأتيان من ناحية القصر ، كانا متوسطى القامة ، رشيقين ، يرتديان ملابس ضيقة ، وكان وجهاهما كذلك متشابهين تشابها شديدا · كانت بشرتهما بنية داكنة ، وكانت لهما لحية مدببة تبرز بسوادها الشديد فـوق البشرة · وكانا يسيران على الرغم من أحوال الطريق بسرعة تثـير الدهشة ، ويحركان ساقيهما الرشيقتين بايقـاع منتظم · وصاح الرجل ذو اللحية الكثة :

ـ ماذا وراءكما ؟

ولم يكن من الممكن التفاهم معهما الا بالصياح لانهما كانا يسرعان ولا يتوقفان · وردا صائحين وهما يضحكان :

ـ عمل ٠

ـ أين ؟

ـ في الخان ٠

وصاح ك فجأة بصوت أعلى من أصوات الآخرين جميعا ، فقد كانت حاجته كبيرة الى أن يأخذه الرجلان معهما :

ـ وأنا كذلك ذاهب الى هناك ٠

ولم يكن ك ينتظر الكثير من وراء التعرف عليهما ، ولكنهما لاحا له رفيقين طيبين يبثان فيه النشاط في الطريق ٠ ولقد سمعا كلمات ك ، وأومأ برأسهما ولكنهما مرا دون توقف ٠

كان ك لا يزال واقفا في الجليد ، لا يجد رغبة في رفع قدمه من الجليد ، ليدسها بعد قليل في أعماقه ٠ أما المعلم الدباغ ورفيقه ، وقد فرحا بالتخلص من ك ، فقد دفعا بنفسيهما ، وهما لا يزالان ينظران خلفهيما الى ك ، من خلال الباب المردود الى داخل البيت شيئا فشيئا ، واذا ك يقف وحيدا يحيط به الجليد من كل جانب ٠ وخطر بباله :

لولا وقوفي هنا مصادفة ، وليس عن عمد ، لكان ذلك داعيا لشيء من اليأس ٠

وهنا انفتح في الكوخ ناحية اليسار شباك صغير جدا ، كان لونه وهو مقفول أزرق شديد الزرقة ربما نتيجة لشدة بياض الجليد ، وكان ضئيلا حتى وقت فتحه ، لم يظهر وجه المطلة كله ، بل عينيها الدكناوين الشائختين ٠ وسمع ك صوتا نسائيا مرتعشا يقول :

ـ انه يقف هنا ٠

وقال صوت رجالي :

ـ انه موظف المساحة ٠

ثم أقبل الرجل الى النافذة وسأل على نحو ليس بالغليظ ، وان نم عن أن الرجل مهتم بأن يكون كل شيء في الشارع أمام بيته على ما ينبغي له أن يكون :

ـ من تنتظر ؟

فقال ك :

ـ انني أنتظر زحافة أستقلها ٠

فقال الرجل :

ـ ليس هذا طريق مواصلات ·

فقال ك مستنكرا :

ـ ولكن هذا هو الطريق المؤدى الى القصر ·

فقال الرجل بشيء من صلابة الرأى :

ـ ومع ذلك ، ورغم ذلك ، فليس هذا طريق مواصلات ·

ثم صمت الاثنان · ويبدو أن الرجل كان يفكر فى شيء ، لأنه ظل فاتحا الشباك الذى كان الدخان يتصاعد منه · وقال ك ليساعده :

ـ انه طريق ردىء ·

فلم يزد عن أن قال :

ـ نعم ، طبعا ·

ومع ذلك فقد قال بعد هنيهة :

ـ ان شئت أركبتك زحافتى ·

فقال ك فرحا :

ـ أرجوك أن تفعل · ماذا تطلب ثمنا لذلك ·

فقال الرجل :

ـ لا شيء ·

وتعجب ك أشد التعجب · فاردف الرجل موضحا :

ـ انك موظف المســـاحة ، وتنتمى الى القصر · الى أين تريد أن أنقلك بالزحافة ؟

فقال ك على عجل :

ـ الى القصر ·

فقال الرجل على الفور :

ـ اذن فلن أنقلك ·

فقال ك معيدا كلمات الرجل ذاتها :

ـ اننى انتمى الى القصر ·

فقال الرجل فى صدود

ـ ربما ·

فقال ك :

ـ اذن فخذني الى الحان ٠

فقال الرجل :

ـ حسن ٠ سآت حالا بزحافتى ٠

ولم يكن كل هذا يحمل طابع الود ، بل كان يبدو كنوع من السعى الأنانى الخائف الذى يوشك أن يكون متزمتا ، لابعاد ك عن المكان الذى وقف فيه أمام البيت ٠

وانفتح باب الفناء ، وخرجت منه زحافة صـــغيرة لنقل الأحمـال الصغيرة ، زحافة منخفضة ، بلا مقاعد ، يجرها حصان ضعيف ، وجـاء خلفها رجل ، مقوس الظهر ، خائر القوة ، يعرج ، وكان وجهه نحيلا ، محتقنا ، مصابا بالبرد ، وكان يبدو صغيرا جدا من أثر الشال الصوفى الذى لفه الرجل لفا محكما حول رأسه ٠ كان الرجل ظاهر المرض ولقد خرج خاصة لينقل ك ٠ وعبر ك عن هذا المعنى ، ولكن الرجل رده عن ذلك باشارة من يده ٠ ولم يعرف ك منه الا أنه الحوزى جير شتيكر ، وأنه لم يختر هذه الزحافة المتعبة ، الا لأنها كانت جاهزة ، ولو أراد أن يخرج أخرى ، لاحتاج الى وقت طويل ٠ وقال وهو يشير بالسوط الى مؤخر الزحافة :

ـ أجلس هنا ٠

فقال ك :

ـ بل ساجلس بجوارك ٠

فقال جيرشتيكر :

ـ سأسير أنا على قدماى ٠

فسأله ك :

ـ لماذا ؟

فعاد جيرشتيكر يقول :

ـ سأسير أنا على قدماى ٠

واصيب الرجل بنزلة سعال رجته رجا شديدا اضطر معه أن يثبت سـاقيه فى الجليد وان يعتمد بيـديه على حافة الزحافة ٠ فلم يقـل ك شيئا غير الذى قاله وجلس على مؤخر الزحافة ، وهدأ ما أصاب الرجل من سعال شيئا فشيئا ، وسارت الزحافة ٠

وها هو ذا القصر فوق التل ، وقد احتواه فى هذا الوقت المبكر ظلام عجيب ، يبتعد مرة أخرى ، وكان ك يرجو أن يصل اليه اليوم ،

فاذا هو الآن يودعه ، ويبدو أن الواجب كان يحتم ألا يمر هذا الوداع المؤقت دون أية تضحية ، فدوى هناك رنين ناقوس ، يهتز بهجبة ، ناقوس جعل القلب على الأقل للحظة ينتفض ، وكأنما انتفض القلب لأنه يهدده ـ ذلك أن هذا الرنين البهيج كان فى الوقت نفسه رنينا مؤلما ـ يهدده بتحقيق ما كان يتوق اليه فى غير اطمئنان • ثم سكت هذا الناقوس الكبير بعد قليل ، وحل محله ناقوس صغير ضعيف رتيب ، لعله كان فوق التل ، ولعله كان فى القرية • وكان هذا الرنين يتفق على نحو أفضل بطبيعة الحال مع انزلاق الزحافة البطيء والحوزى الذى كان يثير الأسى ويمثل فى الوقت نفسه الصلابة التى لا تلين •

وصاح ك فجأة :

ـ يا أنت !

كانا قد اقتربا من الكنيسة ، ولم يعد الطريق الى الحان بعيدا ، فسمح ك لنفسه بشيء من المخاطرة • وأردف ك يقول :

ـ انني أدهش لأنك تجرؤ على السير بى هنا وهناك ، على مسئوليتك فهل لك أن تفعل هذا ؟

ولم يعبأ جيرشتيكر واستمر يخطو خطاه الى جانب حصانه المسكين • وصاح ك :

ـ هيه •

وتناول شيئا من الجليد من الزحافة وكوره وأصاب به جيرشتيكر فى أذنه • وهنا وقف هذا والتفت خلفه ، فلما رآه ك عن قرب شديد ـ وكانت الزحافة قد تقدمت بعض الشيء ـ عندما رأى هذا الجسم المقوس ، الذى حل به الضر على نحو ما ، وهذا الوجه الأحمر الواهن الناحل بخديه اللذين يختلفان أحدهما عن الآخر على نحو ما ، فهذا منبسط وذاك أجوف ، وفمه المفتوح الذى يعبر عن التنبه والاصغاء ، والذى لم يعد به بضعة أسنان متفرقة ، اضطر الى أن يكرر العبارة التى قالها من قبل عن نية سيئة ، ويعيدها عن أسى ، متسائلا هل يحتمل أن يعاقب جير شتيكر لنقله ك بالزحافة • فسأله :

ـ ماذا تريد ؟

سأل الرجل هذا السؤال على نحو ينم عن عدم التفهم ، ولم ينتظر تفسيرا ، بل صاح فى الحصان أن يسير ، واستأنفا طريقهما •



الفصل الثانى

عندما أوشكا على بلوغ الخان ـ وانما تبين ك ذلك من انحناء الطريق ـ كانت الدنيا ، لدهشته ، قد أظلمت كل الظلمة . فهل غاب مدة طويلة الى هذا الحد ؟ انه لم يغب على قدر حسابه سوى ساعة أو ساعتين ، ولقد خرج من الخان فى الصباح ، ولم يشعر بحاجة الى الطعام ، ولقد كان ضوء النهار يغمر الدنيا متسقا منذ وقت قصير ، واذا به يستحيل الى ظلمة حالكة . وقال ك فى نفسه :

ـ أيام قصيرة ! أيام قصيرة !

وانزلق من فوق الزحافة واتجه الى الخان .

وكان صاحب الخان يقف على أعلى السلم الأمامى الصغير ، واستحسن ك هذا أشد الاستحسان ـ وكان صاحب الخان يحمل مصباحا يرفعه الى أعلى ويضيء له السبيل . وتذكر ك الحوذى على نحو عابر ، فوقف ، واذا صوت سعال يتناهى اليه من الظلام : انه الحوذى . هه ، انه سيراه بطبيعة الحال فيما بعد . فلما وصل الى صاحب الخان الذى حياه بتواضع ، تبين أن هناك رجلين يقف كل منهما على أحد جانبى الباب . فتناول المصباح من يد صاحب الخان وأضاء الاثنين ، فاذا هما الرجلان اللذان قابلهما من قبل وناداهما البعض : أرتو ويريمياس . انهما يحييان الآن تحية عسكرية . وتذكرك أيام الجندية ، هذه الأيام السعيدة ، وضحك ، ثم سأل وهو ينظر من هذا الى ذاك :

ـ من أنتما ؟

فأجابا :

ـ مساعداك .

وأكد صاحب الخان كلامهما قائلا :

ـ انهما مساعداك .

وسأل ك :

ـ كيف هذا ؟ أنتما مساعداى القديمان اللذان استدعيتهما ليلحقا بى ، واللذين أنتظر وصولهما ؟

فأكدا ذلك ۰ وقال ك بعد هنيهة :

ـ حسن ۰ حسن أنكما وصلتما ۰

ثم قال ك بعد هنيهة أخرى :

ـ لقد تأخرتما تأخرا شديدا ، أنتما مهملان ۰

وقال أحدهما :

ـ لقد كان الطريق طويلا ۰

وقال ك مكررا الكلام نفسه :

ـ كان الطريق طويلا ۰۰ ولكننى قابلتكما وانتما قادمان من القصر۰

وقالا دون اضافة تفسير أو تبرير :

ـ نعم ۰

وسأل ك :

ـ وأين الأجهزة ؟

فقالا :

ـ ليس معنا أجهزة ۰

فقال ك :

ـ أين الأجهزة التى ائتمنتكما عليها ؟

فعادا يقولان :

ـ ليس معنا أجهزة ۰

فقال ك :

ـ آه ، هل انتما كسائر البشر ۰ أتفهمان شيئا فى المساحة ؟

فقالا :

ـ لا :

فقال ك :

ـ اذا كنتما مساعدى القديمين فلابد أنكما تفهمان فى المساحة ۰

ودفعهما أمامه الى داخل البيت ۰

ثم جلس الثلاثة أقرب الى الصامتين فى قاعة الخان يحتسون البيرة الى منضدة صغيرة ۰ كان ك فى الوسط ، وكان المساعدان عن يمينه وشماله ۰ وكانت هناك منضدة أخرى يجلس اليها بعض الفلاحين مثل الليلة الماضية ۰ وقال ك وهو يقارن وجهيهما كما فعل من قبل مرارا :

ـ ان امرى معكما لصعب • كيف يمكنني ان أفرق بينكما ؟ انكما لا تختلفان الا فى الاسم ، وانكما فيما عدا هذا متشابهان ••

وتعثر برغمه ، ثم عاد يقول :

ـ متشابهان كما تتشابه الحيات •

وابتسما وقالا مدافعين عن أنفسهما :

ـ ولكن الناس يفرقون بيننا عادة على نحو طيب •

وقال ك :

ـ أعتقد هذا • ولقد كنت شاهدا على ذلك ، ولكننى أرى بعينى وانا لا أستطيع بهما ان أفرق بينكما • ولهذا فانا ساعاملكما كانكما رجل واحد وسادعوكما ارتور ، فهذا اسم أحدكما ، أليس كذلك ؟

وسأل أحدهما :

ـ ربما اسمك أنت ؟

فقال هذا :

لا • أنا اسمى بريمياس •

فقال ك :

ـ هذا ما لا يهمنى • سادعوكما معا أرتور • فاذا أرسلت أرتور الى مكان ما ، فعليكما بالذهاب معا ، واذا كلفت أرتور بعمل ، فعليكما الاشتراك فيه معا ، وفى هذا ضرر كبير على ، لأننى لن أستطع أن أستخدمكما فى عملين مختلفين ، ولكن فيه خير لى ، لأنكما ستحملان معا مسئولية ما أكلفكما به من عمل • ولا يهمنى كيف تقسمان العمل بينكما ، وما ينبغى على أى منكما أن يلقى التبعة على الآخر ، فأنتما فى نظرى رجل واحد •

وفكرا فى هذا ثم قالا :

ـ سيكون هذا ثقيلا علينا •

فقال ك :

ـ لا يمكن الا أن يكون كذلك • سيكون هذا بطبيعة الحال ثقيلا عليكما • ولكن الأمر سيبقى كما قلت •

وكان ك قد لاحظ هنيهة أن أحد الفلاحين يحوم حول المنضدة ، واخيرا أجمع هذا أمره على شيء واتجه الى أحد المساعدين وهم أن يهمس اليه بشيء • فقال ك :

ـ معـذرة ٠

ثم ضرب على المنضدة بيده وهب واقفا وأردف يقول :

ـ هذان مساعداى ونحن الآن مشغولون بمناقشة ٠ وليس لأحـد الحق فى ازعاجنا ٠

فقال الفلاح خائفا : متأسف ٠ آه ٠ متأسف ٠

وعاد القهقرى الى جماعته ٠

وقال ك وقد عاد الى الجلوس :

ـ هناك شيء ينبغى عليكما أن تراعياه قبل كل ما عداه ، وهو أنه ليس لكما أن تتكلما مع أحد دون تصريح منى ٠ فأنا هنا غريب ، واذا كنتما مساعدى القديمين فأنتما كذلك غريبان ٠ ولهذا ينبغى علينا نحن الغرباء الثلاثة أن نتضامن ٠ هيا نتعاهد على ذلك !

ومدا يديهما فى تهافت ولهفة الى ك ٠ وقال ك :

ـ ليرجع كل منكما يديه ! ولكن امرى قائم ٠ وسأذهب الآن للنوم ، وانصحكما كذلك بالذهاب للنوم ٠ لقد ضيعنا اليوم بلا عمل ، وينبغى علينا أن نبدأ غدا مبكرين ٠ وعليكما أن تجهزا زحافة للانتقال الى القصر وأن تكونا مستعدين بها فى الساعة السادسة صباحا أمام البيت ٠

وقال أحدهما :

ـ حسن ٠

ولكن الآخر قاطعه :

ـ انك تقول حسنا ، مع أنك تعلم أن هذا مستحيل ٠

فقال ك :

ـ سكوت ! أنكما تريدان البدء فى الشجار ٠

ولكن أولهما عاد يقول :

ـ انه على حق ! من المستحيل أن يدخل غريب القصر بلا تصريح ٠

ـ وأين يطلب الانسان التصريح ؟

ـ أنا لا أعرف ، ولكنى أعتقد أن الانسان يطلبه من مدير القصر ٠

ـ اذن فلنطلب التصريح تليفونيا ، اتصلا فورا بمدير القصر ٠

فجريا الى التليفون وأجريا الاتصـــال ـ وكم كانا يتزاحمان على التليفون ! كانا يبدوان مطيعين طاعة مضحكة ـ وسألا هل يصح أن يأتى ك معهما فى الغد الى القصر ٠ وجاءت كلمة « لا » وسمعها ك وهو عنـد المائدة ٠ ولكن الاجابة كانت مفصلة : « لا غدا ولا فى أى يوم آخر » ٠

فقال ك :

ـ سأتصل أنا تليفونيا ٠

وهب واقفا ٠ وبينما كان ك ومساعداه ـ باستثناء حادثة الفلاح ـ لا يلفتون نظر الموجودين الا قليلا ، أثارت ملاحظته الأخيرة اهتمام الجميع٠ واذا هم يهبون واقفين مع ك ، وعلى الرغم من أن صاحب الخان حاول أن يردهم ، فقد تجمعوا عند التليفون على هيئة نصف دائرة ٠ وكان الرأى الغالب بينهم أن ك لن يتلقى اجابة ٠ واضطر ك الى أن يرجوهم التزام الهدوء مبينا انه لم يطلب سماع آرائهم ٠

وجاء من سماعة التليفون أزيز لم يعهده ك من قبل عند استعمال التليفون ، وكان هذا الأزيز ، يلوح كأنما كانت تحدثه أصوات أطفال لا حصر لهم ، ولم يكن هذا الأزيز أزيزا بمعنى الكلمة بل كان غناء تؤديه أصوات بعيدة ، متناهية البعد ، ينطلق من بينها ، على نحو مستحيل ؛ وعلى خط مستقيم صوت واحد مرتفع وقوى يصفع الأذن ، وكأنه يريد أن يندس الى أعمق من السمع المسكين ٠ وأنصت ك دون أن يتصل ، وأسند ذراعه على منضدة التليفون ، واستغرق فى الانصات ٠

ولا يعلم ك كم من الوقت مر عليه وهو يرهف السمع ولكنه ظل هكذا حتى شده صاحب الخان من سترته قائلا ان رسولا أتى اليه ٠ وصاح ك غير متمالك نفسه ٠

ـ ابعـد !

ولعله صاح بهـذا فى التليفون ، لأن شخصـا ما كان على الطرف الآخر ٠ وجرى هذا الحوار ٠

ـ هنا أوزفالد ٠ من هناك ؟

كان الصوت قاسيا ، متعجرفا ، فيه عيب صغير من عيوب النطق ، على نحو ما بدا ل ك ، حاول أن يعالجه بمزيد من القسوة ٠ وتردد ك فى ذكر اسمه ، فلم يكن يستطيع حيال التليفون أن يدافع عن نفسه ، وربما صرخ فيه الآخر صرخة مهلكة وربما ألقى السماعة ، فسد ك على نفسـه سبيلا لعله لا يفتقر الى الأهمية ٠ وأدى تردد ك الى غضب الرجل فعـاد يقول :

ـ من هناك ؟

ثم أضاف :

ـ كم أتمنى ألا تكثر الاتصالات التليفونية من هناك ، فقد كانت هناك مكالمة منذ لحظة ٠

ولم يعلق ك على هذه الملاحظة بشيء ، وقدم نفسه بتصميم مفاجيء :

ـ هنا مساعد السيد موظف المساحة ·

ـ أى مساعد ؟ أى سيد ؟ أى موظف مساحة ؟

وخطر ببال ك مكالمة الأمس ، فقال بايجاز :

ـ اسأل فريتس ·

ودهش ك لأن عبارته أدت الى نتيجة · ودهش أكثر للوحدة التى تنتظم العمل هناك ، فقد جاءت الاجابة :

ـ لقد فهمت ! انه موضوع موظف المساحة الذى لا ينتهى الى نهاية أبدا ! نعم ! نعم ! ثم ماذا ؟ وأى مساعد أنت ؟

فقال ك :

ـ يوزف ·

وكانت همهمة الفلاحين خلف ظهره تسبب له شيئا من الاضطراب، ويظهر أنهم لم يكونوا موافقين على تقديمه نفسه تقديما غير صحيح · ولكن ك لم يكن لديه وقت للاهتمام بهم ، لأن المكالمة شغلته تماما · وعاد الصوت يسأل من جديد :

ـ يوزف ؟ ان المساعدين هما ··

وصمت قليلا ، ويبدو انه كان يسأل آخر عن اسمى المساعدين ·

ـ أرتور ويريمياس ·

فقال ك :

ـ هذان هما المساعدان الجديدان ·

ـ بل هما القديمان ·

ـ انهما القديمان · أما أنا ، فالمساعد القديم ، وقد لحقت اليوم بالسيد موظف المساحة ·

وهنا صرخ الصوت :

ـ لا ·

فسأل ك هادئا كما كان :

ـ فمن أنا اذن ؟

ومرت فترة سكون قال بعدها الصوت بعيب النطق نفسه ، وان أصبح أكثر عمقا ، وأجدر بالاحترام :

ـ أنت المساعد القديم !

وأنصت ك الى نبرة الصوت وأوشك ألا يعى السؤال الذى تناهى الى سمعه :

ـ ماذا تريد ؟

ولكم ود لو وضع السماعة ٠ فلم يعد يرجو شيئا من وراء هذه المكالمة ٠ ولكنه سأل بسرعة سؤال المضطر :

ـ متى يمكن لسيدى أن يأتى الى القصر ؟

وجاءت الاجابة :

ـ لن يكون له هذا أبدا ٠

وقال ك :

ـ حسن ٠

وأعاد السماعة الى مكانها ٠

وكان الفلاحون من خلفه قد اقتربوا منه اقترابا شديدا ٠ وكان المساعدان مشغولين ، وهما ينظران إلى ك نظرات جانبية ، بحجز الفلاحين عنه ٠ ويبدو انها كانت مجرد ملهاة ، فقد تراجع الفلاحون شيئا فشيئا ، راضين بنتيجة المكالمة ٠ واذا رجل يشق مجموعة الفلاحين من الخلف بخطوات سريعة وينحنى أمام ك ويقدم اليه رسالة ٠ وأمسك ك بالرسالة فى يده وتطلع الى الرجل الذى لاح له فى تلك اللحظة أكثر أهمية ٠ وكان هناك شبه كبير بينه وبين المساعدين ٠ كان رشيقا مثلهما ، ضيق الثياب مثلهما ، مرنا سريعا مثلهما ، ومع ذلك فكان يختلف عنهما اختلافا بينا ٠ وكم ود ك لو كان هذا الرجل مساعدا له ٠ ولقد ذكره قليلا بالمرأة ذات الرضيع التى رآها عند المعلم الدباغ ٠ فقد كان يلبس ثوبا أبيض أو يكاد لونه يكون كذلك ، ولم يكن الثوب مصنوعا من الحرير ، بل كان ثوبا شتويا كالثياب الأخرى ، ولكنه كان يتسم بما يتسم به الثوب الحريرى من رقة ومهابة ٠ وكان وجهه مشرقا وصريحا ، وكانت عيناه واسعتين ٠ وكانت ابتسامته توحى بالأمل على نحو غير مألوف ٠ ولقد مسح بيده على وجهه وكأنما أراد أن يطرد هذه الابتسامة ، ولكنه لم يوفق فى ذلك ، وسأله ك :

ـ من أنت ؟

فقال :

ـ أنا اسمى برناباس ٠ وأنا أعمل ساعيا ٠

كانت شفتاه تنفتحان وتنقفلان أثناء الكلام فى رجولة ولكن فى رقة أيضا . وسأله ك :

ـ أيعجبك هذا ؟

وأشار ك الى الفلاحين ولم يكن اهتمامه بهم قد قل ، وكانوا يرفعون نحوه وجوههم المعذبة .. لقد بدت جماجمهم كأنما كبست من أعلى فتفرطحت ، وكأنما تكونت قسمات وجوههم وسط آلام الضرب ، وهكذا شفاههم الغليظة وأفواههم المفغورة ، وكانوا ينظرون كانوا فى الوقت نفسه لا يبصرون ، ذلك أن نظرتهم كانت أحيانا تتوه ، وتتركز ، قبل أن تعود ، على أى شىء لا أهمية له . ثم أشار ك بعد ذلك الى مساعديه اللذين كانا يتعانقان ويبتسمان وقد ألصق الواحد منهما خده بخد صاحبه ، ولم يكن الانسان يعرف هل كانا يبتسمان فى تواضع أو فى تهكم . أشار ك الى كل هذا ، وكأنما كان يقدم اليه حاشية فرضتها عليه ظروف خاصة ، وتوقع ـ كانت فى توقعه ثقة حرص عليها كل الحرص ـ أن يميز بينه وبينهم . ولكن برناباس لم يتلقف السؤال فى براءة كاملة بطبيعة الحال ـ وكان ذلك ظاهرا ، وترك السؤال يمر عليه عابرا ، كما يفعل الخادم المهذب حيال كلمة من سيده لا تكون موجهة اليه الا فى ظاهرها ، ولم يزد عن أن نظر حواليه اتباعا للسؤال ، وحيا بيده بعض المعارف من بين الفلاحين وتبادل كلمات مع المساعدين ، وجرى هذا كله فى حرية واستقلال ، دون أن يختلط بهم . وعاد ك الى الخطاب فى يده فى خيبة ـ ولكن بدون خجل ـ وفتحه . كان الخطاب ينص على مايلى :

« أيها السيد المحترم ،

انك ، كما تعلم ، قد قبلت للعمل فى الخدمة الأميرية . ورئيسك المباشر هو رئيس مجلس القرية ، وهو الذى سيبلغك بكل تفاصيل عملك وشروط الأجر ، وأنت مسئول أمامه . ومع ذلك فلن أبعد عينى عنك . وسيقوم برناباس ، الذى يحمل اليك هذا الخطاب ، بسؤالك من حين لآخر ، عن رغباتك ، وسيتولى نقلها الى . ولسوف تجدنى دائما مستعدا ، على قدر الامكان ، للقيام بما يرضى . فأنا أحرص على أن يكون عمالى راضين . »

ولم يكن التوقيع واضحا ، ولكن الاسم كان مطبوعا بجواره : رئيس الادارة العاشرة .

وقال ك لبرناباس الذى انحنى أمامه :

ـ انتظر .

ونادى على صاحب الخان وطلب منه أن يقتاده الى الحجرة ، لأنه كان يريد أن ينفرد بالخطاب فترة من الوقت · وتذكر فى هذه الأثنـــاء أن برناباس ، على الرغم من الميل الشديد الذى يميله اليه ، لا يختلف عن أن يكون ساعيا ، وأمر له بشىء من البيرة · وانتبه الى كيفية تقبله اياها · ولقد ظهر أنه تقبلها مرحبا ، وشرع على التو يشرب منها · ثم ذهب ك مع صاحب الخان · ولم يكن هـذا قد استطاع أن يدبر لـ ك فى المبنى الصغير سوى حجرة صغيرة على السطح ، وحتى تدبير هذه الحجرة كان محفوفا بالصعاب ، لأنه اضطر الى تدبير مكان آخر لخادمتين كانتا تنامان فيها · والحقيقة أن ما حدث لم يزد عن اخراج البنتين من الحجرة ، فقد ظلت الحجرة على حالها لم يتناولها تغيير ، ولم يكن السرير الوحيد مكسوا بملاءة ، بل كانت عليه بضع مخدات ، وغطاء ، تركت كما كانت فى الليلة الماضية · وكانت هناك على الجـدران بعض صـور القديسين ، وبعض الصور الفوتوغرافية لجنود · انهم لم يفعلوا شيئا بالحجرة ، حتى مجرد التهوية ، والظاهر انهم يرجون ألا يقيم الضيف الجديد طويلا ، ولهذا لم يفعلوا شيئا للتمسك به · ولكن ك كان راضيا بكل شىء ، فلف نفســه بالغطاء ، وجلس الى المنضدة ، وبدأ يقرأ الخطاب مرة أخرى على ضــوء شـــمعة ·

لم يكن الخطاب على وتيرة واحـدة ، كانت به مواضع يدور فيهـا الحديث اليه ، كأنه رجل حر ، له ارادة معترف بها ، من هذه المواضـع مطلع الخطاب ، والموضع الذى يتناول رغباته · ثم كانت هناك مواضـع يغاملونه فيها ، بصراحة أو مواراة ، كأنه عامل صغير لا يكاد يلحظه أحد من مقر هذه الرئاسة ، ولسوف يبذل الرئيس الجهد لكى لا يبعد عينيه عنه · أما رئيســه فليس سوى رئيس مجلس القرية ، بل انه مسـئول أمامه ، وربما لم يكن له من زميل فى هذا سوى شرطى القرية · لقـد كانت تلك بلا شك متناقضات · وكانت واضحة للعين ، مما يدل على أنها كانت مقصودة·وخطرت ببال ك فكرة جنونية عابرة تصور له أنه ربما كان السبب هو تردد الادارة فى هذا الأمر · لقد رأى خيارا يعرض له صريحا ، لقد ترك له أن يتصرف فى تعليمات الخطاب بما يريد : له أن يقرر آن شاء أن يصبح عاملا فى القرية وله امتياز الارتباط بصلة ، لا تزيد عن أن تكون صلة ظاهرية ، بالقصر ، أو أن يصبح عاملا ظاهريا فى القرية يحدد علاقة عمله كلها بناء على أخبار برناباس · ولم يتردد ك فى الاختيار ، وما كان له أن يتردد بعد الخبرات التى أتيحت له حتى الآن · انه عندما

يكون عاملا فى القرية ، بعيدا قدر المستطاع عن السادة فى القصر ، فسيستطيع أن يبلغ شيئا فى القصر ، ذلك أن أهل القرية الذين كانوا يسلكون حياله مسلك الريبة ، سيبدءون فى الكلام ، عندما يصبح هو ، لا نقول صديقا لهم ، بل مواطنا مثلهم لا يختلف عن جيرشتيكر أو لازيمان ‥ ولابد أن يحدث هذا بسرعة ، فكل شىء رهن به ‥ عند ذاك تنفتح له بضربة واحدة ، وبكل تأكيد ، الطرق ، التى كانت ستظل الى الأبد لا مقفلة فحسب ، بل مستترة ، ان ظل الأمر رهنا بالسادة فى عليائهم ، رهنا بتفضلهم ٠ حقيقة ان ثمة خطرا كان قائما وكان مؤكدا فى الخطاب بما فيه الكفاية ، وهو انه سيكون عاملا ٠ كان الخطاب مليئا ، بعبارات الخدمة ، الرئيس ، العمل ، شروط الأجر ، المسئولية ، العامل ‥ وحتى ما كان الخطاب يحتويه غير ذلك من أمور أكثر شخصية ، كان قائما على وجه النظر هذه ٠ اذا كان ك يريد أن يكون عاملا ، ففى استطاعته أن يكون عاملا ، بكل جد رهيب ، ودون أن يكون له أن ينصرف بنظره الى أى منصرف ٠ وكان ك يعلم أنه لا يتعرض لتهديد باكراه حقيقى ، ولم يكن يخشى الاكراه ، وبالذات هنا ، ولكنه كان يخشى قوة البيئة الميئسة ، قوة الاعتياد على الخيبة ، وقوة المؤثرات غير الظاهرة فى كل لحظة ، ولكنه كان ينبغى عليه أن يجرؤ على منازلة هذا الخطر ٠ ولم يكن الخطاب يخفى ، أن ك ، اذا وصل الأمر الى النضال ، سيكون عليه أن يجسر على الابتداء ٠ كان الخطاب يعبر عن هذا بخفة ، وما كان ليلحظه الا ضمير قلق ــ ضمير قلق ، لا ضمير مثقل ــ يعبر عنه فى كلمتين هما «كما تعلم» عند الحديث عن قبوله فى الخدمة ٠ كان ك قد تقدم للعمل ، ولقد علم ، على نحو ما جاء بالخطاب ، أنه قد قبل ٠

وأزاح ك صورة من الحائط وعلق الخطاب على مسمار ٠ انه سيقيم فى هذه الحجرة ، وينبغى أن يعلق الخطاب هنا ٠

ثم نزل ك الى قاعة الخان ٠ كان برناباس يجلس مع المساعدين الى منضدة صغيرة ٠ وقال ك بغير مناسبة ، لا لسبب الا لأنه فرح برؤية برناباس :

ــ آه ، أنت هنا ٠

وانتفض برناباس واقفا من فوره ٠ وما كان ك يدخل ، حتى نهض الفلاحون ليقتربوا منه ، فقد اعتادوا على أن يلاحقوه دائما ٠ وصاح ك :

ــ ماذا تريدون منى ؟

ولم يغضب الفلاحون ، واستداروا عائدين الى أماكنهم ٠ وقال

أحـــدهم على سـبيل الشرح ، وهو يبتعـد ، ببسـاطة ، وبابتسـامة لا سبيل الى تأويلها ، اتخذها بعض الآخرين :

ـ ان الانسان يسمع دائما شيئا جديدا ·

ولعق شفتيه وكأنما كان الشيء الجديد طعاما يؤكل ·

ولم يقل ك شيئا يرمي الى التصالح ، فقد كان من الخير أن يلتزموا حياله بقليل من الاحترام · ولكنه ما كاد يجلس الى برناباس حتى أحس بتنفس أحد الفلاحين في قفاه ، أتي ، على حد قوله ، ليأخذ الملاحة ، ولكن ك هب واقفا ، من فرط غضبه ، فجرى الفلاح بعيدا دون أن يأخذ الملاحة· لقد كان من السهل فعلا النيل من ك ، كان يكفي مثلا ، تحريض الفلاحين عليه ، ولقد لاح له هذا الاقبال العنيد عليه ، أكثر شرا من ادبار الآخرين عنه ، ثم أن اقبالهم ليس الا ادبارا ، فلو أن ك ذهب ليجلس اليهم ، لما ظلوا جالسـين الى المائدة · ولم يمنع ك من احـداث ضجة ، الا وجود برناباس · ولكنه استدار نحوهم مهددا ، وكانوا هم كذلك قد استداروا نحوه · فلما رآهم يجلسون هكذا ، كل في مكانه ، دون أن يتحادثوا ، ودون أن يكون بينهم رباط ظاهر ، فلم يكن يربطهم بعضهم الى البعض الا التحديق فيه ، ظن أن ما يجعلهم يلاحقونه ليس الشر على الاطلاق ، ربما كانوا بالفعل يريدون منه شيئا ، ولم تكن لديهم القدرة عن التعبير عنه ، وربما كانت تلك مجرد صبيانية متأصلة في هذا المكان ·· ألم يكن صاحب الخان يتصرف تصرفا صبيانيا وهو يمسك بكلتا يديه كوب بيرة كان المفروض أن يحمله الى بعض الجالسين ، ويقف ساكنا ، ينظر الى ك ، ولا يتنبه الى نداء زوجته التي كانت تطل من طاقة المطبخ الصغيرة ؟

والتفت ك الى برناباس وقد ازداد هـدوءا ، ولكم ود أن يبعـد المساعدين ، ولكنه لم يجد حجة يتذرع بهـا · ولقـد كانا على أية حال ينظران صامتين الى البيرة أمامهما · وبدأ ك حديثه قائلا :

ـ لقد قرأت الخطاب · هل تعرف مضمونه ؟

فقال برناباس :

ـ لا ·

وكانت نظرته تبدو أكثر تعبيرا من كلماته · وربما أخطأ هنا بالخير كما أخطأ بالشر مع الفلاحين ، عندما تشبث بما في وجوده من طيبـة · وقال :

ـ ان الخطاب يتحدث عنك ، ذلك أنه ينبغي عليك من حين لآخر أن

تنقل الأخبار بيني وبين الادارة ، ولهذا السبب اعتقدت انك تعرف لحوى الخطاب ٠

وقال برناباس :

ـ لقد تلقيت أمرا بتوصيل الخطاب ، وبالانتظار حتى تتم قراءته ، وبالعودة برد شفهي أو تحريري اذا رأيت ضرورة لذلك ٠

فقال ك :

ـ حسن ٠ ليست هناك حاجة الى الكتابة ٠ أبلغ السيد الرئيس ، ما اسمه ؟ فأنا لم أستطع قراءة التوقيع ٠

فقال برناباس :

ـ كلم ٠

ـ اذن فأبلغ السيد كلم شكرى على قبوله ، وكذلك على وده الخاص، الذى أعرف ، وأنا شخص لم يثبت جدارته هنا بعد بحال من الأحوال ، كيف أقدره قدره ٠ ولسوف أتصرف على نحو يطابق مراميه كل المطابقة ٠ وليست لدى اليوم رغبات خاصة ٠

وطلب اليه برناباس ، وقد أصغى بدقة ، أن يسمح له بأن يعيد عليه الرسالة ، وأعادها برناباس كلها بنصها لم يتبدل منه شيء ٠ ثم نهض ليستأذن فى الانصراف ٠

كان ك قد ظل طوال الوقت يتفرس فى وجهه ، وها هو ذا يتفرس فيه مرة أخيرة ٠ كان برناباس فى مثل طول ك تقريبا ، ومع ذلك فقد لاحت نظرته كأنها تهبط من أعلى الى أسفل ، لتصـــل الى ك ، ولكن فيما يوشك أن يكون تواضعا ، فقد كان من المحال أن يخجل هذا الرجل أى انســان ٠ حقيقــة أنه كان ساعيا لا يزيد ، ولم يكن يعرف فحوى الخطابات التى يكلف بنقلها ، ولكن نظرته ، وابتسامته ، ومشيته كانت تلوح كرسالة ، وان لم يكن يعرف من أمرها شيئا ٠ ومد ك اليه يده مصافحا ، ويبدو أن تلك الحركة فاجأته ، فلم يكن يريد الا أن ينحنى ٠

فلما انصرف ـ وكان قد استند الى البـاب بكتفه قبل أن يفتحه وشمل القاعة بنظرة لم يقصد بها شخصا بعينه ـ قال ك لمساعديه :

ـ سأحضر من الحجرة رسوماتى ، ثم نتناقش فى العمل القادم ٠

وأرادا أن يذهبا معه ٠ فقال :

ـ انتظرا ٠

ولكنهما ظلا يريدان الذهاب معه · فاضطر ك الى اعادة الأمر بمزيد من الحـدة ·

لم يكن برناباس في المدخل · ولكنه لم يكن قد انصرف الا توا · ولم يره ك أمام البيت ـ وكان الجليد يتساقط من جديد · وأخذ ينادى :

ـ برناباس ·

فلم يتلق اجابة · هل تراه لم يخرج بعد ؟ لم يكن هناك احتمال آخر · ومع ذلك فقد صاح ك بكل قوته هاتفا بالاسم · ودوى الاســم خلال الليل المطبق على المكان · وتلقى ك من بعيد ردا خافتا · اذن فقد ابتعدا بعدا شديدا · ونادى عليه ك أن يعود ، ثم ذهب لملاقاته ، والتقيا فى موضع لم يكن فى الامكان رؤيته من الخان ·

وقال ك وهو لا يستطيع التغلب على رعشة صوته :

ـ يا برناباس · لقد أردت أن أقول لك شيئا آخر · ولقد لاحظت أن هناك سوء تدبير فى اعتمادى على مجرد قدومك مصادفة ، عندما أحتاج الى شيء من القصر · ولو لم ألحق بك الآن مصادفة ـ وأنت تطير ، وكنت أظن انك ما تزال فى الخان ـ فمن يعلم كم من الوقت كنت سأنتظر حتى تأتى مرة أخرى ·

فقال برناباس :

ـ يمكنك أن ترجو الرئيس أن أحضر اليك دائما فى أوقات معينة تحددها أنت ·

فقال ك :

ـ ولكن هذا لن يكفى ، فربما مر عام دون أن أحتاج الى ابلاغ شيء الى القصر ، وربما جد بعد انصرافك بربع ساعة شيء لا سبيل الى تأجيله ·

فقال برناباس :

ـ هل أبلغ الرئيس انه ينبغى أن تقوم بينكما صلة أخرى غيرى ؟

فقال ك :

ـ لا ، لا · مطلقا · وأنا انما أشرت الى هذا الأمر اشارتى الى أمر ثانوى · ومن حسن الحظ اننى لحقت بك هذه المرة ·

فقال برناباس :

ـ هل نعود الى الخان حتى تكلفنى بالمهمة الجديدة ؟

وخطا بالفعل خطوة الى هناك ، فقال ك :

ـ يا برناباس ، ليست هناك ضرورة لذلك ، سأسير معك شيئا من الطريق .

وسأل برناباس :

ـ لماذا لا تريد الذهاب الى الحان ؟

فقال ك :

ـ لأن الناس هناك يزعجونني . ولقد رأيت بنفسك الحاح الفلاحين.

فقال برناباس :

ـ يمكننا أن نذهب الى حجرتك .

فقال ك :

ـ انها حجرة الخادمات ، حجرة قذرة مكتومة ، ولقد أردت أن أسير معك قليلا حتى لا ابقى فيها ...

وأضاف ك ليتغلب نهائيا على تردده :

ـ .. ولكن ينبغي عليك أن تدعني أتعلق بذراعك ، فأنت تسير أكثر اطمئنانا .

وتعلق ك بذراعه . وكان الظلام حالكا . ولم ير ك وجهه ، ولم ير هيئته الا في غير وضوح ، وكان قد حاول قبل هنيهة أن يتحسس ذراعه.

واستجاب برناباس ، وابتعدا عن الحان . حقيقة ان ك أحس أنه لم يكن يستطيع ، رغم الجهد الذى بذله ، أن يسير بخطى برناباس ، وأحس بأنه يعرقل حركته الحرة ، وأن كل شيء سينتهي ، في الظروف العادية ، الى الفشل نتيجة لشيء ثانوى من هذا القبيل ، عندما يسيران في الحارات الجانبية ، وما هي الا مثل هذه الحارة التى غاص ك في جليدها صباح اليوم ، ولم يكن ليخرج منها الا أن يحمله برناباس . ولكنه أبعد عنه هذه المخاوف ، وخفف عنه التزام برناباس الصمت . واذا كانا سيسيران صامتين ، فان التقدم سيكون بالنسبة لبرناباس الهدف الوحيد لهما .

وسارا ، ولم يكن ك يعرف الى أين ، لم يكن يستطيع أن يتبين شيئا . لم يعرف حتى هل مرا على الكنيسة وتجاوزاها أو لا . ولقد أدى الجهد الذى سببه له المشى الى أنه لم يستطع أن يسيطر على أفكاره . فقد اضطربت أفكاره بدلا من أن تبقى مركزة على الهدف . كان الوطن لايفتأ يخطر بباله ، وكانت ذكرياته تغمره . تذكر كنيسة كانت هناك في

الميدان الرئيسى ، كانت تحوطها من ناحية المقابر القديمة ، وكان يحوطها من الناحية الأخرى جدار عال لم يتسلقه الا عدد قليل جدا من الصبية ، ولم يتمكن ك من تسلقه عندما كان صبيا • ولم يكن ما يدفع الصبية اليه فضول ، فلم تكن فى المقابر أسرار ، ولقد دخلوا اليها من خلال الباب الحديدى الصغير مرارا ، ولكنهم كانوا يريدون قهر هذا الجدار العالى الزلق • وذات صباح ، وكان الميدان الخالى الهادىء يفيض بالنور ـ متى رآه ك من قبل أو من بعد وضاحا هكذا ؟ ـ تمكن ك من تسلقه بسهولة لم يعهدها من قبل • لقد تسلقه فى موضع ارتد منه من قبل مرارا ، تسلقه دفعة واحدة ، وكان يحمل بين أسنانه علما صغيرا • وتدحرج الحجر متساقطا ، ولكن ك كان قد وصل الى أعلى • وثبت العلم ، ونشرته الريح ، ونظر الى أسفل ، الى الجمع المصطف فى دائرة ، وتجاوز الأكتاف الى الصلبان المائلة الى الأرض • لم يكن هناك الى الآن من هو أكبر منه • وتصادف أن مر المدرس ، فنظر الى ك نظرة غاضبة أنزله بها من فوق الجدار العالى • وأصيب ك أثناء القفز ، بجرح فى ركبته ، ولم يصل الى البيت الا بشق الأنفس ، ولكنه كان قد وقف فوق الجدار • وتصور ك فى ذلك الوقت أن الاحساس بهذا النصر سيكون دعامة تستند عليها حياة طويلة ، ولم يكن هذا الذى لاح له آنذاك من قبيل السخف ، فها هو ذا يعود اليه بعد سنوات طويلة ، فى ليلة الجليد ، وهو يتأبط ذراع برناباس ، فيمده بالعون •

وتعلق بذراع برناباس على نحو أشد ، وكان برناباس يوشك أن يجره ، وظل الصمت قائما لا يقطعه أيهما بكلام • ولم يعرف ك عن الطريق الا ما تبينه من حالة الشارع ، وهو أنهما لم ينحرفا الى حارة جانبية • وقرر ألا يجعل صعوبة من صعوبات الطريق ، أو خشية من عدم التمكن من العودة ، تحول بينه وبين الاستمرار فى السير • وليس هناك شك فى أن قوته ستكفى لكى يستمر برناباس فى جره • ثم هل الطريق لا تنتهى الى نهاية ؟ ولقد لاح له القصر بالنهار هدفا يسيرا ، وليس من شك فى أن الساعى يعرف أقصر طريق اليه •

ووقف برناباس • أين كانا ؟ هل انقطع الطريق ؟ هل سيستأذن برناباس من ك فى الانصراف ؟ لن يتمكن برناباس من ذلك • فقد كان ك يتشبث بذراعه بقوة كانت تؤلمه هو نفسه • أم هل حدث الشىء الذى لا يمكن تصديقه ؟ هل هما الآن فى القصر أو أمام بواباته ؟ ولكنهما ، على قدر ما كان ك يعرف ، لم يصعدا مرتفعا • أم هل اقتاده برناباس فى

طريق تصعد على نحو غير ملحوظ ؟ وسأل ك بصوت منخفض ، وكأنما كان يسأله لنفسه أكثر مما كان يسأل برناباس :

ـ أين نحن ؟

فقال برناباس على النحو نفسه :

ـ في البيت ؟

؟ في البيت ـ والآن يا سيدى انتبه حتى لا تنزلق الى أسـفل ، فالطريق منحدر ٠

ـ منحـدر ؟

ثم قال برناباس :

ـ لم تبق سوى خطوات قليلة ٠

وها هو ذا يقرع بابا ٠

وفتحت الباب بنت ، ووقفا على عتبة حجرة كبيرة في ظلمة توشك أن تكون حالكة ، فلم يكن هناك سوى مصباح بترولى ضئيل فوق مائدة فى مؤخرة المكان الى اليسار ٠ وسألت البنت :

ـ من هذا الذى يأتى معك يا برناباس ؟

فقال :

ـ موظف المساحة ٠

وأعادت البنت الاجابة بصوت مرتفع متجهة الى المائدة ٠ وهنا نهض شخصان متقدمان فى السن ، رجل وامرأة ، وكذلك بنت أخرى ٠ وحيا الجميع ك ٠ وقدم برناباس الجميع اليه ، كان هؤلاء والديه ، وأختيه أولجا و أماليا ٠ ولم ينظر ك اليهم ، أو يكاد الا يكون قد نظر اليهم ، وخلع عنه بعضهم سترته المبتلة ليجففها عند المدفأة ٠ وترك ك ذلك يحدث ٠

اذن فلم يكن الاثنان فى بيتهما ، لقد كان برناباس وحده فى بيته ٠ ولكن لماذا كانا هنا ؟ وانتحى ك ببرناباس جانبا وسأله :

ـ لماذا ذهبت الى البيت ؟ أم هل تسكنون فى دائرة القصر ؟

وأعاد برناباس عبارة :

ـ فى دائرة القصر ؟

قالها وكأنه لا يستطيع فهم ك ٠ فقال ك :

ـ انك يا برناباس كنت تريد الذهاب من الخان الى القصر ٠

فقال برناباس :

ـ لا يا سيدى ، لقد كنت أريد أن أذهب الى البيت ٠ وسأذهب الى القصر فى الصباح المبكر ، فأنا لا أنام هناك مطلقا ٠

فقال ك :

ـ هكذا ٠ أنت لم تكن تريد الذهاب الى القصر ، بل كنت تريد الحضور الى هنا ٠

ولاحت ابتسامة برناباس ل ك واهنة ، ولاح برناباس نفسه له أكثر تفاهة ٠ وقال ك :

ـ ولماذا لم تقل لى هذا ؟

فقال برناباس :

ـ انك يا سيدى لم تسألنى ، لقد كنت تريد أن تكلفني بمهمة ، ولم ترد أن تكلفنى بها لا فى قاعة الخان ولا فى حجرتك ، ولهذا فكرت فى أنك تستطيع أن تكلفنى هنا بالمهمة فى بيت أهلى ، دون أن يقلقك مقلق ٠ وسيخلى الجميع المكان عندما تأمر بذلك ٠ ولك ، ان راقك المكان ، أن تبيت هنا ٠ ألم أحسن التصرف ؟

ولم يستطع ك الاجابة ٠ لقد حدث خطأ ٠ اذن ، خطأ دنىء وضيع ، وكان ك قد أسلم نفسه اليه ووثق فيه كل الثقة ٠ لقد ترك سترة برناباس الضيقة الحريرية اللامعة تخلب لبه ، تلك السترة التى أخذ الآن يفك أزرارها ، فظهر من تحتها قميص غليظ قذر رمادى كثير الرقع فوق صدر عبد قوى صارم البدن ٠ وكان كل شىء حوله لا يطابق هذا فحسب ، بل يفوقه ، الأب العجوز المريض الذى يتقدم بيديه المتحسستين أكثر مما يتقدم بساقيه المتصلبتين الزاحفتين فى بطء ـ والأم التى تعقد يديها على صدرها ولا تستطيع لبدانتها أن تتقدم الا بخطى متناهية الضآلة ٠ ومنذ دخل ك تحرك الوالدان من ركنيهما نحوه ، ولم يصلا اليه بعد ٠ أما الأختان ، وهما شقراوان تشبه الواحدة منهما الأخرى ، وتشبهان برناباس ، وان كانت تقاطيعهما أكثر حدة من تقاطيعه ، فكانتا بنتين طويلتين قويتين ، ولقد وقفتا حول القادمين تنتظران كلمة تحية من ك ٠ ولكنه لم يستطع أن يقول شيئا ٠ ولقد كان ك يعتقد أن كل شخص فى القرية يتسم حياله بالأهمية ، ويبدو أنه كان مصيبا فى هذا الاعتقاد ، الا أن هؤلاء الناس بالذات كانوا لا يهمونه على الاطلاق ٠ ولو كان فى حالة يستطيع فيها أن يقطع الطريق وحده عائدا الى الخان ، لانصرف من فوره ٠ ولم تكن امكانية الذهاب فى الصباح الباكر الى القصر مع برناباس تغريه ٠ لقد كان يود أن ينفذ الى القصر الآن ، فى

الليـل ، لا يلتفت اليه أحـد ، ينفـذ اليه وراء برناباس ، ولـكن ذلك البرناباس الذى كان يبدو له حتى ذلك الحين أقرب الناس هنا الى نفسه ، والذى ظن أنه مرتبط بالقصر ارتباطا وثيقا يزيد زيادة كبـيرة على رتبته الظاهرة · أما مرافقة ابن هذه الأسرة ، الذى ينتمى اليها كل الانتماء ، والذى جلس معها الى المائدة وتناول الطعام معها ، مرافقة هذا الرجل الذى لا يحق له حتى مجرد النـوم فى القصر ـ وهـذا شىء له دلالته ـ مرافقته والتشبث بذراعه فى وضـح النهـار ، كان يلوح له محاولة مضحكة لا أمل فيها ·

وجلس ك على قاعدة احدى النوافذ، مصمما على أن يقضى عليها الليلة، وعلى ألا يطلب من هذه الأسرة خدمة أخرى غير هذه الخدمة ، ولاح له أهل القرية الذين أبعدوه ، أو الذين خافوا منه ، أقل خطورة ، لأنهم فى واقع الأمر كانوا يحيلونه الى نفسه ، ويعينونه على جمع قواه · أما هؤلاء الذين يلوحون كأنهم يعينونه ، والذين لم يقتادوه الى القصر ، بل اقتاده فى حركة تنكرية صغيرة الى أسرتهم ، فكانوا يشتتون انتباهه ، سواء عمدوا الى ذلك أو لم يعمدوا ، وكانوا يعملون على هدم قواه · ولم يحفل بالنداء الذى وجهوه اليه يدعونه الى مائدة الأسرة ، وظل جالسا على قاعدة النافذة مطأطىء الرأس ·

وهنا نهضت أولجا ، أكثر الأختين رقة ، وكانت تبدى شيئا من خجل البنات ، وذهبت الى ك ، ورجته أن يأتى الى المائدة · وقالت ان الخبز وشحم الخنزير جاهزان ، أما البيرة فستذهب لاحضارها · وسـأل ك :

ـ من أين ؟

فقالت :

ـ من الخان ·

ولقى كلامها ترحيب ك الشديد · فرجاها ألا تحضر بيرة ، بل أن ترافقه الى الخان ، لأن لديه أعمالا مهمة هناك يريد أن ينجزها · وتبين أنها لا تريد أن تذهب الى الخان البعيد الذى ينزل فيه ، بل الى خان آخر قريب ، أشد القرب ، هو خان السادة · ومع ذلك رجاها ك أن تسمح له بمرافقتها ، وهو يفكر فى أنه ربما أتيحت له هناك فرصة للمبيت ، ومهما تكن ، فهى أفضل بكثير من النوم هنا فى أحسن سرير · ولم تجب أولجا على الفور ، بل نظرت خلفهـا الى المـائدة · وكان أخوها قد نهض ، وهز رأسه بالموافقة وقال :

ـ اذا كانت تلك هى رغبة السيد ·

ولقد أوشكت هذه الموافقة على أن تدفع ك الى أن يتراجع فى طلبه ، فلم يكن هذا الرجل ليوافق الا على أشياء عديمة القيمة : فلما تشاوروا فى الأمر ، وهل سيسمح لـ ك بدخول الخان ، وأبدوا جميعا شكهم فى ذلك ، أصر ك على الذهاب معها ، دون أن يبذل جهدا فى اختلاق سبب مفهوم يبرر به طلبه • كان على هذه الأسرة أن تقبله كما هو ، ولم يكن على نحو ما يحس حيالها بالخجل • ولم يكن هناك شيء يشككه فى ذلك الا أماليا بنظرتها الجادة ، المستقيمة ، الجامدة التى ربما اتسمت بشيء من البلادة •

وعلم ك وهو فى الطريق القصير الى الخان ـ وكان قد تعلق بذراع أولجا وتركها تجره أو تكاد ، كما فعل من قبل مع أخيها،فلم يكن يستطيع غير ذلك ـ ان هذا الخان مخصص فى الحقيقة للسادة الذين يأتون من القصر لقضاء شيء فى القرية ، فهم يأكلون هناك ، ويبيتون أحيانا • وكانت أولجا تتكلم مع ك بصوت خفيض ، كأنه يعبر عن ود ، وكان ينعم بالسير معها ، كما نعم من قبل بالسير مع أخيها أو يكاد • وكان ك يصد الاحساس بالارتياح ، ولكنه كان موجودا فى نفسه •

كان الخان من الخارج يشبه أشد الشبه الخان الذى كان ك يقيم فيه • ويبدو انه لم يكن هناك على الاطلاق فروق كبيرة فى القرية ، ولكن ك بدأ يلاحظ الفروق الصغيرة : كان للسلم الأمامى حاجز ، وكان هناك مصباح جميل مثبت فوق الباب • وعندما دخلا هفهف قماش فوق رأسيهما ، وكان هذا القماش راية تحمل الألوان الجرافية • وقابلهما عند المدخل على الفور صاحب الخان ، ويبدو أنه كان يقوم بجولة تعمد القيام بها ، ونظر صاحب الخان بعينين صغيرتين متفحصتين أو ناعستين الى ك عابرا وقال :

ـ ليس للسيد موظف المساحة أن يذهب الا الى قاعة الشراب •

فقالت أولجا فى اهتمام بأمر ك :

ـ بكل تأكيد • انه انما يرافقنى لا أكثر •

اما ك فقد تنكر لجميل أولجا وتملص منها وانتحى بصاحب الخان جانبا • وانتظرت أولجا فى هذه الأثناء صابرة عند نهاية المدخل • وقال ك لصاحب الخان :

ـ اننى أود أن أبيت هنا •

فقال صاحب الخان :

ـ هذا للأسف مستحيل · ويبدو انك لم تعرف بعد ان هذا الخان خاص بسادة القصر دون سواهم ·

وقال ك :

ـ ربما كانت تلك هي الأوامر · ولكن من الممكن بكل تأكيد أن تدعني أنام في ركن بأى مكان ·

فقال صاحب الخان :

ـ كم كنتُ أود غاية الود أن أحقق لك رغبتك،ولكنها، بغض النظر عن صرامة الأوامر التي تتحدث أنت عنهـا حديث الغريب ، مستخيلة التحقيق لأن السـادة حساسون الى أقصى حـد · وأنا أوقن من أنهم عاجزون ، على الأقل بغير تمهيد ، عن احتمال منظر شخص غريب · فلو أنني تركتك تبيت هنا ، واكتشفت بطريقة المصادفة ـ والمصادفات دائما في صف السادة ـ فلن تكون النتيجة ضياعي أنا فحسب ، بل وضياعك أنت كذلك · ولقد يبدو هذا مضحكا ، ولكنه حقيقة ·

كان هـذا السيد الرفيع المتزمت ، الذى ضغط باحدى يديه على الحائط ، ووضع الأخرى في وسطه ، وصلب ساقيه ، وانحنى قليلا الى ك ، وتحدث اليه في ود ، لا يكاد يبدو عليه الانتماء الى القرية ، وان كان ثوبه الأسمر لا يبـدو الا ثوبا من النـوع الذى يرتديه الفلاحون في المناسبات ·

وقال ك :

ـ أنا أصدقك تماما ، وكذلك لا أقلل من شأن الأوامر وان كنت قد استعملت عبارات تفتقر الى الكياسة · ولكنني أريد أن ألفت نظرك الى شيء : ان لي علاقات لها قيمتها في القصر ، وستكون لي مستقبلا علاقات أعظم قيمة ، وهي ستحميك من كل خطر قد ينشأ نتيجـة مبيتي هنا ، وتضمن لك أنني قادر على الشـكر كاملا غير ممنـون على صنيع صغير تقدمه الى ·

فقال صاحب الخان :

ـ أنا أعرف ·

ثم عاد يقول :

ـ أنا أعرف هذا ·

وكان من الممكن أن يلح ك في طلبه ، ولكن اجابة صاحب الخان هذه شتت أفكاره ، ولهذا سأل فقط :

ـ هل يبيت الليلة هنا كثير من السادة ؟

فقال صاحب الخان يغريه على نحو ما :

ـ ان الوضع اليوم من هذه الناحية طيب ، فلم يبق هنا سوى سيد واحد .

وظل ك عاجزا عن الالحاح ، وان ظل يرجو أن يكون صاحب الخان قد قبله للمبيت ، ولهذا لم يسأل الا عن اسم السيد . فقال صاحب الخان مقالة من يذكر شيئا ثانويا :

ـ كلم .

ونظر خلفه الى زوجته التى أتت ترتدى ثيابا قديمة مهلهلة على نحو غريب ، كثيرة الثنيات ، والكشكشات ، من تلك الثياب ، الأنيقة التى ترتديها نساء المدن . ولقد جاءت تطلب صاحب الخان ، لأن السيد الرئيس كان يريد شيئا ما . وقبل أن ينصرف صاحب الخان ، التفت مرة أخرى الى ك ، وكأنما كان القطع فى أمر المبيت من شأن ك ولم يعد من شأنه هو . ولم يستطع ك أن يقول شيئا ، خاصة وأن وجود رئيسه هنا قد أذهله . ولسبب ما ، لم يستطع أن يفسره لنفسه ، أحس ك أنه ليس حرا فى مواجهة كلم كما كان فى مواجهة القصر . ولو اكتشفه كلم هنا لما أدى هذا الى الرعب على النحو الذى تصوره صاحب الخان ، بل الى سخف مؤسف ، ولكان كمن يسبب باستهتاره ضرا لانسان ينبغى عليه أن يقابله بالعرفان والشكر . وأحزنه أشد الحزن أن يرى وهو فى مثل هذه الحيرة ما كان يخشاه من نتائج كونه تابعا عاملا وأن يتبين انه غير قادر على التغلب عليها وقد بدت هنا واضحة جلية . وهكذا وقف ، وعض شفتيه ولم يقل شيئا . وعاد صاحب الخان ينظر الى ك مرة ثانية قبل أن يتوارى فى الباب . وتبعه ك بنظره ، ولم يتحرك من مكانه حتى أتت أولجا وجرته بعيدا . وسألته أولجا :

ـ ماذا كنت تريد من صاحب الخان ؟

فقال ك :

ـ كنت أريد المبيت هنا .

فقالت أولجا مندهشة :

ـ ولكنك ستبيت عندنا .

فقال ك :

ـ نعم ، بكل تأكيد .

وترك لها مهمة تأويل الكلمات .


Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

كان هناك فى قاعة الشراب بالخان ، وهى حجرة كبيرة خالية الوسط تماما ، فلاحون يجلسون عند الحيطان الى براميل أو فوقها ، وكان هؤلاء الفلاحون يختلفون فى منظرهم عن الفلاحين الذين فى الخان الآخر حيث ينزل ك · كان هؤلاء أكثر نظافة وأكثر تشابها بما يلبسون من ثياب مصنوعة من قماش غليظ رمادى مائل الى الصفرة ، وكانت ثيابهم تتكون من سترة منفوخة وسراويل لاصقة بالسيقان · كان هؤلاء الرجال قصار القامة ، يبدون لأول وهلة متشابهين أكثر التشابه بوجوههم المنبسطة ذات العظام البارزة والخدود المستديرة · وكانوا جميعا هادئين ، لايكادون يتحركون ، ولم يتابعوا الداخلين الا بنظرات أرسلوها فى بطء وبلادة · ومع ذلك فقد أحدثوا ، لكثرتهم وهدوئهم ، تأثيرا ما على ك · فتناول من جديد ذراع أولجا ، ليبين على هذا النحو لهؤلاء الرجال سبب وجوده هنا · ونهض فى أحد الأركان رجل ، تعرفه أولجا ، وهم أن يتجه نحوها ، ولكن ك لفها بالذراع الذى كان يتعلق به ذراعها الى الناحية الأخرى · ولم يكن فى استطاعة انسان غيرها أن يلحظ ذلك ، ولقد سكتت عليه ونظرت الى جانب وهى تبتسم ·

وكانت هناك فتاة اسمها فريدا هى التى تقدم البيرة الى الحاضرين، وكانت فريدا هذه شقراء قصيرة القامة ، حزينة العينين هزيلة الخدين ، لا تجذب الانتباه ، ولكنها كانت تفاجىء الانسان بنظرة ذات تفوق خاص· وما أن وقعت هذه النظرة على ك ، حتى أحس كأنها أنجزت بهذه النظرة كل الأمور الخاصة به ، والتى لم يكن ك نفسه يعلم بوجودها ، ولكن النظرة كانت تقنعه بأنها موجودة · ولم يكف ك عن التطلع الى فريدا من الجانب حتى عندما كانت تتحدث مع أولجا · ولم يبد على أولجا وفريدا أنهما صديقتان ، فقد تبادلتا قليلا من الكلمات الفاترة · وأراد ك أن يحرك الحديث بشيء فسأل مباشرة :

ـ اتعرفين السيد كلم ؟

فانفجرت أولجا ضاحكة ٠ وسألها ك غاضبا :

ـ لماذا تضحكين ؟

فقالت وهي تستمر في الضحك :

ـ أنا لا أضحك ٠

فقال ك :

ـ لا تزال أولجا بنتا كثيرة العبث كالأطفال ٠

وانحنى فوق المنصة ليجذب نظر فريدا اليه مرة أخرى على نحو شديد ٠٠ ولكنها كانت تميل برأسها ، وقالت بصوت منخفض :

ـ أتريد أن ترى السيد كلم ؟

فرجاها ك أن تمكنه من ذلك ٠ فأشارت الى باب الى يسارها مباشرة وقالت :

ـ هنا ثقب صغير يمكنك أن تنظر من خلاله ٠

فسأل ك :

ـ وهؤلاء الناس هنا ؟

فمطت شفتها السفلى وجذبت ك الى الباب بيد ناعمة مفرطة النعومة٠ وشمل ك بنظرته من خلال الثقب ، الذى يبدو أنه اتخذ لأغراض الملاحظة والمراقبة ، الحجرة المجاورة كلها تقريبا ٠

كان السيد كلم يجلس الى مكتب فى وسط الحجرة ، فى كرسى وثير مستديرة ، ينيره مصباح كهربائى منخفض انارة شديدة ، كان سيدا متوسط الطول ، ممتلىء البدن ، ثقيل الظل ٠ وكان وجهه لايزال ناعما ، ولكن خديه كانا يتدليان الى أسفل قليلا من أثر السن ٠ وكان شاربه الأسود يمتد الى الجانبين طويلا ٠ وكانت هناك نظارة مركبة على أرنبة أنفه ، مائلة ، تعكس الضوء ، وكانت توارى العينين ٠ ولو جلس السيد كلم الى المائدة يواجهها تماما ، لما استطاع ك أن يرى منه الا جانبه، ولكن كلم كان ملتويا ناحيته ، ولهذا رأى ك وجهه كاملا ٠ كان السيد كلم يركن مرفقه الأيسر على المائدة ، أما يده اليمنى التى كان يمسك بها سيجارة فكانت ترتكن على ركبته ٠ وكان هناك فوق المائدة كوب بيرة ٠ ولما كانت حافة المائدة عالية فان ك لم يستطع أن يرى على وجه الدقة هل كانت هناك مطبوعات أو مكتوبات فوقها ، ولاحت له المائدة خالية ٠ على أنه آثر الاطمئنان ، ورجا فريدا أن تنظر من خلال الثقب وتأتيه بالخبر

اليقين • ونظرا لأنها كانت في الحجرة منذ قليل ، فقد استطاعت ، دون مشقة ، أن تؤكد له أنه لم يكن هناك على المائدة شيء من مطبوعات أو مكتوبات • وسأل ك فريدا هل ينبغي عليه أن ينصرف ، فقالت له انه يستطيع أن ينتظر ما شاء • وكان ك الآن وحده مع فريدا • لأن أولجا كانت ، على قدر ما تبين عابرا ، قد ذهبت الى الرجل الذى تعرفه ، وجلست على برميل وأخذت تطوح قدميها • وقال ك هامسا :

ـ يا فريدا ، هل تعرفين السيد كلم معرفة جيدة جدا ؟

فقالت :

ـ آه نعم • معرفة جيدة جدا •

ومالت الى جانب ك ، وأخذت تنظم بطريقة عابثة ، لفتت نظر ك الآن ، بلوزتها الخفيفة ، ذات الفتحة الواسعة ، المصفرة اللون ، التى كانت تبدو غريبة على جسمها النحيل • ثم قالت :

ـ أتذكر ضحكة أولجا ؟

فقال ك :

ـ نعم ، البنت الشقية !

فقالت على سبيل التوفيق :

ـ آه ، لقد كان هناك سبب يدعو للضحك • لقد سألتنى هل أعرف كلم ، وأنا ••

وهنا اعتدلت قليلا فى غير ارادة منها ، ومرت نظرتها الظافرة التى لا ترتبط بالكلام أى ارتباط من فوق ك ، ثم أكملت :

ـ وأنا عشيقته •

فقال ك :

ـ عشيقة كلم ؟

فأومأت برأسها • فقال ك مبتسما حتى لا يدع كثيرا من الجد يقوم بينهما :

ـ اذن فأنت بالنسبة الى شخصية محترمة •

فقالت فريدا دون أن تتقبل ابتسامته :

ـ ليس فقط بالنسبة اليك •

وكان ك يمتلك وسيلة ضد تكبرها فاستعملها اذ سألها :

ـ هل كنت فى القصر ؟

فلم ترتبك لأنها أجابت :

ـ لا ، ولكن ألا يكفى أن أكون هنا فى قاعة الشراب ؟

ويبدو ان طموحها كان مسعورا وأنها كانت تريد أن تشفى غليله فى ك • وقال ك :

ـ طبعا هنا فى قاعة الشراب ، أنت تفهمين عمل الخمارة •

فقالت :

ـ بالضبط • ولقد بدأت بالعمل خادمة فى حظيرة حان الجسر •

فقال ك فيما يشبه التساؤل :

ـ بهاتين اليدين الناعمتين ؟

ولم يكن هو ذاته يعلم هل كان يتملقها أو كان بالفعل قد وقع تحت سيطرتها • على أن يديها كانتا بالفعل صغيرتين رقيقتين • وان كان فى مقدور الانسان أن يقول انهما كانتا ضعيفتين تافهتين • وقالت :

ـ لم يلتفت الى ذلك أحد فى ذلك الوقت ، وحتى الآن ••

وتطلع اليها ك متسائلا • ولكنها هزت رأسها ولم ترد الاستمرار فى الكلام • فقال ك :

ـ ان لك بطبيعة الحال أسرارك ، ولا شك فى أنك لن تتكلمى عنها مع شخص تعرفتى عليه منذ نصف الساعة ، ولم يؤت فرصة ليحكى لك عن حاله •

لقد كانت تلك ملاحظة فى غير موضعها ، كما اتضح فيما بعد ، لقد أيقظ بهـا فريدا من غفوة لم تكن فى صالحه • فتناولت من شنطة جلدية كانت تعلقها فى حزامها قطعة صغيرة من الخشب وسدت بها ثقب الباب ، وقالت لـ ك ، وهى تبذل جهدا واضحا ، لكى لا يلاحظ أن تغييرا طرأ على فكرها :

ـ أما أنت فأنا أعلم كل شيء عنك ، أنت موظف المساحة •

ثم أضافت :

ـ والآن ينبغى على أن أذهب الى العمل •

وذهبت الى مكانها خلف مائدة الخدمة ، بينما نهض بعض الناس هنا وهناك حاملين أكوابهم الفارغة الى فريدا يريدون أن تملأها لهم • وكان ك يريد أن يعود الى الحديث معها على نحو لا يلفت النظر ، فأخذ كوبا فارغا من الرف وذهب اليها ، وقال :

ـ ما زال هناك شيء أريد أن أسأل عنه يا آنسة فريدا ٠ ان الارتقاء من خادمه في حظيرة الى فتـــاة تقدم المشاريب في خمارة ، كل شيء خارق للمألوف ، ويتطلب جهودا خاصة ، فهل يعني هذا بالنسبة لانسان مثلك الوصول الى الهدف النهائي ؟ هذا سؤال أحمق ٠ ولكنني أرى في عينيك ـ وأرجو ألا تسخري مني ـ أن الغلبة ليست لنضال الماضي ، بقدر ماهي لنضـــال المستقبل ٠ ولكن مقـــاومة العالم للانسان كبيرة ، وهي تزداد كبيرا ، كلما كبرت الأهداف ، وليس من العيب أن يضمن الانسان المكافح مساعدة رجل صغير عديم النفوذ ، اذا كان هو كذلك مكافحا ٠ وربما اســـتطعنا ذات مرة أن نتحدث معا في هدوء ، بعيدا عن هذه العيون الكثيرة التي تحملق فينا ٠

وقالت :

ـ أنا لا أعرف ماذا تريد ٠

ولم تظهر في نبرتهـــا هـــذه المرة ، على غير ارادتها ، انتصـــارات حياتها ، بل ظهرت فيها أيضا ضروب خيبـــة لانهائية ٠ وراحت تقـــول عاقدة يديها :

ـ هل تراك تريد أن تنتزعني من كلم ؟ يا للسماء !

قال ك ، وكأنه تعب من طول الريبة :

ـ لقد نفذت الى أعماقي ، ولقد كان هذا هو هدفي الذي أخفيته أشد الاخفاء ٠ عليك أن تهجري كلم ، وأن تصبحي عشيقتي ٠ والآن يمكنني أن أنصرف ٠

ونادى ك :

ـ يا أولجا ٠ هيا الى البيت ٠

وأطاعت أولجا ، وانزلقت من فوق البرميل ، ولكنهـــا لم تتخلص بسرعة من الأصدقاء الذين أحاطوا بها ٠ وهنا قالت فريدا بصوت منخفض وهي تنظر نظرة تهديد الى ك :

ـ متى يمكنني أن أتكلم معك ؟

فسأل ك :

ـ هل يمكن أن أبيت هنا ؟

فقالت فريدا :

ـ نعم ٠

ـ هل يمكن أن أبقى الآن هنا ؟

ـ اذهب أولا مع أولجا الى الخارج ، حتى أستطيع التخلص من الناس هنا . ويمكنك أن تعود بعد هنيهة .

فقال ك :ـ

ـ حسنا .

وانتظر ك أولجا نافذ الصبر . ولكن الفلاحين لم يتركوها تنصرف، لأنهم كانوا قد ابتكروا رقصة تدور حول أولجا . وكانوا يحيطون بها على هيئة دائرة ، وكانوا يصدرون صيحة واحدة ، فيتقدم أحدهم الى أولجا ، فيحيط خصرها بيده ويدور بها بضع مرات ، وكان دوران الراقصين يشتد سرعة ، وكانت صيحاتهم الجائعة ، المتحشرجة تندمج معا شيئا فشيئا فتكاد تصبح صيحة واحدة . أما أولجا ، التى كانت من قبل تريد أن تخرج ضاحكة خارج الدائرة ، فكانت تترنح بين هذا وذاك وقد تدلى شعرها في كل ناحية . وقالت فريدا :

ـ انهم يبعثون الى هنا بمثل هؤلاء الناس !

وعضت فى غضبها على شفتيها الرقيقتين . فسأل ك :

ـ ومن هؤلاء؟

فقالت فريدا :

ـ انهم خدم كلم . لقد درج على احضار هؤلاء الناس الذين يسبب لى وجودهم الاضطرابات الشديد . انني لا أعرف ، يا سيادة موظف المساحة ، الكلام الذى قلته لك اليوم . فاذا كان ما قلته لك شيئا قبيحا فأرجو أن تسامحنى ، فان وجود هؤلاء الناس هو السبب . انهم أنذل وأمقت من عرفت ! وعلى مع ذلك أن أصب البيرة فى أكوابهم . ولكم رجوت كلم الا يأتى بهم! فهل من واجبى أن أحتمل خدم السادة الآخرين؟! أكان يمكنه أن يخفف عنى ، ولكن رجائى لم يفد شيئا ! انهم يندفعون ، قبل قدومه بساعة ، الى هنا ، اندفاع البهائم الى الحظيرة . ولابد أن يذهبوا الآن بالفعل الى الحظيرة التى ينتمون اليها . ولو لم تكن أنت هنا ، لفتحت باب كلم عنوة ، ولكان على كلم أن يطردهم بنفسه .

فسأل ك :

ـ ولكن ألا يسمع ؟

فقالت فريدا :

ـ لا ، انه نائم .

وصاح ك :

ـ كيف هذا ؟ تقولين انه نائم ؟ ولكننى عندما نظرت الى الحجرة كان مستيقظا ، وكان يجلس الى المنضدة .

فقالت فريدا :

ـ انه يجلس هكذا دائما . وعندما رأيته كان نائما . وهل كنت أدعك تنظر ، لو لم يكن نائما ؟ وهذا الوضع الذى رأيته هو الوضع الذى يتخذه عندما ينام . ان السادة ينامون كثيرا ، وهذا شيء لا يكاد الانسان أن يفهمه . وهل كان يستطيع أن يحتمل هؤلاء الناس ، لو لم يكن قد نام كثيرا ؟ لابد أن أطردهم أنا الآن بنفسى .

وتناولت سوطا من أحد الأركان وقفزت قفزة واحدة عالية ، غير مطمئنة تماما ، وكأنها قفزة حمل صغير ، متدفعة نحو الراقصين . واتجهت فى بادىء الأمر نحوهم ، وكأنها كانت راقصة جديدة أتت اليهم، وبدا عليها لحظة أنها توشك أن تلقى السوط جانبا ، ولكنها رفعته وصاحت :

ـ باسم كلم ، اذهبوا الى الحظيرة ! كلكم الى الحظيرة !

وتبينوا أن الأمر جد ، وشرعوا ، وقد تملكهم خوف لم يفهمه ك ، يندفعون الى المؤخرة ، وانفتح بابها تحت ضغط أوائلهم ، فنفذ منهم هواء الليل ، واختفى الجميع مع فريدا ويبدو أنها كانت تدفعهم الى الحظيرة .

وسمع ك وسط السكون الذى خيم فجأة وقع خطى فى المدخل . وقفز الى بعيد يلتمس على نحو ما شيئا من الأمن ، فاختفى وراء منضدة الخدمة وكانت تلك هى الإمكانية الوحيدة للاختفاء . حقيقة أنه لم يكن ممنوعا من البقاء فى قاعة الشراب ، ولكنه كان يريد أن يبيت هنا ، ولهذا كان يتحاشى أن يراه انسان . فما أن انفتح الباب ، حتى انزلق تحت المنضدة . ولم تكن هناك خطورة فى اكتشافه هناك ، ولو تعلل بأنه اختفى من الفلاحين الذين استرسلوا فى الصخب والعنف ، لما كان تعلله بعيدا عن التصديق . ولكن القادم هو صاحب الحان الذى صاح :

ـ يا فريدا .

وأخذ يقطع القاعة جيئة وذهابا عدة مرات .

ومن حسن الحظ أن فريدا أتت بعد قليل ولم تشر الى ك بشىء بل اشتكت من الفلاحين فقط ، وذهبت وراء المنضدة بحثا عن ك . واستطاع

ك أن يلمس قدمها ، وأحس عند ذاك بالأمن · ولما لم تشر فريدا الى ك انتهى الأمر بصاحب الخان الى أن سأل هو عنه قائلا :

ـ وأين موظف المساحة ؟

وكان صاحب الخان بصفة عامة رجلا مهذبا اكتسب أدبا رقيقا من مخالطته المستمرة الحرة لأصحاب الرتب الرفيعة ، ولكنه كان يتكلم مع فريدا على نحو يتسم بمزيد من الاحترام ، وكان هذا الأسلوب يلفت النظر لأن صاحب الخان كان صاحب العمل وكانت فريدا عاملة ، عاملة ممتازة بجرأة لا مراء فيها · وقالت فريدا :

ـ لقد نسيت موظف المساحة تماما ·

ووضعت قدمها الصغيرة على صدر ك · وأكملت :

ـ لابد أنه انصرف منذ مدة طويلة ·

وقال صاحب الخان :

ـ ولكننى لم أره ، ولقد كنت طوال الوقت تقريبا فى المدخل ·

وقالت فريدا ببرود :

ـ انه ليس هنا ·

فقال صاحب الخان :

ـ لعله اختبأ · وان الانطباع الذى أحدثه فى يجعلنى أتوقع منه مثل هذه الأعمال ·

وقالت فريدا :

ـ لا أظن أن لديه مثل هذه الجرأة ·

وضغطت فريدا بقدمها على ك ضغطا أكثر شدة · لقد كان فى كيانها شىء من المرح والانطلاق لم يلحظه ك من قبل · وها هو ذا يتجاوز بها الحد بشكل خارق للمألوف فتقول فجأة ضاحكة :

ـ لعله يكون مختبئا هنا تحت المنضدة !

وانحنت الى ك ، وقبلته قبلة عابرة ثم هبت واقفة وقالت آسفة :

ـ لا ، انه ليس هنا !

وكذلك صاحب الخان تصرف على نحو يثير الدهشة عندما قال :

ـ اننى متضايق جدا لأننى لا أعرف على وجه اليقين هل انصرف أم لم ينصرف · فليست المسألة مسألة السيد كلم فحسب ، بل مسألة

الأوامر كذلك • والأوامر تشملك أنت أيضا يا آنسة فريدا كما تشملني• أنت مسئولة عن قاعة الشراب ، أما أنا فسأفتش بقية البيت • تصبحين على خير • وأتمنى لك نوما هادئا •

ولم يكن صاحب الحان قد غادر القاعة بعد عندما أطفأت فريدا النور الكهربى وذهبت الى ك تحت المنضدة • وقالت هامسة :

– حبيبى ! حبيبى الحلو !

ولكنها لم تلمس ك ، بل رقدت على ظهرها ، وكأنما أغمى عليها من فرط الحب ، وبسطت ذراعيها ، فلا شك أن الوقت كان يبدو أمام حبها السعيد طويلا طولا لا نهاية له ، وأطلقت زفرات كانت أقرب الى التنهد منها الى التغنى بأغنية صغيرة • ثم هبت مذعورة لأن ك ظل ساكنا يفكر ، وشرعت تشده كما يفعل الأطفال ، وقالت :

– هيا بنا ! اننا نكاد نختنق هنا أسفل المنضدة !

وتعانقا ، وكان الجسم الصغير يحترق فى يدى ك ، وتدحرجا فى غيبوبة حاول ك دائما أن ينجو بنفسه منها دون أن يتمكن ، تدحرجا بضع خطوات ، وارتطما ارتطاما مكتوما بباب كلم ، ورقدا فيما وقع على الأرض من بقايا البيرة وغيرها من قاذورات • ومرت ساعات ، ساعات من التنفس المشترك ، والنبض المشترك ، كان ك خلالها يحس بأنه يضل السبيل أو أنه يتوغل فى الغربة توغلا لم يحدث لانسان من قبل ، يتوغل فى غربة ليس فيها ما يشبه الوطن حتى الهواء فيها كان غريبا ، يكاد الانسان من فرط غربته أن يختنق فيه • ولم يستطع ك من فرط المغريات المجنونة أن يفعل شيئا أكثر من الاستمرار فى السير ، الاستمرار فى الضلال • وهو لهذا لم يحس فى بداية الأمر بالفزع ، بل أحس بغشاوة تحيطه بالسلوى ، حتى جاءه صوت عميق ، فيه نبرة الأمر ونبرة الاستهتار معا ، من حجرة كلم ينادى على فريدا • فتلقف ك الصيحة ونقلها الى أذن فريدا قائلا :

– يا فريدا •

وهمت فريدا أن تهب ملبية تستجيب فى ذلك لطاعة غريزية شكلية فى ذاتها ، ولكنها ما لبثت أن فكرت وتذكرت أين هى ، وتمددت، وضحكت فى سكون وقالت :

– لن يخطر ببالى أن أذهب اليه ، لن أذهب اليه أبدا •

وأراد ك أن يعترض على كلامها ، وأن يدفعها الى الذهاب الى كلم ،

وشرع يبحث عن بقايا قميصها ، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئا ، فقد كان سعيدا غاية السعادة لامتلاكه بفريدا بين يديه ، ولكنه كان سعيدا وخائفا معا ، لانه كان يتصور أن فريدا اذا ضاعت منه ، فسيضيع منه كل شيء لديه • وكأنما ازدادت فريدا بموافقة ك قوة ، فقبضت يدها ، وضربت بالقبضة على الباب وصاحت :

ـ أنا مع موظف المساحة ! أنا مع موظف المساحة !

وهنا لزم كلم السكون • ولكن ك نهض وركع بجوار فريدا ونظر اليها في ضوء الفجر المضطرب • ماذا حدث ؟ أين كانت آماله ؟ ماذا كان في استطاعته أن ينتظره من فريدا بعد ما انكشف كل شيء ؟ لقد ظل ليلة بطولها يتقلب حبا في بقايا البيرة على الأرض ـ وان رائحتها لتدور الآن بعقله ـ بدلا من أن يلتزم بالحذر على قدر ضخامة العدو وضخامة الهدف • وقال بصوت خفيض :

ـ ماذا فعلت ؟ لقد ضعنا أنت وأنا •

وقالت فريدا :

ـ بل أنا وحدى التى ضعت • ولكننى كسبتك • كن هادئا • ولننظر الآن كيف يضحك الآخران •

وقال ك :

ـ من ؟

والتفت خلفه • كان مساعداه يجلسان على المنضدة ، وقد بدا عليهما السهر ، ولكنهما كانا مرحين • كان مرحهم هذا هو المرح الذى ينبع من تأدية الواجب بالخلاص • وصاح ك فيهما وكأنهما كانا مسئولين عن كل شيء :

ـ ماذا تريدان هنا ؟

وبحث حواليه عن السوط الذى كان مع فريدا فى الليلة الماضية • وقال المساعدان :

ـ كان علينا أن نبحث عنك لأنك لم تنزل الينا فى قاعة الحان • ولقد بحثنا عنك عند برناباس وأخيرا وجدناك هنا • ولقد جلسنا هنا طوال الليل • فليست الخدمة بالأمر السهل •

فقال ك :

ـ اننى أحتاج اليكم بالنهار ، لا بالليل • اغربا عنى •

ولكنهما قالا دون أن يتحركا :

ـــ والوقت نهار ٠

وكان الوقت بالفعل نهارا ، وانفتح باب الفناء ، واندفع الفلاحون داخلين ومعهم أولجا التى كان ك قد نسيها تماما ٠ كانت أولجا نشيطة كما كانت بالليل على الرغم من سوء حال ملابسها وشعرها ٠ وما أن دخلت بالباب حتى بحثت عيناها عن ك ، وقالت والدموع تكاد تنهمر من مآقيها :

ـ لماذا لم تذهب معى الى البيت ؟

ثم قالت :

ـ من أجل بنت كهذه !

وكررتها مرارا ٠ كانت فريدا قد اختفت لحظة ، واذا هى تعود ومعها صرة صغيرة بها بعض الملابس ٠ وانتحت أولجا جانبا وقد تملكها الحزن ٠ وقالت فريدا :

ـ والآن يمكننا أن نذهب ٠

كان من البديهى أنها تعنى بالذهاب الى حان الجسر ٠ وسار الركب: ك وفريدا وخلفهما المساعدان ٠ وأظهر الفلاحون كثيرا من الاحتقار لفريدا ، وكان هذا شيئا بديهيا ، لأنها كانت حتى تلك اللحظة تسيطر عليهم ٠ بل ان أحد الفلاحين تناول عصا وتظاهر بأنه يريد أن يمنعها من الانصراف الا أن تقفز من فوق العصا ٠ ولكن نظرة منها كانت كافية لابعاده ٠ وتنفس ك ملء رئتيه فى الخارج حيث الجليد ٠ ولقد كانت سعادته بالمكان الطلق كبيرة مكنته من احتمال صعوبة الطريق وحده فى هذه المرة ٠ ولو كان ك وحده ، لسار أفضل من الآن ٠ فلما وصل الى حان الجسر ذهب من فوره الى حجرته ورقد فى سريره ، وأعدت فريدا قريبا منه فراشا لها على الأرض ٠ وكان المساعدان قد دخلا الحجرة ، فأخرجهما ك منها ، فعادا من خلال النافذة ، ولم يستطع ك لفرط تعبه أن يطردهما مرة أخرى ٠ وأتت صاحبة الحان خصيصا لتحية فريدا التى نادتها « أماه » ، وكانت التحية القلبية مصحوبة بقبلات وعناق طويل لم يفهم ك من أمرها شيئا ٠ ولم يكن الهدوء فى الحجرة الصغيرة هدوءا بمعنى الكلمة ، فكثيرا ما كانت الخادمتان تأتيان وتحدثان ضجة بأحذيتهما الرجالية الطويلة الثقيلة ، تريدان اما احضار شىء أو أخذ شىء ٠ واذا

كانتا تحتاجان الى شيء من الأشياء الكثيرة المختلفة التى تكدست على سرير ك ، فقد كانتا تشدانه من تحته دون مراعاة له . وكانت الخادمتان تحييان فريدا تحية الند للند . وعلى الرغم من هذا الصخب فقد لزم ك السرير طوال النهار والليل . وكانت فريدا تعينه على الحاجات البسيطة . فلما نهض فى الصباح التالى أخيرا وقد انتعش كل الانتعاش ، كان ذلك هو اليوم الرابع فى اقامته بالقرية .

الفصل الرابع

كان ك يود أن يسر الى فريدا بحديث ، ولكن المساعدين – وكانت فريدا تمزح وتضحك معهما أحيانا – كانا يعوقانه عن ذلك بوجودهما الذى يفرضانه فرضا • والحقيقة أنهما كانا يكتفيان بالقليل ، فقد جلسا على جلبابين قديمين من جلابيب النساء فى ركن من أركان الحجرة على الأرض • وكان همهما ، كما قالا لفريدا ، ألا يقلقا السيد موظف المساحة، وألا يشغلا الا أقل مكان ممكن ، وكانا يقومان من أجل هذا الهدف – بطبيعة الحال وهما يهمسان ويضحكان ضحكا مكتوما – بمحاولات مختلفة لضم أذرعهما وسيقانهما ، حتى تكورا معا ، ولم يكن ك يرى الا كرة كبيرة فى ظلام أحد الأركان • ومع ذلك فقد كان ك يعلم من خبراته فى وضح النهار ، أنهما يجيدان الملاحظة ، وأنهما دائما يحملقان فى ك ، فيصطنعان عبث الصبية ، وينظران من خلال أيديهما وكأنها منظار مقرب أو ما شابه ذلك من العبث ، أو يحملقان فيه ويلوحان كأنهما يصلحان من لحيتيهما وكانا يهتمان بهما اهتماما كبيرا ويقارنان بينهما مرات لا حصر لها من حيث الطول والكثافة ، ويحتكمان الى فريدا •

وكثيرا ما كان ك ينظر من سريره الى ما يفعله الثلاثة ولا يحفل به مطلقا •

فلما أحس بأنه أوتى من القوة ما يمكنه من مغادرة الفراش ، أسرع الجميع اليه لخدمته • ولكنه لم يكن قد بلغ من القوة ما يمكنه من رفض خدماتهم ، ولاحظ أنه انتهى بهذا الى نوع ما من التبعية اليهم ، يمكن أن تؤدى الى عواقب وخيمة ، ولكنه كان مضطرا الى ترك الأمور تسير سيرها • ولم يكن من المستقبح على أية حال أن يجلس الى مائدة ويتناول قهوة جيدة أحضرتها فريدا ، ولا أن يتدفأ الى المدفأة التى حمتها فريدا ، ولا أن يرسل المساعدين المتحمسين المتعثرين صاعدين نازلين الدرج ليحضرا الماء والصابون والمشط والمرآة ، ثم ليحضرا كأسا صغيرة من خمر الروم طلبها ك بصوت منخفض ولكنه مفهوم •

وقال ك فى غمرة هذه الأوامر والخدمات ، يحفزه المزاج المعتدل أكثر مما يحفزه الأمل فى النجاح :

ـ اذهبا الآن ، اذهبا كلاكما ، لم أعد الآن في حاجة اليكما ، وأريد أن أتكلم وحدى مع الآنسة فريدا .

فلما لم ير على وجهيهما مقاومة واضحة ، قال لهما على سبيل التعويض :

ـ وسنذهب نحن الثلاثة بعد ذلك لرئيس مجلس القرية ، فانتظرانى تحت في القاعة . ومن الغريب أنهما انصاعا لأمره ، وان قالا قبل أن ينصرفا :

ـ من الممكن أن ننتظر هنا .

وأجاب ك :

ـ انا أعرف هذا ، ولكنى لا أريد .

وتضايق له ـ أو لعلها استحسنت على نحو ما تركتهما جلست فريدا فى حجره بعد خروج المساعدين مباشرة ، وقالت له :

ـ فيم غضبك يا حبيبي من المساعدين ؟ لا ينبغى أن يكون لنا أسرار نخفيها عليهما . انهما مخلصان .

فقال ك :

ـ آه مخلصان ! انهما يتطفلان على دائما ، وهذا شيء سخيف ، ولكنه شيء بشع .

فقالت :

ـ اظن أننى أفهمك .

وتعلقت برقبته ، وأرادت أن تقول شيئا ولكنها لم تستطع الاستمرار فى الكلام . ولما كان الكرسى مجاورا للسرير فقد مالا ناحيته وانقلبا فيه . وهاهما هذان يرقدان ولكنهما لم يكونا مستسلمين كما كانا بالليل . كانت هى تبحث عن شيء ، وكان هو يبحث عن شيء ، فى عنف ، وكل منهما يمتص أساريره ، ويدس رأسه فى صدر الآخر ، كانا يبحثان ، وكان عناقهما ، وكان جسماهما المضطربان لا يجعلانهما ينسيان واجبهما ، واجب البحث ، بل يذكرانهما به . كان ينبشان فى جسيمهما ، كما تنبش الكلاب اليائسة فى الأرض . وكانا يمزان بلسانيهما كل وجه

الآخر التماسا لسعادة أخرى فى يأسهما وعجزهما • حتى أسكنهما التعب وجعلهما يحسان بالامتنان أحدهما حيال الآخر • وصعدت الخادمتان اليهما ، وقالت احداهما للأخرى :

ـ أنظرى كيف يرقدان !

وألقت عليهما ملاءة رأفة منها بهما •

فلما تخلص فيها جد من الملاءة ، ونظر حواليه ، وجد ـ ولم يدهش هو لما وجد ـ المساعدين قد عادا الى ركبتهما ، وكان كل منهما يحض صاحبه ، وهو يشير بأصبع الى ك ، على الجد ، وأداء التحية الواجبة • وكانت هناك كذلك ، صاحبة الخان تجلس ملتصقة بالسرير ، وترفى جوربا، وهو عمل صغير لم يكن يتناسب الا قليلا مع جسمها الهائل الذى أوشك أن يظلم الحجرة • وقالت وهى ترفع وجهها الذى ارتسمت فيه طيات الشيخوخة وان ظل فى مجموعه كتلة منبسطة ، ولعله كان فى زمانه وجها جميلا :

ـ اننى أنتظر منذ وقت طويل •

كانت كلماتها تحمل نغمة اللوم ، وكان لوما فى غير موضعه لأن ك لم يطلب اليها أن تأتى • ولهذا فقد أكد كلماتها بهزة من رأسه فقط ، ثم اعتدل فى الجلسة • وكذلك نهضت فريدا • وتركت ك واستندت الى كرسى صاحبة الخان • وقال ك وهو مهوش الفكر •

ـ ألا يمكن تأجيل هذا الذى تريد السيدة صاحبة الخان قوله لى ، حتى أعود من عند رئيس مجلس القرية ؟ فهناك حديث هام أريد اجراءه هنــاك ؟

فقالت صاحبة الخان :

ـ هذا الحديث أكثر أهمية ، صدقنى ، يا سيادة موظف المساحة • ويبدو أن الأمر هناك أمر عمل ، أما الأمر هنا فأمر انسان آخر فريدا ، خادمتى العزيزة •

فقال ك :

ـ آه ! طبعا ! ولكننى لا أعرف لماذا تترك هذه المسألة لنا نحن •

فقالت صاحبة الخان :

ـ السبب هو الحب ، والاهتمام •

وجذبت رأس فريدا اليها ، وكانت فريدا وهي واقفة ، لا تصل الا الى كتف صاحبة الحان وهى جالسة · وقال ك :

ـ ما دامت فريدا تثق فيك هذه الثقة ، فلا يمكن الا أن أقف منك نفس الموقف · ولما كانت فريدا قد قالت منذ قليل ان المساعدين مخلصان ، فنحن اذن أصدقاء فيما بيننا · ولهذا يمكننى أن أقول لك ، يا سيدتى صاحبة الحان ، اننى أعتقد أن أفضل شيء هو أن نتزوج ، فريدا وأنا ، وفى أقرب وقت · وأنا للأسف لن أستطيع أن أعوض فريدا عما فقدته بسببى ، أعنى وظيفتها فى حان السادة ، وصداقتها لكلم ·

ورفعت فريدا وجهها وكانت عيناها مليئتين بالدموع ، ولم يكن فيهما أى تعبير عن الانتصار ·

وقالت :

ـ لماذا أنا بالذات ؟ لماذا وقع الاختيار على أنا بالذات ؟

وسأل ك وصاحبة الحان معا :

ـ ماذا تعنين ؟

وقالت صاحبة الحان :

ـ انها ، الطفلة المسكينة ، مرتبكة ! مرتبكة لالتقاء كثير من السعادة مع كثير من التعاسة · وكأنما أرادت فريدا أن تؤكد هذه الكلمات فارتمت على ك وقبلته بعنف وكأنما لم يكن في الحجرة غيرهما ، ثم خرت أمامه تبكى ، وتعانقه ، وهي راكعة · وبينما أخذ ك يداعب شعر فريدا بيديه ، سأل صاحبة الحان :

ـ يبدو أنك ترين أننى على حق ؟

فقالت صاحبة الحان :

ـ انك رجل شريف ·

وكانت الدموع تحبس صوتها هى الأخرى ، وكانت تبدو واهنة قليلا وتتنفس بصعوبة · ومع ذلك فقد وجدت لديها القوة لتقول :

ـ لابد من التفكير الآن فى الضمانات التى ينبغى أن تقدمها الى فريدا ، فأنت ، على الرغم من احترامى الكبير لك ، رجل غريب ، لايمكنك أن تستشهد بأحد ، وظروفك العائلية غير معروفة هنا · ولهذا فان

الضمانات ضرورية ، وهذا شيء لا شك في أنك تقدره ، يا سيادة موظف المساحة ، ولقد أوضحت أنت نفسك مانفقده فريدا نتيجة لعلاقتها بك .

وقال ك :

ـ بكل تأكيد . ضمانات ! بطبيعة الحال ! والأفضل تقديمها أمام الموثق ، وربما تدخلت كذلك ادارات رسمية أخرى . ولكن هناك شيء لابد أن أنهيه قبل الزواج . لابد أن أتكلم مع كلم .

فقالت فريدا :

ـ هذا محال !

ونهضت قليلا وضغطت نفسها قليلا الى ك ثم أضافت :

ـ يا لها من فكرة !

وقال ك :

ـ لابد ! واذا استحال على أن أقوم أنا بهذا ، فعليك أن تقومى لى به .

وقالت فريدا :

ـ أنا لا أستطيع ، يا ك ، أنا لا أستطيع . لن يتكلم كلم معك أبدا .

وسأل ك :

ـ فهل يتكلم معك أنت ؟

فقالت فريدا :

ـ لا ! لا معك ولا معى ، هذه أمور مستحيلة استحالة تامة .

والتفت الى صاحبة الحان وقد بسطت ذراعيها وقالت :

ـ أترين يا سيدتى صاحبة الحان ماذا يطلب !

وقالت صاحبة الحان وقد اصبحت هيئتها مفزعة بعد أن اعتدلت فى جلستها وباعدت بين ساقيها وأبرزت ركبتيها الضخمتين من الثوب الرقيق :

ـ انك لعجيب الشأن ، يا سيادة موظف المساحة .

وسأل ك :

ـ ما هى علة الاستحالة ؟

وقالت صاحبة الخان :

ـ سأشرح لك ٠

وكانت نبرة صوتها تدل على أن هذا الشرح ليس آخر جميل تصنعه بل أول عقوبة تقدمها ٠ قالت :

ـ سأشرح لك ٠ حقيقة أنني لا أنتمي الى القصر ، وانني لست الا امرأة ، ولست الا صاحبة خان ، خان وضيع ـ وهو ليس وضيعا ، ولكنه يوشك أن يكون وضيعا ـ ولعلك لهذا تقلل من شأن شرحي ، ولكنني كنت في حياتي يقظة مفتحة العينين ، ولقد خالطت الكثيرين ، وحملت عبء الخان كله على كاهلي ، لأن زوجي ، وان كان انسانا طيبا ، ليس صاحب خان ، ولن يفهم أبدا معنى المسئولية ٠ وأنت على سبيل المثال مدين لاهماله ـ فقد كنت وأنا في مساء ذلك اليوم خائرة القوى أكاد أقع من فرط الاجهاد ـ بأنك الآن في القرية ، وبأنك تجلس في السرير هنا في سلام وأمان ٠

وسأل ك وقد استيقظ من نوع التشتت الذى كان قد تملكه وانفعل من فرط الفضول أكثر مما انفعل من الغضب :

ـ كيف هذا ؟

فصاحت صاحبة الخان مرة أخرى وهي ترفع السبابة في وجه ك :

ـ أنت مدين لاهماله وحده دون غيره ٠

وحاولت فريدا أن تهدئها ٠ فقالت صاحبة الخان بحركة سريعة من جسمها كله :

ـ ماذا تريدين ؟! لقد سألني السيد موظف المساحة ولابد أن أجيب ٠ والا كيف يفهم أمرا بديهيا لدينا ، وهو أن السيد كلم لن يكلمه أبدا ، وأنا أقول لن يكلمه وينبغي أن أقول لن يستطيع أن يكلمه أبدا ٠ أتسمع يا سيادة موظف المساحة ؟! ان السيد كلم سيد من القصر ، وهذا في حد ذاته يعني ، بغض النظر عن وظيفة كلم الأخرى ، أنه رفيع الرتبة ٠ فمن أنت يا من تطلب بتواضع موافقتك على الزواج ؟ أنت لست من القصر ، وأنت لست من القرية ، أنت لست شيئا ٠ ولكنك للأسف مع ذلك شيء ، أنت غريب ، أنت شخص زائد ، شخص في الطريق ، شخص تنشأ بسببه المتاعب ، شخص تخرج الخادمتان بسببه من حجرتهما ، شخص لا نعرف نواياه ، شخص يغوي صغيرتنا العزيزة الحبيبة فريدا

ولا نستطيع أن نعطيه اياها زوجة · وأنا لا أوجه اليك اللوم في الحقيقة بسبب هذا كله · أنت كما أنت · ولقد رأيت من قبل في حياتي الكثير ، وأصبح في استطاعتي أن أحتمل مثل هذا المنظر · ولكن تصور ماذا تطلب ! انك تطلب أن يكلمك رجل مثل كلم ! لقد سمعت في ألم أن فريدا تركتك تنظر من ثقب الباب ، انك ، عندما فعلت هي ذلك ، كنت أنت قد أغويتها · فقل لي كيف احتملت منظر كلم ؟ لا ينبغي أن تجيب ، فأنا أعرف ، لقد احتملته جيدا جدا · فليس في مقدورك أن ترى كلم فعلا ، وليس هذا غرورا مني ، فأنا نفسي لا أستطيع أن أراه · وأنت تقول انك تريد أن يتكلم كلم معك · انه لا يتكلم مع أهل القرية ، ولم يحدث قط أن تكلم مع أحد من القرية · ولقد نالت فريدا امتيازا عظيما ، امتيازا سأظل أفخر به حتى مماتي، وهو أنه على الأقل اعتاد على أن ينادي اسمها ، وأنها كانت تستطيع أن تحدثه ما شاءت ، وأنها تلقت التصريح بثقب الباب ، ولكنه لم يتكلم معها · أما انه كان أحيانا ينادي فريدا ، فلا يعني بالضرورة أنه كان يود الحديث اليها ، كل ما في الأمر أنه كان ينادي اسم فريدا — وأين هذا الذي يعرف نواياه ؟ — وأما أن فريدا كانت تأتي مسرعة ، فهذا شأنها — واذا كان لا يعترض على دخولها ، فما هذا الا لطيبته ، ولا يمكن لانسان أن يؤكد انه كان يناديها بمعنى الكلمة · ولقد انتهى هذا الذي كان الى الأبد ، انتهى نهائيا بطبيعة الحال ، وربما ظل كلم يهتف باسم فريدا ، هذا ممكن ، ولكنها ، البنت التي استسلمت لك ، لن يسمح لها بكل تأكيد بأن تدخل اليه · وهناك شيء لا أستطيع أن أفهمه برأسي المسكينة ، وهو أن بنتا ، يقولون عنها انها عشيقة كلم — وأنا شخصيا أعتبر هذه مبالغة شديدة — تدعك تلمسها مجرد اللمس-

فقال ك :

— هذا شيء عجيب عجيب بكل تأكيد !

وأجلس ك فريدا على حجره ، فانصاعت لذلك على الفور وان طأطأت رأسها · ثم راح يقول :

— ولكن هذا يثبت ، على ما أعتقد ، أن الأمور لا تسير كلها على النحو الذي تعتقدين أنها تسير عليه · فأنت مثلا على حق في قولك انني بالقياس الى كلم لا شيء ، واذا طلبت الآن أن أتكلم مع كلم ، ولم أتراجع عن ذلك حتى رغم شروحك ، فليس معنى ذلك أنني أستطيع أن أحتمل منظر كلم بدون باب يفصل بيننا ، أو أنني لن أجري خارجا من الحجرة عند ظهوره · ولكن مثل هذا الخوف ، وان كان له ما يبرره ،

لا يعتبر فى نظرى سببا يمنعنى من أن أجازف • فاذا تمكنت من أن أصمد له ، فلن تكون هناك ضرورة لكى يتكلم معى ، يكفينى أن أرى الانطباع الذى تحدثه فيه كلماتى ، فاذا لم تحدث كلماتى انطباعا ، أو اذا لم يصغ اليها ، فقد كسبت شيئا وهو أننى تكلمت بحرية أمام واحد من أولى السلطان • أما أنتما ـ، أنت يا سيدتى صاحبة الحان بمعرفتك العظيمة بالحياة والناس ، وأنت يا فريدا يا من كنت حتى الأمس عشيقة كلم ٠٠ ولست أرى سببا فى التخلى عن كلمة عشيقة ٠٠ فيمكنكما بكل تأكيد أن تدبرا لى بسهولة فرصة الحديث مع كلم • واذا لم تعرض طريقة أخرى لذلك الا طريقة اللقاء فى حان السادة ، فلا بأس ، ولعله لا يزال اليوم كذلك هناك •

وقالت صاحبة الحان :

ـ هذا محال ! واننى لأرى أنك تفتقر الى القدرة على الفهم • ولكن قل لى عم تريد أن تتكلم معه ؟

فقال ك :

ـ عن فريدا بطبيعة الحال •

وتساءلت صاحبة الحان :

ـ عن فريدا ؟

واتجهت الى فريدا وهي لا تصيب فهما :

ـ أتسمعين يا فريدا ، انه يريد أن يتكلم عنك مع كلم ! هو يتكلم مع كلم !

فقال ك :

ـ آه ! انك يا سيدتى صاحبة الحان امرأة حاذقة ، تبعثين على الاحترام ، ولكنك تفزعين لكل صغيرة • اننى أريد أن أتكلم معه عن فريدا ، وهذا شيء ليس بالهائل ، بل هو شيء بديهى • لأنك تخطئين اذا اعتقدت أن فريدا أصبحت عديمة الأهمية فى نظر كلم ، منذ اللحظة التى ظهرت أنا فيها • انك تقللين من شأنه اذا ظننت هذا • اننى أحس تمام الاحساس ، بأننى أتجاوز الحدود ان أنا أردت أن أعلمك شيئا فى هذا الصدد ، ولكننى مضطر لذلك • لا يمكن أن تكون علاقة كلم بفريدا قد تغيرت بسببى • فاما أنه لم تكن هناك بينهما علاقة جوهرية ـ وهذا ما يقوله أولئك الذين يشرفون فريدا باسم عشيقته ـ فهى اليوم ليست

قائمة كذلك ، واما أنه كانت هناك علاقة ، ولا يمكن فى هذه الحالة أن تضطرب بسببى ، لأننى كما قلت ، والصواب فى جانبك ، لا شىء فى نظر كلم ٠ هذه أشياء يظنها الانسان فى اللحظة الأولى لفزعه ظنا ، ولكنه عندما يفكر أقل تفكير ، لا يلبث أن يردها الى الصواب ٠ ولندع فريدا تقول رأيها فى هذا ٠

وقالت فريدا وقد سبحت بنظرها الى بعيد ، ووضعت خدها على صدر ك :

ـ ان الأمر بكل تأكيد كما قالت الأم ، ان كلم لم يعد يريد أن يعرف عنى شيئا ٠ وليس السبب فى ذلك بطبيعة الحال هو أنك ، يا حبيبى أتيت ، فهذا أمر لا يمكن أن يهزه ٠ لكننى أعتقد أن لقاءنا تحت منضدة الخدمة كان من عمله ! تباركت تلك الساعة ولا لعنت !

كانت كلمات فريدا حلوة ، فأغمض ك عينيه لحظات ليدع هذه الكلمات تتغلغل فيه ، ثم قال ببطء :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، واذا كان الأمر على هذا النحو ، فهذا أدعى الى ألا يكون هناك سبب للخوف من محادثة كلم ٠

فقالت صاحبة الحان وهى تنظر الى ك من أعلى الى أسفل :

ـ حقا ! انك تذكرنى أحيانا بزوجى ! إنه عنيد وفج مثلك ! لم يمض عليك فى المكان الا بضعة أيام ، وتدعى أنك تعرف كل شىء أحسن من أهله ، أحسن منى أنا المرأة المسنة ، ومن فريدا التى رأت وسمعت الكثير فى حان السادة ! وأنا لا أنكر أن الانسان يستطيع أحيانا أن يحقق شيئا ضد اللوائح وضد التقاليد القديمة ، ولكننى لم أشهد شيئا من هذا القبيل ، هناك أمثلة على ذلك ، هذا محتمل ٠ ولكن الانسان حتى فى هذه الحالة ، لا يمكن أن يصل عن هذا الطريق الذى تسلكه أنت اذ تقول دائما « لا » « لا » ، ولا تعتمد الا على مخك ، وتضرب صفحا عن النصائح التى تصدر عن أطيب نية ٠ فهل تظن أننى مهتمة بك ؟ هل اهتممت بك عندما كنت بمفردك ؟ ولو أننى فعلت ذلك لكان خيرا ولجنبتك بعض الأشياء ٠ الشىء الوحيد الذى قلته انذاك بشأنك قلته لزوجى ٠ لقد قلت له : « ابتعد عنه ! » وكان الأحرى بى أن أفعل ذلك أنا الآن ، ولكن فريدا جرتنى الآن الى مسألة يقوم عليها مصيرها ٠ وأنت مدين لفريدا ـ سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك ـ بأننى أبدى لك اهتماما واحتراما ٠ وليس من حقك أن تطردنى بكل بساطة ، لأنك مسئول أمامى مسئولية

قاسية ، لأنني الوحيدة التي ترعى فريدا الصغيرة رعاية الأم لأولادها • من الممكن أن تكون فريدا على حق ، من الممكن أن يكون كل ما جرى يكون مشينة لكم ، ولكني لا أعرف عن كلم شيئا الآن ، وأنا لن أتكلم عنه أبدا ، فوضـولي اليه محـال ، أما أنت فتجلس هنا ، وتحتجز عزيزتي فريدا ، وأنا كذلك ــ ولماذا أخفى عليك هذا ؟ ــ أحتجزك • نعم ، أنا أحتجزك • وما عليك إلا أن تحاول ، أيها الشاب ، إذا أخرجتك من البيت ، أن تجد سكنا في أي مكان بالقرية ، حتى ولو في عشة من عشش الـكلاب •

فقال ك :

ــ شكرا ، وهذه كلمات صريحة ، وأنا أصدقك تماما • اذن فوضعي يفتقر الى الاطمئنان كل الافتقار ، ووضع فريدا مرتبط كذلك بوضعي •

فقاطعته صاحبة الخان صائحة في غضب :

ــ لا ، ان وضع فريدا لا علاقة له في هـذه الناحية بوضعك • ففريدا تنتمي الى بيتي ، وليس لانسان الحق في أن يقول ان وضعها يفتقر الى الاطمئنان •

فقال ك :

ــ حسنا • حسنا • أنا أقر لك بأنك على حق في هذا ، خاصة وأن فريدا ، لأسباب لا أعلمها ، تخاف منك خوفا مفرطا ، على ما يبدو ، ولا تستطيع أن تتدخل • لنبق مؤقتا عند موضوعي أنا • ان وضعي يفتقر الى الاطمئنان الي أقصى حد ، هذا ما لا تنكرينه ، بل انك تجتهدين في اثباته • وهذا الأمر مثله مثل كل ما تقولين ، أمر ليس صحيحا تمام الصحة ، بل الي حد كبير فقط • فأنا على سبيل المثال أعرف مكانا طيبا جدا للمبيت ، وهو تحت تصرفي •

وصاحت فريدا وصاحبة الخان في وقت واحد وفي شغف شديد وكأنما كانت أسبابهما واحدة :

ــ أين ؟ أين ؟

فقال ك :

ــ عند برناباس •

وصاحت صاحبة الخان :

ـ الجيالة الحثالة الأنذال ! عند برناباس ! أتسمعان

واتجهت الى الركن وكان المساعدان قد برزا منذ وقت طويل ، ووقفا يتأبط أحدهما ذراع الآخر وراء صاحبة الخان التي بدت كأنها تحتاج الى سند ، وأمسكت بيد أحدهما وقالت

ـ أتسمعان أين يعبث السيد ! في بيت أسرة برناباس ! انه ينال هناك بطبيعة الحال مكانا للمبيت ! ليته بات هناك ولم يبت في حان السادة ولكن أين كنتما ؟

وقال ك قبل أن يشرع المساعدان في الاجابة

ـ سيدتي صاحبة الخان ، انهما مساعداي ، أنت تعاملينهما كأنما كانا مساعديك أنت ، وحارسين علي انني مستعد لمناقشتك بكل أدب في كل آرائك ، الا في رأيك في مساعدي لأن المسألة واضحة كل الوضوح ، انني لذلك أرجوك ألا تتكلمي مع مساعدي ، واذا لم يجد رجائي نفعا ، فسأمنع مساعدي من الاجابة

فقالت صاحبة الخان

ـ اذن ليس لي أن أتحدث اليكما

وضحك الثلاثة ، ضحكت صاحبة الخانة متآخرة ، ولكن أكثر رقة مما توقع ك وضحك المساعدان بأسلوبهما المعهود الذي يعني الكثير ولا يعني شيئا ، ويرفض كل مسئولية .

وقالت فريدا

ـ لا ينبغي أن تغضب بل عليك أن تفهم انفعالنا الفهم الصحيح. أما اننا ينتمي أحدنا الى الآخر الآن ، فأمر يرجع الفضل فيه ، ان شئنا ، الى برناباس وحده وأنا عندما رأيتك للمرة الأولى في الخمارة ، وكنت داخلا تتأبط ذراع أولجا كنت لم تكن الشيء الوحيد الذي لا يثير اهتمامي فقد كانت كل الأشياء تقريبا لا تثير اهتمامي ولقد كنت أنا آنذاك غير راضية على أشياء كثيرة ، وكانت هناك أشياء تغضبني ولكن أي نوع من عدم الرضا ، وأي نوع من الغضب ؟! لقد أهانني على سبيل المثال أحد الزبائن في الخمارة ـ وكان الزبائن دائما يتعقبونني ـ ولقد رأيت أنت الرجال هناك ، وكان يأتي من هم أقبح منهم ، فليس خدم كلم بأقبح الرجال ـ قلت ان أحد الزبائن أهانني فماذا كان معنى ذلك بالنسبة الي ؟ لقد أحسست كأن هذا الذي يحدث قد حدث قبل

سنين عديدة ، أو كأنه لم يحدث لى على الاطلاق ، أو كأنى اسمع البعض يحكى لى عنه أو كأنى قد نسيته · ولكننى لا أستطيع أن أصـــوره ، ولا أستطيع حتى أن أتصوره ، فقد تغير كل شيء منذ أن هجرنى كلم ·

وقطعت فريدا روايتها ، ومالت برأسها حزينة ، وعقدت يديها على حجرها ·

وصاحت صاحبة الحان :

ـ أرأيت !

ولاح عليها كأنما لاتتكلم بلسانها بل بلسان فريدا ، وتقدمت ناحيتها حتى أصبحت تجلس بجانبها ، وراحت تقول :

أرأيت يا حضرة موظف المساحة نتائج أفعالك على ! وعلى مساعديك كذلك ، ولم يعد لى أن أتكلم معهما ، أن يروا هم أيضا نتائج أفعـــالك ليتعظوا ! لقد انتزعت فريدا من أسعد حال أوتيته ، ولقد تمكنت من ذلك ، لأن فريدا لم تستطع ، لرقتها الصـــبيانية المفرطة ، أن تحتمل النظر اليك متأبطا ذراع أولجا، وقد بدا عليـــك أنك وقعت فى براثن العائلة البرناباسية · فأنقذتك وراحت هى ضـــحية ذلك · والآن وقد حدث هذا ، بعد أن ضيعت فريدا كل ما كان لديها لقاء سعادة الجلوس على ركبتك ، تأتى أنت وتمثل دور المنتصر ، فقد عرضـــت لك امكانية المبيت عند برناباس · ولعلك تريد أن تبرهن بذلك على انك مســتقل عنى · ولو قد بت عند برناباس ، لكنت قد أصبحت بكل تأكيد مستقلا عنى ، استقلالا كان ســـيحتم عليك أن تترك بيتى فى الحال ، بأقصى سرعة ·

فقال ك :

ـ أنا لا أعرف خطايا أسرة برناباس ·

وفى هذه الأثناء رفع فريدا بحـــذر ، وكأنهـــا شيء لا حياة فيه ، وأجلسها ببطء على السرير ، ونهض هو نفسه واقفا ، ثم قال :

ـ ولعلك على صواب فى ذلك ، ولكنى كنت على صواب بكل تأكيد عندما رجوتك أن تتركى مسائلنا ، مسائلى ومســائل فريدا ، لنا نحن وحدنا · لقد ذكرت من قبل شيئا عن الحب والاهتمام ، ولكنى لم أتبين منهما شيئا ، بل على العكس تبينت الكراهية والسخرية والطرد · فاذا كنت قد سعيت لفصلى عن فريدا ، أو لفصل فريدا عنى ، فلقد أبديت

مهارة كبيرة فى ذلك ، ولكنك ، على ما أعتقد ، لن توفقى فى ذلك ، واذا حدث ونجحت فى ذلك فسوف - واسمحى لى هنا بتهديد غامض - تندمين ندما مريرا . أما فيما يختص بالمسكين الذى تمنحينني اياه - ولابد أنك تعنين به هذا الجحر البشع - فليس من المؤكد بحال من الأحوال أنك تفعلين ذلك بمحض ارادتك ، ويبدو ان هناك أمرا بهذا الخصوص من ديوان الجرافية . ولسوف أبلغها بأنك أنذرتنى بالاخلاء ، واذا ما حصلت على مسكن آخر ، فلعلك تتنفسين بارتياح ، أما أنا فسأتنفس من أعماقى . وسأذهب الآن من أجل هذه المسألة وغيرها من المسائل الى رئيس مجلس القرية ، وأرجو على الأقل أن تهتمى بفريدا وقد آذيتيها بما فيه الكفاية بكلامك الذى تزعمين أنه نابع من حنان الأم .

ثم اتجه الى المساعدين وقال :

- هيا بنا .

وتناول خطاب كلم من المسمار الذى كان قد علقه عليه وهم بالذهاب . وكانت صاحبة الحان تنظر اليه صامتة ، فلما وضع يده على مقبض الباب قالت :

- يا حضرة موظف المساحة . ما زال هناك شيء أحب أن أزودك به فى طريقك ، فأنت ، مهما قلت من كلام ، ومهما أهنتنى أنا المرأة العجوز، زوج فريدا فى المستقبل . وهذا هو السبب الوحيد الذى أقول من أجله انك حيال الظروف القائمة هناك جاهل جهلا بشعا ، وان الانسان ليفقد الوعى عندما يستمع اليك ، وعندما يقارن فى فكره ما تقوله وتراه بالوضع القائم فعلا . وان جهلك هذا الجهل لا يمكن اصلاحه دفعة واحدة بل ربما كان اصلاحه من المستحيل . ولكن هناك أشياء كثيرة يمكن ان تتحسن ، اذا صدقتنى وجعلت جهلك دائما نصب عينيك . عند ذاك ستصبح على سبيل المثال أكثر عدلا حيالى ، وستبدأ فى الاحساس بالفزع الذى حل بى - وما زالت نتائج هذا الفزع باقية - عندما تبينت أن صغيرتى الحبيبة قد تركت من يمكن تسميته بالنسر لتعصب عينيها بعصابة العمى ، وان العلاقة فى حقيقتها لأشد سوءا ، وانى لأحاول أن أنساها والا لما استطعت أن أتكلم معك كلمة هادئة آه هانتذا تغضب مرة أخرى . لا ، لا تنصرف الآن ، اسمع هذا الرجاء قبل أن تنصرف : عليك ، فى كل مكان تذهب اليه ، أن تعى دائما أنك أجهل الناس هنا ، وعليك أن تأخذ نفسك بالحذر . انك هنا عندنا ، حيث يحميك وجود فريدا ، تستطيع أن تثرثر بما يشغل قلبك ؛ هنا يمكنك

مثلا أن تظهرنا على نيتك فى التحدث الى كلم ، ولكنى أرجوك ، أرجوك ، لا تفعل هذا فى الواقع ·

ونهضت وكانت تترنح من فرط الانفعال ، وذهبت الى ك وأمسكت يده ونظرت اليه متوسلة · فقال لها ك :

ـ اننى لا أفهم ، يا سيدتي صاحبة الحان ، لماذا تذلين نفسك وتتوسلين الى من أجل مثل هذا الموضوع · اذا كنت تقولين انه من المستحيل على أن أتكلم مع كلم ، فأنا لن أصل الى ذلك ، سواء رجوتنى أم لا · أما اذا كان من الممكن أن أتكلم معه ، فلماذا لا أفعل ، خاصة وأن سقوط اعتراضك الرئيسى سيجعل مخاوفك مشكوكا فيه جدا · وأنا بطبيعة الحال جاهل ، وهذه حقيقة ستظل قائمة ، وفى هذا ما يحزننى أشد الحزن · ولكن الجهل له فائدته ، فالجاهل يجرؤ على الكثير ، ولهذا فاننى سأظل ، الى حين ، وعن طيب خاطر ، أحمل الجهل وتبعاته التى لا شك فى أنها سيئة ، طالما كانت لدى القوة الكافية · وهذه التبعات لا تمس فى جوهرها سواى ، ولهذا فأنا لا أفهم لماذا تتوسلين · وليس هناك شك فى أنك ستظلين ترعين فريدا ، ولو اختفيت أنا كلية من مجال ابصارها ، فان هذا لا يمكن فى رأيك أن يعنى الا سعادتها · فلماذا تخافين ؟ انك لا تخافين ·

ـ والجاهل يظن كل شىء ممكنا

وهنا فتح ك الباب ، وأكمل :

ـ انك لا تخافين على كلم ؟

وتابعته صاحبة الحان بنظرها صامتة وهو ينزل الدرج مسرعا ومن خلفه المساعدان ·

الفصل الخامس

لم يكن ك يحس تجاه الحديث الذى سيجرى بينه وبين رئيس مجلس القرية الا بالقليل من القلق ، وكان يوشك هو نفسه أن يدهش لذلك · وحاول ك أن يفسر ذلك بأن التعامل الرسمى مع الدواوين الحكومية قد أصبحت ، بعد خبراته حتى ذلك الحين ، شيئا سهلا جدا بالنسبة اليه ·· وكان السبب فى ذلك من ناحية أن هناك مبدأ محددا على مايبدو لمعالجة مسألته وأنه من الناحية الظاهرية فى صالحه جدا ، ومن ناحية ثانية أن العمل الرسمى يتسم هنا بتناسق مدهش يحس به الانسان كاملا حتى فى المواضع التى لا يلوح فيها موجودا · ولم يكن ك ، لذا فكر فى هذه الأشياء أحيانا ، بعيدا عن اعتبار وضعه مقبولا على الرغم من أنه كان دائما يقول لنفسه بعد أن تعتريه حالات الارتياح هذه ان الخطر انما يكمن فيها دون سواها ·

ولم يكن التعامل المباشر مع الدواوين بالعمل الصعب المفرط الصعوبة لأن الدواوين كانت ـ مهما حسن نظامها ـ تدافع باسم سادة بعيدين غير ظاهرين عن أشياء بعيدة غير ظاهرة ، بينما كان ك يناضل من أجل شىء حى قريب ، من أجل نفسه هو ، وكان علاوة على ذلك يناضل ، على الأقل فى الوقت الأول ، بارادته ، لأنه كان المهاجم · ولم يكن يناضل من أجل نفسه فقط ، ولكنه كان ، على ما يبدو ، يناضل من أجل قوة أخرى ، لم يكن يعرفها ، ولكنه كان يؤمن بها نتيجة لاجراءات الدواوين · ولكن الدواوين كانت بتساهلها الشديد فى موضوعات ك غير الجوهرية ـ ولم تكن موضوعات ك حتى ذلك الوقت تزيد على ذلك ـ تحرم ك من امكانية بلوغ انتصارات صغيرة خفيفة ، وتحرمه الى جانب ذلك بما يتصل بهذه الامكانية من الرضا ، ومن الثقة التى تنبع منها والتى تقوم على أسس طيبة الثقة فى مجابهة ضروب أوسع وأكبر من النضال ، لقد كانت الدواوين بدلا من هذا تترك ك ، فى حدود القرية فقط ، يتحرك حيثما شاء ، وكانت تدلله وتضعفه بذلك ، وتمنع كل نضال منعا أساسيا ، وتنقله الى الحياة الغريبة العكرة ، الخارجة على نطاق الدواوين والتى يستحيل على الانسان

الاحاطة بها كل الاستحالة . كان من الممكن ، والحال هذه ، ان لم يأخذ على الدوام حذره ، وعلى الرغم من تلطف الدواوين معه ، وعلى الرغم من وفائه بمهامه الوظيفية المفرطة للسهولة ، أن ينخدع بجميل يلوح له انه صنع به ، فيسير فى حياته خارج نطاق الوظيفة سيرة لا احتياط فيها تنتهى به ذات يوم الى التحطيم ، وتنتهى بالديوان الظريف اللطيف ، ضد ارادته الى حد ما ، ولكن باسم نظام عام غير معروف له ، الى الذهاب اليه والتخلص منه . وماذا كانت حياته خارج نطاق الوظيفة ؟ لم ير ك من قبل فى أى مكان تداخل الحياة والوظيفة الى هذا الجـــد ، حتى انه كان يظن أحيانا أن الحياة والوظيفة قد تبادلا أماكنهما . فما هو ، على سبيل المثال معنى السلطة الشكلية التى كان كلم يمارسها على عمل ك ، اذا ما قورنت هذه السلطة بالسلطة التى كان كلم يمارسها حقيقة فى حجرة نوم ك ! ولهذا فالصواب أن يأخذ الانسان نفســـه بأســـلوب أخرق ، بنوع من الاسترخاء حيال الدواوين ، وان ظل الحـــذر الشـــديد والنظر الى كل الاتجاهات والتدقيق قبل كل خطوة ضرورة دائمة .

وتبين ك أن مفهومه عن الدواوين هنا صحيح عنـدما التقى برئيس مجلس القرية . كان الرئيس ، وهو رجل لطيف سمين حليق ، مريضـا يعانى من التقرس الحاد ، ولهذا استقبل ك وهو فى السرير . وقال :

ـ اذن فهذا هو السيد موظف المساحة لدينا .

وأراد أن يقعد لتحيته ، ولكنه لم يســتطع ، وألقى نفسه مرة أخرى فى فراشه ، وهو يشير معتذراً الى ساقيه . وأحضرت امرأة ساكنة ، بدت فى الضوء الخافت بالحجرة ذات النوافذ الصغيرة ، والستائر التى تزيد من ظلمتها ، كأنها شبح ، كرسيا وثيرا قدمته الى ك ووضعته عند السرير .. وقال الرئيس :

ـ اجلس ، اجلس ، يا حضرة موظف المساحة ، وقل ماذا تتمنى .

وطالع ك خطاب كلم ، وأضاف اليه بعض الملحوظات . وأحس مرة أخرى بالسهولة الخارقة للمألوف فى التعـــامل مـع الدواوين . كانت الدواوين تحمل كل عبء بمعنى الكلمة ، وكان فى استطاعة الانسان أن يحملها بما يشاء ، بينما يظل الانسان حراً لا يحمل شيئا . وتلوى الرئيس فى فراشه متبرما ، وكأنه أحس بهذا على طريقته . وأخيرا قال :

ـ لقد عرفت ، كما لاحظت ياسيادة موظف المساحة ، بالمسألة كلها أما أننى لم أتخذ اجراء حتى الآن ، فسيرجع أولا الى مرضى ، وثانيا الى أنك

لم تأت ، فظننت أنك صرفت النظر عن الموضوع • أما وأنك تكرمت وأتيت الى بنفسك ، فلابد أن أقول لك بطبيعة الحال الحقيقة الكريهة كاملة • لقد قلت انهم قبلوك موظفا للمساحة ، ولكننا للأسف لا نحتـاج الى موظف مساحة • فليس له أدنى عمل هنا • فحدود ممتلكاتنا الصغيرة معلمة ، وكل شيء مسجل تسجيلا منظما صحيحا ، ولا يحدث الا فيما ندر أن يتغير الملاك ، أما الصناعات القليلة على الحدود فاننا نسويها بأنفسنا • فما حاجتنا الى موظف مساحة ؟

وعلى الرغم من أن ك لم يسبق له أن فكر فى هذا من قبل ، فقد كان مقتنعا فى ذات نفسه بأنه كان يتوقع مثل هذا الخبر • ولهذا السبب قال من فوره :

ـ ان هذا ليفاجئنى أشد المفاجأة • وانه ليحـدث بكل حساباتى وتقديراتي الاضطراب • وليس لى الا أن آمل أن يكون هناك خطأ •

فقال الرئيس :

ـ لا ، للأسف ، ان الأمر على نحو ما قلت لك •

فصاح ك :

ـ وكيف يمكن هذا ؟ اننى لم أقم بهذه الرحلة التى لا نهاية لها ، لـكى تعيدونى الآن من حيث أتيت •

فقال الرئيس :

ـ هذه مسألة أخرى ليس القطع فيها من شأنى ، ولـكنى أستطيع أن أشرح لك على أية حال كيف أمكن حدوث هذا الخطأ • فمن الممـكن فى ديوان كبير ، كالديوان الجرافى ، أن يأمر قسم ما بهذا ، وأن يأمر قسم آخر بذاك ، ولا يعلم قسم بشيء عما يجرى فى الآخر • والحقيقة أن التفتيش الأعلى دقيق الى أقصى حد ، ولـكنه يأتى بطبيعته متأخرا ، ولهذا كان من من الممكن أن تحدث اضطرابات بسيطة • وهذه الاضطرابات دائما بطبيعة الحال صغائر متناهية الضآلة مثل حالتك على سبيل المثال • ولم يحدث أن نما الى علمى أن خطأ حدث فى الأشياء الكبيرة • ولكن الأخطاء التى تحدث فى الصغائر كثيرا ما تكون أخطاء مؤسفة • أما فيما يتعلق بحالتك ، فأنا أريد ـ دون أن أخفى أسرار الوظيفة ـ فأنا فى هذه الناحية لست موظفا بما فيه الكفاية ، انما أنا فلاح ، وسأبقى فلاحا ـ أن أحكى لك خط سير الموضوع بصراحة • منذ وقت طويل ، ولم يكن قد مضى على فى رئاسـة القرية الا بضعة أشهر ، صدر أمر ، لا أذكر من أى قسم من الأقسام ،

جاء به على النحو القاطع المميز للسادة، انه يتبغى استدعاء موظف مساحة وان على مجلس القرية أن يعد مايلزم لعمله من خطط ورسومات ولا يمكن أن يكون هذا الأمر مختصا بك ، لأنه قديم يرجع الى أعوام كثيرة مضت ، ولو لم أكن مريضا في الفراش لما كان لدى الوقت الكافي لتذكر مثل هذه الأمور السخيفة غاية السخف .

وقطع كلامه فجأة مناديا زوجته :

– ميتسي .

وكانت تتحرك حركة خفيفة في الحجرة ، وتقوم بعمل غير مفهوم ..

ثم قال الرئيس لزوجته :

– من فضلك ابحثي في الدولاب هناك ، لعلك تعثرين فيه على الأمر.

ثم قال لك شلوحلي :

– انه يرجع الى الفترة الأولى لعملي ، وكنت في ذلك الوقت أحتفظ بكل شيء .

وفتحت المرأة الدولاب على الفور ، وتطلع اليها ك والرئيس . كان الدولاب يعج بالأوراق . فلما فتحته تدحرجت منه حزمتان من حزم الملفات كانتا مربوطتين مدورتين كما تربط حزم الحطب ، فقفزت المرأة الى جانب مرتاعة . وقال الرئيس موجها البحث في فراشه :

– لابد أنه الى أسفل ، الى أسفل .

وأطاعت المرأة وألقيت بالملفات ، ممسكة اياها بكلتا ذراعيها ، الى خارج الدولاب لتصل الى الأوراق التي الى أسفل . وملأت الأوراق نصف الحجرة . وقال الرئيس وهو يهز رأسه :

– هذا دليل على أن عملنا كثير ، وما هذه الأوراق الا جزء صغير . أما الكمية الرئيسية فأنا أحتفظ بها في الشونة ، على أن الغالبية العظمى من الأوراق ضاعت ، فمن هذا الذي يستطيع أن يحتفظ بكل هذه الأوراق .. ولكن الشونة فى الكثير .

ثم اتجه الى زوجته مرة أخرى :

– هل تعتقدين انك ستجدين الأمر ؟ عليك أن تبحثي عن ملف مكتوب عليه كلمة « موظف المساحة » وتحتها خط بالأزرق .

وقالت المرأة :

ـ الظلام هنا شديد ، سأذهب لاحضار شمعة ٠

وخرجت من الحجرة سائرة فوق الأوراق ٠

وقال الرئيس :

ـ ان زوجتي دعامة كبيرة لي في هذا العمل الرسمي الصعب الذي ينبغي على أن أؤديه بجانب عملي الأصلي ٠ حقيقة أن لدى من يساعدني في الأعمال الكتابية ، أعني المدرس ، ولكن انجاز كل شيء مستحيل ، وهناك الكثير الذي يبقى بلا انجاز ، مجموعا في هذه الخزانة ٠٠

وأشار الى دولاب آخر وقال وهو يرقد واهنا ، ولكنه كان فخورا :

ـ وهو يزيد زيادة مسرفة عندما أكون مريضا ٠

وقال ك عندما عادت المرأة بالشمعة وركعت أمام الدولاب تبحث عن الأمر :

ـ ألا يمكن أن أساعد زوجتك في البحث ؟

وهز الرئيس رأسه مبتسما وقال :

ـ لقد قلت من قبل انه ليست لدى أسرار في وظيفتي أخفيها عنك ولكنني لا أستطيع أن أصل الى حد تركك تبحث بنفسك في الملفات ٠

وساد السكون الحجرة ، فلم يكن الانسان يسمع الا صوت حفيف الأوراق ، بل ان الرئيس نعس قليلا ٠ ودق بعضهم الباب فالتفت ك خلفه فاذا هما بطبيعة الحال المساعدان ٠ ولكنهما كانا على أية حال مهذبين قليلا فلم يندفعا داخل الحجرة ، بل همسا من خلال الباب الذي كان مفتوحا فتحة صغيرة :

ـ ان البرد شديد علينا من الخارج ٠

وسأل الرئيس مفزعا :

ـ من هذا ؟ ٠

فقال ك :

ـ انهما مساعداي ، ولا أعرف أين أدعهما ينتظرانني ، فالبرد شديد في الخارج ، وهما شخصان مزعجان لا مكان لهما هنا ٠

فقال الرئيس متلطفا :

ـ انهما لن يقلقانى ، دعهما يدخلان ، آه ، أننى أعرفهما : انهما من معارفى القدامى .

فقال ك بصراحة :

ـ ولـكنهما يقلقانى .

ونقل بصره من المساعدين الى الرئيس الى المساعدين ووجد الثلاثة يضحكون ضحكة واحدة . ثم قال على سبيل المحاولة :

ـ مادمتما هنا ، فابقيا وساعدا السيدة زوجة الرئيس فى البحث عن ملف مكتوب عليه « موظف المساحة » وتحتها خط بالأزرق .

ولم يعترض الرئيس . لقد سمح للمساعدين بما منح ك من فعله ، فارتميا على الأوراق ، وكانا يقلبان فى التل أكثر مما كانا يبحثان ، وبينما كان أحدهما يتهجى كلمة ، كانا الآخر ينتزع الورقة من يده . أما المرأة فكانت تركع أمام الخزانة الفارغة ، ولم يعد يبدو عليها أنها تبحث وكانت الشمعة على أية حال بعيدة جدا عنها .

وقال الرئيس وهو يبتسم ابتسامة تنم عن رضا ذاتى وكأنما كانت الدنيا كلها ترجع الى أوامره هو دون أن يكون هناك انسان يستطيع أن يفهم ذلك حتى ولو على سبيل الظن :

ـ انك تقول ان المساعدين يقلقانك ، ولكنهما مساعداك أنت .

فقال ك بفتور :

ـ لا ، لقد ارتميا على هنا .

فقال الرئيس :

ـ كيف تقول ارتميا على ! انك تريد أن تقول انهم قد عينا لك .

وقال ك :

ـ آه عينا لى ، ويمكنك أن تقول أيضا سقطا على كما يسقط الجليد فقد كان تعيينهما يفتقر الى كل تدبير .

فقال الرئيس :

ـ لا يحدث شىء هنا عن غير تدبير .

ونسى كل شىء حتى ما فى قدمه من ألم وجلس معتدلا . فقال ك :

ـ لا شيء .. فما أمر استدعائي للعمل هنا ؟

فقال الرئيس :

ـ وكذلك استدعاؤك جاء بعد وزن وتدبير ، ولـكن بعض الظروف الثانوية تدخلت وأحدثت اضطرابا ، وسأثبت لك ذلك بناء على الملفات .

فقال ك :

ـ ولـكن أحدا لن يعثر على الملفات .

فصاح الرئيس :

ـ لن يعثر ؟ يا ميتسي ابحثي من فضلك بسرعة . ومـع ذلك فأنا أستطيع أن أحكي لك الحكايه أولا بدون ملفات . لقد أجبنا على الأمر الذي حدثتك عنه ، بالشكر ذاكراً أننا لا نحتاج الى موظف مساحة . ويبدو أن هذه الاجابة لم تصل الى القسم الأصلي ، ولأسميه (أ) ، بل وصلت خطأ الى قسم آخر ، ولأسميه (ب) . وظل القســـم (أ) بلا اجابة ، وكذلك القسم (ب) لم يتسلم اجابتنا كاملة للأســـف ، اما لأن محتويات الملف بقيت عندنا ، أو لأنها ضاعت في الطريق ـ ولكنها بكل تأكيد لم تضـع في القسم نفسه ، وأنا ضامن لذلك ـ المهم أن ما وصل الى القسم (ب) لم يكن ســوى غلاف الملف ولم يكن مبيناً عليه سوى أن الملف الذي بداخله يختص بموضوع موظف المساحة ، ولم يكن في الحقيقة موجودا ، وكان القسم (أ) ينتظر أن تصله اجابتنا . حقيقة أنه كان قد سجل مذكرات بالموضوع ، ولـكن ما حدث شيء يقع بطبيعة الحال من حين لآخر على الرغم من الدقة في انجاز الأعمال،وهو أن الموظف المختص اطمأن الى أننا سنجيب على الخطاب ، وانه اما أن يستدعي موظف المساحة أو ، اذا دعت الحاجة ، يستمر في التراسل معنا بخصوص الموضوع . وكانت النتيجة أنه أهمل المذكرات ، وان الموضوع كله انطوي في النسيان . أما القسم (ب) فقد وقع غلاف الملف فيه في يد موظف مشهور بدقته ، واســـمه سورديني ، وهو ايطالي ، وأنا ، العليم بالأمور ، لا أفهم لمـاذا يظل مثل هذا الرجل بما له من كفاءات في هذه الوظيفـــة التي توشـــك أن تكون وظيفة من الوظائف الدنيا . وبطبيعة الحال أعاد الينا هذا الورديني غلاف الملف الفارغ لنكمله . وكان قد انقضى على خطاب القسم (أ) الذي أشرت اليــه وقت طويل يقدر بالشهور بل بالأعوام ، والوضع البديهي هو أن الملف اذا سار في طريقه الصحيح ، يصل عادة في اليوم نفسه على أكثر تقـــدير ويتم انجازه في اليوم نفسه . أما اذا ضل طريقة مرة ـ فعليه ، والنظام على هذا الامتياز في الدقة ، أن يجتهد في العثور على الطريق الخطأ اجتهادا

شديدا والا فانه لن يجده ـ فان انجازه يحتاج الى وقت طويل بطبيعة الحال . فلما تلقينا مذكرة سوردينى ، لم نكن نتذكر الموضوع الا على نحو غير واضح ، وكان عبء العمل يقع فى ذلك الوقت على اثنين فقط ، ميتسى وأنا ، فلم يكن المدرس قد عين لنا بعد ، ولم نكن نحتفظ بصور المكاتبات الا ما كانت له منها أهمية شديدة ، باختصار ، لم نستطع الا أن نجيب اجابة تفتقر الى التحديد كل الافتقار ، قائلين اننا لا نعرف شيئا عن هذا الاستدعاء ، اننا فى غير حاجة الى موظف مساحة .

وهنا قطع الرئيس كلامه ، وكأنما كان قد اندفع فى الحماس الى حد أبعد مما ينبغى أو كأنما كان من الممكن على الأقل أن يندفع الى حد أبعد مما ينبغى :

ـ ولكن ألا تسبب لك الحكاية مللا ؟

فقال ك :

ـ لا ، انها تسلينى .

فقال الرئيس :

ـ أنا لا أحكيها لك للتسلية .

فقال ك :

ـ انها تسلينى بمعنى انها تتيح لى فرصة الابصار بالاضطراب المضحك الذى يقطع أحيانا فى أمر وجود انسان من البشر .

وقال الرئيس جاداً :

ـ انك لم تبصر بشىء بعد .. ويمكنني الآن أن أستمر فى قصتى . لم يرض رجل كسوردينى بطبيعة الحال باجابتنا ، وأنا أعجب بهذا الرجل على الرغم من أنه يمثل فى نظرى العذاب كله . انه يشك فى كل انسان ، حتى الانسان الذى أتاحت له فرص لا حصر لها أن يعرف عنه انه فى غاية الجدارة بالثقة . تجده فى الفرصة التالية يشك فيه كما لو كان لا يعرفه أو كما لو كان قد عرف عنه أنه نذل دنىء . وأنا أستصوب هذا الأسلوب وأرى أن الموظف ينبغى أن ينهج هذا المنهج . ولكنى لا أستطيع أن أتبع هذا المبدأ ، فانه يتعارض مع طبيعتى . وأنت ترى مثلا ، كيف أعرض عليك ، أنت الأجنبى ، كل شىء بصراحة ، فانا لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر . أما سوردينى فقد تملكه الشك حيال اجابتنا . ونشأت مراسلات كثيرة . كان سوردينى يسأل لماذا خطر ببالى فجأة أنه لاينبغى استدعاء موظف مساحة ، وأنا أجيب مستعينا بذاكرة ميتسى الممتازة بأن

الاقتراح الخاص بهذا الموضوع جاء من الديوان (وكنا قد نسينا بطبيعة الحال منذ مدة طويلة أنه جاء من قسم آخر غير قسم سوردينى ٠) وكان يعود فيسأل لماذا لم أذكر هذه المكاتبة الا الآن ، فأرد عليه بأننى لم أتذكر الا الآن ، فيكتب سوردينى بأن هذا عجيب جدا ، وأرد أنا بأن هذا ليس عجيبا مطلقا في مسألة طالت هذا الطول ، فيعود سوردينى الى القول بأن هذا عجيب فعلا لأن المكاتبة التي تذكرتها لا وجود لها ، فأرد أنا قائلا انها بطبيعة الحال غير موجودة لأن الملف كله ضاع ، فيكتب سوردينى بأنه لابد أن هناك مذكرة بخصوص المكاتبة الأولى ٠ ولـكن هذه المذكرة لا وجود لها ٠ وهنا ترددت لأننى لم أجرؤ على القول ، ولأننى لا أعتقد بأن القسم الذي يعمل فيه سوردينى يمكن أن يخطيء ٠ ولعلك ، يا سيادة موظف المساحة ، تلوم سوردينى فى سرك ، لأنه لم يأخذ كلامى فى الاعتبار ، ولم يسأل على الأقل عن الموضوع فى الأقسام الأخرى ٠ ولو أنك فكرت فى هذا ، لأخطأت ، وأنا لا أريد أن يعلق بهذا الرجل ، ولا حتى فى فكرك أى عيب ٠ فهناك مبدأ يقوم عليه العمل في الديوان ، وهو ألا نضـــع امكانية الخطأ في حسابنا مطلقا ٠ وهذا المبدأ له فى النظام الممتاز الشامل للديوان ككل ما يبرره ، وهو ضرورى اذا كان المطلوب هو الوصول الى أقصى سرعة فى انجاز الأعمال ٠ لم يكن اذن لسوردينى أن يستفهم لدى الأقسام الأخرى ، ولو استفهم لديها ما أجابته ، لأنها كانت ستتبين أن الأمر يدور حول البحث فى امكانيه حدوث خطأ ٠ »

وقال ك :

ـ أرجو أن تسمح لى يا سيادة الرئيس أن أقاطعك بسؤال ٠ ألم تذكر من قبل أن هناك ديوانا للتفتيش ؟ وان العمل على النحو الذى وصفته ليسبب للانسان الاضطراب والقلق ، اذا تصور انه ليس هناك تفتيشا ٠

فقال الرئيس :

ـ انك صارم جدا ٠ ولـكن ضاعف صرامتك ألف مرة ٠ ومع ذلك فلن تكون شيئا بالقياس الى الصرامة التى يأخذ بها الديوان نفسه ٠ ان هذا السؤال الذى ألقيته لا يمكن الا أن يصدر عن انسان غريب ٠ هل هناك دواوين للتفتيش ؟ ليست هناك الا دواوين للتفتيش ٠ وهى بطبيعة الحال ليست مختصة بالتوصل الى الأخطاء بمعناها الغليظ ، فهذه الأخطاء لا تقع ، وحتى اذا حدث مرة أن وقع خطأ ، كما فى حالتك ، فمن له أن يقول نهائيا ، انه خطأ ٠

فصاح ك :

ــ هذا شيء جديد على تماما ٠

فقال الرئيس :

ــ انه شيء قديم عندى جدا ٠ وأنا لا أختلف عنك فى الاعتقاد بأن خطأ وقع ، ولقد مرض سوردينى نتيجة لحيرته فىهذا الأمر مرضا شديدا ، ولقد اكتشفت دواوين التفتيش الأولى التى يرجع اليها الفضل فى اظهار أصـــل الخطأ ان المســألة فيها خطأ ٠ ولكن من له أن يدعى أن دواوين التفتيش الثانية ستصل الى الحـكم نفسه ، ثم الثالثة وما بعـــدها ٠٠ وما بعدها ؟ ٠

فقال ك :

ــ ربما ٠ وأنا لا أريد أن أتدخل فى مثل هذه الآراء ، وأنا اسمع للمرة الأولى عن دواوين التفتيش هذه ولا أستطيع بطبيعة الحال أن أفهمها ولـكنى أعتقد أنه يجب هنا الفصل بين أمرين : أولا مايجرى فى الدواوين وما يمكن على هذا النحو أو ذاك اعتباره من أمر الدواوين ، وثانيا أنا ، الشخص الواقعى ، أنا الذى أقف خارج الدواوين والذى يتهددنى ضر من الدواوين ، ضر هو من الحمق بحيث أننى لا أستطيع للآن أن أصدق مدى خطورته ٠ أما الأمر الأول فينطبق عليه على مايبدو ، هذا الذى قصصته على ، يا سيادة الرئيس ، بمعرفة فنية خارقة للمألوف ، محيرة للألباب ٠ وأما الأمر الثانى ، أنا ، فأرجو أن أسمع كلمة بشأنه ٠

فقال الرئيس :

ــ سأصل اليه أيضا ٠ ولكنك لن تفهم ما سأقوله بهذا الشأن الا اذا ذكرت لك بعض الأشياء على سبيل التمهيد ٠ والحقيقة أن اشــارتى الآن الى دواوين التفتيش اشارة سابقة لأوانها ٠ ولهذا أعود الى الخلافات مع سوردينى ٠ قلت ان مقاومتى بدأت تهن تدريجيا ٠ ذلك أن سوردينى اذا حقق أقل تقدم حيال أى انسان ، اعتبر نفسه منتصرا ، لأن انتباهــه وطاقته وحضور بديهته تزداد نتيجة لذلك ، ويصبح منظره فظيعا بالنسبة لمن يهاجمه ، رائعا بالنسبة لأعداء من يهاجمه ٠ ولـما كنت أنا قد شهدت منظره فى الحالة الثانية ، ولهذا فاننى أستطيع أن أحكى عنه ، كما أفعل الآن ٠ ثم اننى لم أتمكن قط من رؤيته رأى العين ، فهو لا يستطيع أن ينزل الى هنا ، لأنه يحمل عبء عمل مفرط فى الضخامة ، ولقد وصفوا لى حجرته قائلين ، ان جدرانها كلها مغطاة بتلال من حزم الملفات الضخمـة

المكومة بعضها فوق البعض ، وليست هذه الملفات سوى تلك التي يحتاج اليها فيما يقوم به في ذلك الوقت من عمل ، ونظرا لأن الملفات تستخرج من التلال وترد اليها بلا انقطاع وبسرعة كبيرة ، فان هذه التلال لا تفتأ أن تنهار محدثة ضجة ، وهذا الضجيج المستمر المتتابع المتلاحق هو الميزة التي أصبحت تميز مكتب سورديني • نعم ، آن سورديني موظف نشيط ، وهو يهتم بأصغر حالة اهتمامه بأكبر حالة •

فقال ك :

ـ انك يا سيدي الرئيس ، تسمي حالتي دائما أصغر حالة ، ومع ذلك فقد شغلت موظفين كثيرين شغلا كثيرا ، هي اذا كانت في أول الأمر صغيرة جدا ، فانها قد أصبحت نتيجة لحماس الموظفين من أمثال سورديني حالة كبيرة • وهذا شيء يؤسف له ، وهو ضد ارادتي على خط مستقيم ، لأن طموحي لا يصل الى التسبب في قيام وانهيار أعمدة من الملفات تختص بي ، بل الى أن أعمل في هدوء موظفا للمساحة عند منضدة رسم صغيرة •

فقال الرئيس :

ـ لا • ليست حالتك حالة كبيرة • وليس هناك ، من هذه الناحية سبب يدعوك الى الشكوى ، ان حالتك واحدة من أصغر الحالات بالقياس الى الحالات الصغيرة • وليست كمية العمل هي التي تحدد رتبة الحالة ، انك ما تزال بعيدا عن فهم الديوان ان كنت تعتقد هذا الاعتقاد • وحتى اذا كانت كمية العمل هي التي تحدد الرتبة ، فان حالتك لن تزيد عن أن تكون واحدة من أضأل الحالات ، فالحالات العادية ، أي الحالات التي ليس بها ما يسمى أخطاء ، تستدعي الكثير من العمل ، والكثير من العمل المفيد بطبيعة الحال • ثم انك لا تعرف العمل الحقيقي الذي تسببت عنه حالتك وسأحكي لك الآن عنه • في بداية الأمر أخرجني سورديني من الموضوع ولكن موظفيه كانوا يأتون الى هنا ، وشهد حان السادة الكثير من الاستجوابات والمحاضر التي تعرض لها البارزون من أعضاء مجلس القرية• وكان الكثيرون منهم في جانبي • أما الاضطراب الذي حدث لم يحدثه الا القلة • ومسألة المساحة مسألة قريبة الى الفلاحين ، الذين ظنوا أن هناك اتفاقات سرية ومظالم ، ووجدوا علاوة على ذلك زعيما تزعمهم ، وكان أن اعتقد سورديني ، اعتمادا على البيانات ، انني لو كنت قد عرضت الأمر على مجلس القرية ، لما صوت الجميع ضد استدعاء موظف مساحة ، ولأدى هذا الى تحول الشيء البديهي ـ عدم الحاجة الى موظف مساحة ـ على الأقل الى شيء مشكوك فيه • وبرز في هذا المقام خاصة رجل اسمه برونسفيك

أنت لا تعرفه طبعا ـ وهو ليس رجلا رديئا ، ولكنه غبى ، يسرح فى الخيال ، وهو نسيب لازيمان .

وسأل ك وهو يصف الرجل كث اللحية الذى رآه عند لازيمان :

ـ نسيب المعلم الدباغ ؟

فقال الرئيس :

ـ نعم ، هو .

وقال ك ، وهو يوشك أن يلقى الكلام على عواهنه :

ـ وأنا أعرف أيضا زوجته .

فقال الرئيس :

ـ هذا ممكن .

ثم صمت . وعاد ك يقول :

ـ انها جميلة ، ولكنها شاحبة بعض الشىء ومتوعكة . وهى من القصر ؟ ..

وكان ك ينطق العبارة الأخيرة على نحو يوشك أن يكون سؤالا ..

ونظر الرئيس الى ساعته وسكب شيئا من دواء فى ملعقة وتجرعه مسرعا :

وعاد ك يسأل فى غلظة :

ـ يبدو أنك لا تعرف من القصر الا الدواوين ؟

فأجاب الرئيس بابتسامة تجمع بين السخرية والامتنان :

ـ نعم . وهى الأهم . أما فيما يتعلق ببرونسفيك ، فاننا اذا استطعنا أن نخرجه من جماعتنا ، لكنا جميعا سعداء ، ولما كانت سعادة لازيمان نفسه بأقل من سعادتنا . ولكن برونسفيك اكتسب فى ذلك نفوذا ، حقيقة انه ليس خطيبا ، ولكنه يصرخ بصوت عال ، وهذا يكفى البعض ، وهكذا انتهى الأمر بى الى أن اضطررت الى طرح المسألة على مجلس القرية ، وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذى حققه برونسفيك ، لأن مجلس القرية لم يكن ، بأغلبية كبيرة ، يريد أن يعرف شيئا عن موظف المساحة . وهذه الحادثة كذلك ترجع الى زمن بعيد ، ولكن المسألة لم تركن بمرور الوقت الى الهدوء ، من ناحية بسبب دقة سورديني الذى حاول أن يكشف عن دوافع الأغلبية والمعارضه باجراء بحوث غاية فى الدقة ، ومن ناحية أخرى بسبب غباء وطموح برونسفيك الذى كانت له صلات خاصة مختلفة بالدواوين فاستطاع باختراعات جديدة من محض خياله أن يحركها . ولم

يدع سوردينى برونسفيك يخدعه - وأنى لبرونسفيك أن يخدع سوردينى ؟ - لكنه ، كى لا ينخدع ، كان بحاجة الى دراسات جديدة ، وكان اذا أوشك على الفراغ منها ، ابتكر برونسفيك شيئا جديدا - فبرونسفيك كثير الحركة وهذه ناحية من نواحى غبائه . وأصل الآن الى صفة خاصة من صفات جهاز الدواوين عندنا . فهو ، بقدر ما هو دقيق ، حساس الى أقصى حد . فعندما يطول بحث مسألة من المسائل ، يحدث أحيانا - ودون أن تكون الدراسات الخاصة بها قد انتهت - أن ينطلق انجازا لها فجأة كالبرق من جهة لم يكن أحد يتوقع الانجاز منها ، ولا يمكن فيما بعد تحديدها ، وغالبا ما يكون الانجاز صحيحا ، وان ظل على أية حال متعسفا . ان ذلك ليحدث وكأنما لم يعد جهاز الدواوين يحتمل التوتر الذى ظلت تثيره فيه مسألة واحدة ، قد تكون قليلة الأهمية ، السنين الطوال ، فاتخذ هو القرار ، دون معاونة من الموظفين . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن معجزة حدثت فلا شك أن موظفا ما أنجز المسألة بخطاب دونه ، أو أنجزها دون كتابة خطاب ، المهم أننا لانستطيع على الأقل من هنا ، ولا حتى من الديوان ، أن نعرف الموظف الذى اتخذ القرار فى هذه المسألة ، ولا الأسباب التى انبنى عليها قراره . ولا تبين ذلك الا دواوين التفتيش فيما بعد ، ونحن لا نعرف شيئا عما تصل اليه هذه الدواوين من نتائج ، وهى نتائج لايكاد يكون هناك من يهتم بها . وهذه القرارات ، كما قلت ، ممتازة فى غالبية الأحيان ، وليس فيها ما يسبب الضجر الا شىء واحد ، وهو أن الانسان لا يعلم عنها بطبيعة الحال الا متأخرا ، فى وقت يكون فيه مستمرا فى التشاور النشيط بشأنها بينما هى قد أنجزت منذ وقت طويل . وأنا لا أعرف ، هل صدر قرار من هذا النوع فى موضوعك أم لا - هناك مايوحى بالايجاب ، وهناك ما يوحى بالسلب - فاذا كان القرار قد صدر ، فمعنى هذا ان طلب الاستدعاء قد أرسل اليك ، وانك قد قمت بالرحلة الطويلة الى هنا ، وضاع فى هذا وذاك الوقت الكثير ، بينما ظل سوردينى يعمل فى معالجة المسألة حتى حل به الأعياء ، وظل سوردينى يحيك المؤامرات وبقيت أنا أتعرض للعذاب من الجانبين . وأنا أشير الى هذه الامكانية مجرد اشارة ، ولكننى أعرف عن يقين ما يلى : ان أحد دواوين اكتشف أن سؤالا خرج من القسم (أ) قبل سنوات عديدة الى مجلس القرية بخصوص موظف مساحة دون أن ترد اليه اجابة . ولقد سألونى مؤخرا ، واتضحت المسألة كلها ، واكتفى القسم (أ) باجابتى التى قلت فيها أننا لا نحتاج الى موظف مساحة ، وأصبح على سوردينى أن يقر بأنه لم يكن المختص بهذه المسألة ، دون ما ذنب بطبيعة الحال ، وانه بذل جهدا كثيرا ، مهلكا للأعصاب دون ما فائدة . لم ينهمر علينا من كافة الجهات كالمعتاد ، سيل

جديد من العمل ، لم تكن حالتك حالة صغيرة ـ ويمكن القول أنها أصغر حالة بين الحالات الصغيرة ـ ولكننا قد تنفسنا الصعداء جميعا ، حتى سوردينى نفســه على ما أعتقد ، الا برونســفيك فقد ظل يغمغم ، ولكن ما فعله كان مضحكا ، والآن تصور ، ياحضرة موظف المساحة ، مدى خيبة أملى ، عندما أجدك الآن ، بعد أن انتهت المسألة نهاية سعيدة ـ ولقـد انقضى منذ ذلك الحين وقت كثير ـ تظهر فجأة ، ويبدو الأمر كأن المسألة سـتعود من أولهـا • وأظن انك تفهم اننى مصمم تصميما عنيـدا على ألا أسمح بذلك بحال من الأحوال مادام الأمر فى مقدورى •

فقال ك :

ـ بلا شك • ولكنى أفهم شيئا آخر فهما أفضل ، وهو اننى أتعرض هنا لاستغلال بشع ، بل تتعرض له كذلك القوانين نفسها • ولســوف أعرف كيف أقاومه فيما يتعلق بشخصى •

فسأل الرئيس :

ـ وماذا تريد أن تفعل

فقال ك :

ـ لا يمكن أن أكشف عنه •

فقال الرئيس :

ـ وأنا لا أريد أن الح ، ولـكنى الفت نظرك لشيء وهو أنك تجـد فى ـ لا أقول صديقا ، فنحن غريبان تماما ، ولـكن ـ زميلان أو نحو ذلك •• أما أن تقبل هنا موظفا للمساحة ، فأمر لن أسمح له • ويمكنك فيما عدا هذا أن تلجأ الى دائما فى ثقة ، بطبيعة الحال فى حدود سلطتى وهى ليست كبيرة •

فقال ك :

ـ انك دائما تتحدث عن قبولى موظفا بالمساحة ، ولكن قبولى قد تم فعلا وهذا هو خطاب كلم •

فقال الرئيس :

ـ خطاب كلم • انه قيم وجدير بالاحترام لتوقيع كلم عليه • وهـو توقيع يبدو سليما من التزوير ، وفيما عدا ذلك فأنا لا أجرؤ أن أعبر عن ذلك وحدى •• يا ميتسى •

هكذا نادى زوجته • ثم صاح قائلا :

ـ ماذا تعملون ؟

ويبدو أن المساعدين وميتسى ، وقد انحسر عنهم الانتباه مدة طويلة لم يجدوا الملف المطلوب ، فأعادوا كل شيء الى الدولاب ، وأرادوا اغلاقه فلم يتمكنوا من ذلك لأن الملفات وقد ألقيت بغير انتظام برزت الى الخارج بروزا مفرطا . ففكر المساعدان فى فكرة نفذاها .. وهى انهما أرقدا الدولاب على ظهره ، وحشرا فيه الملفات حشرا ثم جلسا على بابه وجلست معهما ميتسى وحاول ثلاثتهم كبسه الى أسفل شيئا فشيئا .

وقال الرئيس :

ـ انهم لم يعثروا على الملف .. هذا شيء يؤسف له . ولكنك تعرف الحكاية الآن ، ونحن فى الحقيقة لم نعد فى حاجة الى الملف ، ولاشك اننا سنجده ، ولعله عند المدرس ، فلديه ملفات كثيرة .. والآن تعالى ياميتسى الى هنا بشمعتك وطالعى على هذا الخطاب .

وأقبلت ميتسى وبدت الآن أكثر حلكة وأكثر غموضا مما كانت عندما كانت تجلس على حافة السرير وتستند الى الرجل القوى الملىء بالحياة والذى كان يحيطها بذراعه . الا وجهها الصغير فقد أصبح الآن فى ضوء الشمعة يلفت النظر بخطوطه الواضحة القوية التى كان وهن الشيخوخة يخفف من حدتها . وما كادت تنظر الى الخطاب حتى عقدت يديها قليلا وقالت :

ـ انه من كلم .

ثم قرآ معا الخطاب ، وتهامسا وأخيرا ـ وبينما كان المساعدان يصيحان « عظيم » .. لأنهما كانا قد كبسا باب الدولاب وأغلقاه بعد طول جهد ، وكانت ميتسى تنظر ممنونة اليهما ـ قال الرئيس :

ـ ان ميتسى ترى رأيى تماما ، يمكننى الآن أن أجرؤ على الافصاح عنه . هذا الخطاب ليس مكاتبة رسمية ، بل هو خطاب خاص . وهذا شيء يتضح من عبارة « أيها السيد المحترم » التى يبدأ بها . هذا علاوة على أنه لم تأت به كلمة واحدة تعنى أنك قبلت موظفا للمساحة ، كل ما فيه حديث عام عن الخدمة الأميرية ، هو ليس صريحا ملزما ، فهو يقول فقط انك قبلت ، كما تعلم ، وعبارة كما تعلم تعنى أن مهمة اثبات قبولك ملقاة على عاتقك . وفى الختام أحلت على ، من الناحية الرسمية ، أنا وحدى ، رئيس القرية ، باعتبارى رئيسك المباشر ، الذى عليه أن يبلغك بكل التفصيلات ، وهو ما قد فعلت معظمه . وهذه كلها أمور

واضحة مفرطة الوضوح بالنسبة لمن يعرف كيف يقرأ المكاتبات الرسمية ويعرف نتيجة لهذا كيف يقرأ المكاتبات غير الرسمية ويفهمها فهمـــا أحسن . أما أنت ، كغريب ، لاتتبين ذلك ، فهو مايثير عجبى ، والخطاب لايعنى فى مجموعه شيئا آخر سوى ان كلم ينوى أن يهتم بك شخصيا فى حالة قبولك فى الخدمة الأميرية ..

فقال ك :

ـ أنك يا سيادة الرئيس تجيد تأويل الخطاب .. بحيث تحيله الى توقيع على ورقة خالية ألا تتبين أنك بفعلك هذا تحط من قدر اسم كلم الذى تدعى أنك تجله ؟ ..

فقال الرئيس :

ـ هذا خطأ . اننى لا أنكر أهمية الخطاب ، وأنا لا أحط من شـأنه بتأويلى ، بل على العكس . ان خطابا خاصا من كلم ليكتسى بطبيعة الحال من الأهمية أكثر مما تكتسى المكاتبة الرسميـة . ولـكن الأهمية التى تنسبها أنت له ،هى بالضبط ما ليس له .

وسأل ك :

ـ أتعرف شفارتسر ؟

فقال الرئيس :

ـ لا . هـل تراك تعرفينه أنت يا ميتسى ؟ وهى لا تعـرفه . . لا نحن لا نعرفه ..

فقال ك :

هذا شىء عجيب . انه ابن أحد وكلاء القصر .

فقال الرئيس :

ـ يا عزيزى موظف المساحة ، كيف يمكننى أن أعرف أبناء جميع وكلاء القصر .

فقال ك :

ـ حسنا . اذن فعليك أن تصدقنى : انه ابن أحد وكلاء القصر .

ولقد حدث بينى وبين هذا الشفارتسر يوم وصولى بالذات احتكاك سخيف، فاتصل تليفونيا بوكيل للقصر اسمه فريتس ليستعلم ، فعلم منه اننى قد قبلت موظفا للمساحة . فكيف تفسر هذا يا سيادة الرئيس ؟

وقال الرئيس :

ـ هذا شيء يسير جدا . انك لم تتعامل من قبل مع دواويننا . وجميع التعاملات معها لا تزيد ولا تنقص عن أن تكون ظاهرية ، وأنت لجهلك بالأحوال تعتبرها واقعية . أما فيما يتعلق بالتليفون . فيمكنك أن تجول ببصرك عندى ، أنا الذى أتعامل كثيرا مع الدواوين ، فلن تجد تليفونا . أما فى الحانات وفيما شابهها ، فيمكن أن يؤدى التليفون خدمات طيبة ، مثل جهاز الموسيقى الأوتوماتيكى ، وهو لا يزيد عنه فى شيء . هل استعملت التليفون هنا مرة ؟ نعم ؟ اذن فلعلك تفهمنى . ويبدو أن التليفون يعمل فى القصر على نحو ممتاز ، ولقد حكى لى البعض أنهم فى القصر لا يكفون عن الاتصال تليفونيا ، وهذا من شأنه بطبيعة الحال ، التعجيل بانجاز الأعمال . ونحن نسمع هذه الاتصالات التليفونية التى لا تنتهى هنا بتليفوناتنا المحلية على هيئة شوشرة وغناء ، ولا شك أنك سمعت هذا . وهذه الشوشرة وهذا الغناء هما الشيء الوحيد الصحيح الجدير بالثقة الذى تنقله الينا التليفونات هنا ، وكل ما عدا ذلك خداع . وليس هناك اتصال تليفونى مباشر مع القصر ، وليس هناك سنترال ينقل مكالماتنا التليفونية ، فاذا اتصل الانسان من هنا بالقصر ، دقت الأجراس فى كل التليفونات بالأقسام الدنيا ، أو على الأصح ، فى كل التليفونات ، الا اذا أوقفت أجراسها ـ وهذا ما أعرفه يقينا ـ ويحدث من حين لآخر أن يحتاج بعض الموظفين المنهكين الى شيء من التسلية ، وخاصة فى المساء أو الليل ، فيشغل الجرس ، وهنا نتلقى اجابة ، ولكن هذه الاجابة لاتزيد عن أن تكون مزاحا . وهذا شيء بديهى جدا . فأين هذا الذى يطالب بأن يكون له حق الاتصال التليفونى بشأن موضوعات شخصية صغيرة وسط الأعمال البالغة الأهمية التى تسير بسرعة جنونية متزايدة ؟ وأنا لا أفهم كيف يمكن حتى لغريب أن يعتقد أنه عندما يتصل مثلا بسوردينى ، فان سوردينى هو فعلا من يرد عليه . ان الذى يرد عليه هو على الأحرى كاتب صغير من قسم آخر . كذلك من الممكن أن يحدث فى ساعة محظوظة أن يريد الانسان الاتصال بكاتب صغير ، فاذا بسوردينى هو الذى يجيب . ولهذا فانه بطبيعة الحال من الأفضل أن يبتعد الانسان عن التليفون ، قبل أن تصدر عنه أول نبرة .

فقال ك :

ـ لم أعتبره على هذا النحو ، فلم أكن أعرف هذه التفصيلات . والحقيقة أننى لم أكن أثق فى هذه الاتصالات التليفونية كثيرا ، وكنت

أعرف أن الشيء الوحيد الذى له أهمية فعلية هو أن يعرف الانسان شيئا من القصر مباشرة أو يصل فيه هو الى شيء ٠

فقال الرئيس معلقا على احدى الكلمات :

ـ لا ٠ ان هذه الاتصالات التليفونية لها أهمية فعلية ، وكيف يمكن الا تكون كذلك ؟ كيف يمكن أن تكون المعلومات التى يعطيها موظف من القصر مجردة من الأهمية ؟ ولقد أشرت الى ذلك بالنسبة لخطاب كلم ٠ كل ما فى الأمر أن هذه التصريحات ليس لها أهمية رسمية ٠ فاذا أنت أضفت عليها أهمية رسمية ، أخطأت ٠ أما أهميتها الخصوصية من ناحية الصداقة أو العداوة فهى كبيرة جدا ، وربما كانت أكبر من أى أهمية رسمية اطلاقا ٠

وقال ك :

ـ حسنا ٠ اذا قبلنا جدلا بأن الأحوال على هذا النحو ، فمعنى هذا أن لى عددا كبيرا من الأصدقاء الطيبين فى القصر ٠ فنظرة دقيقة الى الموضوع تدل على أن الخاطر الذى طرأ قبل سنين طويلة على ذلك القسم باستدعاء موظف مساحة ، كان عملا وديا خياليا ، ثم تتابعت الأعمال فى الفترة التالية الواحد تلو الآخر ، حتى انتهت الى نهاية سيئة ، هى اجتذابى الى هنا ثم تهديدى بالرمى ٠

وقال الرئيس :

ـ هناك حقيقة ما فى مفهومك ٠ وأنت على صواب فى أن تعبيرات القصر لا ينبغى أن تؤخذ حرفيا ٠ والحذر ضرورى فى كل مقام ، ليس هنا فقط ، وهو يزداد ضرورة كلما ازداد تعبير القصر أهمية ٠ أما ما قلته عن اجتذابك الى هنا ، فأنا لا أستطيع أن أفهمه ٠ ولو أنك تتبعت شروحى على نحو أفضل ، لعلمت أن مسألة استدعائك الى هنا مسألة أصعب من أن نجيب عليها فى أثناء محادثة صغيرة هنا ٠

فقال ك :

ـ وهكذا تظل النتيجة هى أن كل شيء مبهم مستعص على الحل الى أن أرمى ٠

وقال الرئيس :

ـ ومن الذى أراد أن يجرؤ على رميك يا سيادة موظف المساحة ؟ ان غموض الأسئلة المبدئية الموجهة اليك يعنى معاملتك بغاية الأدب ، ولكن يبدو أنك مفرط الحساسية ٠ ليس هناك من يمنعك من الرحيل ، ولكن هذا لا يعنى رميك ٠

فقال ك :

ـ آه يا سيادة الرئيس ! هأنتذا تعود فترى بعض الأشياء بوضوح مسرف . واننى ذاكر لك الآن بعض الأشياء التى تمنعنى من الرحيل من هنا : التضحية التى تحملتها عندما تركت دارى ورحلت ـ الرحلة الطويلة الشاقة ـ الآمال التى عقدتها على قبولى هنا ـ وكانت كلها آمالا لها مايبررها ـ افتقارى الكامل الى المال ـ استحالة عثورى الآن على عمل مماثل فى بلدى ـ وأخيرا ، وليس هذا أقل الأسباب ، عروسى وهى من أبناء هذا المكان .

وقال الرئيس دون أن يفاجأ بحال من الأحوال :

ـ آه ، فريدا . أنا أعرف . ولكن فريدا لا شك ستتبعك حيثما ذهبت . أما فيما يتعلق بالموضوعات الأخرى فهناك تدابير معينة تدعو اليها الضرورة ، وأنا سأكتب تقريرا أبعث به الى القصر . فاذا أتى قرار أو اذا كانت هناك ضرورة قبل صدوره لاستجوابك مرة أخرى ، فسأستدعيك . هل أنت موافق على ذلك ؟

فقال ك :

ـ لا ! مطلقا ! اننى لا أريد منة من القصر ، أنا أريد حقى .

وقال الرئيس لزوجته التى كانت لا تزال جالسة ملتصقة به وكانت تعبث تائهة حالمة بخطاب كلم الذى صنعت منه مركبا ، فأخذه ك منها مفزوعا :

ـ يا ميتسى ! يا ميتسى ! لقد عادت ساقى تؤلمنى ، لابد أن نجدد الكمادات .

ونهض ك واقفا وقال :

ـ فأستأذن أنا فى الانصراف .

وقالت ميتسى وكانت قد أعدت مرهما :

ـ نعم ، فتيار الهواء شديد .

والتفت ك خلفه ، واذا بالمساعدين ، وقد أخذهما حماسهما فى العمل ، وما كان قط حماسا فى موضعه ، قد فتحا ، عند سماعهما ملاحظة ك ، مصراعى الباب . ولم يستطع ك ـ لحرصه على حماية حجرة المريض من البرودة المندفعة اليها اندفاعا شديدا ـ الا أن ينحنى أمام الرئيس انحناءة عابرة . ثم جرى ، جاذبا المساعدين معه ، خارج الحجرة وأسرع باقفال الباب .


Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

كان صاحب الحان ينتظره أمام الحان . وما كان صاحب الحان ليجرؤ على الحديث اليه ان لم يسأله هو ، ولذلك سأله ك عما يريد . فسأله صاحب الحان وهو ينظر الى أسفل :

ـ هل وجدت سكنا جديدا ؟

فقال ك :

ـ انك تسأل بتكليف من زوجتك . فهل أنت تابع لها الى هذا الحد ؟

فقال صاحب الحان :

ـ لا ، أنا لا أسأل بتكليف منها . ولكنها ثائرة جدا ، وتعيسة بسببك ، فهى لا تستطيع العمل ، بل ترقد فى السرير وتتنهد وتشكو بلا توقف .

وسأل ك :

ـ هل ينبغى أن أذهب اليها ؟

فقال صاحب الحان :

ـ أرجوك أن تفعل . ولقد كنت أريد أن أستدعيك وأنت عند الرئيس ، وتصنت على الباب ولكنكما كنتما تتحادثان ، ولم أشأ أن أسبب لكما ازعاجا ، وكذلك كنت قلقا على زوجتى ، فجريت عائدا اليها ، ولكنها لم تسمح لى بالدخول اليها ، فلم يعد أمامى من شىء أفعله سوى انتظار قدومك .

فقال ك :

ـ اذن فهيا بنا ، بسرعة ، وسأهدئها على الفور .

وقال صاحب الحان :

ـ ليتك تتمكن من تهدئتها !

وسارا خلال المطبخ الصغير ، كانت هناك ثلاث أو أربع خادمات ، كل واحدة بعيدة عن الأخريات ، فتجمدن فى العمل الذى كن يقمن به مصادفة، عندما رأين ك • وكان تنهد صاحبة الحان يسمع فى المطبخ ، وكانت ترقد فى تحويطة بلا نوافذ ، لا يفصلها عن المطبخ سوى جدار خشبى خفيف • ولم يكن بالتحويطة مكان يتسع الا لسرير مزدوج كبير ودولاب • وكان السرير موضوعا بحيث كان يمكن النظر منه الى المطبخ كله ومراقبة العمل •

ولم يكن فى استطاعة من بالمطبخ أن يرى شيئا تقريبا مما فى التحويطة ، فقد كانت مظلمة تماما ، لا يظهر منها الا بريق مفرش السرير الأبيض ـ الأحمر • ولم يكن الانسان يستطيع أن يتبين التفصيلات الا بعد أن يدخل وتتعود عيناه على الظلمة •

وقالت صاحبة الحان واهنة :

وأخيرا أتيت !

كانت ترقد على ظهرها ممددة الأطراف،ويبدو أن التنفس كان يسبب لها آلاما ، وكانت قد أزاحت اللحاف بعيدا • وكانت وهى فى السرير تبدو أكثر شبابا منها وهى فى كامل ثيابها ، ولكنها كانت تضع على رأسها طاقية من نسيج الدنتيلا الرقيق ، أصغر من رأسها صغرا مفرطا ، تتأرجح على شعرها المصفوف ، وكانت تلك الطاقية تجعل ما بالوجه من تدهور يبدو مثيرا للشفقة • وقال ك برقة :

ـ وكيف كان يمكننى أن آتى ؟ انك لم تبعثى الى بمن يستدعينى •

وقالت صاحبة الحان بعناد المرضى :

ـ ما كان ينبغى عليك أن تتركنى أنتظر هذا الوقت كله •

ثم قالت مشيرة الى حافة السرير :

ـ اجلس •

وقالت للآخرين :

ـ أما أنتم فانصرفوا •

وكان المساعدان ، علاوة على الخادمات ، قد اندفعا الى التحويطة • ـ وقال صاحب الحان :

ـ وأنا كذلك أريد أن أنصرف يا جاردينا •

وسمع ك لأول مرة اسم المرأة • وقالت صاحبة الحان ببطء :

ـ طبعا •

ثم أضافت تائهة وكأنها مشغولة كانت بأفكار أخرى :

ـ ولماذا كنت تبقى أنت بالذات ؟

فلما تراجع الجميع الى المطبخ ـ ومن بينهم المساعدان فى هذه المرة وكانا يلاحقان احدى الخادمات ـ كانت جاردينا من التنبه بحيث وعت أن من بالمطبخ يستطيع أن يسمع كل شيء يقال هنا لأن التحويطة لم يكن لها باب ، ولهذا أمرت الجميع بأن يتركوا المطبخ كذلك · وأطاعوا على الفور ·

ثم قالت جاردينا :

ـ من فضلك يا حضرة موظف المساحة · هناك فى مقدمة الدولاب مباشرة شال معلق ، أرجوك أن تناولنى اياه ، فأنا أريد أن أتغطى به ، اننى لا أحتمل اللحاف نظرا لضيق صدرى ·

فلما أحضر ك اليها الشال قالت :

ـ انظر ، انه شال جميل ، أليس كذلك ؟

ورأى ك أنه شال صوف عادى ، فتحسسه مرة أخرى ارضاء لها ولكنه لم يقل شيئا · وقالت جاردينا وهى تلتف به :

ـ نعم ، انه شال جميل ·

وهكذا استلقت مطمئنة ، ولاحت كأن كل ما بها من ألم قد تبدد ، بل ان شعرها الذى كان قد اضطرب نتيجة رقادها خطر ببالها ، فقعدت هنيهة وأحسنت من تصفيفه قليلا حول الطاقية · وكانت جاردينا غزيرة الشعر ·

ولم يطق ك صبرا فقال :

ـ لقد كلفت من سألنى عما اذا كنت قد اتخذت سكنا جديدا ·

فقالت صاحبة الحان :

ـ أنا كلفت من سألك ؟ لا ، هذا خطأ ·

ـ لقد سألنى عن ذلك زوجك منذ قليل ·

فقالت صاحبة الحان :

ـ هذا ما يمكننى تصديقه · لقد تضاربت معه · لقد أبقاك هنا فى الوقت الذى لم أكن فيه أريدك هنا ، أما الآن وقد سعدت بوجودك هنا ، فانه يدفعك الى الرحيل · هكذا يتصرف دائما ·

فقال ك :

ـ اذن فأنت قد غيرت رأيك فى هذا التغيير الشديد ؟ فى ظرف ساعة أو ساعتين ؟

وقالت صاحبة الحان بصوت أكثر ضعفا :

ـ أنا لم أغير رأيى • هات يدك • هكذا • والآن عدنى بأن تكون صريحا كل الصراحة معى وأنا اريد أن أكون صريحة كل الصراحة معك •

فقال ك :

ـ حسنا • ولكن من الذى سيبدأ ؟

فقالت صاحبة الخان :

ـ أنا •

ولم يكن يبدو عليها أنها تريد أن تهون على ك الأمر ، بل كان يبدو عليها أنها متلهفة على أن تكون هى البادئة بالكلام •

وأخرجت من تحت المرتبة صورة فوتوغرافية وقدمتها الى ك وقالت فى أسلوب الرجاء :

ـ انظر الى هذه الصورة •

وتقدم ك خطوة ناحية المطبخ ليتمكن من رؤيتها على نحو أفضل ، ولكنه لم يكن من السهل حتى هناك التعرف على شىء فى الصورة ، التى كانت قد بهتت وتثنت وتعفصت وتبقعت تحت وطأة السنين • فقال ك :

ـ انها للأسف ليست فى حالة جيدة •

فقالت صاحبة الحان :

ـ للأسف ! للأسف ! ولكن عندما يحمل الانسان صورة معه أينما ذهب عاما بعد عام فانها تصبح على هذه الحالة • ولكنك اذا دققت النظر فيها ، فستتبين كل شىء ، بكل تأكيد • ثم اننى أستطيع أن أساعدك ، قل ماذا ترى فى الصورة ، اننى أفرح دائما عندما أسمع شيئا عن الصورة • ماذا ترى ؟

فقال ك :

ـ أرى شابا •

فقالت صاحبة الحان :

ـ بالضبط • وماذا يعمل ؟

ـ انه يرقد ، على ما أظن ، على سرير ، ويتمطى ويتثاءب ٠
فضحكت صاحبة الحان ، وقالت :
ـ هذا خطأ كله ٠
وصمم ك على وجهة نظره قائلا :
ـ ولكن هذا هو السرير ، وها هو ذا يرقد هنا ٠
فقالت صاحبة الحان مغضبة :
ـ دقق النظر ٠ هل هو يرقد فعلا ؟
وهنا قال ك :
ـ لا ، انه لا يرقد ، انه يهيم ، وأنا أتبين الآن أن هذا الشيء ليس خشب السرير ، بل هو على ما يبدو خيط ، والشاب يقفز قفزة عالية ٠
فقالت صاحبة الحان مسرورة :
ـ نعم ، أنه اذن يقفز ٠ وهكذا يتمرن السعاة الرسميون ٠ لقد كنت أعرف أنك ستتبين ما في الصورة ٠ أترى كذلك وجهه ؟
فقال ك :
ـ انني لا أرى من الوجه الا القليل ٠ يبدو أنه يبذل جهدا كبيرا لأن الفم مفتوح ، والعينين مطبقتا والشعر هفهاف ٠
فقالت صاحبة الحان معبرة عن تقديرها :
ـ عظيم جدا ٠ لا يمكن لانسان لم يره من قبل أن يتبين من الصورة اكثر من ذلك ٠ ولكنه كان شابا جميلا ٠ ولقد رأيته أنا مرة واحدة رؤية عابرة ، ولكنى لن أنساه أبدا ٠
فسأل ك :
ـ ومن هذا ؟
ـ فقالت صاحبة الحان :
ـ الساعى الذى استدعانى كلم عن طريقه اليه للمرة الأولى ٠
ولم يستطع ك أن يصغى بدقة ، فقد شتت صوت قرع على الزجاج إنتباهه ٠ وما لبث أن اكتشف سبب الاقلاق ٠ كان المساعدان يقفان في الفناء في الخارج ، وكانا يقفزان متنقلين من قـدم الى أخرى ٠ وتصنعا السعادة لرؤية ك مرة أخرى ، وكان كل منهما يريه لصـاحبه من فرط السعادة ، وكانا في أثناء ذلك لا يكفان عن القرع على شـباك المطبخ ٠

واشار ك اليهما اشارة تهديد ، فكفا عن فعلتهما على الفور ، وحاول كل منهما أن يدفع صاحبه الى الخلف ، ولكنهما كانا يتماسكان من جديد ، واذا هما عند النافذة من جديد • وأسرع ك الى التحويطة التى لم تكن أنظار المساعدين تصل اليها من الخارج والتى لم يكن يضطر وهو فيها الى النظر اليهما • ولكن الدق على الزجاج على نحو يعبر عن التوسل والرجاء ظل يلاحقه هناك مدة طويلة •

وقالت صاحبة الحان ملتمسة له العذر وهى تشير الى الخارج :

ـ المساعدان مرة أخرى •

ولكنها لم تكن منتبهة اليه • كانت قد أخذت منه الصورة ونظرت اليها وسوتها ودستها مرة أخرى تحت المرتبة • كانت حركاتها قد ازدادت بطئا ، لا نتيجة للتعب ، ولكن تحت وطأة الذكرى • كانت تريد أن تحكى لك ، ولكن الحكاية أنستها اياه • وأخذت تعبث بشراريب الشال وظلت كذلك برهة ، رفعت بعدها نظرها الى أعلى ، ومسحت بكفها على عينيها وقالت :

ـ وهذا الشال كذلك من كلم • وكذلك الطاقية الصغيرة • الصورة والشال والطاقية هى الذكريات الثلاث التى لدى عنه • وأنا لست شابة مثل فريدا ، ولست طموحة مثلها ، ولست رقيقة الحس مثلها ، فانها رقيقة الحس جدا • اننى باختصار أعرف كيف أسير فى الحياة ، ولكن لابد أن أعترف ، بأننى لو لم أكن أملك الأشياء الثلاثة ، لما كنت قد احتملت البقاء هنا هذه المدة الطويلة ، بل لما كنت ، على الأرجح ، احتملت البقاء هنا يوما واحدا • وربما بدت لك الأشياء الثلاثة قليلة ، ولكن انظر : ان فريدا التى كانت على صلة بكلم لفترة طويلة جدا لا تمتلك شيئا واحدا للذكرى ، ولقد سألتها ، ولكنها حالمة طماعة • أما أنا ، التى ذهبت الى كلم ثلاث مرات فقط ـ فلم يعد يرسل فى طلبى ولا أعرف لماذا ـ فقد أخذت هذه الأشياء للذكرى ، وكأنى كنت أتوقع أن وقتى معه سيكون قصيرا • وينبغى على الانسان بطبيعة الحال أن يهتم هو بهذه الأمور ، لأن كلم نفسه لا يعطى شيئا ، ولكن اذا ما رأى الانسان شيئا مناسبا عنده ، ففى الامكان أن يرجوه وأن يناله •

وأحس ك بعدم الارتياح حيال هذه القصص على الرغم من أنها كانت تمسه جدا •

وسأل ك وهو يتنهد :

ـ متى كان هذا كله ؟

فقالت صاحبة الحان :

ـ قبل أكثر من عشرين سنة ، أكثر من عشرين سنة بكثير ·

فقال ك :

ـ الى هذا المدى يستمر الاخلاص لكلم · ولكن ألا تتبينين ياسيدتى صاحبة الحان ، انك بمثل هذه الاعترافات تسببين لى قلقا شديدا عندما أفكر فى زواجى المستقبل ؟

ووجدت صاحبة الحان أنه من غير اللائق أن يحاول ك أن يندس هنا بمسائله ، فنظرت اليه من الجانب غاضبة · فقال ك ·

ـ لا تغضبى ، ياسيدتى صاحبة الحان · اننى لا أقول كلمة واحدة ضد كلم ، ولكنى بتأثير قوة الأحداث دخلت فى علاقات ما مع كلم · وهذا شىء لا يمكن لأكبر معجب بكلم أن ينكره · المهم · أن النتيجة هى أننى فى كل مرة يأتى فيها ذكر كلم ، لابد أن أفكر فى نفسى · هذا شىء لايمكن تغييره · وأنت يا سيدتى صاحبة الحان ··

وهنا أمسك ك بيدها المترددة ، وراح يكمل :

ـ أنت تذكرين كيف انتهت محادثتنا الأخيرة نهاية رديئة ، ونحن نريد هذه المرة أن ننتهى من المحادثة فى وئام ·

فقالت صاحبة الحان وهى تطأطىء راسها :

ـ أنت على حق · ولكن لا تعرضنى لما يسوءنى · وأنا لست أكثر حساسية من الآخرين ، بل على العكس ، ولكن كل انسان له جوانب حساسة ، وهذا هو الجانب الحساس عندى ·

وقال ك :

ـ وهو للأسف أيضا الجانب الحساس لدى ، ولكنى سأتحكم فى نفسى بكل تأكيد · والآن اشرحى لى ، ياسيدتى صاحبة الحان ، كيف يمكننى بعد الزواج أن أتحمل هذا الاخلاص البشع حيال كلم ، على فرض أن فريدا تشبهك فى هذه الناحية ؟

وأعادت صاحبة الحان غاضبة :

ـ الاخلاص البشع ؟ هل هذا اخلاص ؟ اننى مخلصة لزوجى ، أما كلم ؟ فلقد جعل منى ذات مرة عشيقة له ، وهل فى امكانى أن أفقد هذه الرتبة أبدا ؟ وكيف يمكنك أن تحتمل هذا مع فريدا ؟ آه ، يا حضرة موظف المساحة ، من أنت حتى تجرؤ على السؤال هكذا ؟

فقال ك محذرا :

ـ ياسيدتي صاحبة الحان !

وقالت صاحبة الحان منصاعة أنا أعرف ، ولكن زوجي لم يسأل مثل هذه الأسئلة • ولست أعرف من التي تسمى تعيسة ، أنا في ذلك الوقت ، أو فريدا الآن • فريدا التي تركت كلم عمدا ، أو أنا التي لم يعد يستدعيها • ربما فريدا وان لم يبد عليها أنها تعرف ذلك تماما • ولكن أفكاري كانت دائما تحت سيطرة نحسي دون ما سواه ، لأنني كنت لاأكف عن التساؤل ، وما زلت في الحقيقة لا أكف للآن عن التساؤل : لماذا حدث هذا ؟ لقد استدعاك كلم ثلاث مرات ، ثم لم يستدعك مرة رابعة ، ولم تأت المرة الرابعة مطلقا • وهل كان هناك في ذلك الوقت شيء يشغلني أكثر من هذا ؟ وفي أي موضوع ، غير هذا ، كان يمكنني أن أتكلم مع زوجي ، الذي تزوجته بعد ذلك بقليل ؟ لم يكن لدينا أثناء النهار وقت ، لأننا كنا قد أخذنا الحان في حالة بائسة ، وكان علينا أن نجتهد في تحسينها • وفي الليل ؟ لقد ظلت أحاديثنا لأعوام طويلة تدور حول كلم وحده ، وحول أسباب تغير فكره • وعندما كان زوجي ينعس أثناء هذه الأحاديث ، كنت أوقظه لنستمر فيها •

وقال ك :

ـ والآن ، اذا سمحت ، سأسألك سؤالا شديد الغلظة •

وصمتت صاحبة الحان •

فقال ك :

ـ اذن فليس لي أن أسأل • وهذا يكفيني •

فقالت صاحبة الحان :

ـ بطبيعة الحال ، هذا يكفيك ، وهذا بالذات • انك تسيء تأويل كل شيء ، حتى الصمت • انك لا تستطيع الا أن تتصرف على هذا النحو • ولكنني أسمح لك بالسؤال •

فقال ك :

ـ اذا كنت أسيء تأويل كل شيء ، فلعلي أسيء التأويل حتى سؤالي نفسه ، ولعله ليس شديد الغلظة • لقد كنت أريد أن أعرف كيف تعرفت بزوجك وكيف وصل هذا الحان الى حوزتك ؟

وقطبت صاحبة الحان جبينها ولكنها قالت بنفس الروح :

ـ تلك قصة بسيطة جدا • كان أبي حدادا ، وكان هانس ، زوجي الحالي ، سايسا للخيل عند مزارع كبير ، وكان يأتي كثيرا الى أبي • وكان

ذلك بعد لقائى الأخير مع كلم ، وكنت تعيسة جدا ، وان لم يكن لى أن أتردى الى التعاسة الشديدة ، لأن الأمور كلها كانت تسير على ما يرام ، وكان بعدى عن كلم بناء على قرار منه ، أى كان أمرا صحيحا • ولكن أسباب قراره كانت غامضة •• ولم يكن لى أن أبحث فيها ، ولكنه لم يكن لى أن أتردى الى التعاسة • المهم اننى كنت تعيسة ، وانني لم أكن أستطيع العمل ، وأننى كنت أجلس النهار كله فى الحديقة الصغيرة أمام دارنا • وهناك رآنى هانس ، وكان يأتى الى ويجلس الى أحيانا ، ولم أشك له ، ولكنه كان يعرف الأمر ، ولما كان صبيا طيبا ، فقد حدث ذات مرة أن بكى معى • ولما مر صاحب الحان القديم على حديقتنا الصغيرة ذات مرة ، وكانت زوجته قد توفيت ، واضطر لذلك الى ترك هـذه الحرفة ـ ثم انه كان مسنا ـ ورآنى جالسة فيها ، وقف وعرض علينا مباشرة أن نستأجر الحان ، ولم يكن يريد شيئا مقدما ، لثقته فينا ، وكذلك جعل الايجـار منخفضا جدا • ولم أكن أريد أن أكون حملا ثقيلا على أبى ، وكان كل شىء عدا ذلك هينا ، وهكذا قدمت يدى الى هانس وأنا أفكر فى الحان وفى العمل الجـديد الذى كان يمكن أن يأتينى بشىء من النسـيان • هـــذه هى الحكاية •

وساد السكون هنيهة • ثم قال ك :

ـ لقد كانت طريقة صاحب الحان فى التصرف جميلة ، ولكنها لم تكن حذرة ، أم هل كانت لديه أسباب خاصة للثقة فيكما ؟

وقالت صاحبة الحان :

ـ لقد كان يعرف هانس جيدا ، لأنه كان عمه •

فقال ك :

ـ هو ذاك اذن • وهل بدا على أسرة هانس أنها كانت مهتمة اهتماما كبيرا بالاقتران بك ؟

فقالت صاحبة الحان :

ـ ربما • لا أعرف • وأنا لم اهتم قط بمعرفة ذلك •

فقال ك :

ـ لابد أن الأمر كان كذلك ، اذا كانت الأسرة مستعدة للتضحية الى هذا الحد ووضع الحان فى يديك دون ما ضمان •

فقالت صاحبة الحان :

ـ لم يكن ذلك حمقا منها ، على ما تبين فيما بعد • فقد وضعت كل

ثقلى فى العمل ، وكنت قوية ابنة حداد ، ولم أكن بحاجة لا الى خادمة ولا الى خادم ، وكنت أعمل فى كل مكان ، فى الخمارة ، فى المطبخ ، فى الحظيرة ، فى الفناء ، وكنت أجيد الطهى لدرجة أننى طردت بعض الزبائن الى حان السادة ، لأنهم لم يجتمعوا فى الظهر فى قاعة الحان - وأنت لا تعرف زبائن الظهر عندنا ، وكانوا فى ذلك الوقت أكثر من الآن ، وهرب منهم الكثيرون بعد ذلك . ولم يقف ما تمكنا من أنجازه عند حد دفع الايجار فى موعده ، بل تجاوزه الى أن تمكنا بعد سنوات قليلة من شراء كل شىء ، وأصبح الحان لنا خالصا من كل دين . ثم حدث شىء هام آخر بعد ذلك ، وهو اننى بطبيعة الحال تحطمت وأصبت بمرض القلب وأصبحت امرأة عجوز . ولعلك تظن أننى أكبر من هانس بسنوات كثيرة ، والحقيقة انه لا يصغرنى الا بسنتين أو ثلاث سنوات ، ولكن الشيخوخة لم تظهر عليه أبدا ، لأن العمل الذى يقوم به - تدخين الغليون والاستماع الى الزبائن ثم تنظيف الغليون من بقايا التبغ واحضار القليل من البيرة أحيانا - عمل لا يبلغ بأحد الشيخوخة .

فقال ك :

- ان جهودك لجديرة بالاعجاب ، هذا شىء لاشك فيه . ولكننا تكلمنا عن الوقت السابق على زواجكما ، ولقد يبدو من الغريب أن تكون أسرة هانس الحث على أن يتم الزواج مع هذه التضحية المالية أو على الأقل مع تحمل هذه المخاطر الجسيمة التى يعنيها تتمثل فى التنازل عن الحان ، فى وقت لم يكن فيه من أمل سوى طاقتك على العمل ، ولم تكن تلك الطاقة للأسرة معرفة بها ، وطاقة هانس على العمل ، ولابد أن الأسرة كانت تعرف أنها غير موجودة .

فقالت صاحبة الحان واهنة :

- آه ، اننى أعرف الهدف الذى ترمى اليه ، والى أى حد يجانبك الصواب . لا ، لم يكن لكلم أى أثر فى هذه الأمور كلها . ولماذا كان يتكفل بى ، أو على الأصح كيف كان يمكنه أن يتكفل بى ؟ انه لم يعد يعرف أى شىء عنى . انه لم يعد يبعث فى طلبى ، وكانت تلك علاقة تدل على أنه قد نسينى . انه عندما يكف عن استدعاء شخص ما اليه ، فهذا يعنى أنه نسيه نسيانا تاما . وأنا لم أرد أن أتحدث بشىء من هذا أمام فريدا . وليس هذا مجرد نسيان ، انه أكثر من ذلك . فان الشخص الذى ننساه ، يمكن أن نذكره ثانيا . ولكن هذا مستحيل لدى كلم . ان الشخص الذى يكف عن استدعائه ، شخص قد نسيه تماما لا بالنسبة للماضى فحسب ،

ولكن بالنسبة للمستقبل أيضا وعلى نحو قاطع · وأنا عندما أبذل الكثير من الجهد أستطيع أن أتبع سبيل أفكارك ، أفكارك التي لا معنى لها هنا ، والتي ربما كانت في الغربة التي أتيت منها أفكارا نافذة لها صلاحيتها · ومن الممكن أن تصل بأفكارك الى الجنون الذي يحملك على الاعتقاد في أن كلم قد أعطاني هانس زوجا حتى لا يصبح لدي ما يعوقني عن الذهاب اليه اذا ما استدعاني اليه في المستقبل · وأين هـذا الرجل الذي يمكن أن تكون له القدرة على منعي من الجري الى كلم اذا لوح الى ؟ هذه حماقة . حماقة مطبقة · وأن الانسان ليضطرب أشد الاضطراب اذا خالجته هذه الحماقة ·

وقال ك :

ـ لا ينبغي أن نبلغ هذا الاضطراب الشديد ، وأنا لم أذهب بأفكاري الى هذا المدى الذي تفترضين أنني وصلت اليه ، وان كنت ـ والحق يقال ـ قد سلكت السبيل اليه · كل ما في الأمر انني اندهشت مؤقتا لأن الأسرة عقدت كثيرا من الآمال على هذه الزيجة ، وأن آمالها تحققت بالفعل ، وان كلفك هذا قلبك وصحتك · والحقيقة ان فكرة وجود علاقة بين كل هذه الوقائع وكلم كانت تفرض نفسـها على ، ولكنها لم تكن قد وصلت ، أو لم تكن قد وصلت بعد ، الى هذه الوقاحة التي تصورين بهـا الأمور ، وتقصدين من ورائها على ما يبدو الى الاغلاظ لي ، لأنك تجدين في ذلك متعة · فلك هذه المتعة ! ولكن فكرتي كانت تتلخص فيما يلي : ان كلم كان على ما يبدو هو الدافع الى الزواج · فلو لم يكن كلم ، لما كنت قدترديت الى التعاسة ، ولما كنت قد جلست ساكنة في الحديقة الصغيرة أمام الدار ، ولو لم يكن كلم لما رآك هانس هناك ، ولو لم تكوني حزينة لما تجاسر هانس الخجول على التوجه اليك بحديث ، ولو لم يكن كلم لما وجدت نفسك وهانس تذرفان الدموع ، ولو لم يكن كلم لما رآكما العم الطيب صاحب الخان تجلسان في وئام معا ، ولو لم يكن كلم ، لما استهرت بالحياة ، ولما كانت النتيجة زواجك بهانس · كل هذه أمور فكرت أن لكلم بها شأن ليس بالقليل · ولكن فكرتي لا تنتهي عند هذا الحد ، بل تصل الى أبعد منه · فلو أنك لم تسعي الى النسيان ، لما كنت قد عملت في الخان دون اعتبار لصحتك ، ولما كنت قد نهضت به · وهذه ناحية أخرى نجد فيها كلم كذلك · ثم ان كلم ، بغض النظر عن ذلك ، هو السـبب في مرضك ، لأن قلبك كان قبل الزواج يعـاني من الانهـاك نتيجة للحب الفاشل · وتبقى مسألة وحيدة هي الشيء الذي اجتذب أهل هانس الى هذا الزواج على نحو شديد · لقد ذكرت أنت نفسك أن الوصول الى درجة

عشيقة لكلم وصول الى رتبة لا سبيل الى فقدانها . ولعل هذا هو السبب الذى اجتذبهم . هذا الى أننى أعتقد أن طالع السعد الذى ساقك الى كلم ـ هذا على فرض انه كان طالع سعد ، ولكنك أنت تؤكدين ذلك أنه ـ منك لك ، وأنه لذلك يبقى معك ، ولا يتركك بسرعة وفجأة كما فعل بك كلم .

وسألت صاحبة الحان :

ـ هل أنت جاد فى هذا كله ؟

وقال ك بسرعة :

ـ نعم جاد . ولكننى أعتقد أن أسرة هانس لم تكن فيما ذهبت اليه من آمال على حق تماما ، ولم تكن على خطأ تماما ، وأعتقد كذلك اننى أعرف الغلطة التى ارتكبتها . فكل الأمور تبدو من الناحية الظاهرية ناجحة ، بالنسبة الى هانس ، فقد تحققت له رعاية طيبة ، وقد تزوج امرأة جسيمة ، ووصل الى سمعة طيبة ، وأصبح الحان بلا ديون . ولكن الأمور ليست كلها فى الحقيقة ناجحة ، فليس من شك فى أنه كان سيجد سعادة أكثر لو أنه تزوج بنتا بسيطة أحبها وكان أول حب كبير فى حياتها . واذا كان هو ـ وعلى ذلك تلومينه كثيرا ـ يقف فى قاعة الحان أحيانا كالتائه فما ذلك الا لأنه يحس بنفسه فعلا كالتائه ـ دون أن يكون لهذا السبب تعيسا ، بكل تأكيد ، فأنا أعرفه الآن معرفة تمكننى من الحكم بذلك ـ وليس من شك أيضا فى أن هذا الشاب الجميل الفطين كان يمكن أن يكون أكثر سعادة مع امرأة أخرى ، وأعنى بأكثر سعادة : أكثر استقلالا وأكثر نشاطا وأكثر رجولة . وأنت كذلك ، لست بكل تأكيد سعيدة ، ولقد قلت ، انك ما كنت تستمرين فى الحياة ، لو لم تكن لديك الذكريات الثلاث ، ثم أنك مريضة بالقلب . هل معنى هذا أن الأسرة كانت فيما ذهبت اليه من آمال على خطأ ؟ لا أظن ذلك . لقد كانت البركة دائما فوقك ، ولكن أحدا لم يفهم كيف يستنزلها .

وسألت صاحبة الحان وكانت تتمدد على ظهرها وتنظر الى السقف :

ـ فما الذى كان ينبغى عليهم فعله ولم يفعلوه ؟

فقال ك :

ـ أن يسألوا كلم .

فقالت صاحبة الحان :

ـ وبهذا نكون قد وصلنا مرة أخرى اليك .

فقال ك :

ـ أو اليك • فموضوعاتنا متصلة الحدود •

فسألت صاحبة الحان :

ـ ماذا تريد اذن من كلم ؟

كانت صاحبة الحان قد قعدت ، ونفضت المخدات حتى تستطيع أن تستند اليها قاعدة ، وأخذت تنظر في عيني ك محدقة فيهما • وأردفت :

ـ لقد حكيت لك موضوعي بصراحة ولعلك كنت تستطيع أن تتعلم منه شيئا • فقل لي الآن بصراحة مماثلة : عما تريد أن تسأل كلم ؟ والحقيقة أنني لم أستطع الا بكل جهد أن أقنع فريدا بأن تصعد الى حجرتها وأن تبقى بها ، فقد كنت أخشى ألا تتكلم في حضرتها بصراحة كافية •

فقال ك :

ـ ليس لدى ما أخفيه • وأنا أريد بادىء ذى بدء أن أوجه انتباهك الى شيء • لقد قلت ان كلم ينسى على الفور ، وهذا أولا يبدو لى بعيداً عن التصديق ، وهو ثانيا غير قابل للاثبات ، وما هو على ما يبدو الا أسطورة تفتقت عنها قرائح البنات التي كن ينعمن بالحظوة لدى كلم • وأنا أدهش لأنك تصدقين أسطورة سخيفة الى هذا الحد •

فقالت صاحبة الحان :

ـ ليست أسطورة • انها خلاصة الخبرة العامة •

فقال ك :

ـ انها بدعة من الممكن دحضها ببدعة أخرى • وهناك فارق آخر بين حالتك وحالة فريدا • فالقول بأن كلم لم يعد يستدعى فريدا اليه ، قول بشيء لم يحدث على الاطلاق • فهو قد استدعاها ولكنها لم تتبعه • بل انه من المحتمل أن يكون في انتظارها دائما •

وصمتت صاحبة الحان وأخذت تلاحظ ك بنظرة تروح بها وتجيء ، ثم قالت :

ـ انني أريد أن أنصت الى كل ما تنوى قوله هادئة • وأن تتحدث بصراحة ، خير من أن تخفى شيئا خوفا على • وليس لى الا رجاء واحد • وهو ألا تستعمل اسم كلم • سمه « هو » أو ما شئت ، ولكن لا تسمه باسمه •

فقال ك :

ـ لك ما تريدين عن طيب خاطر • ولكن الشيء الذي أريده منه شيء يصعب التعبير عنه • انني أريد أولا أن أراه عن قرب ، ثم أريد بعد ذلك أن أسمع صوته ، ثم أريد أن أعرف موقفه من زواجنا • أما الطلب الذي قد أتوجه به اليه فرهن بسير الحديث • وقد يتناول الحديث أمورا مختلفة ، ولكن أهم شيء بالنسبة الى هو أن أقف أمامه • فأنا لم أتكلم حتى الآن مع موظف حقيقي مباشرة • ويبدو أن الوصول الى هذا أصعب مما كنت أتصور • أما الآن فقد أصبح لى الحق في أن أتكلم معه على اعتبار انه شخص عادى ، وهذا فى اعتقادى أسهل تحقيقا • فمن حيث هو موظف ، لا يمكنني أن أكلمه الا فى مكتبه الذى قد يكون بعيد المنال ، أو فى القصر ، وهو مكان الوصول اليه أمر مشكوك فيه ، أو فى حان السادة • أما من حيث هو انسان عادى ، فيمكنني أن أكلمه فى كل مكان، فى البيت ، فى الشارع ، حيثما تمكنت من الالتقاء به • أما أنني فى هذه الحالة سأكون واقفا فى مواجهة موظف أيضا ، فأمر يطيب لى الرضا به ، وان لم يكن هو هدفى الأول •

وقالت صاحبة الحان وهى توارى وجهها فى المخدات وكأنها تقول شيئا لا حياء فيه :

ـ حسنا • اذا كنت سأستطيع بفضل اتصالاتى وعلاقاتى توصيل طلبك محادثة كلم فهل تعدنى بألا تفعل شيئا من تلقاء نفسك حتى تتنزل الاجابة ؟

فقال ك :

ـ هذا ما لا يمكنني أن أعدك به على الرغم من أنني أحب أن أحقق لك كل رغبة ونزوة • ولكن الأمر ملح ، وخاصة بعد النتيجة غير الطيبة التى انتهى اليها حديثى مع الرئيس •

فقالت صاحبة الحان :

ـ وهذا اعتراض لا اعتبار له ، لأن الرئيس شخص تافه تماما • ألم تلحظ ذلك ؟ وما كان يمكنه أن يبقى يوما واحدا فى مركزه لو لم تكن هناك زوجته التى تدبر كل شيء •

وسأل ك :

ـ ميتسى ؟

فأومأت صاحبة الحان برأسها • وقال ك :

ـ لقد كانت حاضرة •

وسألت صاحبة الخان :

فقال ك :

ـ لا ، ثم انني لم أحس بأنها يمكن أن تعبر عن رأى ٠

فقالت صاحبة الخان :

ـ هه ، هكذا تخطىء فى تقدير كل شيء هنا ٠ المهم : أن ما قرره الرئيس بشأنك لا أهمية له ، وسأتكلم مع المرأة عندما تسنح فرصة ٠ واذا أنا وعدتك الآن بأن اجابة كلم ستأتى فى غضون أسبوع على أكثر تقدير ، فهل ينتفى كل سبب لديك كان يدعوك الى عدم الاذعان لى ؟

فقال ك :

ـ ليس هذا كله حاسما ٠ ولقد قر قرارى ، وسأحاول أن أنفذه اذا أتت اجابة بالرفض ٠ وما دامت لدى هذه النية مقدما ، فلا يمكنني أن أكلف من يرجو لى محادثة ٠ وان مسعاى الذى قد يعتبر ـ بدون هذا الرجاء ـ محاولة جريئة ـ ولكن طيبة النية ـ ليتحول اذا اصطدم الرجاء بالرفض الى ثورة صريحة ٠ وهذا بطبيعة الحال أشد سوءا ٠

فقالت صاحبة الخان :

ـ أشد سوءا ؟ انها ثورة على أية حال ٠ والآن افعل ما تريد ٠ ناولني الثوب ٠

وارتدت الثوب دون أن تكترث بـ ك وأسرعت الى المطبخ ٠ وكانت أصوات تنم عن القلق قد تناهت الى السمع من ناحية قاعة الخان منذ وقت ليس بالقصير ٠ وكان بعضهم قد دق على الطاقة ٠ وكان المساعدان قد دفعا الطاقة مرة وصاحا من داخلها بأنهما جائعين ٠ ثم ظهرت فيها بعض الوجوه الأخرى ٠ وتناهى الى الأذن غنـــاء خفيض اشتركت فيه أصوات كثـيرة ٠

كان حديث ك مع صاحبة الخان قد عطل طعام الغذاء بطبيعة الحال عطلا شديدا ٠ ولم يكن الطعام قد أعد ، وكان الزبائن قد اجتمعوا ٠ على أن أحدا لم يجرؤ على عصيان أمر صاحبة الخان بمنع الدخول الى المطبخ٠ فلما أبلغ أولئك الذين نظروا من الطاقة بأن صاحبة الخان مقبلة ، جرت الخادمات الى المطبخ ، وعندما دخل ك الى قاعة الخـــان ، اندفعت جماعة غفيرة تثير كثرتها الدهشة ، تزيد على العشرين ، من النساء والرجال ، يرتدون ملابس تدل على انهم من الأقاليم وان لم تكن ملابس الفـلاحين ،

عائدة من الطاقة حيث تجمعت ، الى الموائد ليضمن كل لنفسه مكانا • الا في ركن من القاعة كان زوجان يجلسان مع بعض الأولاد ، ومال الرجل ، وكان رجلا لطيفا أزرق العينين أشيب الرأس واللحية منفوش الشعر ، على الأولاد وأخذ يدق بسكينه ايقاع أغنية يغنيها الأولاد ، وكان يبذل بغير انقطاع محاولات ليكتم الغناء ، ولعله كان يريد بالغناء أن ينسى الأولاد ما بهم من جوع • واعتذرت صاحبة الحان للجماعة بكلمات ألقتها في استهتار ، ولم يوجه اليها أحد لوما • وتلفتت تبحث عن صاحب الحان ، الذى كان قد لاذ منذ وقت طويل بالفرار على ما يبدو نتيجة لدقة الموقف• ثم سارت متباطئة الى المطبخ • ولم تعد تنظر الى ك الذى أسرع الى حجرته للقاء فريدا •

الفصل السابع

وفى الحجرة التقى ك بالمعلم · وكانت فريدا قد نشطت فى اعداد الحجرة حتى كاد ألا يعود من الممكن التعرف عليها · فأحسنت تهويتها ، ونظمت السرير ، وأبعدت حاجيات الخادمتين ـ تلك الكراكيب المقيتة ، بما فيها من صور ـ وفرشت على المنضدة مفرشا أبيض اللون مشغولا ، وكانت تلك المنضدة ، بقرصها الذى كونت القذارة عليه طبقة صلبة ، تحملق فى الانسان أينما ذهب · أما الآن فقد أصبح من الممكن استقبال الضيوف · الا أن ملابس ك الداخلية القليلة ، التى يبدو أن فريدا قد غسلتها ، ونشرتها الى المدفأة لتجف ، كانت تسىء الى رونق الحجرة قليلا· كان المعلم وفريدا يجلسان الى المنضدة ، ونهضا واقفين عندما دخل ك · وحيت فريدا ك بقبلة ، أما المعلم فقد انحنى قليلا · واعتذر ك ، وكان تائه الفكر مضطرب النفس بعد الحديث مع صاحبة الحان ، لأنه لم يستطع أن يزور المعلم حتى الآن ، وكأنه افترض ان المعلم قد فرغ صبره لعدم زيارة ك له ، فأتى يزوره بنفسه · أما المعلم فيبدو أنه تذكر شيئا فشيئا ، بطريقته الكريمة ، أن شيئا يشبه الزيارة قد جرى الاتفاق بينهما عليه ذات مرة · فقال ببطء :

ـ انك أنت ، يا حضرة موظف المساحة ، الغريب الذى تكلمت معه قبل بضعة أيام فى ميدان الكنيسة ·

فقال ك باختصار :

ـ نعم ·

لقد أصبح عليه أن يرضى هنا فى حجرته بما كان قد سكت عنه قديما فى عزلته · وتحول الى فريدا وتشاور معها فى أمر الزيارة الهامة التى كان يريد أن يقوم بها من فوره والتى كان يريد أن يذهب اليها وهو يلبس أحسن ما يمكن أن يلبسه · ونادت فريدا فى الحال ، ودون أن تسأل ك المزيد ، على المساعدين ، وكانا مشغولين بتفحص المفرش المشغول ، وأمرتهما بأن ينظفا ثياب ك وحذائه الطويل تنظيفا متقنا فى

الفناء السفلى ، وكان ك قد بدأ يخلعها . أما هي فقد أخذت قميصا من الغسيل المنشور على الحبل وأسرعت الى المطبخ لتكويه .

وأصبح ك الآن وحده مع المعلم الذى كان يجلس هادئا الى المنضدة وتركه ينتظر قليلا ، وخلع القميص ، وبدأ يغتسل عند الحوض . وبدأ ، وهو يوليه ظهره ، يسأله عن سبب قدومه .

وقال المعلم :

ـ لقد أتيت بتكليف من رئيس مجلس القرية .

وكان ك مستعدا للاستماع الى التكليف الذى أتى به المعلم . ولما كانت كلمات ك لا تصل الى المعلم واضحة نتيجة لانهمار الماء ، حتى صعب عليه فهمها ، فقد اضطر المعلم الى الاقتراب والارتكان الى حائط قرب ك . واعتذر عن اغتساله ، وعن اضطرابه ، مبررا ذلك بأن الزيارة التى ينوى القيام بها ملحة . وعبر المعلم على هذا الكلام تعبيرا وقال :

ـ لقد كنت قليل الأدب حيال السيد رئيس مجلس القرية ، وهو الرجل المسن الجليل صاحب الأفضال كثير الخبرة .

فقال ك وهو يجفف نفسه :

ـ لا أعرف أننى كنت قليل الأدب حياله . أما اننى كنت مضطرا للتفكير فى أشياء أخرى غير السلوك المهذب ، فهذا صحيح ، لأن الموضوع كان يدور حول وجودى الذى تهدده تدبيرات دنيئة تسترسل فيها الدواوين ولا حاجة بى الى ذكر تفصيلاتها أمامك فأنت عضو عامل فى هذه الدواوين . ـ هل شكا رئيس القرية من مسلكى ؟

فقال المعلم :

ـ ولمن يشكو ؟ وحتى لو كان هناك من يشكو له ، فهل يمكن أن يشكو رئيس القرية ؟ كل ما فى الأمر أننى كتبت محضرا صغيرا عن محادثتك ـ اعتمادا على ما أملاني من بيانات ـ ومنه علمت غير قليل عن طيبة السيد الرئيس وعن نوع اجاباتك .

وقال ك ، وهو يبحث عن المشط الذى لا بد أن فريدا وضعته وهى ترتب الحجرة فى مكان ما غير الذى كان به :

ـ كيف هذا ؟ ما هذا المحضر ؟ أهكذا يقوم شخص لم يكن موجودا أثناء المحادثة بكتابة محضر فى غيابى ويجرى ذلك بعد انتهاء المحادثة ؟ هذا شيء جميل . ولماذا المحضر ؟ هل كان هذا اجراءا رسميا ؟

فقال المعلم :

ـ لا ، انه اجراء نصف رسمي ، انه أيضا نصف رسمي . ولقد كتبناه لأن كل شيء لدينا يسير في نظام دقيق . والمهم أن المحضر موجود، وانه لا يشرفك .

وقال ك على نحو أكثر هدوءا ، وكان قد انزلق الى السرير ، ووجد المشط الذى طال بحثه عنه :

ـ ليكن المحضر موجودا . فهل أتيت لتخبرني بذلك ؟

فقال المعلم :

ـ لا ، ولكنى لست آلة أوتوماتيكية ، ولهذا أتيت لأقول لك رأيي . أما التكليف الذى أتيت به ، فهو دليل آخر على طيبة السيد الرئيس . وأنا لأؤكد أن هذه الطيبة من الأمور التى لا أستطيع فهمها ، واننى لا أنفذ التكليف الا تحت ضغط مركزى واجلالى للسيد الرئيس .

وكان ك قد فرغ من الاغتسال وتمشيط شعره ، وجلس الى المنضدة ينتظر قميصه وثيابه ، ولم يكن مشتاقا لمعرفة ما أتى المعلم به اليه ، وكان متأثرا برأى التحقير الذى عبرت عنه صاحبة الحان حيال الرئيس . وقال ك وهو يفكر في المشوار الذى اعتزم عليه :

ـ يبدو أن الوقت تجاوز الظهر ؟

ثم أصلح التعبير وقال :

ـ لقد كنت تريد أن تبلغنى شيئا من الرئيس .

فقال المعلم وهو يهز كتفيه وكأنه ينفض عن كاهله كل مسئولية ذاتية :

ـ نعم . ان السيد الرئيس يخشى ، اذا تأخر حسم مسألتك ، أن تقوم بنفسك بعمل متهور . وأنا ، عن نفسى ، لا أفهم لماذا يخشى هذا . والرأى عندى أن الأفضل أن تفعل ما تريد . فنحن لسنا حفاظا عليك ، وليس علينا واجب الجرى وراءك ووراء مساعيك . النهاية . السيد الرئيس يرى رأيا آخر . ان القرار الحاسم لمسألتك ، قرار من شأن الدواوين الأميرية ، وهو بطبيعة الحال لا يستطيع استعجاله . ولكنه يريد أن يتخذ ، فى اطار صلاحياته ، قرارا مؤقتا ، كريما بحق ، ولك أنت وحدك أن تقبله . انه يعرض عليك مؤقتا وظيفة خادم مدرسة .

ولم يكد ك يهتم فى أول الامر بما عرض عليه ، ولكنه رأى أن مجرد عرض شىء عليه شىء لا يتجرد من الأهمية · ان ذلك يدل على أنه ، حسب رأى الرئيس ، يستطيع فى سبيل الدفاع عن نفسه أن يفعل أشياء ينبغى على مجلس القرية أن يبذل جهودا معينة حيالها ليقى نفسه · وانه ليدل على الاهتمام بالموضوع · ولا بد أن المعلم ، الذى انتظر هنا طويلا ، والذى كتب قبل ذلك المحضر ، قد أتى الى هنا يدفعه الرئيس الى ذلك دفعا · وما أن رأى المعلم انه قد حمل ك على التفكير حتى استمر فى حديثه قائلا :

ــ ولقد اعترضت أنا على ذلك · فأشرت الى انه لم تكن هناك حتى الآن حاجة الى خادم للمدرسة ، فالسيدة زوجة خادم الكنيسة تنظم المدرسة من حين لآخر تحت اشراف الآنسة جيزا المعلمة · وأنا ألقى العذاب مع الأولاد ، ولا أريد أن يتسبب لى تعيين خادم للمدرسة فى مزيد من الغيظ · وأجاب السيد الرئيس بأن المدرسة قذرة جدا · فرددت عليه قائلا ان الحقيقة توجب علينا أن نقرر أن القذارة ليست شديدة · وأضفت: وهل سيتحسن الحال عندما نعين رجلا خادما للمدرسة ؟ لا ، بكل تأكيد · فبغض النظر عن أنه لا يفهم فى هذه الأعمال ، تتكون المدرسة من فصلين إثنين كبيرين ، بلا حجرات اضافية ، ومعنى هذا أن خادم المدرسة سيقيم بالضرورة مع عائلته فى أحد الفصلين فيكون فيه النوم وربما الطبخ ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يؤدى هذا الى مزيد من النظافة · ولكن السيد الرئيس أشار الى أن هذه الوظيفة نجدة لك فى المحنة وأنك ستبذل كل جهد لتحسن القيام بها · وأشار الرئيس كذلك الى أننا سنكسب معك كذلك جهود زوجتك ومساعديك مما سيؤدى الى أن المدرسة بل وحديقة المدرسة كذلك ستكونان فى نظام مثالى · ولكنى نقضت هذا الرأى بسهولة · وأخيرا لم يستطع السيد الرئيس أن يذكر شيئا آخر فى صالحك ، وضحك وقال انك موظف مساحة وانك ستتمكن لذلك من تخطيط الأحواض فى الحديقة تخطيطا مستقيما جميلا · وليست هناك بطبيعة الحال وسيلة للاعتراض على النكت ، ولهذا خرجت محملا بالتكليف اليك ·

فقال ك :

ــ انك يا حضرة المعلم تسبب لنفسك هما لا داعى له ، فلا يمكن أن يخطر ببالى أن أقبل هذه الوظيفة ·

فقال المعلم :

ــ عظيم ! عظيم ! انك ترفض بلا تحفظ ·

وتناول المعلم القبعة وانحنى وانصرف ·

وأتت فريدا بعد قليل ترتسم الحيرة على وجهها ، وأعادت القميص دون كي ، ولم تجب على أسئلة ك • وأراد ك أن يسرى عنها فحكى لها عن المعلم والعرض الذى أتى به • وما كادت تسمع ذلك حتى ألقت القميص على السرير وانصرفت مرة أخرى • ثم عادت ، عادت بصحبة المعلم الذى كان يبدو غاضبا ولم يسلم • ورجته فريدا أن يأخذ نفسه بشىء من الصبر ـ ويبدو انها كانت قد توجهت اليه بالرجاء نفسه عدة مرات وهما فى الطريق الى هنا ـ ثم جرت ك من خلال باب جانبى لم يكن ك يعرف عنه شيئا الى سطح مجاور وحكت له ، وقد انتهى أمرها الى الانفعال وضيق التنفس ، عما حدث لها • فقد غضبت صاحبة الحان لأنها أذلت نفسها باعترافاتها ل ك ، وأكثر من ذلك باستسلامها له فى موضوع تدبير مقابلة مع كلم ، ثم لم تصل بذلك كما قالت ، الى شىء ، وتعرضت فوق ذلك لصدود فاتر ولئيم ، وقررت ألا تستمر فى قبول وجود ك فى دارها• وقالت له اذا كانت له صلات بالقصر فليفد منها اليوم بسرعة ، لأن عليه أن يترك الدار اليوم ، بل الآن ، ولن تعود صاحبة الحان الى قبوله للسكنى لديها الا بأمر رسمى واكراه مباشر • وقالت انها تأمل ألا يصل الأمر الى هـذا الحد لأنها هى أيضا لها صلاتها بالقصر وستعرف كيف تجعلها تتصرف • وأضافت أنه انما نزل فى الحان نتيجة لاهمال صاحب الحان ثم انه تشدق صباح اليوم أمامها بأن هناك مكانا للنوم جاهزا تحت تصرفه • أما فريدا فلها أن تبقى بطبيعة الحال ، وانها ـ أى صاحبة الحان ـ ستكون تعيسة تعاسة عميقة اذا خرجت فريدا مع ك ، وستظل هى الآن المرأة المسكينة التى تعانى من مرض القلب ، فى المطبخ تفكر وتبكى خائرة بجانب الفرن • ولكن كيف يمكنها أن تتصرف على نحو آخر والأمر ، على الأقل فى تصورها ، يمس كرامة ذكرى كلم مباشرة ؟ هذا هو موقف صاحبة الحان • أما هى ، فريدا ، فستتبع ك حيثما ذهب فى الثلوج الهاطلة والجليد المتراكم ، وما يحتاج هذا بطبيعة الحال الى تأكيده بكلام، ولكن وضعهما على أية حال وضع سيىء جدا ، لهذا فقد استحسنت عرض المعلم ورحبت به بفرح كبير ، واذا كانت الوظيفة غير مناسبة ل ك ، فقد جاء فى العرض بوضوح انها وظيفة مؤقتة ، ما عليهما الا أن يكسبا الوقت ، وسيجدا بسهولة امكانية أخرى حتى اذا جاء القرار النهائى الحاسم فى غير صالح ك • وأخيرا صاحت فريدا وقد تعلقت برقبة ك :

ـ واذا اضطررنا فلنهاجر ، فماذا يستبقينا فى القرية ؟ وعلينا يا حبيبى أن نقبل العرض مؤقتا • ولقد أوعدت المعلم فقل له « موافق » لا أكثر ، ولننتقل الى المدرسة •

وقال ك :

ـ هذا شيء قبيح !

ولم يقصد ما قاله بجد تام لان موضوع السكن لم يكن يهمه الا قليلا ، وكان الى جانب هذا يرتعد من شدة البرد وهو فى ملابسه الداخلية فقط على هذا السطح الذى كان يتعرض دون ما ساتر من حائط أو شباك الى ريح باردة قارسة · ثم أكمل :

ـ لقد أحسنت ترتيب الحجرة الآن ، ثم نضطر الآن الى تركها ! اننى لا أستطيع أن أقبل هذه الوظيفة الا كارها ، كارها ، وان ضعتنا الحالية أمام هذا المعلم الصغير لتحز فى نفسى ، ولسوف يصبح هذا رئيسى · ليتنا نستطيع أن نبقى هنا هنيهة ، فلعل وضعى يتغير عصر اليوم · واذا كان من الممكن أن تبقى أنت على الأقل هنا ، فيمكننا الانتظار ويمكننا أن نعطى المعلم اجابة غير محددة · أما أنا فسأجد مكانا أنام فيه، وان احتاج الأمر ، عند برنا ··

وهنا سدت فريدا فمه بيدها وقالت خائفة :

ـ الا هذا ! لا تقل هذا مرة أخرى ! اننى أتبعك فى كل شيء الا هذا ! سأبقى ، اذا أردت ، هنا وحدى ، وان كان هذا يحزننى أشد الحزن · واذا أردت فلنرفض الطلب وان كنا بذلك نتصرف ، فى رأيى ، تصرفا شديد الخطأ · ذلك انك اذا وجدت امكانية أخرى ، وليكن ظهر اليوم ، فلنا بطبيعة الحال أن نترك المدرسة ، ولن يمنعنا أحد · أما فيما يختص بضعتنا أمام المعلم ، فدعنى أتصرف حتى لا تكون كذلك ، وسأتكلم أنا معه ، وقف أنت صامتا بجانبنا ، ولن يكون عليك فى المستقبل أن تتصرف حياله على نحو آخر ، لن يكون عليك ، أن لم تشأ ، أن تتكلم معه ، وسأكون أنا فى الحقيقة العاملة تحت امرته ، بل لن أكون حتى أنا، لاننى أعرف نواحي الضعف فيه · وهكذا فاننا لا نخسر شيئا ان قبلنا الوظيفة ، بل اننا لنخسر الكثير اذا رفضناها ، فانك لن تجد ، ولا حتى لك وحدك ، مكانا للنوم فى القرية ، مكانا للنوم لا أخجل منه باعتبارى زوجتك فى المستقبل · واذا أنت لم تجد مكانا تنام فيه ، فهل يمكن أن تطلب منى أن أنام هنا فى الحجرة الدافئة ، بينما أنا أعلم أنك تهيم على وجهك فى الليل والبرد ؟

وقال ك الذى كان يضع ذراعيه متقاطعتين على صدره ويضغط بكفيه على ظهره التماسا لقليل من الدفء :

ـ اذن فليس أمامنا الا أن نوافق • تعالى •

فلما دخـــلا الحجرة أسرع الى المدفأة ، ولم يهتم بالمعلم الذى كان يجلس الى المنضدة ثم أخرج ساعته وقال :

ـ لقد تأخر الوقت •

فقالت فريدا :

ـ ولكننا اتفقنا تماما الآن يا حضرة المعلم • اننا نقبل الوظيفة •

فقال المعلم :

ـ حسن • ولكن الوظيفة معروضة على السيد موظف المساحة • وينبغى عليه هو أن يتكلم •

وساعدت فريدا ك قائلة :

ـ طبعا • انه يقبل الوظيفة • انك تقبلها يا ك ؟

وهكذا استطاع ك أن يحصر تعبيره عن رأيه فى مجرد كلمة « نعم » التى لم يوجهها الى المعلم بل الى فريدا • وقال المعلم :

ـ بقى هناك شىء ، وهو أن أوضح لك واجباتك فى الوظيفـــة حتى ينتهى اتفاقنا مرة واحـــدة • عليك ، يا حضرة موظف المســاحة ، يوميا أن تنظف فصلى المدرسة ، وان تدفئهما ، وأن تقوم بالاصلاحات الصغيرة فى المبنى وفى معـــدات التعليم والرياضـــة بنفســـك ، وأن تخلى الطريق خلال الحديقة من الجليد ، وأن تقوم بالمشاوير التى أكلفك بها أو تكلفك بها الآنسة المدرسة وأن تتولى فى وقت الدفء أعمال الحديقة كلها ، ولك نظير ذلك ، الحق فى أن تسكن فى أحد الفصلين حسب اختيـارك ، ولـكن ينبغى عليك ، اذا لم يكن الفصلان مشغولين ، وكان الفصل الذى تسكن فيه هو بالذات المطلوب للتدريس ، أن تغادره وتقيم فى الفصـــل الآخر • وليس مسموحا لك بالطبخ فى المدرسة ، وسيتكفل مجلس القرية بطعامك وطعام أسرتك فى الخان • أما أنه عليك أن تسلك سلوكا يتناسب مع كرامة المدرسة ، وانه لا يصح أن يشاهد التلاميذ من حياتك المنزليـــة مناظر نابية فشىء لا أذكره الا بصفة ثانوية ، فأنت رجل متعلم ولابد أن تعرف هذا من تلقاء ذاتك • وأحب أن أشير فى هـــذا المقـــام الى أنه ينبغى عليك أن تجعل علاقتك بالآنسة فريدا فى أقرب وقت ممكن علاقة شرعية• وسوف يحرر عقد يشمل هذه الأمور كلها وبعض الأمور الصغيرة الأخرى وسيكون عليك أن توقعه عندما تنتقل الى المدرسة مباشرة •

ولاح هذا كله فى نظر ك غير ذى أهمية وكانما لم يكن فيه ما يعنيه او على أية حال مايربطه • وكانت عجرفة المعلم هى الشىء الذى أثاره •• وقال ك بغير اكتراث :

ـ نعم ، هذه هى الواجبات العادية •

وأرادت فريدا أن تمحو شيئا من أثر هذه الملاحظـــة فسألت عن المرتب • فقال المعلم :

ـ أما مسالة دفع مرتب فلن يبدأ التفكير فيها الا بعد انقضاء فترة اختبار مدتها شهر •

وقالت فريدا :

ـ سيكون هذا صعبا علينا • أنتزوج بغير مال تقريبا ؟ أنخلق من العدم ما نحتاج اليه فى حياتنا ؟ الا يمكننا ، يا حضرة المعلم ، أن نتقدم بمذكرة الى مجلس القرية نرجو فيها صرف مرتب صغير عاجل ؟ أتنصحنا بذلك ؟ ••

فقال المعلم وكان يوجه كلامه دائما الى ك :

ـ لا ، ان مثل هذه المذكرة لا يمكن أن تؤدى الى نتيجة الا اذا أوصيت أنا بذلك ، وأنا لن أوصى • وما تقديم الوظيفة اليك الا جميل وما ينبغى أن يبالغ الانسان فى صنع الجميل اذا أراد أن يظل واعيا بالمسئولية العامة• وهنا تدخل ك قائلا :

ـ أما فيما يختص بصنع الجميل ، يا حضرة المعلم ، فأنا أعتقد أنك تخطىء ، فصانع الجميل هو أنا •

فقال المعلم مبتسما لأنه اضطرك الى الكلام :

ـ لا • وأنا أعرف الأمر أدق المعرفة • ان حاجتنا الى خادم المدرسة مثل حاجتنا الى موظف المساحة ان خادم المدرسة وموظف المساحة كلاهما ثقل معلق فى عنقنا • ولسوف أجهد فكرى اجهادا كبيرا لأتوصـل الى أسباب أبرر بها هذه المصروفات أمام مجلس القرية • والأفضل والأقرب الى الحقيقة أن ألقى بالطلب على المنضدة أمام المجلس والا أبرر شيئا • وقال ك :

ـ وهذا هو الرأى الذى أراه أنا أيضا • ينبغى عليك أن تقبلنى ضد ارادتك • ينبغى عليك أن تقبلنى على الرغـم من أن ذلك يتسبب لك فى

كثير من التفكير العسير • واذا كان هناك انسان يضطر الى قبول آخر ، واذا كان هذا الآخر يسمح بأن يقبل ، فانه هو الذى يصنع الجميل •

فقال المعلم :

ـ شيء غريب • وما هذا الذى يمكن أن يضطرنا الى قبولك ؟ •• ان قلب الرئيس الطيب ، المفرط فى الطيبة هو الذى يضطرنا • واننى لا أرى يا حضرة موظف المساحة ، انه ينبغى عليك أن تنصرف عن بعض الخيالات قبل أن تصبح خادما نافعا للمدرسة•ومثل هذه الملاحظات التى تتقدم بها لا يمكن أن تؤدى بطبيعة الحال فيما يتعلق بمنحك مرتب الى خلق الجو المناسب الا قليلا • هـذا الى أننى أتبين للأسف أن سلوكك سيتسبب لى فى المتاعب • فأنت تتباحث معى طوال الوقت وأنت لاتلبس سوى الملابس الداخلية ـ واننى لأنظر اليك هكذا المرة تلو المرة ولا أكاد أصدق •

فقال ضاحكا وهو يصفق :

ـ نعم • ما أبشع المساعدين •• ! أين هما ؟

وأسرعت فريدا الى الباب • وتبين المعلم أنه لم يعد من الممكن الحديث الى ك ، فسأل فريدا متى ستنتقل للسكنى فى المدرسة • فقالت :

ـ اليوم •

فقال المعلم :

ـ اذن فسأحضر صباح الغد مبكرا للتفتيش •

ولوح بيده للتحية وأراد أن يخرج من الباب الذى فتحته فريدا لتخرج هى منه فاصطدم بالخادمتين اللتين أتيتا بحاجياتهما للاقامة من جديد فى الحجرة • واضطر المعلم الى أن ينفذ من بينهما ، فما كانتا لترتدا مهما كان من يواجههما ، وتبعته فريدا • وقال لهما ك وكان فى هذه المرة راضيا عنهما كل الرضاء :

ـ انكما على عجل • اننا لا نزال هنا ، ومع ذلك فأنتما تأتيان بحاجياتكما لتقيما فى الحجرة ؟ فلم يجيبا وحركتا صرتى الحاجيات مضطربتين ورأى ك الأسمال القذرة المعروفة تتدلى منهما • وقال :

ـ انكما على ما يبدو لم تغسلا ملابسكما من قبل قط •

ولم يقل ك هذا الكلام غاضبا ، بل قاله على نحو فيه شيء من العاطفة

ولاحظت الخادمتان منه ذلك وفتحتا في وقت واحد فمهما القاسي وأبرزتا أسنانهما الجميلة القوية الحيوانية وضحكتا بلا صوت ٠ وقال ك :

ـ ادخلا ، ورتبا اشياءكما في الحجرة ، فهي حجرتكما ٠

ولكنهما كانتا مترددتين ـ ولعل الحجرة بدت لهما متغيرة تغير شديدا ـ فأمسك ك احداهما بذراعها ليقتادها ٠ ولكنه تركها من فوره ، لشدة الدهشة التي ارتسمت على نظرتهما التي ركزتاها ـ بعد تفاهم سريع بينهما ـ على ك ولم تحولاها عنه ٠ وقال ك وهو يحاول أن يرد عنه احساسا كريها :

ـ لقد نظرتما الى بما فيه الكفاية ٠

ثم تناول الثياب والأحذية الطويلة التي أحضرتها فريدا ، ومن ورائها المساعدان يتبعاها في خجل ٠ وكان ك لا يفهم ولم يفهم في هذه المرة أيضا ، لماذا تعامل فريدا المساعدين بهذه الأناة ٠ وكانت فريدا قد وجدت المساعدين بعد طول بحث ، يجلسان هادئين ويتناولان طعام الغداء ، وكان المفروض أن ينظفا الثياب ، ولكنهما كوراها على حجريهما ، وأصبح عليها أن تنظف هي كل شيء بنفسها ٠ وعلى الرغم من ذلك فلم تتشاجر فهي التي تعرف كيف تتحكم في نفسها مع الرعاع ، وأخذت تحكي ، في وجودهما ، عن اهمالهما ، وكأنها تحكي عن نكتة ، بل انها ربتت على خد أحدهما ربتا رقيقا وكأنها تداعبه ٠ وقرر ك أن يوبخها على ذلك في أول فرصة ، أما الآن فكان وقت الانصراف قد أزف ٠ وقال ك :

ـ على المساعدين أن يبقيا هنا ليساعداك على الانتقال ٠

ولم يكن المساعدان موافقين على ذلك ، لقد كانا بعد الشبع والبهجة يرجوان القيام بشيء من الحركة ، وقالت فريدا :

ـ ستبقيان هنا بكل تأكيد ٠

فانصاعا لها ، وسأل ك :

ـ أتعرفين الى أين أنا ذاهب ؟

فقالت فريدا :

ـ نعم ٠

فقال ك :

ـ ومع ذلك فانت لا تمنعينني •

فقـالت :

ـ ستلقى الكثير منْ العقبات • وهل تفيد كلماتى ؟

وقبلت ك مودعة ، واعطته ربطة فيها خبز وسجق كانت قد أحضرتهما معها من أسفل لأنه لم يكن قد تناول طعام الغذاء ، وذكرته بأنه ينبغى عليه أن يعود الى المدرسة مباشرة ، ورافقته واضعة يدها على كتفه حتى خرج من الباب •


Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

كان ك فى بداية الأمر مسرورا لأنه تخلص من تزاحم الخادمتين والمساعدين فى الحجرة الحارة • وكذلك كانت درجة حرارة الجو دون درجة التجمد ، فكان الجليد أكثر صلابة ، وكان السير عليه أكثر سهولة • وكان الظلام قد بدأ بطبيعة الحال فى الحلول ، فأسرع ك الخطى •

وكان القصر ، الذى بدأت خطوطه تتحلل ، يقبع فى السكون كحاله دائما ، ولم يكن ك قد رأى قط أقل اشارة تدل على أن الحياة تتصل فيه، ولعله لم يكن من الممكن أن يتبين الناظر من هذا البعد شيئا ، ولكن العينين كانتا تلتمسان ذلك ولم تكونا تريدان الرضا بهذا السكون • وكان ك أحيانا عندما يتطلع الى القصر يحس كأنه يتطلع الى شخص يجلس هناك هادئا ينظر أمامه لا غارقا فى التفكير منصرفا عن كل شىء ، بل حرا طليقا غير عابىء ، وكأنه وحده لاينظر اليه أحد ، وان اضطر الى تبين أن هناك من ينظر اليه ، ولكن ذلك لم يكن يؤثر أدنى أثر فى هدوئه ، والحقيقة ـ ولم يكن أحد يعلم ان كان ذلك سببا أونتيجة ـ أن النظرات لم تكن تثبت عليه بل كانت تنزلق من فوقه • ولقد اشتد هذا الانطباع قوة نتيجة للظلام المبكر • كان ك كلما أطال النظر قل ما يتبينه ، وازداد انغماس كل شىء فى الظلام عمقا •

وعندما وصل ك الى خان السادة ، وكان مظلما لم يوقد به نور ، انفتحت نافذة فى الدور الأول وأطل منها شاب بدين حليق الوجه يرتدى سترة من الفراء وظل بالنافذة وحياه ك ، فلم يبد عليه أنه رد التحية حتى ولا بأقل ايماءة من رأسه • ولم يلتق ك لا فى مدخل الخان ولا فى قاعة الخمارة ، وكانت رائحة البيرة المتروكة أقبح من المرة الماضية ، وهذا شىء لم يعهد ك مثله فى خان الجسر • وذهب ك من فوره الى الباب الذى كان قد تطلع من خلاله مؤخرا الى كلم ، وضغط باحتراس على المقبض ، ولكن الباب كان مغلقا • فحاول أن يتحسس الموضع الذى كان به الثقب ، ولكن السدادة كانت محكمة الصنع بقدر الثقب على ما يبدو ، لدرجة أنه

لم يستطع أن يتوصل الى مكان الثقب ، ولهذا أشعل عود ثقاب • وهنا أفزعته صيحة • واذا ببنت شابة تجلس متكورة على نفسها فى الركن بين الباب ومنضدة الشراب قريبا من المدفأة ، وكانت تحملق فيه فى ضوء عود الثقاب بعينين ناعستين فتحتهما بجهد شديد • ويبدو أنها كانت خليفة فريدا • وما لبثت أن تماسكت نفسها ، وأضاءت النور الكهربائى وبدأ تعبير وجهها غاضبا ، وهنا تعرفت على ك • وقالت مبتسمة :

– آه السيد موظف المساحة

ومدت اليه يدها وقدمت نفسها بقولها :

– أنا اسمى بيبى •

كانت قصيرة القامة ، حمراء البشرة ، بادية الصحة ، وكانت تضم شعرها الكثيف الفارع الأشقر المائل الى الحمرة فى ضفيرة قوية ، وكان شعرها علاوة على ذلك يتجعد حول وجهها ، وكانت ترتدى فستانا لايناسبها ، فستانا مسترسلا مصنوعا من قماش رمادى لامع ، وكان بعضهم قد ضمه من أسفل على نحو صبيانى فج مضطرب بشريط حريرى ينتهى بحلقة ، حتى ضاق الفستان عليها وعرقلها • وسألت عن فريدا وهل ستعود عما قريب • لقد كان السؤال يوشك أن يصل الى حد الايذاء ثم قالت :

– لقد استدعونى ، بعد ذهاب فريدا ، الى هنا على عجل ، فليس من الممكن استخدام كل من هب ودب فى هذا العمل ، ولقد كنت حتى الآن خادمة خصوصية ، وليس هذا تغييرا طيبا بالنسبة لى • فالعمل بالمساء والليل هنا متعب جدا ، ولا أكاد أستطيع احتماله ، ولست أدهش لترك فريدا اياه •

فقال ك ليبين أخيرا ما بين فريدا وبينهما من فرق تتغافل عنه :

– لقد كانت فريدا هنا راضية جدا •

فقالت بيبى :

– لاتصدق هذا ، ولكن فريدا تستطيع أن تتحكم فى نفسها على نحو لا يستطيع كل انسان بسهولة • فهى اذا أرادت ألا تعترف بشىء ، تستطيع أن تمتنع عن الاعتراف به ، ولا يكون فى مقدور انسان أن يتبين أن لديها شيئا ينبغى أن تعترف به • ولقد خدمت هنا عدة سنوات معها ، وكنا دائما ننام معا فى سرير واحد ، ولكننى لم آكن موضع سرها ، ولا شك

أنها لاتفكر الآن في · ولعل صديقتها الوحيدة هي العجوز صاحبة حان الجسر ، وهذا شيء له مغزاه ·

فقال ك وأخذ في الوقت نفسه يبحث عن مكان الثقب في الباب :

ـ فريدا خطيبتي ·

فقالت بيبي :

ـ أنا أعرف هذا ، ولذلك حكيت لك ما حكيت · ولو لم أكن أعرف هذا لما كان لكلامي معنى ·

فقال ك :

ـ لقد فهمت · انك تريدين أن تقولي انه ينبغي على أن أفخر بأنني ربحت فتاة كتومة الى هذا الحد ·

فقالت :

ـ نعم

وضحكت راضية كأنما استمالها ك الى اتفاق سري حول فريدا ·

ولم تكن كلماتها في الحقيقة هي التي شغلت ك وألهته قليلا عن البحث ، وانما كان الذي شغل ك وألهاه عن البحث هو ظهورها ووجودها في هذا المكان · والحقيقة انها كانت أصغر سنا كثيرا من فريدا ، تكاد ألا تكون قد تجاوزت سن الطفولة ، وأن ثيابها كانت تثير الضحك ، ويبدو أنها اتخذتها لتناسب تصورها المبالغ فيه عن أهمية خادمة الحمارة وكانت على حق في تصورها هذا ، لأن تلك الوظيفة ـ التي لم تكن مناسبة لها مطلقا قد أعطيت لها ، دون أن تتوقعها ودون أن تكون خليقة بها ، بصفة مؤقتة فقط ، فلم تحصل حتى على الحقيبة الجلدية الصغيرة التي كانت فريدا تحملها دائما في حزامها ولم يكن ماتدعيه من عدم الرضا بالوظيفة شيئا آخر سوى التكبر · ومع ذلك فيبدو انها ، على الرغم من سذاجتها الصبيانية · كانت على علاقة بالقصر ، فقد كانت ـ ان لم تكن قد كذبت ـ تعمل خادمة خصوصية · ولم تكن تعي ماتملك، بل كانت تضيع الأيام نائمة هنا ، ولو أن ك عانق هذا الجسم الصغير البدين ذا الظهر المستدير قليلا ، لما كان من الممكن أن يؤدى هذا الى تجريدها مما تملك · كان ك يستطيع أن يمس هذا الجسم فينشط للطريق الصعب · اذن فلعل أمرها لا يختلف عن أمر فريدا ؟ آه ، لا ، بل يختلف · وما على الانسان أن يتذكر نظرة فريدا ليفهم هذا الاختلاف · وما كان ك ليقرب بيبي بحال من الأحوال · ولكنه اضطر الآن الى أن يغطي عينيه هنيهة لما استبد به من شره وهو ينظر اليها ·

وقالت بيبى :

ـ ما ينبغى أن يظل النور مضاء

وأطفأت النور ، ثم قالت :

ـ لقدأضأته لأنك أفزعتنى أشدالفزع • ماذا تريد هنا ؟ هل نسيت فريدا شيئا ؟

فقال ك وهو يشير الى الباب :

ـ نعم ، فى هذه الحجرة المجاورة ، نسيت مفرش منضدة ، أبيض اللون مشغولا •

فقالت بيبى :

ـ آه ، مفرشها ، اننى اذكره ، لقد أحسنت شغله ، ولقد ساعدتها أنافيه ، ولكنه لايكاد يمكن أن يكون فى هذه الحجرة على ما أظن •

فقال ك :

ـ ولكن فريدا تعودت ذلك • ومن الذى يسكن فى هذه الحجرة ؟

فقالت بيبى :

ـ لا أحد • انها حجرة السادة • فيها يشرب السادة وفيها يأكلون، أعنى انها مخصصة لهذا الغرض ولكن غالبيتهم يبقون فى حجراتهم فى الدور العلوى •

فقال ك :

ـ لو علمت أنه ليس بالحجرة الآن أحد ، لوددت جدا أن أدخل وأبحث عن المفرش • ولكننى غير متأكد من ذلك • فكلم على سبيل المثال اعتاد على أن يجلس فيها كثيرا •

فقالت بيبى :

ـ كلم ليس فيها الآن بكل تأكيد ، فهو يوشك على الانصراف ، والزحافة تنتظره فى الفناء •

وغادر ك قاعة الشراب من فوره وبدون أن يقدم أى تفسير ، وكان وهو يسير فى المدخل ينظر الى داخل الدار بدلا من أن ينظر الى باب الخروج وما هى الا خطوات حتى كان قد وصل الى الفناء • يا لسكون وجمال هذا المكان ! كان الفناء مربعا يقوم المبنى على ثلاثة من أضلاعه ، وكان الضلع الآخر يطل على شارع ـ شارع فرعى لم يكن ك يعرفه ـ يفصله عنه جدار

مرتفع أبيض وبوابة كبيرة ثقيلة كانت عند ذاك مفتوحة ٠ وكان المبنى يبدو من ناحية الفناء أكثر ارتفاعا مما يبدو من ناحية الواجهة ٠ وكان الدور الأول على الأقل مكتمل البناء تماما ، وكان مظهره عظيما ، لأنه كان محاطا ببهو خشبي مغلق الى مستوى العينين الا شقا صغيرا ٠ ورأى ك ـ وكان ينظر الى الفناء من مكانه في الجناح الأوسط من المبنى ، من الزاوية التي يتصل بها بالجناح الجانبي المقابل ـ مدخلا للمبنى ، مفتوحا بلا باب ٠ وكان هناك أمامه زحافة مظلمة مقفلة علق بها حصانان ٠ ولم يكن هناك سوى الحوذي الذي توقع ك على البعد وجوده في الظلام وان لم يكد تبينه ٠

وسار ك واضعا يديه في جيبيه ، حريصا يتلفت ، قريبا من الجدار ، فقطع ضلعى الفناء حتى وصل الى الزحافة ٠ وكان الحوذي ـ وهو أحد الفلاحين الذين كانوا مؤخرا في قاعة الخان ـ قد رآه غارقا في الفراء فاترا وهو يقترب ونظر اليه كما ينظر الانسان الى سير احدى القطط ٠ وكذلك عندما وقف ك عنده وحياه ، بل عندما اضطرب الحصانان قليلا لظهور انسان من وسط الظلام فجاة ، ظل الحوذي بليدا لايعبأ بشيء البتة ٠ ولقى هذا المسلك من ك أشد ترحيب ٠ فلما وصل الى الجدار أخرج الطعام وذكر فريدا بالامتنان لحسن رعايتها اياه ، وأخذ في أثناء ذلك يختلس النظرات الى داخل المبنى ٠ كان هناك درج مربع مفتوح يؤدي الى أسفل حيث يتعامد عليه ممر منخفض يبدو أنه كان عميقا ٠ وكان كل شيء نظيفا مطليا باللون الأبيض وكان كل شيء محدد المعالم واضح الخطوط ٠

واستمر الانتظار أكثر مما اعتقد ك ٠ كان قد فرغ منذ مدة من طعامه ، وأصبح البرد يؤذيه ، وكان الظلام قد استحال الى حلكة دامسة ، ولم يكن ك قد ظهر ٠ وقال صوت خشن انطلق فجأة قريبا من ك قربا شديدا حتى ارتعدت فرائصه :

ـ قد يطول طولا شديدا !

كان المتحدث هو الحوذي الذي كان يتمطى ويتثاءب بصوت عال وكأنه صحا لتوه من النوم وساله ك :

ـ ما هذا الذي قد يطول طولا شديدا ؟

ولم يكن ك غاضبا للازعاج لأن السكون المستمر والتوتر الدائم كانا قد ثقلا عليه ٠ وقال الحوذي :

ـ الى أن تنصرف ٠

ولم يفهم ك مقصده ، ولكنه لم يسأله ، واعتقد أن هذه هي أفضل وسيلة لدفع هذا الرجل المتكبر الى الكلام ٠ لقد كان السكوت عن الاجابة هنا في الحلكة الدامسة شيئا يوشك أن يكون حافزا على الكلام ٠ وهذا هو بالفعل ما حدث ، فقد سأل الحوذى بعد هنيهة :

ـ أتريد شيئا من الكونياك ؟

فقال ك دون أن يفكر فقد أغراه العرض اغراء شديدا وهو يرتعد :

ـ نعم ٠

فقال الحوذى :

ـ اذن فافتح الزحافة ، وستجد في الحقيبة الجانبية بعض الزجاجات فتناول احداها واشرب ثم ناولني اياها ٠ ان الفراء الذى أرتديه يجعل من الصعب على أن انزل ٠

وتضايق ك لاضطراره الى تأدية أعمال من هذا النوع ، ولكنه ، وقد تبسط مع الحوذى ، أطاع على الرغم مما كان في ذلك من خطر ، فقد كان من الممكن أن يفاجئه كلم عند الزحافة ٠ وفتح البـاب العريض ، وكان يمكنه أن يستخرج على الفور الزجاجة من الحقيبة المركبة على الناحية الداخلية من الباب ، ولكن الباب المفتوح أغراه بالدخول في الزحافة ، فلم يستطع أن يقاوم الاغراء ٠ وكان يريد أن يجلس بداخلها لحظة ٠ وتسلل الى الداخل ٠ كان الدفء في داخل الزحافة خارقا للمألوف ، وظل على حالته لم يتغير على الرغم من أن الباب ظل مفتوحا على سعته فلم يجرؤ ك على اغلاقه ٠ ولم يعرف ك وقد جلس ، هل كان هذا الذى جلس عليه مقعدا ، فقد غرق في أغطية ومخـدات وفراء ، وتبين أن الجالس يستطيع أن يتحرك في كل الاتجاهات وأن يتمدد ما شاء ، فما يزداد الا تمتعا بالنعومة والدفء ٠ ومد ك ذراعيه ، وسند رأسه على المخدات التى كانت تعرض له في كل ناحية ، ونظر من الزحافة الى المبنى المظلم ٠ لماذا يتأخر قدوم كلم الى هـذا الحد ؟ وتمنى ك ، وكان الدفء قد خدره بعد طول وقوفه في الجليد ، أن يأتي كلم بعد طول الانتظار ٠ ولم يخطر بباله، ان الأفضل ألا يراه كلم في هذا الوضع ، الا على نحو مبهم ٠ ولقد ساعده على هذا النسيان مسلك الحوذى الذى كان يعرف أنه في الزحافة وتركه فيها ، دون أن يطلب منه حتى الكونياك ٠ كان هذا المسلك من الحوذى فيه تأدب حيال ك ، ولكن ك كان يريد أن يخدمه ٠ ومد ك يده في تثاقل ،

دون أن يغير وضعه ، الى الحقيبة الجانبية ، ولكنه لم يمدها الى الحقيبة المركبة فى الباب المفتوح ـ فقد كان هذا الباب بعيدا ـ بل مدها خلفه ، الى خقيبة الباب المقفل ، ولم يغير هذا من الأمر شيئا ، فقد كانت هناك فى هذه الحقيبة كذلك زجاجات • وأخرج منها واحدة وفتح السدادة وشم ما بالزجاجة ، فابتسم رغما عنه ، لأن الرائحة كانت حلوه ، ناعمة أحس حيالها باحساس الانسان عندما يسمع من شخص يحبه حبا شديدا مدحا وكلمات طيبة دون أن يعلم الموضـوع الذى تدور حوله ودون أن يريد أن يعلم عنه شيئا ، سعيدا بأن الذى يقولها هو هذا الشخص • وتساءل ك مرتابا :

أيمكن أن يكون هذا كونياك ؟

وتذوق بدافع من الفضول • عجبا ! لقد كان كونياك ، وكانت له حرارة وكان يبعث دفئا • ما أغرب تغيره • عندما يشرب الانسان منه ! انه يتحول من مشروب ذى رائحة شذية حلوة ، الى مشروب لا يليق الا بالحوذية • وسأل ك نفسه وكأنما كان يلوم نفسه :

أيمكن هذا ؟

وشرب جرعة أخرى •

وهنا اضاء المكان ـ وكان ك فى تلك اللحظة يتجرع جرعة طويلة ـ وظهر نور كهربائى فى داخل الدرج والممر والمدخل وفى الخارج فوق الباب • وتناهى الى السمع صوت خطى تنزل الدرج ، فسقطت الزجاجة من يد ك وسال ما فيها على الفراء ، فقفز ك خارجا من الزحافة ، وتمكن فى عجالته من اغلاق بابها ، فصدرت عن ذلك ضجة عالية ، وخرج بعد قليل أحد السادة من المبنى وسار ببطء • وكان الشىء الوحيد الذى طابت له نفس ك هو أن هذا الرجل لم يكن كلم ، أو هل كان هذا بالضبط هو الشىء الذى أسف ك له ؟ كان القادم هو السيد الذى كان ك قد رآه فى نافذة الدور الأول • كان رجلا فى مقتبل العمر ، ذا حسن مفرط ، وبشرة بيضاء مشربة بحمرة ، وكان يبدو جادا عابسا • وكذلك تطلع ك اليه عبوسا ، ولكن ك كان يقصد نفسه بهذه النظرة العبوسة • كان الأحرى به أن يرسل مساعديه الى هنا ، فهما أيضا قادران على التصرف على النحو الذى تصرف هو عليه • وقف أمامه السيد صامتا ، وكأنما لم يكن يجد لما كان يريد أن يقوله نفسا كافيا فى صدره العريض المفرط فى العرض • ثم قال السيد :

ـ هذا شيء بشع ٠

ثم دفع القبعة قليلا عن جبهته ٠ كيف هذا ؟ يبدو أن السيد لم يكن يعلم شيئا عن وجود ك في الزحافة ، ولكنه مع ذلك كان يجد شيئا ما بشعا ؟ هل يقصد يا ترى أن ك نفذ حتى الفناء ؟ وسأل السيد بصوت أكثر انخفاضا ، مطلقا زفرة ، مستسلما لما لا سبيل الى تغييره :

ـ كيف أتيت الى هنا ؟

يا لها من أسئلة ! ويا لها من أجوبة ! هل ينبغي يا ترى على ك أن يعبر للسيد بنفسه تعبيرا صريحا يؤكد به أن الطريق الذى بدأه بكثير من الأماني والآمال كان بلا جدوى ؟ واتجه ك الى الزحافة ، بدلا من أن يجيب ، وفتحها وأخرج قبعته التى كان قد نسيها بداخلها ٠ ولاحظ أثناء ذلك أن الكونياك كان يتساقط على سلم الزحافة ٠

ثم اتجه مرة أخرى الى السيد ٠ لم يعد الآن يخشى أن يبين له أنه كان في الزحافة ٠ولم يكن هذا الأمر هو أسوأ الأمور ٠ وكان ينوى ، اذا سئل ، واذا سئل فقط ألا يخفى أن الحوذى هو نفسه الذى دفعه على الأقل الى فتح الزحافة ٠ أما أسوأ الأمور حقا فقد كان مفاجأة السيد له بحيث لم يكن لديه وقت ليختبىء منه حتى يستطيع أن ينتظر مقدم كلم دون أن يشوش عليه مشوش ، أو لعله كان افتقاره الى أن البديهة الحاضرة التى كان من شأنها أن تملى عليه أن يظل فى الزحافة ويقفل الباب وينتظر جالسا على فراء كلم حتى يأتى أو ينتظر طالما كان هذا السيد قريبا ٠ ولكنه لم يكن بطبيعة الحال يعلم من الذى سيأتى ، فربما كان القادم هو كلم نفسه ، وفى هذه الحالة ، كان الأفضل بطبيعة الحال أن يستقبله وهو خارج الزحافة ٠ نعم ، كانت هناك أشياء كثيرة كان لابد من تدبرها ولم يعد هناك الآن معنى لتدبرها ، لأن كل شيء قد انتهى ٠

وقال السيد :

ـ تعال معى

ولم يكن يتكلم بأسلوب الأمر ، ولكن الأمر ، وان لم تنطو عليه الكلمات ، كان فى حركة من اليد ٠ أتى بها صغيرة مستهترة مقصودة صاحب بها كلماته ٠ وقال ك :

ـ اننى انتظر هنا شخصا

ولم يكن بذلك يعبر عن أمل فى نجاح ، بل عن مجرد مبدأ ٠ وعاد

السيد يقول مصمما تمام التصميم ، وكأنما أراد أن يبين انه لم يشك قط فى أن ك ينتظر أحدا :

ـ تعال ٠

وقال ك بانتقاضة من جسمه كله :

ـ انني اذا ذهبت معك فلن أقابل من انتظرته ٠ «

وكان ك على الرغم من كل ما حدث يحس بأن ما توصل اليه حتى الآن نوع من الاستحواذ لا يتمسك به الا تمسكا ظاهريا ، ولكنه لا يفرط فيه بناء على أمر أى أمر ٠ وقال السيد بطريقة فيها تعبير صارم عن رأيه ، وفيها فى الوقت نفسه انصياع واضح لتفكيرك :

ـ انك لن تقابله على أية حال سواء انتظرت أو انصرفت ٠

فقال ك عنيدا ، فما كان بكل تأكيد ليرضي بأن تصرفه من هنا مجرد كلمات نطق بها هذا الشاب :

ـ اذن فأنا أفضل ألا أقابله بعد أن أكون قد انتظرته ٠

وهنا أغلق السيد عينيه هنيهة مائلا برأسه الى الخلف على نحو مترفع وكأنما أراد أن يعود من غباء ك الى عقله هو ، ومر بطرف لسانه على شفتيه وكان فمه مفتوحا قليلا ، ثم قال للحوذى :

ـ فك الحصانين ٠

واضطر الحوذى ، مطيعا للسيد ، ناظرا الى ك من جانب نظرة غاضبة ، الى أن ينزل برغم الفراء الذى كان يلبسه ، وشرع ، فى تردد شديد ـ وكأنما كان ينتظر لا أن يصدر السيد أمرا مضادا ، بل أن يغير ك فكره ـ يقود الحصانين بالزحافة الى الخلف قريبا من الجناح الجانبى الذى كان يبدو أن الاسطبل متخذ فيه وراء بوابة كبيرة ٠ ورأى ك نفسه يبقى بمفرده ، كانت الزحافة تبتعد من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان السيد الشاب يبتعد سالكا الطريق الذى كان ك قد أتى منه ، وكان الاثنان يتحركان ببطء شديد ، وكأنما كانا يريدان أن يبينا ل ك أنه ما زال يحتكم على سلطة استرجاعهما ٠

وربما كانت له هذه السلطة ٠ ولكنها لم تكن لتفيده بشيء ٠ ان استعادة الزحافة تعنى أن يطرد نفسه بنفسه من هنا ٠ وهكذا بقي وحده ساكنا ، الوحيد الذى تمسك بالموقع ، ولكن النصر الذى حققه كان نصرا لا فرح فيه ٠ أخذ ينقل بصره بين السيد والحوذى على التوالى ٠ كان السيد قد بلغ الباب الذى كان ك قد ولج الى الفناء من خلاله ، ونظر

السيد خلفه مرة أخرى ، وظن ك أنه رآه يهز رأسه من فرط العناد ثم التفت الى الناحية الأخرى بحركة قصيرة حاسمة تنطوى على التصميم واتجه الى المدخل واختفى فيه . أما الحوذى فقد بقى مدة أطول فى الفناء ، لأن الزحافة كانت تتطلب الكثير من العمل ، وكان عليه أن يفتح بوابة الاسطبل الثقيلة ، وأن يعيد الزحافة الى مكانها سائرا بها الى الخلف ، ثم كان عليه أن يفك الحصانين وأن يسوقهما الى الزريبة ، وكان الحوذى يقوم بهذه الأعمال كلها جادا ، عاكفا على نفسه تماما ، دون أن يراوده أمل في خروج قريب بالزحافة . وكانت حركات الحوذى الصامتة التى لم تصحبها نظرة الى هذه الناحية أو الى تلك تلوح ل ك تأنيبا أكثر عنفا من تصرف السيد حياله . فلما انتهى الحوذى من عمله فى الاسطبل ، وسار فى خط منحرف خلال الفناء ، بخطوات بطيئة مترنحة ، وأقفل البوابة الكبيرة ، ثم عاد ـ وكان يؤدى هذا كله ببطء شديد دون أن يرفع بصره عن آثار أقدامه فى الجليد ـ ثم أقفل على نفسه باب الاسطبل وأطفأ كل الأنوار الكهربائية ـ فلم تضىء ؟ ـ ولم يبق من النور سوى ما انبعث من الشق فى البهو الخشبى وكان لا يفتأ يشد اليه النظرة الزائغة ، بدا ل ك كأنهم جميعا قطعوا جميع الروابط بينهم وبينه ، وكأنه أصبح الآن بطبيعة الحال أكثر حرية من أى وقت مضى ، وكأنه يستطيع أن ينتظر فى هذا المكان ـ وهو المكان المحرم ـ كما يحلو له وكأنه كسب هذه الحرية على نحو لا يكاد يستطيعه آخر ، وكأنه لا يوجد انسان يحق له أن يمسه أو يطرده أو حتى أن يكلمه . ولكنه كان مقتنعا اقتناعا لا يقل قوة بأنه ليس هناك فى الوقت نفسه شىء أكثر سخفا ويأسا من هذه الحرية ، من هذا الانتظار ، من هذه الحرمة .

الفصل التاسع

وانتزع نفسه وعاد الى المبنى ، ولم يسر فى هذه المرة بحذاء الجدار بل اجتاز الجليد ، وقابل فى المدخل صاحب الحان الذى حياه صامتا وأشار له الى باب قاعة الخمارة ، فاتبع ك اشارته لأنه كان يرتعد من شدة البرد ، ولأنه كان يريد أن يرى أناسا ، ولكنه أصيب بخيبة شديدة لأنه لم ير هناك سوى السيد الشاب يجلس الى منضدة صغيرة يبدو انها وضعت خصيصا له ، لأنهم كانوا يكتفون فى الحان عادة بالبراميل ، وكانت صاحبة حان الجسر تقف أمامه . وكانت بيبى معتزة بنفسها ، تميل برأسها الى الخلف ، وتبتسم ابتسامتها المعهودة تعى كرامتها وعيا لا نقض له ، وتهز ضفيرتها فى كل حركة تأتى بها ، وكانت تسرع وتسرع ، لتأتى بالبيرة ثم بالحبر والريشة ، لأن السيد كان قد بسط أمامه أوراقا وأخذ يقارن البيانات التى كان يجدها تارة فى هذه الورقة وتارة فى تلك الورقة عند نهاية المنضدة ، وكان فى هذه اللحظة يريد أن يكتب شيئا . أما صاحبة الحان فكانت تنظر من عليائها هادئة ، تمط شفتيها قليلا كأنها تلتمس الراحة ، فتشمل ببصرها السيد والأوراق جميعا وكأنها قد قالت كل ما كان ينبغى أن تقوله وكأنه لقى الترحيب . فلما دخل ك قال السيد رافعا بصره قليلا اليه ثم خافضه بعد ذلك ليَغرق فى الأوراق :

ـ ها هو ذا السيد موظف المساحة أخيرا .

وكذلك عبرت صاحبة الحان على ك بنظرة غير عابئة لا يظهر فيها شىء من الاندهاش . أما بيبى فيبدو انها لم تلحظ ك الا عندما ذهب الى منضدة المشروبات وطلب شيئا من الكونياك .

واستند الى المنضدة ووضع يده على عينيه ولم يهتم بأى شىء . ثم ارتشف رشفة من الكونياك وأعاده لأنه لم يستسغه . وقالت بيبى باختصار :

ـ السادة كلهم يشربونه

وسكبت البقية ، وغسلت الكأس ووضعتها على الرف · فقال ك :
السادة لديهم أفضل منه
فقالت بيبى :
- ربما · أما أنا فليس لدى غيره

وبهذا فرغت من خدمة ك ، وعادت الى خدمة السيد الذى لم يكن يحتاج الى شيء ، فأخذت تسير خلفه جيئة وذهابا على هيئة قوس ، وتحاول على نحو مقبول أن تلقى نظرة من فوق كتفيه الى الأوراق · ولكن فضولها وتصنعها كانا بلا معنى واستنكرتهما حتى صاحبة الحان التى قطبت حاجبيها ·

وفجأة أرهفت صاحبة الخان السمع ، وحملقت فى الفراغ وهى مندمجة فى الاصغاء كل الاندماج · والتفت ك حواليه ، فلم يسمع شيئا غريبا ، ولم يبد على الآخرين انهم يسمعون شيئا ، ولكن صاحبة الحان جرت على أطراف أصابعها بخطوات كبيرة الى الباب فى المؤخرة - ذلك الباب الذى يؤدى الى الفناء - وأطلت من خلال ثقب المفتاح ، ثم اتجهت الى الآخرين بعينين فاغرتين ، ووجه محتقن ، وأشارت اليهم بأصبعها أن يقبلوا ، وأخذوا يتناوبون النظر من خلال الثقب ، واختصت صاحبة الحان بطبيعة الحال بأكبر نصيب ، وكذلك بيبى نالت نصيبا كبيرا أما السيد فكان يبدو بالنسبة اليهم أكثر فتورا · وعادت بيبى وعاد السيد بعد قليل ، الا صاحبة الحان فقد ظلت تنظر من الثقب وتبذل الجهد الكثير ، منحنية انحناءة شديدة وتوشك أن تركع على الأرض ، وكان الناظر اليها يظن انها تتوسل الى ثقب المفتاح أن يتيح لها أن تنفذ من خلاله ، اذ ليس من شك فى انه لم يعد هناك شيء يرى · فلما نهضت أخيرا ومسحت على عينيها بيديها ، وسوت شعرها ، وتنفست نفسا عميقا ، واضطرت عينيها على ما يبدو الى الاعتياد من جديد على القاعة والناس ، وما فعلت ذلك الا كارهة قال ك :

- هل رحل كلم اذن ؟

ولم يقل هذا ليتأكد من شيء يعرفه ، بل قاله ليسبق هجوما كان يتوقع حدوثه ، فما أشد ما أصبح الآن عرضة للاصابة · ومرت عليه صاحبة الحان صامتة ، ولكن السيد قال وهو يجلس الى منضدته :

- نعم ، بكل تأكيد · لقد تخليت عن موقع المراقبة ، فأصبح فى مقدور كلم أن يرحل · ان السيد حساس بدرجة تثير الدهشة · لقد لاحظت ، يا سيدتى صاحبة الحان كيف كان كلم ينظر حواليه فى قلق ؟

ويبدو أن صاحبة الحان لم تلحظ هذا واستمر السيد فى كلامه :

ـ ومن حسن الحظ انه لم يعد هناك شىء تراه عينه ، فقد مسح الحوذى كل شىء حتى آثار الأقدام فى الجليد .

فقال ك :

ـ ان السيدة صاحبة الحان لم تلحظ شيئا

ولم يكن يعبر بهذا عن أمل ما ، ولكنه كان قد ثار للادعاء الذى ادعاه السيد وأراد له أن يتخذ نبرة نهائية لا سبيل الى وصفها . وقالت صاحبة الحان :

ـ لعلى لم أكن عند ثقب المفتاح آنذاك

وكانت تقصد بذلك حماية السيد أولا وكانت تقصد ثانيا الى اعطاء كلم حقه ، وأضافت :

ـ ولكنى لا أعتقد أن حساسية كلم شديدة الى هذا الحد . انما نحن الذين نخشى عليه بطبيعة الحال ، ونحاول أن نحميه ونبدأ بافتراض أنه على حساسية مفرطة . وفى هذا خير ، ولاشك أن تلك هى ارادة كلم. أما حقيقة الأمر فلا علم لنا بها . ولا شك فى أن كلم لن يتكلم أبدا مع شخص لا يريد أن يتكلم معه ، مهما بذل هذا الشخص من الجهد ومهما الح وبلغ ما لا يمكن احتماله من حدود ، ولكن هذه الحقيقة ـ أعنى أن كلم لن يكلمه أبداولن يدعه يظهر أمامه ـ تكفى ، فلماذا نذهب الى أنه لا يستطيع فى الواقع احتمال منظر أى شخص ! ؟ وهذا على الأقل شىء لا يقوم عليه برهان لأنه لم يتعرض لتجربة .

وهز السيد رأسه بحماس وقال :

ـ هذا الرأى فى أساسه بطبيعة الحال رأيى أنا كذلك ، واذا كنت قد عبرت عنه بأسلوب آخر ، فليس ذلك الا لأننى أردت أن يكون مفهوما للسيد موظف المساحة . والمؤكد على أية حال أن كلم عندما خرج الى الخلاء كان يتلفت حواليه مرارا فى نصف دائرة .

فقال ك :

ـ ربما كان يبحث عنى .

ـ فقال السيد :

ـ ربما . وأنا لم أقع على هذا .

وضحك الجميع . كانت بيبى ، التى لم تفهم من الأمر كله شيئا ، أكثرهم ضحكا .

وهنا قال السيد :

ـ ما دمنا قد اجتمعنا الآن فى هـــذا الجو المرح ، فاننى أرجوك ياحضرة موظف المساحة أشد الرجاء أن تكمل ملفاتى ببعض البيانات ٠

فقال ك وهو ينظر من بعد الى الملفات :

ـ انكم تكتبون هنا كثيرا ٠

فقال السيد وهو يضحك مرة أخرى :

ـ نعم ٠ تلك عادة قبيحـــة ٠ ولكن لعلك لا تعرف من أنا ٠ أنا مومومس سكرتير كلم فى القرية ٠

وساد القاعة كلها بعد هذه الكلمات جو من الجد ٠ وعلى الرغم من أن صاحبة الحان وبيبى تعرفان السيد بطبيعة الحال ، فقد جمدتا عنـــدما سمعتا الاســـم والوظيفة ٠ بل ان الســـيد نفسه ، وكأنما قال أكثر مما تحتمل قدرته على الاستيعاب ، أو كأنما أراد على الأقل أن يهرب من كل رهبة قد تستتبع كلماته أو تكمن فيها ، اندمج فى أوراقه وبدأ يكتب ، حتى لم يعد من بالحجرة يسمعون سوى ريشته ٠ وسأل ك بعد هنيهة :

ـ ما معنى سكرتير القرية ؟

فقالت صاحبة الحان ، بدلا من موموس الذى لم يعد يجد من الملائم أن يقدم بنفسه ايضاحات بعد أن قدم نفسه :

ـ السيد موموس سكرتير لكلم مثل أى سكرتير آخر من سكرتيرى كلم ، ولكن مقر وظيفته وكذلك ، ان لم أكن قد أخطأت الفهم ، ومجال صلاحيته الوظيفية ٠٠

وهنا هز موموس أثناء الكتابة رأسه هزا شديدا ، فصححت صاحبة الحان :

ـ ولكن مقر وظيفته فقط ، وليس مجـــال صـــلاحيته الوظيفية ، محصور فى القرية ٠ والسيد موموس يقوم لكلم بالأعمال الكتابية التى تدعو اليها الضرورة فى القرية وهو أول من يتلقى الطلبات التى تصدر من القرية موجهة الى كلم ٠

فلما نظر ك الى صاحبة الحان بعينين فارغتين ، ولم يبد أى تأثر بهذه الكلمات ، أضافت فى شىء من الاضطراب :

ـ هذا هو النظام ، كل سادة القصر لهم فى القرية سكرتيريون ٠

وقال مومس لصاحبة الخان ، وكان ينصت اليها باهتمام أكثر مما فعل ك :

ـ وغالبية السكرتيريين في القرية يعملون فى خدمة سيد واحد ، أما أنا فأخدم سيدين هما كلم وفالابينه ٠

فقالت صاحبة الخان وقد تذكرت الموضوع موجهة الكلام الى ك :

ـ نعم ٠ السيد مومس يخدم سيدين ، كلم وفالابينه ، فهو اذن سكرتير قرية مضاعف ٠

فقال ك :

ـ سكرتير مضاعف ٠

وأومأ برأسه الى مومس كما يومىء الانسان برأسه الى طفل سمع البعض يمدحونه ، وكان مومس قد وقع الآن بصره اليه كلية وأوشك أن يميل ناحيته الى الأمام ٠ واذا كان تعبير ك ينطوى على نوع من التحقير، فلعل أحدا لم يلحظه ، ولعله كان مطلوبا ٠ انهم يعددون أمام ك بالذات ، وهو الذى لم يصب من الجدارة حتى القدر الذى يتيح له أن يراه كلم مصادفة ، ميزات رجل من المحيطين بكلم ، المقربين اليه ، ويهدفون فى غير مواربة الى الحصول على مدحه وتقديره ٠ ولكن ك لم يكن يعى هذا الأمر الوعى الصحيح ٠ فلم يكن ، وهو الذى اجتهد بكل طاقته أن ينال نظرة من كلم ، يقدر على سبيل المثال مركز مومس الذى كان له أن يعيش تحت بصر كلم تقديرا عاليا ، وكان بعيدا عن أن يحس حياله بالاعجاب أو الحسد، لانه لم يكن يصبو الى ما هو قريب من كلم ، بل كان يصبوا الى الوصـول برغباته هو ، لا رغبـات غيره ، الى كلم ، ثم الى تجـاوزه ـ لا البقاء لديه ـ والتقدم لبلوغ القصر ٠

ونظر ك الى ساعته وقال :

ـ والآن ينبغى أن أذهب الى البيت ٠

وهنا تغير الموقف من فوره لصالح مومس الذى قال :

ـ نعم بطبيعة الحال ، ان واجبات الوظيفة فى المدرسة تدعوك ٠ ولكن ينبغى عليك أن تمنحنى لحظة أخرى ٠ فلدى بضعة أسئلة قصيرة ٠

فقال ك وهم أن يذهب الى الباب :

ـ لست ميالا لذلك ٠٠

فضرب مومس بملف على المنضدة ونهض واقفا وقال :

ـ اننى أطالبك باسم كلم بأن تجيب على أسئلتى ٠

فأعاد ك الكلمات :

ـ باسم كلم ؟

ثم قال :

ـ هل تهمه شئونى ؟

فقال موموس :

ـ هذا أمر لا أستطيع أنا القطع فيه ، ولا أنت بطبيعة الحال ، وعلينا أن نتركه له ونقر عينا ٠ ولكننى أطالبك استنادا الى المركز الذى نصبنى فيه كلم بأن تبقى وأن تجيب على أسئلتى ٠

وتدخلت صاحبة الحان :

ـ يا حضرة موظف المساحة ، اننى أحترس من الاستمرار فى تقديم المشورة اليك ، فلقد لقيت منك ، عندما تقدمت اليك بما تقدمت به اليك من نصح حتى الآن ، وهو أخلص النصح نية ، الصدود الذى لم يسبق له مثيل ، ولقد أتيت الى هنا الى السيد السكرتير ـ وليس هنا ما أخفيه ـ لأحيط الديوان علما بما ينبغى أن يعلمه من مسلكك ومقصدك، ولأمتنع فى كل وقت عن قبول انزالك للاقامة فى حانى مرة أخرى ٠ هذه هى العلاقة التى بيننا ، ولن يتغير من أمرها شيء ، واذا كنت أنا أقول الآن رأيى فلا أريد بذلك أن أساعدك ، وانما لأسهل على السيد السكرتير المهمة الصعبة ، مهمة التباحث مع رجل مثلك ، بعض التسهيل ٠ ومع ذلك فيمكنك ـ بفضل صراحتى الكاملة ، وأنا لا أستطيع أن أتعامل معك الا بصراحة ، وهذا شيء رغما عنى ـ أن تستخرج من كلماتى نفعا لك ان شئت ٠ وفى هذه الحالة ألفت نظرك الى أن الطريق الوحيد الذى يؤدى بك الى كلم يمر هنا بمحاضر السيد السكرتير ٠ ولكننى لا أريد المبالغة ، فلعل الطريق ينقطع قبل أن يصل الى كلم بكثير ، وهذا أمر يقطع فيه تقدير السيد السكرتير ٠ وهذا الطريق هو على أية حال الطريق الوحيد أمامك فى اتجاه كلم ٠ فهل تريد أن تتخلى عن هذا الطريق الوحيد لا لسبب الا العناد ؟

فقال ك :

ـ آه ، يا سيدتى صاحبة الحان ، ليس هذا الطريق هو الطريق الوحيد الى كلم ، وما هو بأفضل من غيره قيمة ٠ وأنت ، يا حضرة السكرتير ، تقطع فيما اذا كان ما أقوله هنا يصل الى كلم أم لا ؟

فقال موموس وهو ينظر بعينين خفضهما فى اعزاز الى اليمين والى اليسار دون أن يكون هناك شيء ينظر اليه :

ـ طبعا . والا فما فائدة عملى كسكرتير .

فقال ك :

ـ انك ترين يا سيدتى صاحبة الحان اننى لا أحتاج الى طريق الى كلم بل الى السيد السكرتير أولا .

وقالت صاحبة الحان :

ـ ولقد أردت أن أفتح لك هذا الطريق . ألم أعرض عليك فى الصباح أن أنقل رجاءك الى كلم ؟ وما سبيل ذلك الا السيد السكرتير . أما أنت فقد رفضت ، وليس هناك أمامك من طريق سوى هذا . وان كانت فرصة النجاح قد قلت الآن عن ذى قبل بطبيعة الحال بعد ما فعلته اليوم ، أعنى بعد محاولتك الهجوم على كلم . ولكن هذا الأمل الأخير الضئيل أشد الضآلة ـ أو غير القائم ، ان أردنا الحقيقة ـ هو أملك الوحيد .

وقال ك :

ـ كيف تعللين ، يا سيدتى صاحبة الحان ، انك حاولت فى البداية أشد المحاولة أن تصرفينى عن التقدم الى كلم ، ثم اذا بك الآن تحملين رجائى محمل الجد الشديد ويظهر عليك كأنك تعتبريننى مفقودا ضائعا أو نحو ذلك اذا فشلت مخططاتى ؟ اذا كنت قد نصحتنى بنية خالصة أن أنصرف عن السعى للوصول الى كلم ، فكيف يمكن أن تدفعينى الآن ـ بالاخلاص نفسه على ما يبدو . الى سلوك الطريق اليه حتى وأنت تفترضين أنه لا يوصل اليه ؟

فقالت صاحبة الحان :

ـ هل أدفعك ؟ أهذا دفع لك الى الأمام عندما أقول لك ان محاولاتك لن تجدى نفعا ؟ ان هذه لهى فى الحقيقة غاية الجرأة أن تحاول على هذا النحو أن تقلب على مسئولية عليك أن تحملها أنت نفسك . وربما كان وجود السيد السكرتير هو الذى يغريك بذلك . هه ؟ لا ، يا حضرة موظف المساحة ، اننى لا أدفعك الى شيء . الا أن هناك شيئا واحدا أعترف لك به وهو أننى عندما رأيتك لأول مرة ربما رفعتك فوق قدرك . فقد أفزعنى انتصارك السريع على فريدا ، ولم أكن أعرف ما يمكنك أن تأتى

به من أمور غير ذلك ، فأردت أن أحول دون حـدوث مصـائب أخرى ، واعتقدت أننى لا أستطيع أن أصل الى تحقيق ذلك الا بأن أحاول هزك بالرجاء والتهديد · ثم عرفت بعد ذلك كيف أفكر فى الأمر كله تفكيرا أكثر هدوءا · ولك أن تفعل ما يحلو لك · وقد تترك أفعالك فى جليد الفناء آثار أقدام عميقة ، ولكنها لن تزد عن ذلك ·

فقال ك :

ـ لا أرى أن التناقض قد اتضح تماما ، ولكننى راض بالتنبيه اليه · والآن أرجوك يا حضرة السكرتير أن تقول لى هل الرأى الذى رأته السيدة صاحبة الخان صحيح ، وهو أن المحضر الذى تريد فتحه لى يمكن أن يؤدى فى نتائجه الى السماح لى بالمثول أمام كلم · فاذا صح هذا ، فأنا مستعد حالا للاجابة على أسئلتك كلها · بل اننى فى هـذه الحالة مستعد لكل شيء ·

فقال موموس :

ـ لا ، ليست هناك مثل هذه الارتباطات · كل ما أريده بالمحضر هو أن أحتفظ لسجلات كلم فى القرية بوصف دقيق لعصر يومنا هذا · ولقد تم الوصف ، وهناك ثغرتان أو ثلاث ثغرات ينبغى عليك أن تكملها ، احقاقا للنظام · وليس هناك غرض آخر ، ولا يمكن الوصـول الى هدف آخـر ·

ونظر ك الى صاحبه الخان صامتا · فسألته :

ـ لماذا تتطلع الى ؟ هل قلت غير ذلك ؟ انه دائما هكذا ، يا حضرة السكرتير ، انه دائما هكذا · انه يزيف المعلومات التى يقدمها الانسـان اليه ، ثم يدعى أنه تلقى معلومات مزيفة · لقد قلت له دائما ، اليوم وفى كل يوم ، انه ليس هناك أدنى أمل فى أن يستقبله كلم · واذا لم يكن لديه أمل ، فلا يمكن أن يأتيه هذا المحضر بأمل · هل يمكن أن تكون الأمور أوضح من ذلك ؟ ثم اننى أقول علاوة على ذلك ، ان هذا المحضر هو الرابطة الرسمية الوحيدة الحقيقية التى يمكن أن تربطه بكلم · وهذا كلام واضح أيضا ولا يعلوه الشك · فاذا لم يكن يصدقنى الآن ـ وأنا لا أعرف السبب ولا الهـدف ـ وظل يأمل فى التقـدم الى كلم ـ فلا يمكن اتباعا لطريقته فى التفكير ـ أن يساعده شيء سوى الرابطة الرسمية الوحيدة التى تربطه بكلم ، ألا وهى هذا المحضر · وأنا لم أقل سوى هذا ، ومن يدعى غير هذا فهو يحرف الكلمات عن سوء نية ·

فقال ك :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، يا سيدتى صاحبة الحان ، فأنا أعتذر لك ، فقد أسأت فهمك • لقد اعتقدت ، خطأ ـ كما اتضح الآن ـ أن لى أن أستشف من كلماتك السابقة أن هناك أملا ضئيلا جدا •

وقالت صاحبة الحان :

ـ بكل تأكيد • وهذا هو على أية حال رأيى • وهأنتذا تحرف كلماتى مرة أخرى ، وتتجه الآن تلك الوجهة المضادة • هناك مثل هذا الأمل ، فى رأيى ، وهو لا يقوم الا على أساس هذا المحضر • ولكن الأمر لا يسير هكذا ، بأن تتهجم على السيد السكرتير بسؤالك : هل يسمح لى بالمثول أمام كلم اذا أجبت على الأسئلة ؟ ولو أن طفلا سأل هذا السؤال لضحكنا منه ، أما اذا سأله انسان بالغ ، فتلك اهانة للديوان ، ولقد تستر السيد السكرتير برقة اجابته عليها كرما منه • أما الأمل الذى أعنيه فهو انك تتخذ عن طريق المحضر نوعا من الصلة ربما نوعا من الصلة بكلم • أليس هذا أملا كافيا ؟ فاذا سألك الانسان عن أفضالك التى تجعلك جديرا بمنة الأمل هذه ، فهل يمكنك أن تذكر أى شىء ؟ وليس من الممكن بطبيعة الحال ذكر شىء أكثر دقة عن هذا الأمل ، وبخاصة السيد السكرتير لن يستطيع أن يشير اليه أبدا ولا بأبسط اشارة • انما الأمر بالنسبة اليه ، كما قال ، أمر وصف عصر اليوم تطبيقا للنظام ، ولن يقول أكثر من ذلك ،حتى اذا سألته الآن أسئلة تتصل بكلماتى •

وسأل ك :

ـ وهل سيقرأ كلم ، يا حضرة السكرتير ، هذا المحضر ؟

فقال موموس :

ـ لا • لماذا ؟ ان كلم لا يستطيع أن يقرأ كل المحاضر ، بل انه لا يقرأ أى محضر • انه يقول لنا دائما « ابعدوا عنى بمحاضركم » !

وقالت صاحبة الحان شاكية :

ـ يا حضرة موظف المساحة ، انك تنهك قواى بأسئلتك • هل من الضرورى ، أو من المرغوب فيه ، أن يقرأ كلم هذا المحضر وأن يحاط علما بتفاهات حياتك كلمة كلمة • أليس الأفضل بك أن ترجو متواضعا ومتذللا أشد التواضع والتذلل أن يخفوا المحضر على كلم ، وهو رجاء أحمق مثل الرجاء الآخر ـ فأين هذا الذى يستطيع أن يخفى شيئا على كلم ؟ ـ ولكنه

سينم عن خلق أكثر لطفا . وهل هذا ضرورى بالنسبة لذلك الذى تسميه أملك ؟ ألم تعلن أنت بنفسك أنك ستكون راضيا اذا نلت فرصة المثول أمام كلم حتى وان لم ينظر ، وان لم ينصت اليك ؟ ألا تصل عن طريق هذا المحضر على الأقل الى هذا وربما الى أكثر من هذا ؟

وسأل ك :

ـ أكثر من هذا ؟ وكيف ؟

فصاحت صاحبة الحان :

ـ بألا تلح دائما كالطفل فى أن يقدم اليك كل شىء على الفور فى صورة مستساغة . فمن هذا الذى يستطيع أن يجيب على مثل هذه الأسئلة ؟ ان المحضر سيذهب الى سجلات كلم فى القرية ، كما سمعت ، ولا يمكن بكل تأكيد أن يقال لك أكثر من هذا . ولكن هل تعرف الأهمية الكاملة للمحضر وللسيد السكرتير ولسجلات القرية ؟ أتعرف معنى استجواب السيد السكرتير لك ؟ لعله ـ أو يبدو أنه ـ هو نفسه لا يعرف . انه يجلس هنا هادئا ويؤدى واجبه ، كما يقضى النظام ، على حد قوله . ولكن لا تنس أن كلم هو الذى عينه ، وانه يعمل باسم كلم ، وان ما يفعله يحظى بموافقة كلم مبدئيا ، وان لم يصل قط اليه . وكيف يمكن أن يحظى شىء بموافقة كلم ان لم يكن يفيض بروح منه ؟ وأنا لا أريد التملق للسيد السكرتير على نحو غليظ ، وهو نفسه يرفض مثل هذا المسلك كل الرفض ، ولكنى لا أتكلم عن شخصيته الخاصة ، بل أتكلم عنه اذ ينال موافقة كلم ورضاه ، كما هى الحال الآن : انه يكون اذ ذاك أداة عليها يد كلم والويل لمن لا يطيع .

ولم يخش ك تهديدات صاحبة الحان ، ولقد سئم الآمال التى حاولت أن تمسكه بها . لقد كان كلم بعيدا . ولقد شبهته صاحبة الحان ذات مرة بالنسر ، وبدا التشبيه لـ ك مضحكا آن ذاك ، أما الآن ، فلم يعد يبدو له كذلك . وفكر ك فى بعده ، وفى مقره الذى لا سبيل الى بلوغه ، وفى صمته الذى قد لا تقطعه الا صرخات لم يسمعها ك ، وفى نظرته النافذة المتجهة الى أسفل والتى لا سبيل الى اثباتها ولا الى نقضها ، وفى دوائره التى لا سبيل الى تحطيمها انطلاقا من العمق الذى يكمن فيه ك ، والتى يرسمها هو فى أعاليه حسب قوانين لا سبيل الى فهمها والتى لا تبدو الا فى لحظات . كانت تلك أشياء مشتركة بين كلم والنسر . ولا شك فى أن هذا المحضر لم يكن له شأن بها ، هذا المحضر الذى أخذ موموس يفتت فوقه سميطة يأكلها مع البيرة ، فتتناثر الملح والكمون فوق الأوراق كلها .

وقال ك :

ـ طابت ليلتكم ، اننى أنفر من كل استجواب ·

وذهب بالفعل الى الباب · فقال موموس لصاحبة الحان بلهجة توشك أن تكون لهجة الخوف :

ـ انه اذن يذهب ·

فقالت صاحبة الحان :

ـ انه لن يجرؤ على ذلك ·

ولم يسمع ك أكثر من ذلك لأنه كان قد وصل الى المدخل · كان الجو باردا وكانت الريح تهب عاتية وتنفذ اليه · وأتى صاحب الحان من باب مقابل ، ويبدو أنه كان يراقب المدخل من خلال ثقب هناك · وكان عليه أن يلف طرفى سترته حول جسمه حتى لا تعبث بهما الريح · وقال صاحب الحان :

ـ انك اذن ذاهب يا حضرة موظف المساحة ؟

فسأله ك :

ـ هل تدهش لذلك ؟

فقال صاحب الحان :

ـ نعم · ألم يستجوبك ؟

فقال ك :

ـ لا ، لم أدعه يستجوبنى ·

فسأل صاحب الحان :

ـ ولم لا ؟

فقال ك :

ـ لا أعرف لماذا أدعه يستجوبنى ، لماذا أنصاع لنكتة أو نزوة من جانب الدواوين · وربما أوافق فى مرة أخرى ، موافقة من قبيل النكتة أو النزوة أيضا ، ولكن ليس اليوم ·

فقال صاحب الحان :

ـ بكل تأكيد ·

وكانت موافقته صادرة عن أدب لا عن اقتناع · ثم قال :

ـ لابد أن أدع الخدم يذهبون الى قاعة الشراب ، فقد حل موعدهم منذ وقت طويل • ولكنى لم اشأ أن أشوش على الاستجواب •

فسأل ك :

ـ أكنت ترى له هذه الأهمية ؟

فقال صاحب الحان :

ـ نعم •

وقال ك :

ـ اما كان ينبغى أن أرفض ؟

فقال صاحب الحان :

ـ لا •

ثم أضاف :

ـ ما كان يصح أن ترفض •

فلما سكت ك ، عاد يقول ، اما ليواسى ك أو لينصرف بسرعة :

ـ هه ، ولكن لا ينبغى أن يعنى هذا بالضرورة أن السماء ستمطر كبريتا •

فقال ك :

ـ لا ، فان حالة الطقس لا تدل على ذلك •

وتفرقا وهما يضحكان •

الفصل العاشر

وخرج ك وهبط الدرج الذى كانت الريح العاتية تهب عليه من كل جانب ونظر الى الظلمة الدامسة ٠٠ كان الجو رديئا رديئا ٠ وخطر بباله على نحو يتصل بهذا الجو اتصالا ما كيف بذلت صاحبة الحان الجهود لتحمله على قبول المحضر وكيف وقف صلبا لا يلين ٠ ولم تكن جهودها صريحة ، فقد كانت فى سرها تشده بعيدا عن المحضر ٠ وأخيرا لم يكن يعرف هل قد وقف صلبا لا يلين أو قد لان واستجاب ٠ تلك طبيعة تنطوى على التآمر ، يبدو أنها تعمل بلا معنى مثل الريح ، حسب قوانين بعيدة غريبة لا يستطيع انسان أن يبصر بها ٠

وما كاد يخطو بضع خطوات على الطريق الزراعى حتى رأى فى البعد نورين يتأرجحان ٠ وفرح بهذه الاشارة التى تدل على الحياة ، واتجه نحوها مسرعا ، وكانت هى تحوم مقتربة منه ٠ ولا يعلم لماذا أحس بالخيبة عندما تبين أنهما المساعدان ٠ لقد أقبلا نحوه ، ويبدو أن فريدا أرسلتهما ٠ وكان المصباحان اللذان خلصاه من الحلكة على ما يبدو ملكه ، ومع ذلك فقد أحس بالخيبة ، لأنه كان ينتظر بعض الغرباء ، ولم يكن ينتظر هذين الشخصين المعروفين اللذين كانا ثقلا عليه ٠ ولم يكن المساعدان وحدهما ، فقد برز من بينهما من وسط الظلام برناباس ٠ وصاح ك وهو يمد يده ناحيته :

ــ برناباس ٠ هل تأتى الى ؟

وأدت مفاجأة اللقاء به بادىء ذى بدء الى نسيان النكد الذى كان برناباس قد سببه له ٠ وقال برناباس بأسلوبه الودى المعهود الذى لم يتغير :

ــ نعم ، وأحمل اليك خطابا من كلم ٠

فقال ك ملقيا رأسه الى الخلف :

ــ خطابا من كلم ٠

وأخذه بسرعة من يده وقال للمساعدين اللذين التصقا به من اليمين واليسار رافعي المصباحين :

ـ أضيئا .

واضطر ك الى أن يطوى الورقة الطويلة طية صغيرة حتى يحميها من الريح . ثم قرأ :

السيد موظف المساحة ـ حان الجسر ،

ان اعمال المساحة التى قمت بها حتى الآن تلقى تقديرى . وكذلك أعمال المساعدين جديرة بالمدح ، وانك لتعرف كيف تحسن حملهما على العمل . لا تدع حماسك يفتر . وانته بالأعمال الى نهاية طيبة ، وان طرأ أى تعطيل فسأغضب . أما فيما عدا هذا فقرعينا ، وسيتم حسم مسألة المرتب عما قريب . وان عينى لتتابعك .

ولم يرفع ك عينيه عن الخطاب الا بعد أن صاح المساعدين ـ وكانا أبطأ منه فى القراءة ـ فرحين بالأخبار الطيبة « عظيم » ثلاث مرات وهزا المصباحين . فقال لهما :

ـ الزما الهدوء .

ثم قال لبرناباس :

ـ هناك خطأ .

فلم يفهمه برناباس . وعاد ك يقول :

ـ هناك خطأ .

وعاوده تعب عصر اليوم ، ولاح له الطريق الى مبنى المدرسة بعيدا ، وتصور من خلف برناباس عائلته تهب واقفة ، وظل المساعدان يلتصقان به حتى اضطر الى دفعهما بمرفقيه . لماذا أرسلتهما فريدا اليه وقد أمر بأن يبقيا لديها ؟ لقد كان فى مقدوره أن يجد الطريق الى البيت بسهولة ، وبسهولة أكثر لو كان بمفرده ، ولم تكن هذه الجماعة حوله . وكان أحد المساعدين قد لف حول رقبته منديلا كانت أطرافه تتطاير فى الهواء ولفحت وجه ك عدة مرات ، وان كان المساعد الثانى قد حرص على أن يبعد هذه الأطراف عن وجه ك بأصابعه الطويلة المدببة التى كان لا يكف عن العبث بها ، ولم يكن يحقق بهذا من الأمر شيئا . ويبدو أن الاثنين قد وجدا علاوة على ذلك متعة فى هذه الحركات المتكررة وكانت الريح ورجفة الليل تثيران حماسهما ـ وصاح ك :

ـ ابعدا • اذا كنتما قد أتيتما لمقابلتى فلماذا لم تأتيا بعصاى ؟ فكيف أستطيع بدونها أن أسوقكما الى البيت ؟ فانكمشا وراء برناباس، ولكنهما لما كانا خائفين وما لبثا أن وضعا المصباحين على كتفى سيدهما يمينا ويسارا فدفعهما هو بطبيعة الحال بعيدا عنه •

وقال ك :

ـ يا برناباس •

وانقبض قلبه لأن برناباس على ما يبدو لم يفهمه ، وكانت سترته فى الأوقات الهادئة تلمع لمعانا جميلا ، أما اذا جد الجد ، فلم يكن يجد لديه العون بل يجد لديه مقاومة صامتة ، ولم يكن فى مقدوره مناهضتها ، لأنه كان هو ذاته أعزل ، يبتسم ابتسامته البراقة ، ولكن هذه الابتسامة لم تكن تعين على شىء ، مثل النجوم العالية التى لم تعين على شىء اذا هبت الريح العاصفة • وعاد ك يقول وهو ينشر الخطاب أمام عينى ناباس :

ـ انظر ، أترى ما كتبه السيد الى • ان المعلومات التى وصلت اليه خاطئة فأنا لا أقوم به ، لايمكننى ان أحدث به تعطيلا بطبيعة الحال ، ولا أستطيع أن أتسبب فى غضب السيد ، فكيف يمكن أن استحق تقديره ؟ كذلك لا يمكنى أبدا أن أقر عينا •

وقال برناباس الذى كان ينحرف دائما ببصره عن الخطاب والذى ما كان ليستطيع أن يقرأ منه شيئا لأن ك قربه من عينيه حتى لصقه بوجهه :

ـ سأبلغ هذا

فقال ك :

ـ آه ، انك تعدنى دائما بأنك ستبلغ ما أقول ، ولكن هل يمكننى ان أصدقك فعلا ؟ وان حاجتى الآن الى رسول جدير بالثقة لأكبر من حاجتى اليه فى أى وقت مضى •

وعض ك شفتيه من فرط تعجله • وقال برناباس وهو يميل برقبته ميلا رفيقا كاد أن يغرى ك بالعودة الى تصديق برناباس :

ـ يا سيدى • سأبلغه بكل تأكيد •

فصاح ك :

ـ كيف ؟ ألم اتبلغه بعد ؟ ألم تذهب فى اليوم التالى الى القصر ؟

فقال برناباس :

ـ لا • ان أبي رجل هرم ، ولقد رأيته أنت نفسك ، وتصادف أن كان العمل لدينا كثيرا واضطررت الى مساعدته ، ولكنى سأذهب عما قريب مرة أخرى الى القصر •

وصاح ك وهو يضرب جبهته بكفه :

ـ وماذا تفعل أيهـــا الانسان الذى يعصى الفهم على الاحاطة به !؟ ألا تفوق شئون كلم فى الأهمية كل الشئون الأخرى ؟ انك تشغل المنصب الرفيع ، منصب الساعى ، وهأنتذا تتصف على هذا النحو المزرى ؟ ومن الذى يهتم لأعمال أبيك ؟ ان كلم ينتظر أن تصله أخبار ، وبدلا من أن تسرع اليه حتى تنكفىء على وجهك من شدة الاسراع ، تفضل أن تكنس الروث من حظيرتكم •

وقال برناباس فى غير اضطراب :

ـ ان أبى صانع أحذية ، وقد تلقى تكليفا من برونسفيك بصناعة بعض الكميات ، وأنا مساعد أبى •

فصاح ك مغيظا وكأنمـا كان يخرج كل كلمـة الى الأبد من حيز الاستعمال :

ـ صانع أحذية ـ تكليف ـ برونسفيك • ومن الذى يحتاج هنا الى أحـذية طويلة فى هذه الطرق الحالية أبدا من البشر ؟ وفيما تهمنى صناعة الأحذية كلها ؟ لقد كلفتك برسالة ، لا لكى تنسـاها وتتلفهـا وأنت جالس على مقعد صناعة الأحذية ، وانما لتذهب بها من فورك الى السـيد •

وهدأ ك قليلا عندما خطر بباله أن كلم على ما يبدو لم يكن طوال الوقت فى القصر ، بل كان فى حان السادة ، ولكن برناباس أثاره من جديد عندما بدأ يتلو رسالة ك الأولى ليبرهن على انه حفظها أحسن لحفظ • فقال ك :

ـ كفى •

فقال برناباس :

ـ لا تغضب منى يا سيدى

وكأنما أراد برناباس أن يعاقب ك ، فأشاح عنه ببصره ، وطا من عينيه ، ولكنه انما فعـــل ذلك على الأحرى لذهوله من صـــياح ك • وقال ك :

ـ أنا لست غاضبا منك ٠

وتحول قلقه الى ذاته ٠ وأردف :

ـ اننى لست غاضبا منك ، ولـكن هناك ضررا كبيرا على فى أن يكون لدى ساع من هذا النوع فقط للأشياء ذات الأهمية البالغة ٠

وقال برناباس ، وبدا عليه كأنما نطق ـ دفاعا عن شرفه كساعى ـ بأكثر مما ينبغى :

ـ ان كلم لا ينتظر الأخبار ، بل انه يغضب عندما أذهب اليه ٠ ولقد قال لى ذات مرة « مزيد من الأخبار الجديدة ؟ » ، وكثيرا ما يهب واقفا عندما يرانى عن بعد مقبلا ، ويذهب الى حجرة جانبية ولا يستقبلنى٠ ثم انه لا يتعين على أن أذهب بكل رسالة ، ولو كان الأمر كذلك لذهبت من فورى بطبيعة الحال ، ولكن ليس هناك شىء معين فى هذا الشأن ، ولو أننى كففت عن الذهاب نهائيا ، لما لامنى على ذلك أحد ٠ اننى عندما أبلغ رسالة ، أبلغها متطوعا ٠

فقال ك :

ـ حسنا ٠

وكان يحملق فى برناباس ويشيح بوجهه عمدا عن المساعدين اللذين كانا يظهران ببطء من خلف كتفى برناباس وكانهما يطفوان من منخفض ثم يتواريان بسرعة مطلقين صفيرا خفيفا يقلدان به الريح وكأنهما فزعا لرؤية ك ، واستمرا على هذا العبث حينا ٠ وقال ك :

ـ أنا أعرف الأحوال لدى كلم ٠ وأنا أشك فى أنك تستطيع أن تعرف كل شىء هناك معرفة دقيقة ، وحتى اذا كنت تسـتطيع ، فنحن لا نستطيع أن نصلح هذه الأمور ٠ ولكنك تستطيع أن تبلغ رسالة ، وأنا أرجوك أن تفعل ٠٠ انها رسالة قصيرة جدا ٠ هل يمكنك أن تبلغها غدا مباشرة ، وأن تأتينى غدا مباشرة بالاجابة ، أو على الأقل تصف لى الاستقبال الذى لقيته ؟ هل تستطيع هذا وهل تريد أن تفعله ؟ اننى أعلق على ذلك أهمية كبيرة ٠ ولعلى أجد فرصة أشكرك فيها الشـكر المناسب ، أو ربما كانت لديك الآن رغبة أستطيع أن أحققها لك ٠

فقال برناباس :

ـ ساقوم بالمهمة بكل تأكيد ٠

وقال ك :

ـ وهل تريد أن تجتهد فى القيام بالمهمة على أحسن ما تستطيع ، فتبلغ الرسالة الى كلم نفسه ، وأن تحصل لى منه هو على الاجابة ، وأن تفعل هذا توا ، تفعل هذا كله توا ، غدا فى الصباح ، هل تريد أن تفعل هذا ؟

فقال برناباس :

ـ سأبذل قصارى جهدى ، وهذا هو ما أفعله دائما .

وقال ك :

ـ لا نريد العودة الى التشاحن فى هذا الموضوع ، والرسالة التى اكلفك بها هى :

موظف المساحة ك يرجو السيد المدير أن يسمح له بالمثول بين يديه شخصيا ، وهو يقبل مقدما كل شرط يمكن أن يرتبط بمثل هذا التصريح وهو مضطر الى التقدم بهذا الرجاء ، لأن الوسطاء جميعا فشلوا حتى الآن بأقل عمل من أعمال المساحة ، وانه ـ حسب مـا ذكره رئيس مجلس القرية ـ لن يقوم بشىء من هذا أبدا ، ولهذا فقد قرأ الخطاب الأخير الوارد من السيد المدير بخجل يائس ولن يفيد فى هذا الآمر سوى مثوله شخصيا أمام السيد المدير . وموظف المساحة يعرف ضخامة ما يرجوه وهو لهذا سيجتهد فى أن يجعل ما يسببه حضوره من اقلاق للسـيد المدير أقل ما يمكن ، وهو يرضى بكل تقييد زمنى ، ويرضى بما قد يبدو ضروريا من تحديد عدد الكلمات التى يصرح له بقولها فى المقابلة ، ويعتقد أن عشر كلمات تكفيه . وانه لينتظر بمزيد الاحترام وغاية الشـوق قراركم .

وكان ك قد تكلم ناسيا نفسه وكأنما كان يقف بباب كلم ويتكلم مع بوابه . ثم قال :

ـ لقد طالت الرسالة عما كنت أنوى ، وعليك أن تبلغها شفهيا ، فلست أريد أن أكتب خطابا ، لأنه سيسير فى الطريق اللانهائى الذى تسير فيه المكاتبات .

ولهذا كتبه ك بخط سريع على قطعة من الورق أسندها على ظهر أحد المساعدين ، بينما كان المساعد الآخر يضىء له ، وكان ك يكتب تبعا لاملاء برناباس الذى كان قد حفظ الرسالة ، وأخذ يتلوها بدقة على طريقة التلاميذ ، دون أن يحفل بالتلقين الخاطىء الذى كان المساعدان يدسانه عليه . وقال ك :

ـ أن ذاكرتك خارقة للمألوف ·

وأعطاه الورقة واردف :

ـ وعليك أن تبين أنك خارق للمألوف فى ناحية أخرى · وماذا عن رغباتك ؟ أليست لديك رغبات ؟ اننى أقول لك بصراحة اننى ساحس بشىء من الارتياح حيال مصير رسالتى اذا كانت لديك رغبات ؟

وظل برناباس فى بداية الأمر ساكنا ثم قال :

ـ أختاى تبعثان اليك بالتحية ·

فقال ك :

ـ آه البنتان الطويلتان البدينتان

فقال برناباس :

ترسلان اليك التحية ، وبخاصة أماليا ، وهى التى أحضرت اليوم هذا الخطاب اليك من القصر ·

وتشبث ك بهذه العبارة قبل غيرها وسأل :

ـ ألا يمكنها أن تحمل رسالتى الى القصر ؟ أو لعلكما تستطيعان الذهاب معا وليجرب كل منكما حظه ؟

وقال برناباس :

ـ ليس لأماليا أن تنفذ الى الدواوين ، والا لرحبت كل الترحيب بالقيام بالمهمة ·

وقال ك :

ـ لعلى أحضر اليكم غدا ، وتعال أنت أولا الى بالرد · وسأنتظرك فى المدرسة · وبلغ سلامى الى أختيك ·

وبدا وعد ك كانه اسعد برناباس لأنه لمس كتف ك عابرا بعد أن تصافحا للوداع ·وعادت الى وجدان ك صورة من الماضى ، عندما دخل برناباس لأول مرة بهيئته البراقة بين الفلاحين الى قاعة الخان وأحس ك بهذه اللمسة ـ ولكن وهو يبتسم كأنها تكريم وارتاح ك نفسا وترك المساعدين فى طريق العودة يفعلان ما حلا لهما ·



الفصل الحادى عشر

ووصل ك الى المدرسة وقد تجمدت أوصاله من شدة البرد ،وكانت الحلكة مطبقة فى كل مكان ، فقد فرغت الشمعتان فى المصباحين ،وأخذ المساعدان اللذان كانا يعرفان المبنى جيدا بيد ك ، حتى وصل متحسسا الطريق الى أحد الفصول . وقال ك للمساعدين مشيرا الى خطاب كلم :

ـ هذا هو أول عمل جدير بالمدح تقومان به !

وصاحت فريدا من أحد الأركان وهى بين اليقظة والنعاس :

ـ دعا ك ينام . لا تزعجاه .

الى هذا الحد كان ك يشغل فكرها حتى عندما يغلبها النعاس ولا يكون فى مقدوروها ان تتوقع قدومه . ثم أضىء النور . لكنهم لم يستطيعوا أن يشعلوا المصباح عاليا ليعطى نورا كافيا لأن البترول كان قليلا جدا . هكذا كان البيت الجديد يتعثر وكانت فريدا قد أوقدت المدفأة ، ولكن الحجرة الكبيرة ، التى كانت تستعمل كذلك للرياضة البدنية ـ وكانت أجهزة الرياضة قائمة هنا وهناك وكان منها ما يتدلى من السقف ـ قد استهلكت كل الخشب ، وكانت ـ كما علم ك ـ قد نعمت بدفء لذيذ ، ولكنها للأسف بردت بعد ذلك تماما . وكان هناك خشب كثير فى المخزن ، ولكن هذا المخزن كان مقفلا ، وكان المفتاح مع المعلم ، الذى لم يكن يسمح بصرف الخشب الا للتدفئة أثناء الحصص ولو كانت هناك فرش يلوذون بها من البرد لكان الأمر محتملا ولم يكن هناك سوى جوال واحد من القش كانت فريدا قد بسطت فوقه ملاءة من الصوف على نحو جميل يستحق التقدير ولم يكن هناك لحاف بل كان هناك غطاءان غليظان جامدان لا يكادان يحدثان شيئا من الدفء وحتى هذا الجوال الملىء بالقش كان المساعدان ينظران اليه مشوقين ، ولكنهما بطبيعة الحال لم يكونا يأملان فى أن يرقدا عليه . ونظرت فريدا الى ك مشوقين ، ولكنهما بطبيعة الحال لم يكونا يأملان فى أن يرقدا عليه . ونظرت فريدا الى ك خائفة . لقد برهنت فى حان السادة على أنها تستطيع

خائفة . لقد برهنت فى حان السادة على انها تستطيع أن تفرش أى حجرة ، حتى ولو كانت أكثر الحجرات فقرا ، وتجعلها صالحة للسكنى ، أما هنا فلم تستطع أن تفعل شيئا ، لأنها كانت تفتقر تماما الى الوسائل. وقالت وهى تضحك بجهد جهيد والدموع تنهمر من مآقيها :

ـ ليس هناك شىء تزدان به حجرتنا سوى أجهزة الرياضة البدنية .

أما فيما يتعلق بعيوب المكان الشديدة وامكانية النوم غير المرضية والتدفئة غير الكافية فقد وعدت فريدا وعدا مؤكدا بأن تجد حلا تستعين به فى اليوم التالى ورجت ك أن يلتزم بالصبر حتى ذلك الحين . ولم تبد كلمة أو لمحة أو تعبيرا من وجهها يمكن أن يعنى انها تحمل فى قلبها أقل غضاضة ناحية ك على الرغم من انه هو ـ كما حدث نفسه ـ قد انتزعها قديما من حان السادة ثم من حان الجسر بعد ذلك . ولهذا اجتهد ك فى أن يجد كل شىء محتملا ، ولم يكن هذا صعبا عليه ، لأن أفكاره كانت سارحة مع برناباس ، ولأنه كان يستعيد على نفسه الرسالة كلمة كلمة ، ولم يكن يستعيدها على النحو الذى سلمها لبرناباس عليه ، وانما على النحو الذى كان يعتقد انها ستبدو عليه أمام كلم . هذا الى أنه كان فرحا أخلص الفرح بالقهوة التى عكفت فريدا على اعدادها فوق الموقد الكحولى ، وكان يتابع وهو مستند على المدفأة التى تزايدت برودتها الحركات السريعة الخبيرة التى اصطنعتها فريدا وهى تبسيط المفرش الأبيض المعهود على المنصة وتضع قدحا مزدانا بصور الزهور ، وبجانبه شيئا من الخبز وشحم الخنزير بل وعلبة سردين . وفرغت من كل شىء بسرعة ، ولم تكن فريدا قد أكلت هى الأخرى بعد ، بل آثرت أن تنتظر حتى يأتى ك . وكان هناك كرسيان وثيران فجلس ك وفريدا فيهما الى المائدة ، وكان المساعدان يقبعان الى قدميهما عند قاعدة المنصة، ولكنهما لم يخلدا قط الى السكون بل استرسلا فى الازعاج حتى أثناء الأكل . وعلى الرغم من أنهما نالا من كل شىء نصيبا كبيرا فانهما لم يشبعا ، وكانا ينهضان من حين لآخر ليتبينا هل مازال هناك طعام كثير على المنضدة وهل مازال لهما أن يتوقعا الحصول على مزيد . ولم يعبأ ك بهما ، ولم يلتفت اليهما الا عندما ضحكت فريدا . ووضع يده على يدها فوق المائدة مداعبا وسألها بصوت خفيض لماذا تحيطهما بهذا الكلف الشديد وتقبل سخافاتهما متلطفة . وقال انهما لن يتخلصا منهما على هذا النحو أبدا ، وانهما لن يتخلصا منهما الا اذا عاملاهما معاملة خشنة

الى حد ما تناسب فعلا سلوكهما ، اما بتأديبهما أو ـ وهو الأفضل والأقرب احتمالا ـ بجعل البقاء أصعب من أن يحتملاه لينتهيان الى الانصراف فرارا . وقال ان اقامتهما في المدرسة لا يلوح عليها أنها ستكون اقامة لطيفة ، ولكنها لن تستمر طويلا ، ولو لم يكن المساعدان هنا ، وكانا هما وحدهما في مكان هادىء فلعلهما لم يكونا سيتنبهان الا أقل التنبه الى مافيه من عيوب كثيرة . وسألها هل تلاحظ أن المساعدين يزدادان وقاحة يوما بعد يوم ، وأنهما يتشجعان في وجود فريدا ويأملان في أن ك لن يتصرف معهما أمامها بالشدة التي يتصرف بها عادة . وقال لها انه ربما كانت هناك وسائل بسيطة جدا للتخلص بها منهما دون تعب، ولعلها ـ فريدا ـ تعرفها ، فهي تعرف الظروف القائمة معرفة جيدة . ولعل من يطرد المساعدين يقدم لهما صنيعا ، فليست الحياة التي يحبونها هنا بالحياة الرغدة العظيمة ، خاصة وانهما سيضطران هنا الى التخلى عن الكسل الذى نعما به حتى الآن ، على الأقل جزئيا ، وسيضطران الى العمل، وسيكون على فريدا أن ترتاح بعد اضطراب الأيام الماضية ، وسيكون هو مشغولا بالبحث عن مخرج من المحنة . وقال انه اذا انصرف المساعدان، سيحس بالراحة وسيسهل عليه أن يقوم بأعمال خادم المدرسة الى جانب الأعمال الأخرى .

وداعبت فريدا ، التى أنصتت اليه باهتمام ، ذراعه ، وقالت ان هذا كله هو رأيها أيضا ، ولكنه ربما بالغ فى وصف سخافات المساعدين، فهما ولدان مرحان فيهما شيء من السذاجة ، وهما يعملان لأول مرة فى خدمة أحد الغرباء ، وهما قد بعدا عن الأدب الصارم القائم فى القصر ، ولهذا فهما منفعلان دائما بعض الشيء ، مندهشان ، وهما يرتكبان فى هذه الحالة أحيانا بعض السخافات ، من الطبيعى أن يغضب الانسان منها ، وان كان الأقرب الى التعقل أن يضحك الانسان عليها . وقالت انها لا تستطيع فى بعض الأحيان أن تمنع نفسها عن الضحك وهى رغم هذا متفقة مع ك تماما فى أن أفضل شيء هو ابعادهما وأن يكونا هما معا وحدهما . واقتربت من ك وأخفت وجهها فى كتفه . وقالت وهى فى هذا الوضع على نحو عسير الفهم ، حتى ان ك اضطر الى أن ينحنى قريبا منها ، انها لا تعرف وسيلة للتخلص من المساعدين وانها تخشى أن تؤدى كل الاقتراحات التى اقترحها ك الى الفشل وانها تعرف من أمرهما أن ك هو نفسه الذى طلبهما ، ولقد حصل عليهما وسيكون عليه الاحتفاظ بهما ، وان أفضل شيء هو أن يتقبلهما ببساطة ، وهذه هى أفضل وسيلة لتحمل البسطاء ، وما هم الا من عامة البسطاء .

ولم يكن ك راضيا على الاجابة ، وقال فى لهجة بين المزاح والجد ، انه يبدو انها متحالفة معهما ، أو انها على الأقل تميل اليهما ميلا شديدا، وانهما لشابان جميلان ، وليس هناك انسان لا يمكن التخلص منه بشيء من العزم ، وسيبرهن لها على ذلك فى أمر المساعدين ٠

وقالت فريدا انها ستكون شاكرة له ممتنة اذا نجح فى هذا ٠ وقالت انها من الآن فصاعدا لن تضحك منهما ، ولن تتكلم معهما كلمة أكثر مما تدعو اليه الضرورة ، فليس من الهين أن يكون هناك رجلان يحملقان فيها دائما ، ولقد تعلمت أن تنظر اليهما بعينيه هو ٠ وارتعدت بالفعل عندما نهض المساعدان تارة للتأكد من كمية الطعام الموجودة ، وتارة لكشف سر التهامس الذى اتصل بين ك وفريدا ٠

وانتهز ك هذه الفرصة ليجعل فريدا تكره المساعدين ، فضمها اليه ، وختما الطعام ملتصقين أحدهما بالآخر ٠ وحان وقت النوم ، وكان الجميع متعبين أشد التعب ، بل ان أحد المساعدين نام أثناء الأكل ، وسر الآخر بهذا سرورا عظيما وأراد أن يحمل سيديه على التطلع الى الوجه الغبى النائم ، ولكنه لم يوفق الى ذلك ، فقد جلس ك وفريدا عاليا رافضين صادين ٠ وتردد الجميع فى الذهاب للنوم فى هذا البرد المتزايد ، وأخيرا أعلن ك أنه ينبغى تدفئة الحجرة ، والا فانه لن يكون فى امكانهم أن يناموا ٠ وبحث عن بلطة ، وكان المساعدان يعرفان موضع بلطة ، فأحضراها اليه ، وذهب ثلاثتهم الى مخزن الخشب ٠ وما مر الا وقت قليل حتى كان الباب الخفيف قد كسر ، وأخذ المساعدان ـ وكانا مبتهجين وكأنهما لم يريا من قبل شيئا جميلا كهذا ـ وهما يتدافعان ويتلاكزان، ينقلان الخشب الى الفصل حتى تكونت كومة كبيرة هناك ، وأوقدت المدفأة ، وتكوم الجميع حولها ، وحصل المساعدان على غطاء ليلتفا فيه ، وكان كافيا لهما ، فقد تم الاتفاق على أن يظل واحد منهما بالتبادل يقظا ليغذى النار بالخشب ، ثم ما لبثت الحرارة ان اشتدت حول المدفأة حتى لم تعد بأيهما حاجة الى الغطاء ، وأطفىء المصباح وتمدد ك وفريدا للنوم سعيدين بالدفء والسكون ٠

وصحا ك فى الليل على أثر ضجة ما ومد يده فى أول حركة مضطربة يتحسس فريدا ، فتبين أن أحد المساعدين ينام بجانبه بدلا من فريدا ٠ وكان الفزع الذى أحس به ـ ربما نتيجة للاثارة التى صاحبت الصحوة المفاجئة ـ أشد فزع عرفه فى القرية حتى الآن ٠ ونهض نصفا فأطلق ، صرخة ، ولكم المساعد فى غير وعى لكمة جعلته

يبكى . وما لبث الأمر كله أن اتضح . كانت فريدا قد صحت فجأة لأن أو هكذا لاح لها على الأقل ـ حيوانا كبيرا ، وربما قطا قفز فجأة فوق صدرها ، ثم هرب من فوره . فقامت وفتشت مستعينة بالمصباح عن الحيوان فى كل الحجرة . وانتهز أحد المساعدين الفرصة ليتمتع هنيهة بالرقاد على جوال القش وكان أن دفع ثمن هذه المتعة غاليا . أما فريدا فلم تعثر على شىء ، ومسحت وهى عائدة ـ وكأنها نسيت محادثة الأمس ـ على شعر المساعد الذى انكمش على نفسه مولولا لتواسيه . ولم يقل ك شيئا . الا أنه أمر المساعدين بأن يكفا عن التدفئة، لأن الدفء كان قد زاد عن الحد وكان كوم الخشب قد فرغ كله تقريبا .



الفصل الثانى عشر

ولم يستيقظ الجميع فى الصباح الا عندما كان التلاميذ المبكرون قد حضروا وأحاطوا شغوفين بالمكان الذى رقدوا فيه · وكان هذا أمرا كريها لأنهم كانوا نتيجة للحرارة الشديدة التى تحولت الآن فى الصباح الى برودة محسوسة ـ قد خلعوا ملابسهم كلها الا القميص ، وما أن بدءوا يرتدون ملابسهم حتى ظهرت المعلمة جيزا بالباب ، وكانت فتاة شقراء الشعر ، طويلة القامة ، جميلة التقاطيع ، وان كانت تتصف بشىء من الجمود · ويبدو انها كانت تهيأت لاستقبال خادم المدرسة الجديد، وتلقت من المعلم قواعد السلوك التى ينبغى عليها اتباعها حياله ، لأنها قالت ولما تتجاوز العتبة بعد :

ـ هذا ما لا يمكننى السكوت عليه · ما أجمل هذه الأحوال ! انك لم تنل الا تصريحا بالنوم فى الفصل ، أما أنا فعلى واجب التدريس فى حجرة نومك · ما أقبح عائلة خادم المدرسة التى تظل تتقلب فى السراير حتى الظهر ! أف ·

وفكر ك فى أنه يستطيع أن يرد ببعض الاعتراضات وخاصة فيما يتعلق بالعائلة وبالسراير ، وأخذ فى الوقت نفسه هو وفريدا ـ فلم يكن المساعدان ليفيدا بشىء ، فقد رقدا على الأرض واسترسلا فى التعجب من المعلمة والتلاميذ ـ يزحزحان المتوازيين والحصان بأقصى سرعة ، ثم غطيا الجهازين بالبطاطين فنشأ مكان أصبح فى استطاعتهم أن يرتدوا فيه ملابسهم فى مأمن من نظرات التلاميذ على الأقل · ولم يستمر الهدوء لحظة فقد تشاجرت المعلمة أولا لأنها لم تجد فى الحوض ماء جديدا ، وكان ك قد فكر فى اللحظة ذاتها فى أن يأتى بهذا الحوض ليغتسل فيه هو وفريدا ، وتخلى عن الفكرة مؤقتا حتى لا يثير المعلمة اثارة مفرطة ، ولكن تخليه عن الفكرة لم يفد بشىء فقد دوت ضجة كبيرة بعد قليل ، ذلك انهم كانوا قد أغلقوا ، لسوء الحظ ، تنظيف منضدة الفصل من بقايا العشاء ، فأبعدت المعلمة كل الأشياء بالمسطرة ، فتطايرت على

الأرض ، وسال زيت السردين وما بقي من قهوة ، وتحطم الابريق ، ولم تعبأ المعلمة بشيء من هذا لأن خادم المدرسة سيرتب كل شيء • ونظر ك وفريدا وهما مستندين الى المتوازيين ، ولم يكونا قد فرغا بعد من ارتداء كل ثيابهما ، كيف يتحطم متاعهما القليل • أما المساعدان ، ويبدو أنهما لم يفكرا في ارتداء ثيابهما قط ، فقد ظلا راقدين ينظران من بين ثنايا الأغطية وكان الأولاد يجدون في ذلك متعة أي متعة • وكان أكثر ما تتألم له فريدا بطبيعة الحال هو خسارة الابريق ، فلما واساها ك وأكد لها انه سيذهب توا الى رئيس مجلس القرية ويطالبه بتعويض ويناله ، تمالكت نفسها وجرت من التحويطة ، وليس عليها من الثياب سوى القميص ، لتحضر البطانية على الأقل حتى تقيهـــا من مزيد من القذارة • وتمكنت بالفعل من ذلك على الرغم من أن المعلمة كانت تضرب، بقصد افزاعها ، بالمسطرة على المنضدة كالشاكوش باستمرار وعلى نحو يثير الأعصاب • فلما فرغ ك وفريدا من ارتداء ملابسهما ، كان عليهما أن يحثا المساعدين اللذين كانا مأخوذين مما تعاقب من احداث ، على ارتداء ملابسهما ، واستعانا على ذلك بالأمر واللكم ، بل وقاما هما ذاتهما بالباسهما جزءا من الثياب • فلما فرغ الجميع وزع ك الأعمال التالية : كان على المساعدين أن يحضرا خشبا وأن يوقدا المدفأة ، وأن يكون البدء بالفصل الآخر الذى كانت أخطار جسيمة تلوح في أفقه اذ لابد أن المعلم موجود به منذ بعض الوقت •• وكان على فريدا أن تمسح الأرضية • وأخذ ك على عاتقه احضار الماء وانجاز ماعدا ذلك من أعمــال التنظيم والترتيب • ولم يكن هناك مؤقتا مجال للتفكير في تناول طعام الافطار• وأراد ك أن يخرج هو أولا ليكتشف مزاج المعلمة بصفة عامة ، وكان على الآخرين أن يتبعوه عندما ينادى عليهم ، ولقد اتخذ ك هذا التدبير لأنه كان من ناحية لا يريد للموقف أن يسوء منذ البداية نتيجة لحماقات المســاعدين ، ولأنه كان من ناحية أخرى يريد أن يخفف عن فريدا ما استطاع الى ذلك سـبيلا ، لأنها كانت طموحة ولم يكن هو كذلك ، وكانت حساسة ولم يكن هو كذلك ، وكانت تفكر في البشاعات الصغيرة الحاضرة فقط ، بينما كان هو يفكر في برناباس والمستقبل • واتبعت فريدا تعليماته كلها بدقة ، ولم تنصرف عنه بعينيها الا نادرا • وما كاد ك يدخل الفصل حتى صاحت المعلمة بين ضحكات من التلاميذ لم تتوقف بعد ذلك مطلقا :

ـ هه ، صح النوم ؟

ولما لم يعر ك ذلك التفاتا ، فلم يكن ذلك سؤالا بمعنى الكلمة ، وانطلق الى الحوض مباشرة ، سألته المعلمة :

ــ ماذا فعلتم بميتسه ؟

كانت هناك قطة كبيرة عجوز جسيمة ترقـــد ممددة فى خمول على المنصة ، وكانت المعلمة تفحص قدمها التى يبدو أنها كانت مصابة بشيء من الجراح .. اذن فقد كانت فريدا على حق . ولم تكن هذه القطة قد قفزت فوقها فلم تكن تستطيع القفز ولكنها كانت قد زحفت من فوقها وفزعت من وجود الناس فى مكان كان فى المعتاد خاليا ، فتوارت بسرعة وأصيبت بجرح وهى تسرع سرعة لم تألفها . وحاول ك أن يشرح ذلك للمعلمة فى هدوء ، ولكن المعلمة لم تكن تهتم الا بالنتيجة ، قالت :

ــ نعم ، لقد جرحتموها ، وبهذا بدأت هنا .

وقالت :

ــ انظر .

ونادت ك أن يأتى الى المنصة ، وأرته الرجل المصابة ، وقبل أن يتفحصها ، أحدثت بمخالب القطة على ظهر يده خمشـــة . حقيقة أن المخالب لم تكن حادة ، ولكن المعلمة ضغطت عليها بعنف ــ دون ما مراعاة للقطة فى هذه المرة ــ حتى تفجر الدم منها . وهنا قالت وهى تنحنى على القطة :

ــ والآن اذهب الى عملك .

وصرخت فريدا مفزوعة عندما رأت الدم . وبسط ك يده للتلاميذ وقال :

ــ لقد فعلت هذا بى قطة شريرة لئيمة .

وهو لم يقل هذا بطبيعة الحال من أجل الأولاد الذين كان صراخهم وضحكهم قد أصبح بديهيا فلم يكن بحاجة الى دافع أو حافز ، ولم يكن فى مقدوره كلمة أن تنفذ اليه وتؤثر فيه . ولما لم ترد المعلمة على الاهانة بأكثر من نظرة مستهترة ، وظلت مشـــــتغلة بالقطة ، نادى ك فريدا والمساعدين وبدأ العمل .

وحمل ك دلو الماء القذر وألقى به بعيدا وأحضر ماء نظيفا ، وشرع يكنس الفصل ، وهنا تقدم صبى فى الثانية عشرة من عمره من مقعـــده ومس يد ك وقال شيئا غير مفهوم وسط الضجيج الشديد وفجأة توقف الصخب كله ، والتفت ك خلفه . لقد حدث ما كان يخشاه طوال الصباح .

لقد وقف المعلم بالباب ، وكان ـ وهو الرجل القصير ـ يحمل فى كل يد احد المســـاعدين من تلابيبه ويبدو انه قد قبض عليهما عندما كانا يحضران الخشب ، لأنه كان يصيح بصوت عنيف ، ويصمت بعد كل كلمة.

ـ من الذى تجاسر على السطو على مخزن الخشب ؟ أين الفاعل حتى أحطمه تحطيما ؟ وهنا وقفت فريدا وكانت تعمل على تنظيف الأرضية عند قدمى المعلمة ، ونظرت ناحية ك وكأنما أرادت أن تغترف قوة ، وقالت وكان فى نظرتها ومسلكها شيء من التفوق الذى كان لها فيما مضى :

ـ أنا التي فعلت هذا يا حضرة المعلم • فلم أكن أعرف وسيلة أخرى أستعين بها • لقد كان الواجب يفرض علينا أن ندفىء فصلى المدرســـة مبكرين ، ولهذا فقد تحتم علينا أن نفتح المخزن ، ولم أتجاسر على طلب المفتاح منك فى الليل ، وكان خطيبى فى حان السادة ، وكان من الممكن أن يظل هناك طوال الليل ، وهكذا تحتم على أن أقطع فى الأمر وحدى • فاذا كنت قد أخطأت التصرف فاغفر لى فالسبب هو قلة خبرتى ، ولقد تشاجر معى خطيبى بما فيه الكفاية عندما رأى ما قد حدث • نعم ، لقد منعنى من أن أدفىء المكان مبكرة ، لأنه اعتقد أنك باغلاقك المخزن تعبر عن أنك لا تريد أن تكون التدفئة قد أنجزت عندما تأتى • وهكذا فان عدم التدفئة هو ذنبه ، أما كسر باب المخزن فهو ذنبى •

وسأل المعلم المساعدين اللذين كانا لا يزالان يحاولان التملص من قبضته دون ما جدوى :

ـ من الذى كسر الباب ؟ •

فقالا جميعا :

ـ السيد

وأشارا الى ك حتى لا يكون هناك مجال للشك • وضحكت فريدا ، وكانت ضحكتها تبدو أكثر برهانا من كلامها ، وبدأت تعصر الخرقة التى مسحت بها الأرضية فى الدلو ، وكأنما كان تصريحها قد أنهى الموضوع ولم تكن كلمات المساعدين سوى نكتة اضافية • ولم تعد الى الكلام الا بعد أن بركت على ركبتيها من جديد لتستأنف العمل ، وهنا قالت :

ـ ان مساعدينا طفلان ، وان مقاعد المدرسة هنا لتناسبهما على الرغم من سنهما • لقد قمت أنا وحدى عند المساء بفتح الباب ببلطة ، وكان ذلك سهلا جدا ولم أحتج فى ذلك الى المساعدين ، ولو استعنت بهما لعطلانى •

فلما عاد خطيبي في الليل وخرج ليرى التلف وربما ليصلحه ، جرى معه المساعدان ، ربما لأنهما كانا يخشيان البقاء هنا ، ورأيا خطيبي يعالج الباب المغتصب ، ولهذا فانهما يقولان الآن ـ وما هما الا طفلان ٠

وكان المساعدان لا ينفكان ، أثناء تصريح فريدا ، يهزان رأسيهما ، ويشيران دائما الى ك ، ويجتهدان بحركات من وجهيهما ، في رد فريدا عن رأيها ، فلما لم يوفقا الى ذلك ، انصاعا في النهاية ، وتقبلا كلام فريدا كأنه أمر ، ولم يردا على المعلم عندما سألهما من جديد ٠

وقال المعلم لهما :

اذن فقد كذبتما ؟ ٠ أو على الأقل اتهمتما خادم المدرسة مستهترين ؟ ٠

وظلا صامتين ولكن ارتعادهما ونظراتهما الخائفة كانت تشير الى شعورهما بالذنب ٠

وقال المعلم :

ـ فسأضربكما في الحال بالخيزرانة ضربا مبرحا ٠

وارسل صبيا الى الحجرة المجاورة ليحضر الخيزرانة ٠ وما أن رفع المعلم الخيزرانة حتى صاحت فريدا :

ـ لقد قال المساعدان الصدق ٠

وألقت الخرقة في الدلو حائرة فتتطاير رذاذ الماء ، ثم عدت خلف المتوازيين واختبأت ٠ وقالت المعلمة وقد أوشكت على الفراغ من تصيد رجل القطة وأخذتها على حجرها الذى كاد أن يكون كبيرا بالنسبة اليها :

ـ قال انه شعب كذاب ٠

وقال المعلم :

ـ وهكذا يبقى السيد خادم المدرسة ٠

ودفع المساعدين بعيدا واتجه الى ك الذى كان طوال الوقت ينصت مستندا الى يد مقشة ٠ ثم أردف :

ـ هذا الخادم الذى يرى في هدوء وجبن كيف يكال الاتهام زورا لآخرين عن أعمال دنيئة ارتكبها هو ٠

وقال ك الذى لابد أنه لاحظ أن تدخل فريدا أدى إلى تخفيف ما كان المعلم قد اندفع اليه فى البداية من غضب عارم :

ـ لو أنك هويت على المساعدين بالخيزرانة ، لما أشفقت عليهما ، واذا كانا قد مرا بلا عقاب فى عشر مناسبات كانا يستحقا فيها العقاب عدلا ، فلا بأس أن ينالا العقاب فى مناسبة يكون عقابهما فيها ظلما ٠ وكذلك كنت أفضل أن أتجنب تصادما مباشرا بيننا ، يا حضرة المعلم ، ولعلك كنت ترحب أنت أيضا بهذا ٠ أما وقد قدمتنى فريدا ضحية للمساعدين ٠

وهنا سكت ك فترة ، وتناهى فى وسط السكون صوت فريدا تنتحب وراء الأغطية ، وأردف ك :

ـ فينبغى أن نوضح الأمر بطبيعة الحال ٠

وقالت المعلمة :

ـ هذه بشاعة لا مثيل لها ٠

وقال المعلم :

ـ انا ارى رأيك تماما يا آنسة جيزا ٠ وأنت يا خادم المدرسة مفصول على الفور بطبيعة الحال نتيجة لنقضك المزرى للعقد ٠ أما العقاب الذى سيأتى بعد ذلك فاحتفظ بأمره لنفسى ٠ واما الآن فاخرج على الفور من المدرسة ٠ فان خروجك سيؤدى الى تخفيف حقيقى عنا ، وسيكون فى الامكان أن نبدأ فى التعليم بعو طول تعطيل ٠ بسرعة ٠

فقال ك :

ـ أنا لن أتحرك من هنا قيد أنملة ٠ حقيقة أنك رئيسى ، ولكنك لست من أعطانى الوظيفة ، انما أعطانيها السيد رئيس مجلس القرية ، وأنا لا أقبل الا فصله هو ٠ وهو لم يعطنى الوظيفة لأتجمد هنا من شدة البرد أنا ومن معى ، وانما ـ ولقد قلت أنك نفسك هذا ـ ليحول دون قيامى بأعمال متهورة بدافع من حيرة أو يأس ٠ ولهذا فان فصلى فجأة عمل ينافى هدفه ، وأنا لن أصدق الا اذا سمعت قرار الفصل من فمه هو ٠ وأنا عندما أرفض فصلك اياى على هذا النحو المستهتر ، أفعل شيئا قد يكون فى صالحك ٠

وسأل المعلم وهو يهز رأسه :

ـ اذن فأنت ترفض أن تطيع ؟ ٠

ثم قال المعلم بعد ذلك :

ـ فكر جيدا • فان قراراتك ليست دائما أحسن القرارات • واذكر على سبيل المثال ما فعلته عصر الأمس عندما رفضت أن تستجوب •

فقال ك :

ـ ولماذا تشير الى هذا الآن ؟

فقال المعلم :

ـ لأن هذا يحلو لى • وأنا أكرر عليك للمرة الأخيرة : أخرج •

فلما لم يصب المعلم تأثيرا ، ذهب الى المنصة وتشاور مع المعلمة بصوت منخفض ، وأخيرا اتفقا • ونادى المعلم على التلاميذ أن يذهبوا الى فصله ، ليتعلموا مع تلاميذه • وكان التغيير مدعاة لفرح الجميع ، وسرعان ما خلا الفصل وسط الضحكات والصيحات ، وكان المعلم والمعلمة آخر الخارجين • وحملت المعلمة كراس الفصل ومن فوقه القطة التى كانت بجسامتها بليدة كل البلادة • ولكم ود المعلم لو بقيت القطة هنا • ولقد وجه الى المعلمة اشارة فيها تلميح الى هذا ، فردتها ردا حاسمة منبهة الى شراسة ك • وهكذا حمل ك المعلم وزر القطة كذلك واغضبه أشد الغضب • وتأثر هذا على الأغلب بالكلمات الأخيرة التى وجهها المعلم وهو بالباب الى ك :

ـ ان الآنسة تترك الحجرة مع التلاميذ مضطرة لأنك ترفض عن تمرد طاعة أمرى بفضلك ، ولأنه لا يوجد انسان يستطيع أن يطلب منها ، وهى الفتاة الصغيرة ، أن تعطى الحصة وسط بيئتك العائلية القذرة • اذن فأنت باق وحدك ، ويمكن أن تتوسع هنا كما تريد • ودون أن يزعجك تطلع المشاهدين الأخيار • ولكن هذا لن يدوم طويلا ، وأنا ضامن ذلك •

وهنا أقفل الباب عنوة •



الفصل الثالث عشر

وما كاد الجميع ينصرفون حتى قال ك للمساعدين :

ـ أخرجا ·

وأخذهما الأمر المفاجيء فأطاعا ، فلما أغلق ك الباب من خلفهما ، أرادا أن يعودا وأخذا يبكيان فى الخارج ويدقان على الباب · وصاح ك :

ـ أنتما مفصولان · ولن أعود الى استخدامكما أبدا ·

ولم يقبلا هذا بطبيعة الحال راضيين وظـلا يضربان الباب بأيديهم وأرجلهم ويصيحان :

ـ نعود اليك أيها السيد !! ·

وكأنما كان ك الارض اليابسة وكانا هما على وشـــك الغرق فى الفيضـــــان · ولكن ك لم يشفق عليهما ، وانتظر بفارغ صبر أن يضطر الصخب الذى يفوق الاحتمال المعلم الى أن يتدخل ·

وحدث هذا بعد قليل · وصاح المعلم :

ـ دع مساعديك اللعينين يدخلان ·

وردك عليه صائحـــا : لقد فصلتهما ·· وأحدثت الصيحة تأثيرا اضافيا غير مقصود هو اظهار المعلم على الأمر وكيف يبـدو عندما يفصل الرجل القوى من يعمل عنده ثم لا يبقى عند حد الانذار بل ينفذ الفصل فعلا · وحاول المعلم أن يهدىء المساعدين باللين قائلا ان عليهما أن ينتظرا هنـــا فى هدوء وسيضطر ك فى النهـاية الى ادخالهما مرة أخرى · ثم انصرف · ولعل السكون كان سيستمر لو لم يصح ك فيهما مرة أخرى بأنهما مفصولان نهائيا وانهما لا ينبغى أن يأملا أو هى أمل فى العودة · وهنا عادا الى الصخب على نحو ما كانا يفعلان من قبـــل · وعاد المعلم ، ولكنه لم يتفـــاوض معهما ، بل طردهما خارج البيت واستعمل ـ على ما يبدو ـ خيزرانته المهابة ·

وما لبثا أن عادا للظهور أمام نوافذ حجرة الرياضة ، وأخذا يقرعان

النوافذ ويصيحان . ولكن كلماتهما لم تكن مفهومة . ولم يستمرا فى مكانهما هذا مدة طويلة ، فلم يكن فى مقدورهما أن يسترسلا فى القفز على الجليد السميك ما شاء لهما قلقهما . ولهذا عجلا بالذهاب الى سور حديقة المدرسة ، وقفزا على القاعدة الحجرية للسور الحديدى حيث كان فى مقدورهما أن ينظرا الى داخل الحجرة على نحو أفضل ولكن من بعد . وأخذا يعدوان ذهابا وأيابا ممسكين بالسور الحديدى ، ثم كانا يقفان من حين لآخر ويرفعان أيديهما الى ك متوسلين اليه . واستمرا على هذه الحال طويلا دون اعتبار لعدم جدوى جهودهما ، ذلك أنهما كانا كالمبهورين . ويبدو أنهما لم يكفا عن التوسل على هذا النحو عندما أرخى ك الستائر على النوافذ حتى يتحرر من النظر اليهما .

وذهب ك فى الحجرة التى أظلمت الى المتوازيين بحثا عن فريدا . فلما نظر اليها نهضت وسوت شعرها ، ومسحت على وجهها واتجهت فى صمت لتعد القهوة . وعلى الرغم من أنها كانت تعلم بكل ما جرى ، فقد أحاطها ك علما بأن المساعدين قد فصلا . ولم تزد عن أن هزت رأسها ، وجلس ك على قمطر فى الفصل وأخذ يلاحظ حركاتها الواهنة . لقد كانت النضرة والتصميم هما الشيء الذي أضفى على جسمها التافه جمالا . وكانت الأيام القليلة التى عاشتها مع ك كافية لاحداث هذا الأثر . ولم يكن العمل فى الحانة عملا سهلا ولكنه كان على ما يبدو أنسب لها ، أو ربما كان البعد عن كلم هو سبب تدهورها ؟ لقد كان قربها من كلم يجعلها مغرية بدرجة غير معقولة ، ولقد انتزعها ك اليه فى وسط هذا الاغراء ، وها هى ذى تذبل بين ذراعيه .

وقال ك :

– يا فريدا .

فوضعت طاحونة البن جانبا وجاءت الى ك وجلست على القمطر نفسه . وسألت ك .

– هل أنت غاضبة منى ؟ .

فقال ك :

– لا ولكننى أعتقد أنك لا تستطيعين أن تفعلى شيئا آخر غير ما كنت

تفعلين • لقد كنت تعيشين راضية فى حان السادة • وكان الأحرى بى أن أدعك هناك •

وقالت فريدا وهي تنظر حزينة أمامها أن أدعك هناك •

ـ نعم ، كان الأحرى بك أن تدعني هناك • وأنا لست جديرة بالحياة معك • ولعلك ، اذا تخلصت مني تستطيع أن تصل الى ما تريد الوصول اليه • انك تخضع ، مراعاة لى ، للمعلم المستبد ، وتقبل هذه الوظيفة الوضيعة ،وتسعي بجهد جهيد لمحادثة كلم • كل هذا من أجلى أنا وأنا لا أكافئك عليه الا مكافأة رديئة •

وقال ك :

ـ لا •

وطوقها بذراعه مواسيا • ثم قال :

ـ كل هذه توافه لاتؤلمني ، وأنا لا أريد الذهاب الى كلم بسببك • وما أكثر ما صنعت من أجلى ؟ انني قبل أن أعرفك كنت أسير هنا فى الضلال • لم يكن هناك من يستقبلني ، وكنت اذا تقدمت الى بعضهم ملحا ، انصرف عني مسرعا • وكنت اذا وجدت أناسا يمكن أن أنعم بالسكون بينهم • أهرب أنا منهم ، مثل آل برناباس •

وقاطعت فريدا ك صائحة بهمة :

ـ لقد هربت منهم ؟ أليس كذلك ؟ يا حبيبى •

ثم استغرقت مرة أخرى فى تعبها بعد أن قال ك « بلى » مترددا • وكذلك لم يكن ك مصمما على أن يشرح كيف تحولت الأمور كلها الى الخير بعد ارتباطه بفريدا • ورفع ذراعه ببطء عنها وجلس هنيهة صامتا ، حتى قالت فريدا وكأنما كان ذراعه يمنحها دفئا لم تعد تستطيع الآن الاستغناء عنه :

ـ لن أحتمل هذه الحياة هنا • واذا كنت تريد الابقاء على ، فينبغى أن نهاجر الى أى مكان ، الى جنوب فرنسا ، الى أسبانيا •

وقال ك :

ـ أنا لا أستطيع أن أهاجر ، لقد أتيت الى هنا لأبقى هنا • وسأبقى هنا •

وأضاف محدثا نفسه فى تناقض لم يبذل جهدا فى توضيحه :

ـ وماذا كان يمكن أن يجتذبنى الى هذه الأرض الصعبة الا الحاجة للبقاء هنا ٠

ثم قال :

ـ وكذلك أنت تريدين البقاء هنا ، فهذا بلدك ٠ ولكن كلم هو الذى ينقصك ، وهذا هو ما يؤدى بك الى الأفكار اليائسة ٠

وقالت فريدا :

ـ انك تظن أن كلم هو ما ينقصنى ؟ وان هنا مفيضا من كلم ، فيضا مفرطا ٠

وما أريد أن أبعد عن هنا الا لأفلت منه ٠ ليس من ينقصنى هو كلم ، بل أنت ، اننى أريد أن أبعد من هنا بسببك ٠ لأننى لا أستطيع أن أشبع منك هنا حيث يتجاذبنى الجميـــع ، ليتنى أتجرد من القنـــاع الجميل ، ليت جسمى يذبل حتى أستطيع أن أعيش معك فى سلام ٠

ولم يستشف ك من ذلك كله الا شيئا واحدا ٠ وسأل من فوره :

ـ أمازال كلم على علاقة بك ؟ ٠

ثم أردف :

ـ هل يستدعيك ؟ ٠

فقالت فريدا :

ـ لا أعرف عن كلم شيئا ٠ اننى أتحدث عن آخرين ، عن المساعدين مثلا ٠

فقال ك وقد أخذته المفاجأة :

ـ آه ، المساعدان ! هل يلاحقانك ؟ ٠

فسألته فريدا :

ـ ألم تلحظ هذا ؟ ٠

فقال ك :

ـ لا ٠

وحاول دون جدوى أن يتذكر شيئا من التفاصيل ٠ ثم قال

ـ انهما شابان لحوحان قبيحان ، أما أنهما تجاسرا على الاقتراب منك ، فهذا ما لم ألحظه ٠

فقالت فريدا :

ـ لا ؟ ألم تلحظ انهما لم ينصرفا من حجرتنا فى حان الجسر ، على الرغم مما توسلنا به لصرفهما من حيل ، وانهما كانا يراقبان علاقاتنا غيورين ، وان أحدهما رقد مؤخرا فى مكانى على جوال القش ، وأنهما شهدا الآن ضدك ليتسببا فى طردك والاضرار بك ولينفردا بى • ألم تلحظ هذا كله ؟ •

ونظر ك الى فريدا دون أن يجيب • كانت الاتهامات التى وجهتها ضد المساعدين صحيحة ، ولكنه كان من الممكن تأويلها تأويلا بريئا على أساس خلقهما المضحك الصبيانى الغرير المتهور • ثم ألا يقوض اتهامهما سعيهما الدائب الى ملاحقة ك حيثما كان ورفضهما البقاء مع فريدا ؟ وأشار ك الى شىء من هذا القبيل • فقالت فريدا :

ـ انه نفاق • ألم تكشف أمره ؟ ولماذا اذن فصلتهما ، ان لم يكن لهذه الأسباب ؟ •

وذهبت الى النافذة ، وأزاحت الستارة الى الجانب قليلا ، وأطلت ثم نادت ك أن يأتى • كان المساعدان لا يزالان عند السور الحديدى على الرغم مما دب فيهما من تعب ظاهر ، وكانا يستجمعان قواهما من حين لآخر ، ويمدان ذراعيهما متوسلين ناحية المدرسة • وكان أحدهما قد شبك سترته من الخلف بأحد أعمدة السور حتى لا يضطر الى الاستناد المرة تلو المرة •

وقالت فريدا :

ـ المسكينان ! المسكينان ! •

وسأل ك :

ـ تسألين لماذا طردتهما ؟ •

ـ ثم قال :

ـ لقد كنت أنت السبب المباشر •

وسألت فريدا دون أن تحول بصرها عن النظر الى الخارج :

ـ أنا ؟ •

وقال ك :

ـ أعنى معاملتك للمساعدين معاملة مفرطة الود ، وصفحك عن بذاءاتهما ، وضحكك منهما ، ومسحك على شعريهما ، واشفاقك الدائم عليهما ، ولقد قلت لتوك « المسكينان ! المسكينان ! » ، ثم الحادثة

الأخيرة التى بينت أننى ثمن رخيص تشترين به أعفاء المساعدين من الضرب بالخيزرانة .

فقالت فريدا :

ـ وهذا هو ما يدور حديثى الا حوله هذا هو ما يجعلنى تعيسه ، وما يصرفنى عنك ، بينما أنا لا أعرف لى سعادة أعظم من سعادتى بالبقاء معك ، دائما ، بلا انقطاع ، بلا نهاية ، بينما أنا أحلم بأنه ليس هناك على الأرض مكان هادىء لحبنا ، لا فى القرية ، ولا فى أى مكان سواها ، وأتمثل لذلك القبر عميقا ضيقا ، فى القبر نتعانق وكأنما تمسكنا كماشة ، وأخفى وجهى فيك ، وأنت تخفى وجهك فى ، ولن ينظر الينا أحد أبدا . أما هنا ـ أنظر الى المساعدين . انهما لا يمدان أيديهما اليك بل الى .

فقال ك :

ـ لأنك أنت تنظرين اليهما ، ولست أنا الذى أنظر اليهما .

فقالت فريدا وقد أوشكت أن تغضب :

ـ أنا بكل تأكيد . وهذا هو ما أقوله وما لا أكف عن قوله . وماذا فى ملاحقة المساعدين لى بلا انقطاع ولو كانا رسولى كلم ... وقال ك الذى فاجأته هذه التسمية على الرغم من انها بدت له طبيعية :

ـ رسولى كلم !!

فقالت فريدا :

ـ بكل تأكيد ، انهما رسولا كلم .وعلى الرغم من ذلك فهما فى الوقت نفسه شابان بذيئان يحتاجان فى تربيتهما الى الضرب بالخيزرانة ما أقبحهما شابان أسودان ! . وما أبشع التناقض بين وجهيهما اللذين يوحيان بأنهمامن الكبار أو من الطلبة ، وبين مسلكها الصبيانى الغرير ! أتظن أننى لا أرى هذا ؟ اننى أخجل لهما ، انهما لا ينفرانى ، انما أنا التى أخجل لهما ، وهذا هو لب الموضوع . اننى مسوقة الى النظر اليهما دائما . وأنا أضحك من أن البعض يميل الى الغضب منهما . واذا ما ضربهما أحد ، مسحت على شعريهما . وعندما أرقد بجانبك فى الليل لا أستطيع النوم ، وأرانى مدفوعة الى النظر من فوقك اليهما ، وكيف يلتف أحدهما بالغطاء التفافا محكما ويستغرق فى النوم ، بينما الآخر يركع أمام فتحة المدفأة ويشعل النار ، وانى لأنحنى الى أمام حتى لأكاد أوقظك ! وليست القطة هى التى أفزعتنى ـ آه ، اننى أعرف القطط وأعرف من عملى فى قاعة الحان النوم المضطرب الذى لا يكف المرء عن

الصحو منه منزعجا – ليست القطة هي التي أفزعتني ، بل أنا التي أفزعت نفسي . وما أنا بحاجة الى ضجة قطة تفزعني ، فانني أنتفض وحدي عندما أسمع أقل صوت . ولقد خشيت مرة أن تصحو أنت ، وأن ينتهي كل شيء ، وذهبت مرة أخرى الى الشمعة قفزا فأوقدتها حتى تصحو بسرعة وتحميني .

وقال ك :

– لم أعرف هذا كله . ولكنني طردتهما لاحساسي بشيء من هذا القبيل احساسا غامضا . ولقد انصرفا الآن ، وربما أصبحت الأمور على ما ينبغي .

وقالت فريدا :

– نعم ، لقد انصرفا أخيرا

ولكن وجهها كان معذبا ولم يكن ينم عن فرح ، وأردفت :

– ولكننا لا نعرف من هما . لقد سميتهما رسولي كلم ، هكذا في فكري ، على سبيل العبث ، ولعلهما في الواقع كذلك . ان عينيهما تذكراني على نحو ما بعيني كلم ، نعم ، هكذا ! بل ان نظرة كلم لتنطلق أحيانا من عينيهما وتنفذ خلالي . ولهذا فليس من الصواب ما قلته من أنني أخجل لهما . كنت أعني أنني أتمنى لو كنت أخجل لهما . وأنا أعرف ان هذا السلوك نفسه ، اذا أتى به أناس آخرون سلوك غبي وفاضح ولكنه ليس كذلك عندما يأتيان هما به . انني أتطلع الى حماقاتهما بالتقدير والاعجاب . واذا كانا رسولي كلم ، فمن الذي يخلصنا منهما ؟ وهل من الخير أن نتخلص منهما ؟ أما ينبغي عليك أن تستعيدهما بسرعة وأن تسعد لو قبلا العودة ؟

وسأل ك :

– أتريدين أن أعيدهما ؟

فقالت فريدا :

– لا ، لا . هذا هو آخر ما يمكن أن أريده . ولعلي لا أستطيع أن أحتمل منظرهما عندما يندفعان داخلين ، وفرحهما بلقائي ، ونطهما نطيط الصبية ، وبسطهما يديهما بسط الرجال . ولكنني عندما أفكر انك عندما تقف منهما موقف الشدة ، قد تسد بنفسك سبيلك الى كلم ، أريد أن أحميك من ذلك بكل الوسائل . وأريد في هذه الحالة أن تدعهما

يدخلان . اذن فأدخلهما بسرعة يا ك . لا تعمل حساباً لى ، فما أهميتى ؟ وسوف أدافع عن نفسى طالما استطعت . فاذا خسرت ، فإنما أخسر وأنا أعي أن ذلك حدث من أجلك .

فقال ك :

ـ انك تقوين حكمى حيال المساعدين . لن يعودا أبدا بارادتى الى هنا . أما اننى أخرجتهما فأمر يؤكد أن الانسان يستطيع فى بعض الأحوال أن يتحكم فيهما ، ويؤكد علاوة على ذلك انهما لا يتصلان اتصالا جوهريا بكلم . ولقد تلقيت بالأمس خطابا من كلم يتضح منه أن كلم حصل على معلومات خاطئة تماما عن المساعدين ، ويتضح منه كذلك انه لا يهتم بهما فى قليل أو كثير ، فلو لم يكن أمرهما كذلك ، لحصل على معلومات أكثر دقة عنهما . وأما انك ترين فيهما كلم ، فهذا ما لا يثبت شيئا ، لأنك لا تزالين للأسف تحت تأثير صاحبة الحان فأنت ترين كلم فى كل مكان . انك لا تزالين عشيقة كلم ، وما زلت بعيدة عن أن تكونى زوجتى . وان هذا ليحزننى فى بعض الأحيان حزنا شديدا ، وأحس بأننى كمن فقد كل شيء ، وأحس كأنى أتيت لتوى الى القرية لا ممتلئا بالآمال ، كما كنت بالفعل عندما أتيت ، بل شاعرا بأن خيبة الأمل هى مايننتظرنى ، وأننى سأذوق الخيبة تلو الخيبة حتى أتجرع ثمالة كأس الخيبة .

ثم أضاف ك مبتسما عندما رأى أن فريدا حارت عندما سمعت كلماته :

ـ ولكن هذا لا يحدث الا فى بعض الأحيان فقط ، وهو يثبت فى الحقيقة شيئا طيبا ، وهو قيمتك بالنسبة الى . واذا كنت أنت تطالبيننى بأن أختار بينك وبين المساعدين ، فلقد خسر المساعدان . يا لها من فكرة ! أن اختار بينك وبين المساعدين ؟! اننى أريد أن اتخلص منهما نهائيا ، حتى فى الكلام والفكر . ومن يعلم ، فلعل الضعف الذى تملكنا كلينا يرجع الى أننا لم نتناول طعام الافطار بعد ؟

فقالت فريدا وهى تبتسم فى ضعف :

ـ ربما .

وذهبت الى العمل . وكذلك أمسك ك المقشة .

ودق بعضهم الباب بعد هنيهة دقا خفيفا . فصاح ك :

ـ انه برناباس .

وألقى المقشة وقفز قفزات قليلة بلغ بها الباب . ونظرت اليه

فريدا وقد فزعت لسماع الاسم أكثر من أى شيء آخر • ولم يستطع ك أن يفتح القفل القديم بيديه المضطربتين حالا • وكان يكرر بلا انقطاع:

ـ اننى أفتح •

كان يفعل هذا بدلا من أن يسأل الذى يدق الباب عن نفسه • وهكذا انتهى به الأمر الى رؤية شخص آخر غير برناباس يدخل من الباب المفتوح على سبعته ، كان هذا الشخص هو الصبى الذى أراد من قبل أن يكلم ك • ولم يشعر ك برغبة فى تذكره • وقال :

ـ ماذا تريد هنا ؟ ان الحصة فى الفصل الآخر •

وقال الصبى :

ـ اننى قادم من هناك

ورفع عينيه الواسعتين البنيتين هادئا الى ك ، ثم وقف معتدلا لا صقا ذراعيه على جانبيه • وقال ك :

ـ ماذا تريد اذن ؟ بسرعة

ومال ك قليلا عليه لأنه كان يتكلم بصوت منخفض • وسأل الصبى:

ـ هل أستطيع مساعدتك ؟

وقال ك لفريدا :

ـ انه يريد أن يساعدنا •

ثم قال للصبى :

ـ ما اسمك ؟

فقال الصبى :

ـ هانس برونسفيك • تلميذ فى الصف الرابع • ابن أوتو برونسفيك ، المعلم صانع الأحذية فى حارة مادلين •

وقال ك وقد ازداد حبا له ورقة :

ـ هكذا ، اسمك برونسفيك •

وتبين أن هانس قد ثار للخدش الدامى الذى خمشته المعلمة فى يد ك وعزم على أن يسانده • وخرج متسللا من الفصل المجاور من تلقاء نفسه كالهارب من الجندية معرضا نفسه لعقاب شديد • ويبدو أن التصورات التى ملكت عليه نفسه كانت تصورات صبيانية • وكانت تطابق الجد الذى كان يظهر فى كل ما كان يعمل • ولقد تعثر فى بداية

الأمر على حجرة الخجل ، ولكنه ما لبث أن ألف ك وفريدا ، فلما تلقى قهوة طيبة ساخنة وشربها ، بدا عليه النشاط والألفة ، ثم أصبحت أسئلته تتسم بالهمة والالحاح وكأنه كان يريد أن يعرف بأسرع ما يمكن أهم ما فى الأمر حتى يستطيع أن يتخذ على نحو مستقل قرارات ل ك وفريدا • وكان الصبى يتسم بطابع الأمر والنهى ، ولكن هذا الطابع كان يختلط ببراءة صبيانية ، تجعل الانسان يخضع له راضيا خضوعا نصفه صراحة ونصفه مزاح•والمهم انه استحوز على الانتباه كله ، فتوقف العمل، وطال الافطار • وعلى الرغم من انه كان يجلس على قمطر ، وكان ك يجلس على المنصة ، وكانت فريدا تجلس فى كرسى وثير بجواره ، فقد لاح الأمر كأن هانس المعلم الذى يفحص الاجابات ويقدر الدرجات • وكانت هناك ابتسامة رقيقة حول فمه الناعم لاح عليها أنها تلمح الى انه يعرف أن الأمر كله لعبة ، ولكنه كان فيما عدا هذا شديد الجد فى الموضوع ، ولعلها لم تكن ابتسامة ، وكانت هى سعادة الصبا تحيط بلعبها شفتيه • وذكر الصبى متأخرا تاخرا واضحا انه يعرف ك منذ دخل ذات مرة عند لازيمان • وسعد ك بذلك وسأله :

ــ لقد كنت آنذاك تلعب عند قدمى المرأة ؟

فقال هانس :

ــ نعم ، انها أمى •

وحثه ك على الحديث عن أمه ، فلم يفعل الا مترددا ، وبعد الحاح ، واتضح انه كان صبيا صغيرا يلوح أحيانا ، وبخاصة عندما يسأل ــ ربما عن احساس يتنبأ بالمستقبل ، وربما عن انخداع يعترى حواس المستمع القلق المتوتر ــ كأنه رجل نشيط ، أريب ، بعيد النظر ، ثم ما يلبث أن يتحول فجأة وبلا تمهيد الى تلميذ صغير لا يفهم بعض الأسئلة ويخطىء فهم بعضها الآخر ، ويتكلم عن استهتار صبيانى بصوت منخفض جدا ، على الرغم من أن ك نبهه الى هذا العيب أكثر من مرة ، ويصعب ، على سبيل العناد عن الاجابة على أسئلة ملحة صمتا كاملا ، دون أن يضطرب وهو ما لايستطيع الكبار فعله بحال من الأحوال • وكان الأمر يلوح كأنما كان يرى أن السؤال من حقه هو وحده ، وأن أسئلة الأخرين تكسر لائحة ما وتضيع الوقت • وكان يستطيع عندما يسأله سائل أن يجلس مدة طويلة معتدل الجسم ، منحنى الرأس ، مادا شفته السفلية • وكانت فريدا مسرورة من مسلكه هذا لدرجة أنها كانت تسأله المرة بعد المرة أسئلة لا ترجو من ورائها الا أن تجعله يسمت على هذا النحو • ولقد وفقت الى ذلك أحيانا • ولكن ك كان مغتاظا من هذا الصمت • ولم يخرج ك من كلام

الصبى الا بالقليل • عرف أن الأم كانت مريضة مرضا هينا ، ولكنه لم يعرف بالتحديد مرضها ، وأن الطفل الذى كانت السيدة برونسفيك تحمله على حجرها ، كان أخت هانس واسمها فريدا (ولم يتقبل هانس تشابه الاسم مع اسم المرأة التى تسأله الا عابسا) ، وانهم يسكنون فى القرية جميعا ، ولكن ليس عند لازيمان ، ولقد كانوا فى ذلك اليوم يزورونه ليستحموا لديه لأن لازيمان لديه حوض كبير يتمتع به الأولاد ـ ولم يكن هانس منهم ـ بالاستحمام والعبث فيه متعة خاصة • وتحدث هانس عن أبيه حديث الاحترام أو الخوف ، ولكنه لم يكن يتحدث عنه وعن أمه فى وقت واحد ، ويبدو أن الأب كان قليل القيمة بالقياس الى الأم ، وظلت الأسئلة التى كانت تدور حول الحيـــاة العائلية ـ على الرغم من الالحاح والمعاودة ـ بلا اجابة • وعلم ك من أمر صناعة الأب أنه أكبر صانع أحذية فى المنطقة ، وأنه ليس هناك من يضارعه ، ولقد كرر هذا المعنى ردا على أسئلة كانت تستهدف أمورا مختلفة تماما ، وانه يكلف الصناع الآخرين، والد برناباس مثلا ، بالأعمال وهو عندما يكلف والد برناباس بالذات بعمل يتعطف عليه ويتكرم ، وهـذا ما ظهر على الأقل من حركة اعتزاز اصطنعها هانس برأسه ، ودفعت فريدا الى القفز اليه ومنحه قبلة • أما السؤال عما اذا كان قد دخل القصر ، فقد أجاب عليه بعد تكراره مرات كثيرة قائلا :

ـ لا •

وكذلك كانت الاجابة عنـــدما ســئل عما اذا كانت أمه قد دخلت القصر • وأخيرا تعب ك ولاح له هو كذلك أن السؤال لا يفيـد بشىء ، وأحق الصبى فى هذا ، هذا الى أن ك وجد أنه من المخجل بعض الشىء أن يحاول البحث فى أسرار العـــائلة سالكا طريقا ملتوية ومستغلا براءة الصبى ، وكان من المخجل أشد الخجل انه لم يصل عن هذه الطريق الى معرفة شىء • فلما سأل ك الصبى فى النهاية عن نوع المساعدة التى يريد هذا أن يقدمها اليه ، لم يدهش عندما سمعه يقول انه يريد أن يساعده فى انجاز العمل هنا حتى لا يتشاجر المعلم والمعلمة مع ك مرة أخرى • وأوضح ك لهانس ان هذه المساعدة لا فائدة منها لأن المشاجرة من طبع المعلم ولن يستطيع احد أن يتقيها مهما كان دقيقا فى عمله ، والعمل فى حد ذاته ليس صعبا، ولكنه تأخر فيه نتيجة لظروف طرأت اليوم مصادفة، وك لا يتصرف حيال تشاجر المعلم كما يتصرف التلاميذ نحوه ، انه يرده عنه ردا ، ولا يهتم له ، وهو يأمل أن يتمكن من تجنب المعلم تمام التجنب

قريبا جدا • ولما كانت المساعدة التى يعرضها هانس مساعدة ضد المعلم فحسب ، فان ك يشكره عليها أحسن الشكر ، ولهانس أن ينصرف ويرجو ك ألا ينال هانس عقابا • وعلى الرغم من أن ك لم يؤكد أن المساعدة الموجهة ضد المعلم هى المساعدة الوحيدة التى لا يريدها ، بل نوه الى ذلك تنويها عن غير عمد ، تاركا الباب مفتوحا أمام مساعدة من نوع آخر ، فقد فهم هانس ذلك أوضح الفهم ، وسأله عما اذا كان يرجو مساعدة أخرى ، مؤكدا أنه يقدم المساعدة عن طيب خاطر ، وانه ان لم يستطع اليها سبيلا ، فسيرجو من أمه تقديمها ، ولا شك انها ستوفق الى ذلك • وذكر هانس أن أباه عندما يتعرض لمحنة يرجو مساعدة الأم • وأضاف ان أمه سألت مرة عن ك ، وأنها لا تخرج من البيت ، ولقد ذهبت آنذاك الى لازيمان استثناء • أما هانس فهو يذهب الى هناك كثيرا ليلعب مع أولاد لازيمان ، ولقد سألته أمه هل رأى موظف المساحة هناك مرة أخرى • ولما لم يكن من الخير اثارة الأم بغير جدوى ، فهى تعانى من الضعف والتعب ، فقد قال لها انه لم ير موظف المساحة هناك ، ولم يدر حول هذا الموضوع حديث بعد ذلك • وقال هانس انه عندما رآه هنا فى المدرسة ، وجد انه ينبغى عليه أن يتحدث اليه حتى يبلغ أمه الخبر ، فليس هناك شىء أحب الى الأم من أن تنفذ رغباتها دون أن تصدر بها أمرا صريحا • وهنا قال ك ، بعد قليل من التفكير ، انه لا يحتاج الى أية مساعدة ، وانه قد حصل على كل ما يريد ، وقال انه جميل جدا من هانس أن يفكر فى مساعدته ، وانه يشكره على حسن نيته ، وانه قد يحتاج فى المستقبل الى شىء ، وفى هذه الحالة سيلجأ اليه ، فالعنوان موجود لديه • وقال ك انه هو ، قد يستطيع أن يقدم شيئا من المساعدة ، فهو يأسف لتوعك الأم ، ويبدو انه ليس هنا من يفهم العلة التى تعانى منها ، وقد يؤدى اهمال الحالة الى أن تجر العلة الطفيفة نكسة خطيرة • ولقد الم ك ببعض المعرفة الطبية ، وجمع خبرة فى معالجة المرضى ، وهذا أعظم قيمة • ولقد نجح فى أمور لم يوفق فيها الأطباء • ولقد أطلق عليه الناس فى موطنه اسم «العشب المر» تقديرا لقدرته على العلاج • وهو يود على أية حال أن يرى أم هانس وأن يتحدث اليها • فقد يستطيع أن يقدم اليها مشورة نافعة ، وانه ليفعل ذلك عن طيب خاطر من أجل هانس • ولمعت عينا هانس عندما سمع هذا العرض ، ووجد ك فى ذلك ما أغراه على الالحاح ، ولكن النتيجة لم تكن على هواه ، لأن هانس قال ــ مجيبا على أسئلة كثيرة ، ودون أن يبدو عليه حزن شديد ــ انه غير مسموح بدخول زائر غريب على أمه ، فهو فى حاجة الى الرعاية الشديدة • وعلى الرغم من أن ك ، فى تلك المرة ، لم يكد

يتحدث اليها ، فقد اضطرت الى ملازمة الفراش بعد ذلك عدة أيام ، وهو شيء يتكرر كثيرا بطبيعة الحال . ولقد غضب الوالد آنذاك من ك أشـد الغضب ، وليس هناك شك فى أنه لن يسمح أبدا بأن يأتى ك الى الأم . ولقد أراد آنذاك أن يذهب الى ك ليعاقبه على مسلكه ، وكانت الأم هى التى ردته عن ذلك . وهذا الى أن الأم ذاتها لا تريد أن تتكلم مع أحـد بصفة عامة ، وليس سؤالها عن ك استثناء من القاعدة ، بل على العكس ، فقد كان يمكنها عند الاشارة الى ك ، أن تعبر عن رغبتها فى رؤيته ، ولكنها لم تفعل ، وكانت بذلك تعبر عن عزمها تعبيرا لا مراء فيه . هذا الى أن ما تعانى منه ليس مرضا بمعنى الكلمة ، فهى تعرف سبب الحالة ، وتشير اليه من حين لآخر : ويبدو أن السبب هو الجو هنا ، انهـا لا تستطيع احتماله . ولكنها لا تريد مغادرة المكان من أجل الوالد والأولاد ، لقـد تحسنت حالتها الآن عن ذى قبل . كان هذا هو ما توصل ك اليه ، ان قدرة هانس على التفكير قد ازدادت زيادة واضحة اذ أراد أن يحمى أمه من ك الذي ادعى انه كان يريد مساعدته . لقد اضطر استمساكا منه بالهدف الطيب ، هدف رد ك عن أمه ، الى أن يناقض بعض ما كان قد قاله من قبل ، على سبيل المثال موضوع مرض الأم . ومع ذلك فقد تبين ك أن هانس ما زال حسن النية حياله ، وان كل ما حدث هو أن موضوع أمه أنساه كل الموضوعات الأخرى . ولقد كان هانس يظلم كل من يأتى ذكره مع الأم ، فظلم ك ، ولكنه كان سيفعل الشيء نفسه لو كان المذكور هو الأب . وأراد ك أن يجرب ذكر الأب فقال ان الوالد مصيب كل الاصابة فى حمايته الأم من كل ازعاج ، وقال انه ، ك ، لو توقع شيئا من هـذا القبيل لما تجرأ على التوجه الى الأم ، وانه يرجو هانس أن يحمل اعتذاره الى البيت . ثم قال انه لا يفهم ، وقد عرف سبب علة الأم على حد قول هانس ، كيف يمنع الأب الأم من أن تستجم فى جو آخر . وقال انه لابد أن يستعمل كلمة يمنع ، لأن الأم لا تذهب لتغيير الجو ، بسببه وبسبب الأولاد ، وفى مقدورها أن تصطحب الأولاد معها ، فلن تغيب طويلا ، ولن يكون بها حاجة الى الابتعاد الشديد فالجو على الجبل الذى يقوم عليه القصر مختلف كل الاختلاف . وماينبغى أن يخشى الأب نفقات مثل هذه الرحلة ، فهو أكبر صانع أحذية فى المنطقة ، ولا شك أن له أو للأم أقارب أو معارف فى القصر يرحبون باستضافتها . فلماذا لا يتركها تذهب ؟ لا ينبغى له أن يهون من أمر مثل هذه العلة . حقيقة أن ك لم ير الأم الا عابرا ولكن شحوبها الظاهر وضعفها الملفت للنظر دفعاه الى التوجه اليها بالحديث ، ولقد اندهش فى ذلك الوقت لأن الأب ترك المرأة المريضة فى الجو الرديء

بحجرة الاستحمام والغسيل ولم يأخذ نفسه بشيء من التحفظ فى الحديث بصوت مرتفع • ولعل الأب لا يعرف الأمر على حقيقته ، ولعل العلة تكون قد تحسنت فى الفترة الأخيرة ، ومثل هذه العلة لها نزواتها ، ولكنها تنتهى فى النهاية ، اذا لم يكافحها الانسان ، الى الظهور على نحو عنيف ولا يستطيع الانسان فى هذه الحالة معالجتها • واذا لم يكن ك يستطيع أن يتكلم مع الأم ، فربما كان من الخير أن يتحدث الى الأب وأن ينبهه الى هذا كله •

واستمع هانس الى ك مرهفا سمعه ، وفهم أغلب ما قاله ، وأحس بتهديد البقية التى لم يفهمها ، ومع ذلك فقد قال ان ك لا يستطيع أن يتكلم مع الأب ، لأن الأب يحس حياله بالنفور ، والأرجح أنه لو قابله فسوف يعامله معاملة المعلم له • قال هانس هذا الكلام مبتسما خجولا فى المواضع التى أشار فيها الى ك ، حزينا مقبوضا فى المواضع التى أشار فيها الى أبيه • ثم أضاف أن ك ربما استطاع أن يتحدث الى الأم ، ولكن بدون علم الأب ، ثم استغرق هانس برهة فى التفكير ، على النحو الذى تستغرقه عليه فى التفكير امرأة تريد أن تفعل شيئا محرما ، وتبحث عن امكانية لفعله دون أن تتعرض للعقاب ، وقال ربما تمكن ك من ذلك بعد غد ، لأن الأب يذهب فى ذلك الوقت الى حان السادة لمناقشة بعض الأمور ، وسيأتى هانس فى المساء ، ويأخذ ك الى الأم ، على شرط أن توافق الأم ، وهذا شيء بعيد عن الاحتمال بعدا شديدا • وهى لا تحب أن تفعل شيئا ضد مشيئة الأب ، وهى تطيعه فى كل الأمور ، حتى الأمور التي يتبين هو ، هانس ، أنها منافية للعقل • لقد كان هانس فى الواقع يلتمس لدى ك عونا على أبيه ، وكأنما ضل ، عندما اعتقد انه يريد أن يعين ك ، وكان فى الحقيقة يريد أن يسبر أغواره ليتبين ـ بعد أن علم انه ليس هناك من بين المحيطين به من يستطيع مساعدته ـ ما اذا كان هذا الرجل الذى ظهر فى المكان فجأة ، هذا الغريب الذى أشارت الأم اليه ، يستطيع أن يساعده • ما أعجب صموت ولؤم وخبث هذا الصبى عن غير ارادة ! لم يكد يكون من الممكن حتى هذه اللحظة أن يستنتج الانسان هذا من خلقه • وما استطاع ك أن يتبين هذا الا مؤخرا من خلال الاعترافات التى استخرجها منه مصادفة وعمدا • وأخذ هانس يفكر طويلا مع ك فى الصعوبات وكيف يكون تجنبها • ولقد كانت تلك الصعوبات من المحال التغلب عليها ، مهما أبدى هانس من نية طيبة • وكان هانس لا يكف عن النظر الى ك ، غارقا فى التفكير باحثا عن العون وكانت عيناه ترمش فى قلق • كان هانس يرى انه لا ينبغى أن يذكر لأمه شيئا قبل أن ينصرف

الأب ، أى انه لن يذكر لها شيئا الا فى وقت متأخر ، ثم انه لن يذكر لها الأمر فجأة وبسرعة ، مراعاة لحالتها ، بل ببطء وعندما تسنح الفرصة المناسبة ، ثم يلتمس موافقتها ، فان وافقت أتى ليحضر ك · ولكن ألن يتأخر الوقت ؟ ألن يقترب موعد عودة الأب ؟ لا ، لقد كان الأمر محالا · وأثبت ك لهانس أن الأمر ليس محالا · وما ينبغى أن يخشوا ألا يكفى الوقت ففى الحديث القصير ، والمقابلة القصيرة الكفاية · ولن يكون على هانس أن يأتى لاصطحاب ك ، فسينتظر ك فى مكان ما غير بعيد ويتوارى فيه حتى يشير اليه هانس اشارة فيأتى من فوره · فقال هانس ، لا ، ليس ل ك أن يختبىء عند البيت ـ لقد تملكته من جديد الحساسية حيال أمه ـ وليس له أن يقطع الطريق الى البيت دون علم الأم ، وما ينبغى لهانس أن يتفق مع ك على شىء يظل سرا خفيا على الأم · انما هو سيأتى ليصطحبه من المدرسة ، ولن يحدث هذا قبل أن تعرف الأم وتوافق · وقال ك ، حسنا ، ولكن الأمر سيكون خطيرا ، بالفعل ، وسيكون من الممكن أن يفاجئه الأب فى البيت ، وحتى اذا لم يحدث هذا ، فان الأم لن توافق على استحضار ك خوفا من هذا ، وبهذا سيفشل كل شىء بسبب الأب · وعارض هانس فى هذا ، واستمر الحوار على هذا النحو ·

وكان ك منذ مدة طويلة قد استدعى هانس من المقعد الى المنصة · وشده اليه وأخذ يداعبه من حين لآخر مطيبا خاطره · وساعد القرب ، على الرغم من معارضة هانس أحيانا ، الى الوصول الى اتفاق ، واتفق الاثنان أخيرا على ما يلى : سيقول هانس لأمه الحقيقة كاملة ، ويضيف ، بقصد تسهيله الحصول على موافقتها ، أن ك يريد أن يتحدث مع برونسفيك ذاته ، فى أمر آخر غير أمر الأم ، فى أمر من أموره هو · ولقد كان هذا صحيحا كذلك ، ذلك أن ك كان قد فكر أثناء الحديث فى أن برونسفيك ـ وان كان رجلا خطيرا شريرا ـ لا يمكن أن يكون عدوا له ، فهو ، على ما ذكر رئيس مجلس القرية ، الذى تزعم ـ لأسباب سياسية طبعا ـ أولئك الذين طالبوا باستدعاء موظف مساحة · ومعنى هذا أن قدوم ك الى القرية شىء مستحب ، ومعناه أيضا أن التحية السخيفة التى قابل بها ك فى أول يوم ، والنفور الذى تحدث هانس عنه ، شيئان لا يكاد يمكن فهمهما · وربما كان السبب فى غضب برونسفيك هو أن ك لم يتجه اليه أولا طالبا المساعدة ، وربما كان هناك سوء فهم آخر يمكن تصحيحه ببضعة كلمات · واذا ما تحقق هذا ، فسيكون فى استطاعة ك أن يجد فى برونسفيك عونا على المعلم ، وربما عونا على رئيس مجلس القرية ، لكشف

هذا الخداع الروتينى ـ أما كان فى الحقيقة كذلك ؟ ـ الذى كان رئيس مجلس القرية والمعلم يتوسلان به لرده عن دواوين القصر واجباره على العمل خادما للمدرسة · واذا كان صراع قد جرى أخيرا بين رئيس مجلس القرية وبرونسفيك حول ك ، فسيكون على برونسفيك أن يضم ك الى جانبه ، وسينزل ك ضيفا على برونسفيك فى بيته · وسيجد مقومات سلطة برونسفيك تحت تصرفه كيدا لرئيس مجلس القرية · ومن يعلم الى أى حـد سيصل فى أموره ، ولسوف يقترب على أية حال من المرأة كثيرا · هكذا لعب بالأحلام ولعبت الأحلام به ، بينما كان هانس غارقا فى التفكير فى أمه ، يتأمل صمت ك باهتمام وقلق ، كما يتأمل الانسان صمت الطبيب الذى يستغرق فى التفكير ليصل الى علاج لحالة صعبة · ووافق هانس على اقتراح ك أن يتحدث الى برونسفيك فى أمر مساحة الأرض ، ولم يوافق هانس عليه الا أنه سيحمى الأم من الأب ، ولأنه يختص بحالة الضرورة القصوى التى كان يرجو لها ألا تطرأ · وسأل هانس ك كيف سيبرر للأب حضوره فى ساعة متأخرة ، ورضى فى النهاية ـ وان اكتأب وجهه ـ بأن يبرره ك بقيامه بعمل لا قبل له على احتماله فى خدمة المدرسة، وبمعاناته لمعاملة من النوع نفســه من قبل المعلم ، مما أدى به الى يأس مفاجىء أنساه اقامة اعتبار لأى شىء ·

ولما تم تدبير كل شىء على هذا النحو على قدر ما بدا لهما ، وتبينا أن امكانية النجاح لم تعد على الأقل من قبيل المحال ، تخلص هانس من عبء التفكير ، وأبدى مزيدا من البشاشة ، وأخذ يثرثر هنيهة على طريقة الأطفال ، مع ك فى بداية الأمر ، ثم بعد ذلك مع فريدا التى جلست طويلا هنــاك وبدت كأنها انشغلت بأفكار أخرى ، ثم عادت الآن لتشارك فى الحديث · وسألت فريدا هانس فيما سألته عما يريد أن يصير ، فلم يفكر كثيرا وقال انه يريد أن يصير رجلا مثل ك · فلما سألته عن الأسباب ، لم يســتطع بطبيعة الحال أن يجيب ، وعندما سألته عما اذا كان يريد أن يصير خادم مدرســة ، نفى نفيــا قاطعا · فلما استمرت فى الاســتفهام والتقصى ، تبين الطريق المعوج الذى سلكه للوصول الى أمنيته · فلم يكن الوضع الحالى ل ك أهلا للتمنى ، بل كان وضعا حزينا ومقيتا ، ولقد رأى هانس هذا تماما ، ولم يكن بحاجة الى ملاحظة الآخرين ليتبينه · ولقد قال انه يريد أن يحمى الأم من كل نظرة ينظرها ك ومن كل كلمة يقولها · ولكنه مع ذلك أتى الى ك والتمس مساعدته وسعد بموافقته ، ولقد اعتقد انه يستطيع أن يتبين شيئا مشابها لدى الآخرين ، وكان هو الذى ذكر أمه ل ك · ولقد تولد لديه من هذا التناقض الاعتقاد بأن ك الآن وضــيع

منفر ، ولكنه سيتفوق على الآخرين جميعاً فى مستقبل بعيد بعـدا يكاد يستحيل تصوره • ولقد كان هذا البعد السخيف ، والتطور الممتاز الذى ينتظر أن يؤدى اليه يجتـذبان هانس ، وكان مسـتعدا أن يقبل ك فى وضـعه الحالى من أجلهما • وكان فى أمنيـة هانس شيء صبيانى خاص يصنع ذكاء الكبار ويتمثل فى أن هانس كان ينظر الى ك نظرة الصغير الى الكبير الذى يمتد مستقبله امتدادا أوسع من مستقبله هو وهو الصبى الغرير • ولقد كان هانس يتحدث عن هذه الأشياء بجد يوشك أن يكون كئيبا عندما اضطرته فريدا الى الحديث عنها اضطرارا بأسئلتها المتكررة • حتى أشاع ك البشاشة فى نفسه عندما قال له أنه يعرف السبب الذى يحسده من أجله هانس ، انه العصـا الجميلة ذات العقد الموضـوعة على المنضدة والتى كان ك يعبث بها لاهيا أثناء الحديث • وقال ك انه يجيد صناعة هذه العصى ، وانه سيصنع لهانس عصا أكثر جمالا اذا نجحت خطتهما • ولم يتبين بوضوح تام هل كان هانس يعنى العصـا دون ما سواها فعلا ، ولقد فرح بوعد ك واستأذن باشا فى الانصراف ، ولم ينس أن يضغط يد ك بحرارة قائلا :

ـ الى بعد غد اذن •

ولقد طال بقاء هانس طولا ما كان ينبغى أن يتجاوزه ، ذلك ان المعلم فتح الباب عنوة بعد قليل وصرخ عندما رأى ك وفريدا يجلسان هادئين الى المائدة :

ـ معذرة على الازعاج ! ولكن قولا لى متى تقومان بأعمال النظـافة والترتيب ؟ اننا نجلس فى الفصل الآخر متزاحمين ، والدرس يعانى من الازدحام ، أما أنتما فتتمددان هنا على راحتكما فى حجرة الرياضة البدنية الكبيرة ، ولقد أبعدتما المساعدين حتى يكون نصيبكما من المكان أكبر • فانهضا الآن وتحركا •

ثم قال موجها الكلام الى ك وحده :

ـ أما أنت فاذهب واحضر لى طعام الافطار الآن من حان الجسر •

قال المعلم كل هذا الكلام صارخا صراخا عنيفا ، ولكن الكلمات كانت رقيقة نسبيا حتى عبارة « أما أنت » وهى عبارة خشنة فى حـد ذاتها • وكان ك مستعدا للطاعة على الفور • ولكنه أراد أن يسبر أغوار المعـلم فقال :

ـ ولكنني مفصول ·

فقال المعلم :

ـ مفصول أو غير مفصول ، عليك أن تحضر لى طعام الافطار ·

فقال ك :

ـ ولكنني أريد أن أعرف هل أنا مفصول أو غير مفصول ·

فقال المعلم :

ـ ما هذا الهراء ؟ انك لم تقبل الفصل ·

فسأل ك :

ـ أيكفى هذا لابطال مفعول الفصل ؟

فقال المعلم :

ـ يكفينى أنا ، وعليك أن تصدقنى فى ذلك ، ولـكنه يكفى رئيس مجلس القرية ، وهذا ما لا أستطيع فهمه · أسرع الآن ، والا طردتك بالفعل من هنا ·

وارتاح ك نفسا ، لقد تحدث المعلم فى هذه الأثناء اذن الى رئيس مجلس القرية ، أو لعله لم يتحدث اليه بل تنبـــأ برأى رئيس مجلس القرية ، وكان هذا الرأى فى صالح ك · وأسرع ك ليحضر الافطار ، وما كاد يخطو بضع خطوات فى الممر حتى نادى عليه المعلم أن يعود · ولعل المعلم أراد أن يختبر استعداد ك للخـدمة فأصدر اليه هـذا الأمر الخاص ، لينظم تصرفاته فى المستقبل طبقـا لرد فعل ك ، أو لعله أحس برغبـة جديدة فى الأمر والنهى ووجـد متعة فى جعل ك يذهب مسرعا ثم فى جعله يدور عائدا بسرعة أيضا كخدم الحانات · وكان ك يعلم انه عندما يسرف فى التهاون سيتحول الى عبد للمعلم والى لعبة فى يديه ، ولكنه كان مصمما على قبول نزوات المعلم الى الآن الى حـد ما صابرا ، ذلك أن المعلم الذى لم يستطع ، كما تبين ، أن يفصله فصلا قانونيا ، يستطيع أن يحيل الوظيفة بالنسبة الى عذاب لا يطاق · ولقد أصبح ك يهتم بهذه الوظيفة أكثر من ذى قبل · فقد أعطاه الحديث مع هانس آمالا جديدة ·· صحيح انها آمال واهية ، وأنها تفتقر تماما الى كل أساس ، ولكنها آمال لم يعد من الممكن تسيانها · انهـــا الآمال التى عقدها على برناباس · واذا كان يريد السير وراءها ، فليس أمامه من سبيل الا تجميع قواه من أجلها ، وعدم الاهتمام بشىء سواها ، يستوى فى ذلك الطعـام والمسكن ودواوين القرية بل وفريدا ذاتها · والحقيقة أن فريدا كانت هى

اهتمامه الوحيد ، فلم تكن الأمور الأخرى تهمه الا بالقياس اليها • ولهذا كان عليه أن يسعى للاحتفاظ بهذه الوظيفة التى كانت تمنح فريدا بعض الأمن ، ولم يكن ينبغى له ـ من أجل هذا الهدف ـ أن يندم على الرضوخ لتصرفات من المعلم أكثر مماكان ليقبل لو لم يكن يرمىالى هذا الهدف•ولم يكن هذا كله يؤلمه ألما شديدا ، بل كان يدخل فى نطاق تلك الطائفة من الآلام التى يتعرض لها الانسان فى الحياة دائما ، ولم يكن شيئا مذكورا بالقياس الى ما كان ك يسعى اليه ، وهو لم يأت الى هنا الا ليعيش حياة الكرامة والسلام •

ولهذا فقد كان مستعدا لاطاعة الأمر الجديد ـ كما كان مستعدا للاسراع الى الحان ـ والاهتمام على الفور بتنظيم الحجرة وترتيبها لتنتقل اليها المعلمة • وكان عليه أن يسرع حتى يذهب بعد ذلك لاحضار الافطار، ولقد كان المعلم شديد الجوع والعطش • ووعده ك بأن يتم كل شىء على ما يرام • ونظر المعلم لحظة الى ك وهو يسرع فى العمل فينحى فراش النوم جانبا ، ويرتب أجهزة الرياضة البدنية ، ويكنس الفصل بسرعة كبيرة ، بينما عكفت فريدا على مسح المنصة وتلميعها • ويبدو أن المعلم رضى على هذه الهمة ، ونبه ك الى كومة من خشب التدفئة كانت أمام الباب ـ فلم يعد يريد أن يسمح لـ ك بدخول المخزن ـ ثم ذهب الى التلاميذ بعد أن هدد ك بأنه سيعود مرة أخرى ليرى ما تم •

وسألت فريدا ك ، بعد برهة من العمل الصامت ، لماذا يطيع المعلم الآن هذه الطاعة الشديدة • كان سؤالها سؤالا مفعما بالعطف والمواساة ، ولكن ك ، وقد فكر فى أن فريدا لم توفق الا أقل التوفيق فى الوفاء بما وعدته به من حمايته من أوامر المعلم وفظاعاته ، قال باختصار انه الآن قد أصبح خادم مدرسة وعليه أن يؤدى الأعمال المناطة به • ثم عاد السكون الى المكان من جديد ، الى أن سألها ك ـ وقد تذكر من حديثها القصير الآن اليه أنها ظلت أثناء حديثه مع هانس تسبح فى خضم أفكار مقلقة ـ عما يشغل بالها ، وكان هو يحمل الخشب الى المدفأة • وأجابت ببطء وهى ترفع بصرها اليه ، بأن بالها ليس مشغولا بشىء معين ، انما هى تفكر فى صاحبة الحان وفى صدق بعض كلامها • فلما ألح عليها أجابت ، بعد كثير من التمنع والرفض ، باسهاب ، وبدون أن تنصرف عن عملها ، ولم تكن تتصرف على هذا النحو عن نشاط وهمة ـ فما كان عملها يتقدم على الاطلاق ، بل كانت تتصرف على هذا النحو حتى لا تضطر الى النظر الى ك •• وحكت فريدا كيف أنها أنصتت فى البداية هادئة الى

حديثك مع هانس ، وكيف أن بعض كلماتك أفزعتها فبدأت تجتهد فى الاحاطة بمعنى الكلمات على نحو أكثر وضوحا ، وكيف انها لم تعد تستطيع أن تتبين فى كلماتك مصداقا لتجذير يرجع الفضل فيه الى صاحبة الحان ، تحذيرا لم تكن تصدق أنه يمكن أن يتحقق • واغتاظك من عباراتها العامة ، لم يستعطفه صوتها الشاكى المختنق بالدموع ، بل استفزه - وكان السبب الأول هو أن صاحبة الحان عادت تتدخل فى حياته ، على الأقل عن طريق الذكريات بعد أن فشلت فى التدخل شخصيا - وألقى الخشب الذى كان يحمله الى الأرض وقعد فوقه وطالبها بكلمات جادة غاية الجد أن توضح له الأمر غاية الوضوح • وبدأت فريدا تقول :

- لقد بذلت صاحبة الحان جهودها مرارا ، وبخاصة فى البداية لتحملنى على الشك فيك ، ولم تكن تدعى انك تكذب ، بل كانت ، على العكس ، تقول ، انك صريح صراحة صبيانية ، ولكن خلقك يختلف عن خلقنا ، حتى اننا عندما تتكلم بصراحة ، لا نستطيع الا بصعوبة أن نحمل أنفسنا على تصديقك ، ولو لم تكن الصديقة الطيبة قد أنقذتنا من قبل ، لما كنا سنتعود على تصديقك الا بعد الخبرة المريرة • وحتى هى ، التى تمتاز بنظرة حادة تبصر الناس بها ، لم يكد يختلف ما جرى عليها عن هذا الذى جرى علينا • ولكنها بعد حديثها الأخير معك فى حان الجسر تبينت - وأنا أعيد كلماتها القبيحة - ألاعيبك ولن تستطيع بعد الآن أن تخدعها ، مهما اجتهدت فى اخفاء نواياك • ولكنك لا تخفى شيئا ، كما قالت مرارا ، ولقد قالت كذلك : اجتهدى فى أية مناسبة تختارينها فى الانصات اليه فعلا ، انصاتا غير سطحى ، انصاتا فعليا • وهى لم تفعل أكثر من هذا ، وهكذا تبينت بخصوصى ما يلى : انك ارتميت على - ولقد استعملت هى هذه الكلمة المقيتة - لا لسبب الا لأننى عرضت لك فى طريقك ، ولم أبد فى نظرك قبيحة ، ولأنك تعتبر كل خادمة تعمل فى حان - على خطأ شديد - الضحية الموسومة لكل عميل يبسط يده • ثم انك - كما علمت صاحبة الحان من صاحب حان السادة - كنت لسبب ما تريد أن تقضى الليلة فى حان السادة ، ولم يكن هناك وسيلة لبلوغ هذا الهدف الا عن طريقى • كل هذا كان يكفى سببا لتمثل على لليلة واحدة دور العاشق ، فلما أردت المزيد ، كان عليك أن تسعى الى المزيد ، وكان هذا المزيد هو كلم • وصاحبة الحان لا تدعى انها تعرف ماذا تريد من كلم، ولكنها تدعى فقط أنك كنت قبل أن تعرفنى تسعى الى كلم بنفس العنف الذى سعيت به اليه بعد ذلك • وليس هناك غير فرق واحد ، هو أنك

كنت من قبل يائسا ، أما الآن فأنت تعتقد أنك تجد فى وسيلة أكيدة تستعين بها فعليا وسريعا للتقدم الى كلم والتقدم اليه على نحو يتميز بالتفوق • ولقد فزعت فزعا شديدا ـ ولكنه كان فزعا عابرا فى بداية الأمر وبلا سبب عميق ـ عندما قلت اليوم انك كنت هنا ضالا قبل أن تعرفنى • لعل هذه هى نفس الكلمات التى استعملتها صاحبة الحان ، لقد قالت هى أيضا انك لم تصبح واعيا بهدفك الا بعد أن عرفتنى • ليس هناك من سبب لذلك الا انك اعتقدت انك استوليت فى شخصى على عشيقة كلم ، وانك أصبحت فى حيازة رهن لن تدعه الا لقاء ثمن باهظ • وانك لا تسعى الا الى هدف واحد ، هو مفاوضة كلم فى أمر هذا الثمن • ونظرا لأنك لا تهتم بى أقل الاهتمام ، وتهتم بالثمن الاهتمام كله ، فأنك مستعد لقبول أى اتفاق بشانى ، وأنت عنيد فيما يتصل بالثمن • ولهذا فانت لا تهتم بفقدانى الوظيفة التى كنت أشغلها فى حان السادة ، وباضطرارى مبارحة حان الجسر ، واضطرارى القيام بالعمل الشاق فى خدمة المدرسة• وأنت لا تبدى شيئا من الحنان ، بل ليس لديك وقت لى ، وأنت تتركنى للمساعدين ، ولا تعرف الغيرة على ، فليس لى من قيمة فى نظرك سوى اننى كنت عشيقة كلم ، وأنت فى جهلك لا تسعى الى جعلى أنسى كلم ، حتى لا أعارض فى النهاية معارضة شديدة عندما تأتى اللحظة الحاسمة • ثم انك تحارب صاحبة الحان لأنك تظن أنها الوحيدة التى تستطيع ان تنتزعك منى ، ولهذا فانت تبالغ فى مصادمتها حتى ينتهى الأمر أن تضطر الى مغادرة حان الجسر معى • وأنت لا تشك فى اننى ، على قدر طاقتى وفى كل الظروف ، ملك لك • وأنت تتصور مفاوضتك لكلم على أنها صفقة يجرى فيها تبادل مال لقاء مال • وأنت تعمل حساب كل الامكانيات ، وأنت مستعد ـ ما دمت ستنال الثمن ـ لأن تفعل أى شىء ، فاذا ما أرادنى كلم ، فستعطينى له ، واذا أراد أن تبقى معى ، فستبقى عندى ، واذا أراد أن تنبذنى ، فستنبذنى ، ولكنك مستعد كذلك للتمثيل ، فاذا وجدت فى حبى نفعا ، فستتظاهر بانك تحبنى • وأنت تحاول أن تتغلب على عدم اكتراثه ، بابراز دناءتك ، أو بأن تنقل اليه أسرارى الغرامية معه والتى تمثل وقائع حدثت بالفعل ، وترجوه أن يعيدنى اليه لقاء دفع الأجر بطبيعة الحال • واذا لم تفلح هذه الوسائل كلها فستتسول عنده باسم الزوجين ك • ولكنك ـ وهذه هى النتيجة التى انتهت اليها صاحبة الحان ـ ستتبين أنك كنت واهما فى كل أمر من الأمور ، فى اعتقاداتك وآمالك ، وفى تصورك لكلم وفى علاقاته بى ، وعند ذاك سيبدأ الجحيم بالنسبة الى، فسأصبح بالفعل الشىء الوحيد الذى ظل ملكا لك ، وستظل معتمدا

عليه ، ولكننى سأكون فى الوقت نفسه شيئا تأكد لك انه عديم القيمة ، وأصبحت تعامله على هذا الأساس ، لأنك لا تحس نحوى باحساس آخر سوى احساس المالك ٠

وأنصت ك اليها فى شغف ، زاما فمه ، ولقد تدحرج الخشب من تحته وأوشك هو أن ينزلق على الأرض ، ولكنه لم يحفل بذلك ٠ وفى هذه اللحظة نهض واقفا ، وجلس على المنصة ، وأمسك يد فريدا التى حاولت فى ضعف أن تسحبها منه ، وقال :

ـ اننى لم أستطع أن أفرق فى حديثك دائما بين رأيك ورأى صاحبة الخان ٠

فقالت فريدا :

ـ لم يكن سوى رأى صاحبة الخان ٠ ولقد أصغيت الى كلامها كله لأننى أجلها ، ولقد كانت تلك هى المرة الأولى فى حياتى التى أرفض فيها رأيها كل الرفض ٠ فقد بدا لى كل ما قالته سخيفا بعيدا عن كل فهم لما يتصل بينى وبينك ٠ بل لقد بدا لى الصواب فى عكس ما قالته تماما ٠ وفكرت فى الصباح المعتم الذى تلا ليلتنا الأولى وكيف ركعت بجوارى وأنت تنظر الى نظرة من ضاع منه كل شىء ، وكيف حدث بعد ذلك فعلا اننى ـ مهما اجتهدت ـ لم أعنك ، بل عرقلتك ٠ لقد أصبحت صاحبة الخان بسببى عدوتك ٠ وانها عداوة قوية مازلت تستهين بها ٠ لقد اضطررت بسببى ـ فقد كنت مهتما بى أشد الاهتمام ـ الى أن تناضل من أجل مكانك ، وكنت ضعيفا حيال رئيس مجلس القرية ، ثم أصبح عليك أن تخضع للمعلم ، وأن تظل تحت رحمة المساعدين ـ أما أقبح شىء فهو أنك ربما أذنبت فى حق كلم بسببى ٠ وانك تحاول الآن بلا هوادة أن تصل الى كلم ، وليس هذا سوى مسعى واهن لتصالحه على نحو ما ٠ وكنت أنا أقول لنفسى ان صاحبة الخان التى تعرف بكل تأكيد كل هذا أفضل منى بكثير تريد بهمساتها أن تقينى من الندم الفظيع ٠ وان هذا السعى من جانبها لجهد طيب ولكنه بغير طائل ٠ فان حبى لك قادر على أن يعينك على التغلب على كل شىء ، قادر على دفعك الى الأمام ان لم يكن فى القرية هنا ، ففى أى مكان آخر ٠ ولقد برهن حبى على قوته عندما أنقذك من أسرة برناباس ٠

فقال ك :

ـ كان هذا اذن رأيك المعارض لرأى صاحبة الخان ٠ فماذا تغير منه منذ ذلك الحين ؟

فقالت فريدا وهي تنظر الى يد ك التي كان يمسك بها يدها :

ـ لا أعرف · ربما لم يتغير شيء · انك عندما تكون هكذا قريبا مني وتسألني بهدوء ، فانني أعتقد انه لم يتغير شيء · والحقيقة ····

وسحبت يدها من يد ك ، وجلست أمامه معتدلة تبكي دون أن تغطي وجهها ، بل كانت تعرض له وجهها المبلل بالدموع مجردا وكأنها لم تكن تبكي على نفسها ولم يكن لديها ما تخفيه ، بل تبكي من خيانة ك ، ولهذا فهو يستحق بؤس منظرها :

ـ والحقيقة أن كل شيء قد تغير منذ سمعتك تتكلم مع الصبي · لقد بدأت كلامك معه على نحو بريء كل البراءة وسألته عن الأحوال في البيت وعن هذا وذاك · لقد تصورتك وكأنك تدخل قاعة الحانة كريما ، صريحا ، تبحث عن نظرتي بهمة وسذاجة الصبية · لم يكن هناك فرق بينك في هذه الحال وبينك آنذاك ، وكنت أتمنى شيئا واحدا ، كنت أتمنى لو كانت صاحبة الحان هنا ، لتصغي اليك ولتحاول أن تبقى على رأيها · ثم لاحظت فجأة ، ولا أعرف كيف حدث هذا ، لاحظت النية التي كانت تخالجك وأنت تتكلم مع الصبي · لقد اكتسبت بكلماتك الحنونة ثقته التي لم يكن من السهل اكتسابها ، لكي تندفع مباشرة الى هدفك الذي اخذت أتبينه بوضوح متزايد · كان هدفك هو المرأة · وكان كلامك الذي تظاهر بالخوف عليها يكشف بوضوح تمام اهتمامك بمصالحك دون ماسواها · لقد خنت المرأة قبل أن تنالها · لقد رأيت في كلماتك ماضيي ، بل ومستقبلي كذلك · وتصورت كأن صاحبة الحان تجلس بجواري وتشرح لي الأمور كلها ، وأنا أحاول بكل جهدي أن أصدها ، وأتبين أن مثل هذا الجهد لا يجدي نفعا ـ ولم أكن أنا في تلك الحال المرأة التي خدعت ، فأنت لم تخدعني حتى الآن ، بل كانت المرأة الغريبة هي التي خدعت · فلما تمالكت نفسي وسألت هانس عما يريد أن يكون ، وقال انه يريد أن يكون مثلك ، أي انه كان في حوزتك تماما ، لم أجد فرقا كبيرا بين الصبي الطيب الذي يغرر به هنا ، وبيني آنذاك في قاعة الحان ·

فقال ك وقد تمالك نفسه نتيجة لتعوده على اللوم :

ـ ان كل ما تقولين صحيح على نحو ما · وهو ليس منافيا للصدق ، ولكنه عدائي · انها أفكار صاحبة الحان ، عدوتي ، حتى اذا ظننت أنها أفكارك أنت ، وهذا مما يواسيني · ولكنها أفكار مفيدة ، ففي امكان الانسان أن يتعلم من صاحبة الحان بعض الأشياء · وهي لم تقل لي هذا

الكلام بنفسها على الرغم من أنها لم تحرص على التخفيف عنى ، ويبدو انها أسرت اليك بهذا السلاح لتستخدميه فى ساعة تكون قبيحة بالنسبة الى غاية القبح حاسمة غاية الحسم • واذا كنت أنا أستغلك ، فهى تستغلك على نحو مشابه • ولكن فكرى يا فريدا : انه حتى اذا كانت كل الأمور كما قالت لك صاحبة الحان تماما ، فانها لا تكون مؤسفة أشد الأسف الا فى حالة واحدة : ان لم تكونى تحبينى • فى هذه الحالة ، وفى هذه الحالة فقط ، أكون قد نلتك بتـدبير ولؤم لأستغلك استغلال المرابى • وربما كان من خطتى فى ذلك الوقت أن أثير شفقتك على بأن أسير مع أولجا أمامك وأنا أتأبط ذراعها ، ولكن صاحبة الحان نسيت أن تضيف هذا الى قائمة آثامى • اما اذا لم تكن الحال قبيحة ، ولم يكن هناك حيـوان مفترس لئيم قد جذبك اليه ، بل كنت أنت قد ملت الى كما ملت أنا اليك، والتقينا معا ، وكل منا ينسى ذاته ، فماذا يكون الأمر تكلمى يا فريدا ؟ اذن فأنا أسير أمرى كأمرك ، فليس هنا خلاف ، انما هنا عداوة • وهذا الكلام ينطبق على كل الأحوال ، وينطبق كذلك على هانس • وأنت فى حكمك على حديثى مع هانس تبالغين مبالغة شديدة منساقة مع عاطفتك• فاذا لم تكن أهداف هانس وأهدافى واحدة ، فالأمر لا يصل الى حد القول بأن هناك تعارضا بينها ، هذا الى أن هانس لم يغفل عن خلافنا ، واذا صدقتك فى هذا ، فانك تنتقصين من قيمة هذا الرجل الصغير الحريص ، وحتى لو فرض أنه غفل عن كل شىء ، فلن ينجم عن هذا ضر يمس انسانا، وهذا هو ما أرجوه •

وقالت فريدا وهى تطلق زفرة :

ـ انه من الصعب على الانســان ، يا ك ، أن يجد طريقه ! وأنا ، بكل تأكيد ، لم أحس حيالك بالريبة ، واذا كان شىء من الريبة قد انتقل الى من صاحبة الحان ، فاننى أنبذه وأنا سعيدة وأرجوك المغفرة وأنا راكعة على ركبتى ، وهذا هو فى الحقيقة ما أفعله طوال الوقت ، مهما قلت من أشياء قبيحة • والحقيقة رغم هذا كله هى انك تخفى عنى الكثير ، انك تأتى وتذهب ، وأنا لا أعلم من أين ولا الى أين • بل انك ، عنـدما دق هانس الباب ، ناديت اسم برناباس • فاذا لم تكن تثق فى ، فكيف يمكن الا يتولد الشك فى نفسى واننى فى هذه الحالة أركن الى صاحبة الحان كلية ، وان مسلـكك ليبـدو وكأنه يؤكد ما تذهب اليه • ألم تطرد المساعدين بسببى ؟ ليتك تعرف مدى حاجتى الى أن أجد فى كل ماتقوله وتفعله بذرة صالحة بالنسبة الى •

فقال ك :

ـ اننى أولا وقبل كل شىء آخر يا فريدا لا أخفى عليك أقل شىء • ولكن ما أشد كره صاحبة الحان لى ! وما أشد ما تبذل من جهد لتنتزعك منى ! وما أقبح الوسائل التى تتوسل بها ! وما أغرب استسلامك لها ، يا فريدا ! ما أغرب استسلامك لهــــا ! ولكن قولى لى كيف أخفى عليك شيئا ؟ انك تعرفين أننى أريد أن أصل الى كلم ، وتعرفين انك لاتستطيعين معاونتى على ذلك وأننى لابد أن أعول على نفسى ، وأنت ترين بنفسك أننى لم أتمكن من شىء الى الآن • أم هل ينبغى على أن أحكى لك المحــاولات الفاشلة التى أذلتنى فى الواقع أشد الاذلال ، حتى أذوق الذل مرتين ؟ هل ينبغى أن أتفــاخر باننى انتظرت على باب زحافة كلم أمسية كاملة أرتعش من البرد ولا أفيد شيئا ؟ اننى أهرع اليك ، سعيدا بأننى لن أضطر الى التفكير فى هــذه الأمور ، فاذا بى ألقى كل هــذا منك ، ألقاه ينطلق نحوى بالتهـديد • أما أمر برناباس ، فأنا لا أخفى عليك أننى أنتظره • فهو ساعى كلم • لست أنا الذى جعلته ساعيا لكلم •

وصاحت فريدا :

ـ هانتذا تعود الى ذكر برناباس • اننى لا أستطيع أن أصدق أنه ساع بمعنى الكلمة •

فقال ك :

ـ قد تكونين على حق • ولكنه الساعى الوحيد الذى أرسل الى •

فقالت فريدا :

ـ هذا مما يزيد فى سوئه • وهذا مما يفرض عليك أن تزيد فى حرصك منه •

فقال ك مبتسما :

ـ انه للأسف لم يعطنى فرصة لذلك • انه يأتى نادرا ، ولا يحمل الى الا أمورا لا قيمة لها • وليست له من قيمة الا انه يأتى من عنــد كلم مباشرة •

فقالت فريدا :

ـ ولكن هذا يعنى أن كلم لم يعد هدفك ، ولعل هذا هو ما يقلقنى أشد القلق • لقد حاولت على الدوام أن تندفع الى كلم متجنبا اياى ، وكان هذا قبيحا ، وها أنتذا تنصرف على ما يبدو عن كلم ، وهذا أقبح بكثير ، ان هذا شىء لم تتوقعه حتى صاحبة الحان ذاتها ، لقد انتهت سعادتى ،

على رأى صاحبة الخان ، ولقد كانت سعادة واهية ولكنها كانت حقيقية ، انتهت سعادتى منذ اليوم الذى توصلت فيه نهائيا الى أن أملك فى كلم أمل لا طائل وراءه · انك لم تعد تأمل فى هذا اليوم · لقد دخل عليك صبى فجأة ، فبدأت تصارعه من أجل الحصول على أمه ، كما تصارع من أجل الحصول على الهواء الذى تتنفسه ·

ـ لقد أصبت فى فهمك حديثى مع هانس · لقد كان الأمر فعلا على ما ذكرت · ولكن هل تداعت حياتك الماضية كلها بالنسبة اليك (باستثناء صاحبة الخان بطبيعة الحال ، التى لا يمكن أن تكون ضمن ما يتداعى) حتى لم يعد فى امكانك أن تعرفى كيف ينبغى على الانسان أن يناضل فى سبيل التقدم وبخاصة عنـدما يكون الانســان من الطبقة الدنيا ؟ كيف ينبغى على الانسان أن يستخدم كل ما يحمل بارقة أمل ؟ وهذه المرأة من القصر ، لقد قالت لى هى نفسها ذلك ، عندما ضلت الطريق فى أول يوم ذهبت الى لازيمان · ليس هنــاك شىء يخطر بالبـال أقرب من التماس النصــيحة لديها أو حتى العــون · واذا كانت صاحبة الخان تعرف بدقة دقيقة كل العقبات التى تحول بين المرء وبين كلم ، فلعل هذه المرأة تعرف الطريق ، فهى قد سلكته عند نزولها ·

وسألت فريدا :

ـ الطريق الى كلم ؟

فقال ك :

ـ الى كلم ، بكل تأكيد ، الى من غيره ·

وهب ك واقفا وقال :

ـ لا يمكن أن أتأخر أكثر من هذا عن احضار طعام الافطار ·

وألحت عليه أن يتجاوز هذا السبب ويبقى وكأنما كان بقاؤه هو الذى سيؤكد كل ما قد قاله لها مواسيا · ولكن ك ذكرها بالمعلم ، وأشار الى الباب الذى يمكن أن ينفتح بين لحظة وأخرى عن هدير كهدير الرعد ، ووعدها بأن يعجل بالعودة ، وبأنه سيقوم بكل الأعمال ، حتى التدفئة سيتولى أمرها · وأخيرا رضيت فريدا وصمتت :

وعندما سار ك فى الخارج يدق الجليد بقدميه ـ وكان ينبغى عليه أن يكون قد فرغ من اخلاء الطريق من الجليد · ما أعجب البطء الذى اعترى العمل ! رأى أحد المساعدين يمسك بالسور الحديدى وقد أشرف على الموت من فرط التعب · انه واحد ! فأين الآخر ؟ هل يا ترى قد تمكن ك من

تحطيم صمود أحدهما على الأقل ؟ أما هذا الذى بقى فقد كان بطبيعة الحال شديد الدأب لا يرجع عن الأمر ، ولقد ظهر هذا واضحا ، عندما عاد الى النشاط على أثر رؤيته ك ، وعاود مد ذراعيه وتحريك عينيه متوسلا على نحو أكثر عنفا .

وقال ك فى نفسه :

ـ ان صموده لصمود نموذجى !

ولكنه اضطر الى أن يضيف .

ولكنه صمود يؤدى بالانسان الى التجمد على السور .

ولم يفعل ك شيئا ظاهريا سوى التهديد بقبضته فاستحال على المساعد أن يقترب بل تراجع مسافة غير قصيرة الى الوراء خائفا . وفى تلك اللحظة فتحت فريدا شباكا لكى تجدد هواء الحجرة قبل التدفئة على نحو ما تفاهمت مع ك . فانصرف المساعد عن ك وتسلل الى النافذة منجذبا اليها انجذابا لا طاقة له على معارضته . ولوحت فريدا بيدها قليلا من الشباك ـ وكان وجهها مضطربا فى تعبيره بين الود حيال المساعد والحيرة المختلطة بالتوسل حيال ك ـ ولم يكن ظاهرا هل كانت حركة يدها تعنى الصد أو التحية ، ولكن المساعد لم يتردد فى التقدم نحوها والاقتراب منها . وهنا أقفلت فريدا الشباك الخارجى بسرعة ولكنها بقيت خلفه ، واضعة يدها على المقبض ، وقد مالت برأسها الى جانب ، وفتحت عينيها على سعتهما واصطنعت ابتسامة جامدة . هل كانت تعلم أنها كانت بذلك تجتذب المساعد أكثر مما تردعه ؟ ولم يعد ك ينظر الى الخلف ، فقد كان يفضل أن يسرع على أشد ما يستطيع ليعود فى أقرب وقت .



الفصل الرابع عشر

وأخيرا_ وكان الظلام قد أخذ يطبق على الدنيا وكان الوقت قد تجاوز العصر بكثير ـ أفسح ك الطريق ، وكوم الثلوج على الجانبين وكدسها ، وفرغ من عمل اليوم • ووقف عند بوابة الحديقة وحيدا فى دائرة واسعة لا يشاركه فيها آخر • وكان منذ بضع ساعات قد طرد المساعد ، ولاحقه لمسافة طويلة من الطريق ، فاختفى المساعد فى مكان ما بين الحدائق الصغيرة والأكواخ ، ولم يعد من الممكن العثور عليه ولم يظهر بعد ذلك مرة أخرى • أما فريدا فكانت فى البيت وكانت مشغولة اما بغسيل الملابس أو بحمام قطة جيزا • ولقد كان من آيات الثقة العظيمة التى أبدتها جيزا أن كلفت فريدا بهذا العمل الذى لم يكن فى الحقيقة عملا لائقا محببا الى النفس ، وما كان ك بكل تأكيد ليقبله ، لو لم تكن الكياسة تفرض عليه ، بعد اخلاله المتكرر بالعمل ، أن ينتهز كل فرصة ليقدم الى جيزا من الخدمات ما يجعلها ممتنة له • ولقد نظرت جيزا بعين الرضا الى ك وهو يحضر حوض استحمام الأطفال الصغير من فوق السطح ، ويعد الماء الدافىء ويضع القطة فى الحوض باحتراس شديد • ثم تركت جيزا القطة لفريدا لتتولى أمرها كلية ، لأن شفارتسر ، الذى تعرف به ك فى أمسيته الأولى بالقرية ، كان قد أتى ، وحيا ك بخليط من الخجل الذى قام أساسه فى تلك الأمسية ، ومن التحقير الشديد الذى يليق بخادم مدرسة، ثم ذهب مع جيزا الى الفصل الآخر • وظل الاثنان هناك معا • وكان ك قد علم من حان الجسر أن شفارتسر ، وهو ابن أحد مديرى القلعة ، يعيش فى القرية منذ وقت طويل حبا فى جيزا ، وتوصل بفضل علاقاته الى جعل مجلس القرية يعينه مساعد معلم فى المدرسة ، ولم يكن يمارس هذه الوظيفة أساسا الا بحضوره حصص جيزا كلها ، جالسا على مقعد مع التلاميذ أو جالسا الى قدمى جيزا على قاعدة المنصة ، وهو ماكان يفضله • ولم يكن تصرفه هذا يسبب ازعاجا ، فقد تعود التلاميذ ميلا أو تفهما ، فلم يكن يتكلم معهم الا نادرا ، ولم يحمل عن جيزا سوى دروس الرياضة

البدنية ، وكان ينعم بالرضا اذ يعيش فى قرب جيزا وفى جوها ودفئها • وكانت أعظم متعة لديه هى الجلوس بجوار جيزا وتصحيح الكراسات • ولقد كانا اليوم كذلك مشغولين بتصحيح الكراسات ، فقد أحضر شفارتسر معه كمية كبيرة من الكراسات ، وكان المعلم يعطيها كذلك كراساته ، وكان ك يرى الاثنين ـ طالما كان النهار طالعا ـ جالسين الى منضدة صغيرة عند النافذة عاكفين على العمل ، رأسا الى رأس ، لا يتحركان • أما الآن فلم يعد يرى هناك سوى شمعتين ترتعشان • لقد كان حبهما حبا جادا صامتا ، وكانت جيزا هى التى جعلته كذلك ، فقد كان طبعها البليد يتحول الى العنف أحيانا ويتجاوز الحدود ولكنه لم يكن يقبل مثل ذلك من الآخرين فى وقت آخر مطلقا • وهكذا تحتم على شفارتسر العنيف أن ينصاع لها ، وأن يسير ببطء ، ويتكلم ببطء ، ويصمت كثيرا • ولكنه كان ينال ـ على ما كان الانسان يرى ـ لقاء هذا كله الجزاء الأوفى متمثلا فى وجود جيزا وسكونها بجواره • وربما لم تكن جيزا تحبه مطلقا • ولم تكن عيناها المستديرتان الرماديتان اللتان لا ترمشان بحال من الأحوال وتبدوان كأنهما لا تدوران الا حول الحدقتين ، تعطيان اجابة على مثل هذه التساؤلات • لم يكن الناس يرون الا أنها تصبر على شفارتسر دون ما اعتراض ، ولكنها لم تكن على وجه التأكيد تعرف كيف تقدر شرف حب أحد أبناء مديرى القصر لها ، وكانت تحرك جسدها الممتلىء اليانع هادئة لا تغير منه شيئا سواء تبعتها نظرات شفارتسر أو لم تتبعها • أما شفارتسر فكان على العكس يقدم لها بلا انقطاع تضحية تتمثل فى بقائه فى القرية ، وكان يرد الرسل الذين يرسلهم أبوه لاحضاره ويغلظ لهم وكأنما كان ما يتسببون له فيه من تذكير قصير بالقصر وبواجب الابن حيال أبيه اقلاقا شديدا لسعادته لا سبيل الى علاجه • ومع ذلك فقد كان لديه من الفراغ الشىء الكثير لأن جيزا لم تكن تعرض له عادة الا فى ساعات التدريس وتصحيح الكراسات ، ولم تكن تفعل ذلك عن تدبير ، بل لأنها كانت تحب الراحة وتحب لذلك الوحدة فوق كل شىء ، وكانت تحس بالسعادة أعظم السعادة عندما تتمكن من الاضطجاع على الأريكة فى البيت بكل حرية ، وبجوارها القطة التى لم تكن تزعجها لأنها لم تكن تكاد تستطيع الحركة • وهكذا كان شفارتسر يهيم على وجهه فترة طويلة من النهار بلا عمل ، ولكنه كان يحب ذلك حبا لا شك فيه لانه كان يجد فرصة كثيرا ما استغلها ، فرصة الذهاب الى حارة السبع حيث كانت جيزا تقيم ، وصعود الدرج الى حجرتها الصغيرة فوق السطح والتسمع على الباب المقفل الذى لم يكن ينفتح مطلقا ، ثم

الانصراف على عجل بعد التأكد من ان الحجرة غارقة فى السكون الكامل المبهم الذى لم يفارقها مرة واحدة ولا على سبيل الاستثناء • على انه كان يتصرف من حين لآخر على نحو تظهر فيه بعض آثار أسلوب الحياة هذا ـ ولكن هذا لم يحدث قط فى حضرة جيزا ـ فيعبر فجأة تعبيرا قصيرا مضحكا عن العجرفة الديوانية التى لم تعد بطبيعة الحال تتناسب مع وضعه الحالى • ولم تكن هذه الحالات تنتهى غالبا نهاية طيبة كما رأى ك بنفسه •

والغريب أن الناس كانوا ، على الأقل فى حان الجسر ، يتكلمون عن شفارتسر بنوع ما من الاحترام حتى اذا كان الحديث يدور حول أمور أقرب الى السخف منها الى الأهمية ، وكان هذا الاحترام يشمل جيزا هى أيضا• ولم يكن من الصواب ما ذهب اليه شفارتسر من الاعتقاد فى انه كمساعد معلم يتفوق على ك تفوقا خارقا للمألوف ، فلم يكن لهذا التفوق وجود • فخادم المدرسة بالنسبة للمعلمين ، وخاصة بالنسبة لمعلم من نوع شفارتسر ، شخص مهم جدا ، لا يصح أن يحتقره الانسان دون أن يتعرض لعقاب ، شخص ينبغى على الانسان ـ ان لم يستطع أن يتخلى عن الاهتمامات الطبقية ـ أن يمكنه من احتمال الاحتقار بتقديم مقابل مناسب له • وكان ك يميل أحيانا الى القول بأن شفارتسر كان منذ الأمسية الأولى مذنبا ، وان ذنبه لم يصغر حتى بعد أن أثبتت الأيام التالية على لقائهما أن شفارتسر كان على حق • فلم يكن ينسى أن لقاءهما ربما كان هو الذى وجه كل الأحداث التالية الوجهة التى سارت فيها • فقد تسبب شفارتسر على نحو سخيف كل السخف ومنذ الساعة الأولى فى توجيه انتباه الدواوين كاملا اليه ، فى الوقت الذى كان فيه لا يزال غريبا تماما فى القرية ، بلا معارف وبلا مأوى ، وكان مرهقا أشد الارهاق من كثرة السير ، حائرا لا يعرف شيئا يستعين به على أمره ، ويرقد على جوال القش تحت رحمة أى تدخل من جانب الدواوين • ولو حدث هذا اللقاء بعد ذلك بليلة واحدة لكانت الأمور كلها قد سارت سيرة مختلفة ، هادئة وكأنها تسير فى السر • ولما كان هناك انسان يعرف من أخباره شيئا ، ولما تردد من يأوى اليهم فى تركه يقيم بينهم يوما كما يفعلون بالشباب المترحلين ، ولما اشتبهوا فى شىء • ولتبين الناس فائدته وأمانته ، ولانتقل الخبر فى المنطقة المحيطة ، ولما كان من المستبعد أن يجد فى مكان ما مأوى كعامل زراعى بسيط • وليس من شك فى أن أمره لم يكن سيخفى على الدواوين • ولكن الفرق جوهرى بين أن يجرى بسببه فى منتصف الليل اتصال بالديوان الرئيسى أو بمن كان على التليفون يستحثه ويثيره عليه ،

ويطالب بقرار فورى بتواضع ظاهرى ولكن بتصميم مزعج ، وان يكون من يجرى هذا الاتصال هو شفارتسر الذى يبدو أن السلطات العليا لاتحبه ولا ترضى عنه ، وبين أن يذهب ك ـ بدلا من هذا كله ـ فى اليوم التالى على وصوله ، في وقت العمل الرسمى الى رئيس مجلس القرية ، فيدق الباب ويبلغ ، كما ينبغى ، عن نفسه على اعتبار انه شاب متجول غريب قد وجد لنفسه مكانا ينام فيه لدى فرد بعينه من أفراد جماعة القرية ويذكر انه ربما يستأنف رحلته فى اليوم التالى ٠ ثم يحدث شىء عجيب وهو أنه يجد عملا ، لبضعة أيام فقط بطبيعة الحال ، لأنه لا يريد أن يبقى هنا طويلا بحال من الأحوال ٠ هذا ، أو نحوه ، ما كان سيحدث لو لم يتدخل شفارتسر ٠ كان الديوان سيستمر فى الاشتغال بمسألة ك ، ولكن فى هدوء ، وبالطريق الرسمى ، ودون أن يزعجه تهور الحزب الذى يبدو أنه يكرهه أشد الكره ٠ ولقد كان ك بريئا من كل هذا ، وكان الاثم ينصب على شفارتسر وحده ، ولكن شفارتسر كان ابن أحد مديرى القصر ، وكان من الناحية الظاهرية قد تصرف تصرفا صحيحا ، وهكذا ألقى الذنب على ك وحده ٠ وما هو السبب المضحك لهذا كله ؟ ربما نزوة غاضبة من نزوات جيزا فى ذلك اليوم دفعت شفارتسر الى أن يهيم على وجهه فى الليل ، فلم يكن يستطيع النوم ، الى أن يخفف عن نفسه المصيبة بصبها على ك ٠ وكان من الممكن من ناحية أخرى القول بطبيعة الحال بأن ك مدين لتصرف شفارتسر هذا بالكثير ٠ فقد تحقق عن طريقه ما لم يكن ك يستطيع بمفرده أن يحققه ، وما لم يكن ليجرؤ على بلوغه وما لم يكن الديوان ليوافق عليه ، تحقق له منذ البداية أن يواجه الديوان ـ على قدر ما كان ممكنا من ناحية الديوان ـ صراحة دون مواربة وجها فى وجه ٠ ولكن تلك النعمة كانت نعمة قبيحة ٠ حقيقة انها وفرت على ك الكثير من الكذب والمواراة ، ولكنها كانت تجعله كالأعزل من السلاح ، وكانت على اية حال تضره فى النضال وكان من الممكن أن تصيبه فى هذه الناحية باليأس ، لو لم يقل لنفسه أن الفرق بين سلطة الديوان وبين سلطته هائل لدرجة أن ما يستطيعه من كذب ومكر لن يقلل هذا الفرق لصالحه على نحو جوهرى ٠ ولكن تلك الفكرة كانت فكرة يواسى ك بها نفسه ٠ فقد ظل شفارتسر على اثمه ٠ وهو قد أضر ك فيما مضى ولعله يستطيع فى المستقبل أن يعينه ، و ك لن يحتاج الى مساعدة الا فى أقل القليل ، فى التمهيدات الأولية ، ولقد بدا له الآن أن برناباس مثلا عاود الاهمال ٠

ظل طوال اليوم يتردد بسبب فريدا فى الذهاب الى مسكن برناباس

والسؤال • ولقد عكف على العمل فى الخارج حتى لا يضطر الى استقباله أمام فريدا ، فلما فرغ من العمل ظل ينتظر على أمل أن يأتى برناباس ، ولكنه لم يأت • وهكذا لم يعد هناك مفر من الذهاب الى أختيه ، لفترة قصيرة جدا ، ليسألهما وهو واقف على العتبة ، ثم يعود من فوره بعد ذلك • ودس الجاروف فى الثلج وجرى • ووصل بيت برناباس وهو يلهث، ودق الباب قليلا ثم فتحه بقوة وسأل دون أن يتبين حال الحجرة :

ــ ألم يعد برناباس حتى الآن ؟

وتبين الآن أن أولجا لم تكن موجودة ، وأن الوالدين المسنين جالسين الى المنضدة البعيدة فى هذه المرة أيضا فى جو أقرب الى الظلام منه الى النور ، ولم يتبينا ما حدث عند الباب ، ثم حركا وجهيهما نحوه ببطء ، كذلك رأى ك أخيرا أماليا راقدة على أريكة عند المدفأة تحت الأغطية ، ورأى كيف انتفضت من تأثير الفزع الأول الذى تملكها عندما ظهر ك ووضعت يدها على جبهتها لتتمالك نفسها • لو كانت الولجا هنا لتلقى الرد على الفور ، ولا ستطاع ك أن ينصرف توا ، أما الآن فقد أصبح عليه على الأقل أن يخطو بضع خطوات نحو آماليا ، وأن يصافحها ، فضغطت على يده صامتة ، وكان عليه أن يرجوها ان تحول بين الوالدين المنفزعين وبين أن يقوما بأى جولات ، فاستجابت أماليا لذلك وقالت لهما بضعة كلمات • وعلم ك ان أولجا فى الفناء تكسر خشبا للمدفأة ، وأن أماليا منهكة القوة ــ ولم تذكر لذلك سببا ــ وانها رقدت منذ قليل ، وأن برناباس لم يأت بعد ولكنه سيأتى بعد قليل لأنه لم يحدث قط أن بقى فى القصر ليلا • وشكرها ك على المعلومات ، وكان فى امكانه أن ينصرف من حيث أتى ، ولكن أماليا سألته عما اذا كان يريد أن ينتظر قدوم أولجا• أو لم يكن لديه وقت • ثم سألته أماليا هل تكلم مع أولجا اليوم ، ولكنه نفى ، وسأل مندهشا عما اذا كانت أولجا تريد أن تقول له شيئا هاما • فزمت أماليا فمها كأنها غضبت قليلا ، ثم أومأت برأسها الى ك صامتة ــ وكان من الواضح أن الحركة تعنى الوداع ــ وعادت الى الرقود • وأخذت أماليا من مضجعها تتفرس فيه وكأنها تدهش لأنه مايزال موجودا • كانت نظرتها باردة ، واضحة ثابتة كالمعتاد ، ولم يكن ك منتبها تماما الى ماكانت تتأمله أماليا ، بل انه تحاشاه قليلا على نحو لا يكاد يلفت النظر ، ولكنه تحاشاه بدون شك ، ولم يكن السبب فى ذلك ضعفا أو ارتباكا أو نفاقا على ما يبدو ، ولكنه كان حاجة مستمرة الى الوحدة ، حاجة تفوق كل ما عداها ، ويبدو أن هذه الحاجة لم تظهر لها الا على هذا النحو • واعتقد ك انه يذكر أن هذه النظرة شغلته فى الأمسية الأولى ، بل أن هذه النظرة

هى على الأرجح السبب فى الانطباع القبيح الذى أحدثته فيه هذه الأسرة منذ البداية ، ولم تكن هذه النظرة قبيحة فى حد ذاتها ، بل كانت نظرة متكبرة صريحة فى حدود استغلاقها . وقال ك :

ـ انك دائمة الحزن هكذا يا أماليا ، هل هناك ما يؤرقك ؟ ألا يمكنك أن تتحدثى عنه ؟ انتى لم ار من قبل بنتا قروية مثلك . وهـذا شىء لم يلفت نظرى الا اليوم ، الا الآن فقط . هل أنت من القرية ؟ هل ولدت هنـا ؟

وردت أماليا بالايجاب وكأنما لم يوجه اليها ك الا السؤال الأخير . ثم قالت :

ـ اذن فأنت ستنتظر قدوم أولجا ، هه ؟

فقال ك :

ـ أنا لا أعرف لماذا تسألين دائما السؤال نفسه . اننى لا أستطيع أن أبقى طويلا لأن خطيبتى تنتظرنى فى البيت .

واتكأت أماليا على مرفقيها ، لم تكن تعرف شيئا عن خطيبة ك . فذكر ك اسمها . لم تكن أماليا تعرفها . وسألت أماليا ك عما اذا كانت أولجا تعرف بالخطبة ، فقال ك انه يعتقد انها تعرف ذلك ، فقد رأته مع فريدا ، هذا الى أن مثل هذه الأخبـار تنتشر بسرعة فى القرية . ولكن أماليا أكدت له أن أولجا لا تعرف ذلك ، وأن هذا الخبر سيشقيها جدا لأنها على ما يبدو تحب ك ، وهى لم تتكلم عن ذلك صراحة ، لأنها متحفظة جدا ، ولكن الحب يكشف عن نفسه تلقائيا . وكان ك مقتنعا من أن أماليا مخطئة . وابتسمت أماليا ، وعلى الرغم من أن ابتسامتها كانت حزينة فقد اضاءت الوجه المنقبض المظلم ، وجعلت الصمت يتبدد ، وأحالت الغربة الى ألفة ، وكشفت عن السر ، وأعطت ك شيئا ظلت تخفيه حتى ذلك الحين ، شيئا سيكون فى استطاعتها أن تسترده بطبيعة الحال ، ولكنها لن تستطيع أن تسترده كاملا أبدا . وقالت أماليا انها بلا شك لا تخطىء ، بل انها تعرف المزيد ، انها تعرف أن ك نفسه يميل الى أولجا وان زياراته التى يدعى أنه يقوم بها من أجل رسائل برناباس تقصد فى الحقيقة أولجا وحدها . أما الآن وقد عرفت أماليا بكل شىء ، فلا ينبغى أن تحمل هما ، وله أن يأتى كلما شاء . وقالت ان هذا هو ما كانت تريد أن تقوله له . وهز ك رأسه وذكر أماليا بخطوبته . ولم يبد على أماليا أنها وجهت الى هذه الخطوبة كثيرا من افكارها ، كان أهم شىء بالنسبة اليها هو الانطباع المباشر الذى

يحدثه ك الذى كان يقف وحده أمامها · كل ما فعلته أنها سألت ك متى تعرف بهذه البنت فلم يمض عليه فى القرية الا القليل من الأيام · وقص ك عليها قصة الأمسية التى قضاها فى حان السادة ، فقالت أماليا باقتضاب انها كانت تعارض فى اقتياده الى حان السادة · ونادت على أولجا لتشهدها على ذلك ، وكانت أولجا فى تلك اللحظة قد ظهرت بالباب وهى تحمل على ذراعها خشبا للمدفأة ، وكانت بشرتها نضرة صبغها الهواء البارد بالحمرة ، وكانت هى نشيطة قوية وكأنما كان العمل قد غيرها الى حال أخرى تختلف عن حالها المعهودة عندما تقف فى الحجرة وقفتها المألوفة المتثاقلة · وألقت أولجا بالخشب وسلمت على ك فى غير تكلف ثم سألت عن فريدا · ونظر ك الى أماليا نظرة عبر بها عن رأيه ، فلم يبد عليها أنها أحست بأن الرأى الذى ذهبت اليه قد تأكد خطأه · وانفعل ك لهذا قليلا فبدأ يحكى باسهاب أكثر مما كان ينوى عن فريدا وعن الصعوبات التى يتعرض لها فى سبيل تدبير ما يشبه بيت الزوجية فى المدرسة ــ ونسى نفسه أثناء تسرعه فى الكلام ــ ولقد كان ينوى أن يعود الى البيت من فوره ــ نسى نفسه حتى أنه وجه الى الأختين ، على هيئة الوداع ، الدعوة الى زيارته · وما أن تبين ذلك حتى تملكه الفزع وأخذ يتلعثم فى الوقت الذى أعلنت أماليا فيه على الفور ودون أن تترك له فرصة الكلام انها تقبل الدعوة ، وكان على أولجا أن تتبعها وأن تعلن هى كذلك موافقتها ، ففعلت · أما ك الذى كان ما يزال يعانى من الحاح التفكير فى ضرورة الاستئذان للانصراف بسرعة ، والذى كان يحس بالاضطراب تحت تأثير نظرات أماليا ، فلم يتردد فى الاعتراف ، دون ما تحسين أو تجميل ، بأن الدعوة التى وجهها جاءت عن غير تدبير وتفكير بل جاءت عفو الخاطر ، وانه لن يستطيع للأسف أن يتمسك بها نظرا للعداوة القائمة بين فريدا وبين آل برناباس ، تلك العداوة التى لا يفهم من أمرها شيئا · وقالت أماليا وقد قامت من فوق الأريكة وألقت الغطاء من خلفها :

ــ انها ليست عداوة · وما هى بالأمر العظيم الهام ، انها مجرد ترديد ساذج لرأى شائع · فاذهب الآن ، اذهب الى خطيبتك ، وانى لأرى كيف تتعجل الخطى · ولا عليك أن تخشى أن نأتى ، وأنا لم أكن أعنى عندما أعلنت موافقتى أكثر من المزاح ، ولم أتحرك الا بدافع الخبث · أما أنت فيمكنك أن تأتى الينا كثيرا ، فليس هناك ما يعوقك عن ذلك ، يمكنك دائما أن تدعى انك تلتمس أخبارا من برناباس · وأنا أسهل مهمتك فأقول لك ان برناباس ، حتى اذا كان يحمل اليك رسالة من القصر ، لن يذهب الى المدرسة ليبلغك اياها ، فالمسكين لا يستطيع أن

يجرى من أول البلد الى آخره ، لقد أضناه العمل وعليك أنت أن تأتى بنفسك تلتمس الأخبار •

لم يكن ك قد سمع أماليا من قبل تتحدث حديثا متصلا طويلا كهذا ، ولقد كان لحديثها هذا نبرة أخرى غير نبرة أحاديثها التى عرفها ك ، كان فى حديثها هذا شيء من الترفع لم يكن ك هو وحده الذى أحس به ، بل يبدو أن أختها أولجا التى تعرفها وتألفها قد أحست به هى الأخرى • وكانت تقف الى جانب وتضع يديها على فخذيها •• كانت تقف وقفتها المعهودة التى تنحنى فيها وتباعد بين ساقيها ، وكانت توجه عينيها ناحية أماليا ولا تنظر الا الى ك • وقال ك :

ـ انك تخطئين ، تخطئين خطأ كبيرا عندما تظنين أن انتظارى برناباس ليس انتظارا جادا • ان أمنيتى الكبرى ، أو على الأصح أمنيتى الوحيدة تتلخص فى تسوية أمورى مع السلطات • وعلى برناباس أن يساعدنى فى ذلك ، وكثير من أملى معقود على مساعدته • حقيقة انه خيب رجائى مرة أشد الخيبة ، ولكن الذنب كان ذنبى أكثر مما كان ذنبه هو ، ولقد حدث هذا فى وسط اضطراب الساعات الأولى لى هنا وكنت أعتقد آنذاك اننى أستطيع أن أصل الى كل شيء عن طريق نزهة مسائية قصيرة •• واذا كانت المستحيلات قد بدت لى كمستحيلات فأمر أحمل عنه ضغينة له • ولقد أثر هذا حتى على حكمى على أسرتكم ، على حكمى عليكم • وهذا هو السبب ، وأظن أننى أفهمكم الآن على نحو أفضل •••

وحاول ك أن يجد العبارة المناسبة فلم يجدها على الفور ، واكتفى بعبارة عادية :

ـ وربما كنتم أكثر طيبة من كل أهل القرية على قدر ما أعرفهم • ولكنك يا أماليا تحيريننى الآن مرة أخرى عندما تقللين ، لا أقول من شأن عمل أخيك ، ولكنى أقول تقللين من أهمية عمله بالنسبة الى • ولعلك لا تعرفين أسرار أمور برناباس ، وفى هـذه الحالة أقول لا بأس وأترك المسألة حيث هى ، ولعلك تعرفين أسرار أمور برناباس ـ وهذا هو على الأحرى انطباعى ـ وفى هذه الحالة أقول أن الأمر قبيح ، لأن هذا يعنى أن أخاك يخدعنى •

وقالت أماليا :

ـ فاهدأ بالا ، أنا لا أعرف هذه الأسرار ، وليس هناك شيء يمكن أن يدفعنى الى أن أسعى الى معرفتها ، ليس هناك شيء ، ولا حتى الاهتمام

بأمرك يمكن أن يدفعنى الى أن أسعى الى معرفتها ، على الرغم من أننى قد أود أن أصنع من أجلك شيئا ، فنحن كما قلت أنت أناس طيبون ٠ انما موضوعات أخى موضوعات تخصه هو ، وأنا لا أعرف منها الا ما أسمعه من حين لآخر بالمصادفة وعلى غير ارادة منى ٠ أما أولجا فهى تستطيع أن تحيطك بالأخبار كلها لأنها موضع ثقته وهو لا يخفى عنها شيئا ٠

وانصرفت أماليا ، ذهبت أولا الى الوالدين وهمست اليهما بشىء ، ثم ذهبت بعد ذلك الى المطبخ ، انصرفت هكذا دون أن تودع ك ، وكأنها كانت تعلم ان ك سيبقى طويلا وانها لهذا ليست بحاجة الى أن تودعه ٠



الفصل الخامس عشر

وبقى ك وقد ارتسمت الدهشة على وجهه ، وضحكت أولجا منه ، وشدته الى الأريكة عند المدفأة ، وبدا عليها فعلا انها سعيدة اذ استطاعت أن تخلو به هنا ، ولكن سعادتها كانت سعادة صافية لم تعكرها الغيرة بكل تأكيد · وكان انعدام الغيرة وبالتالى انعدام كل تكلف يجعل ك يحس بالراحة·وكان ك يجد متعة فى النظر الى عينيها الزرقاوين اللتين لاتجذبان ولا تسيطران بل تسكنان فى خجل وتثبتان فى حياء · وأحس ك كأن تحذيرات فريدا وصاحبة الخان لم تجعله أكثر تقبلا لهذا كله ، بل جعلته أكثر انتباها وامعانا · وضحك مع أولجا عندما عبرت عن دهشتها لوصف ك أماليا بالذات بالطيبة ، وقالت انها تتصف بكثير من الصـفات ولكن صفة الطيبة بالذات ليست فيها · ورد ك على ذلك بأنه كان بطبيعة الحال يعنيها هى ، أولجا ، بالمدح ، ولكن أماليا شديدة السيطرة لدرجة أن الأمر لا يقف عند حد انها تستحوذ على كل ما يقال فى وجودها ، بل يتعداه الى أن الانسان يقدمه اليها بارادته · وقالت أولجا وقد ازداد جدها :

ـ هذا صحيح ، أكثر صحة مما تظن · وأماليا أصغر منى ، بل وأصغر من برناباس ولكنها هى التى تقضى فى الأمور فى البيت ، بالشر أو بالخير · وهى بطبيعة الحال تحمل أكثر مما يحمل الآخرون خيرا وشرا ·

وذهب ك الى ان هذا الكلام مبالغ فيه ، فقد قالت أماليا منذ قليل انها مثلا لا تهتم بأمور أخيها وان أولجا هى التى تعرف كل شىء عنها ·· وقالت أولجا :

ـ كيف أشرح لك هذا ؟ ان أماليا لا تهتم لا ببرناباس ولا بى ، انها فى الحقيقة لا تهتم بأحد سوى الوالدين ، فهى تعنى بهما نهارا وليلا ، ولقد سألتهما الآن لتوهما عن رغباتهما وذهبت الى المطبخ لتطهى لهما ما يشتهيان ، ولقد تحاملت على نفسها ونهضت من أجلهما ، فهى مريضة منذ الظهر وكانت ترقد على الأريكة · ولكننا ، على الرغم من أنها لا تهتم بشئوننا ، نتبعها كما لو كانت هى الكبرى ، وهى لو نصحتنا بشىء فى

أمورنا لاتبعناها بكل تأكيد ، ولكنها لا تفعل ذلك فنحن غرباء عنها ٠ وأنت رجل ذو خبرة بالناس ، وأنت قادم من الغربة ، فقل : ألا تبدو لك شديدة الفطنة ؟

فقال ك :

ـ انها تبدو لى شديدة التعاسة ، ولكن كيف يتفق مع احترامكم لها ان برناباس يقوم مثلا بأعمال الساعى هذه الأعمال التى لا ترضى هى عنها ولعلها تحتقرها ؟

فردت قائلة :

ـ لو انه عرف له عملا آخر يقوم به بدلا من شغلة الساعى هـذه التى لا ترضيه لما تأخر عن الانصراف عنها ٠

فسأل ك :

ـ أليس هو عامل فنى فى صناعة الأحذية ؟

فقالت أولجا :

ـ بلى بكل تأكيد،وهو الى جانب عمله كساع يعمل لدى برونسفيك، ولو شاء لوجد هناك عملا يكفيه ليلا ونهارا ولربح كثيرا ٠

وقال ك :

ـ فماذا يمنعه ؟ ألا يجد بديلا له لوظيفة الساعى ؟

وسألت أولجا مندهشة :

ـ تقول بديلا له فى وظيفة الساعى ؟ فهل هو قد قبل هذه الوظيفة من أجل الربح ؟

وقال ك :

ـ ليكن ٠ ولكنك قلت انها لا ترضيه ٠

فقالت أولجا :

ـ انها لا ترضيه ، وله فى ذلك أسباب مختلفة ، ولكنها على أية حال خدمة للقصر ، أو على أية حال من خدمة القصر ، وهذا ماينبغى على الانسان على الأقل أن يؤمن به ٠

فقال ك :

ـ كيف هذا ؟ هل أنتم فى شك حتى من هذا ؟

فقالت أولجا :

ـ في الحقيقـة لا يساورنا في ذلك شـك · فبرناباس يذهب الى دواوين المستشارية ويخالط الخدم هناك كواحد منهم ، ويرى من بعيد بعض الموظفين متفرقين ، ويتلقى رسائل ذات أهمية نسبية ، بل يتلقى أحيانا رسائل شفهية لينقلها كما سمعها ، وهـذا كثير ، ولنا أن نفخر بما استطاع أن يحققه وهو ما يزال في سن الشباب الغض ·

وهز ك رأسه ، ولم يعد يفكر الآن في العودة · وسأل :

ـ هل لديه زى خاص ؟

فقالت أولجا:

ـ أتعنى السترة ؟ لا ، لقد صنعتها له أماليا حتى قبل أن يعمل ساعيا · ولكنك تقترب من النقطة الحساسة · فقد كان يتوقع منذ وقت طويل أن يحصل لا على زى رسمى ، فليس هناك شيء كهذا في القصر ، ولكن على بذلة ، ولقد تلقى تأكيدا بهذا ، ولكنهم في القصر يسيرون ببطء شديد فيما يتعلق بمثل هذه الموضوعات ، وأقبح شيء هنا هو أن الانسان لا يعلم معنى هذا البطء ، فقد يعنى أن الموضوع يسير سيره الروتيني ، ولكنه قد يعنى كذلك أن الموضوع لم يبدأ سيره بعد ، أى انهم يريدون على سبيل المثال اختبار برناباس ، ومن الممكن أن يعنى البطء أيضا أن الاجراءات انتهت ، وأن التأكيد الذى سبق أن أعطى لبرناباس قد سحب لسبب من الأسباب فلن يحصل على البدلة أبدا · ولا يستطيع الانسان أن يعرف شيئا أكثر دقة ، أو لعل الانسان يعرفه بعد مضى وقت طويل · والناس هنا يتناقلون حكمة لعلك تعرفها : ان القرارات الحكومية خجولة كالبنات الصغيرات ·

فقال ك وقد تناول العبارة بجد أكثر مما فعلت أولجا :

ـ هذه ملاحظة طيبـة ، ملاحظة طيبـة ، وربما اتصفت القرارات الحكومية بصفات أخرى من تلك التى تتصف بها البنات الصغيرات ·

وقالت أولجا :

ـ ربما · وأنا لا أعرف مقصـدك · وقد تقصـد مدحها · أما فيما يختص بالبدلة الحكومية ، فهى هم من الهموم التى يعانى برناباس منها ، ولما كنا نتشارك في حمل الهموم فانها كذلك من همومى · اننـا نتساءل لماذا لا ينال البدلة الحكومية · والموظفون ، على قدر علمنا ، وعلى ما يحكى برناباس يلبسون الملابس العادية ، وهى بطبيعة الحال ملابس

جميلة . وأنت قد رأيت كلم . وبرناباس ليس بطبيعة الحال موظفا ، ولا حتى من أحط درجة ، وهو ليس من الخطل بحيث يرجو أن يصبح موظفا . ولقد حكى برناباس أن بعض كبار الخدم ممن لا تصل اليهم الأنظار هنا في القرية بطبيعة الحال لا يلبسون بدلا حكومية . وقد يظن الانسان ان في هذا شيء من عزاء ، ولكن هذا أمر مضلل ، فهل برناباس من كبار الخدم ؟ لا ، وحتى اذا كان يحظى بالحب الشديد ، فليس هناك من يستطيع أن يقول انه من كبار الخدم ، والدليل على ذلك انه يأتي الى القرية ، بل ويقيم فيها ، وكبار الخدم أكثر تحفظا من الموظفين ، وربما كان لهم حق في ذلك ، وربما كانوا أرفع قدرا من بعض الموظفين . وهناك بعض الأدلة على ذلك : فهم يشتغلون أقل ، ولقد قال برناباس ان منظر هؤلاء الرجال الأقوياء الفارعين المختارين وهم يزحفون ببطء شديد خلال الممرات والأروقة منظر رائع ، وبرناباس يتلمس طريقه بينهم بالالتفاف المتستر حواليهم . والخلاصة انه لا يمكن القول بأن برناباس من كبار الخدم . ومعنى هذا انه قد يكون واحدا من صغار الخدم ، ولكن هؤلاء الخدم الصغار يلبسون البدل الحكومية ؟ على الأقل عندما ينزلون الى القرية ، وهذه البدلة الحكومية ليست زيا رسميا بمعنى الكلمة ، هذا الى أن هناك اختلافات كثيرة تعتورها ، ومهما يكن من أمر فان الانسان يتبين الخادم القادم من القصر بالنظر الى ثيابه ، ولقد رأيت أنت نفسك بعض هؤلاء الرجال في حانة السادة . وأبرز ما في هذه الثياب انها غالبا ضيقة تلتصق بالجسم التصاقا شديدا ، فما يمكن لفلاح أو عامل أن يستخدمها . اذن فبرناباس ليس لديه مثل هذه البدلة ، وليس هذا الأمر من الأمور المخجلة المزرية فحسب ، فهذا مما يمكن احتماله ، ولكنه من الأمور التي تجعل الانسان يشك في كل شيء خاصة في الساعات الحزينة ، ولقد مرت بنا ، ببرناباس وبي ، تلك الحال مرات ليست بالقليلة . عند ذاك نتساءل هل هذا العمل الذي يقوم به برناباس خدمة للقصر . انه بكل تأكيد يذهب الى بعض المكاتب الحكومية ، وما هذه الا جزء من الكل ، عندها حواجز من ورائها مكاتب أخرى . وليس هناك من يمنعه من النفاذ اليه منعا ، ولكنه لا يستطيع أن يتقدم اليها عندما يجد مرءوسيه الذين يتصرفون فيما لديه من أمور ويصرفونه . والانسان هناك عرضة للمراقبة الدائمة ، أو هو على الأقل يظن ذلك . وحتى اذا هو تقدم ، فما هو النفع الذي يمكن أن يصيبه ، اذا لم يكن لديه عمل فأصبح هناك دخيلا ؟ ولا ينبغي أن تتصور هذه الحواجز على انها حدود معينة ــ وهذا شيء لايفتأ برناباس يلفت نظري اليه . فهناك كذلك حواجز في المكاتب التي يذهب

اليها • ومعنى هذا أن هناك حواجز يتخطاها وليس منظرها بمختلف عن منظر تلك التى لم يتخطاها بعد ، ولهذا فمن الممكن أن يذهب الانسان مسبقا الى أن المكاتب التى تقع خلف هذه الحدود الأخرى لاتختلف اختلافا جوهريا عن تلك التى عرفها برناباس • كل ما فى الأمر أن الانسان فى ساعات حزنه يظن ذلك • ثم يستمر الشك ولا يستطيع الانسان أن يقاومه • ويتكلم برناباس مع موظفين ، ويتلقى رسائل • ولكن من هؤلاء الموظفين ؟ وما هى هذه الرسائل ؟ لقد قال انه نقل الى كلم ، وانه يتلقى منه شخصيا الأوامر • وهذا كثير جدا ، فكبار الخدم أنفسهم لا يصلون الى هذا الحد ، هذا كثير جدا ، بل هو أكثر مما ينبغى ، وهذا هو المخيف من أمره • تصور انه نقل الى كلم مباشرة وانه يكلمه ويسمع منه ! ولكن الأمر فعلا كذلك ؟ نعم انه كذلك ، ولكن لماذا يشك برناباس فى أن ذلك الموظف الذى يسمونه كلم هو فعلا كلم ؟

فقال ك :

ــ يا أولجا ، انك لا تريدين أن تمزحى معى ، كيف يمكن أن يكون هناك شك فى شكل كلم ، ان شكله معروف ، ولقد رأيته أنا بنفسى •

فقالت أولجا :

ــ لا بكل تأكيد يا ك ، ليس هذا مزاحا ، بل هو أمر أهتم له جادة أشد الجد • وأنا لا أحكى لك هذا لأخفف عن نفسى ولأثقل عليك ، ولكنك سألت عن برناباس ، فكلفتنى أماليا بأن أحكى لك الحكاية ، هذا الى أننى أعتقد أنه من المفيد لك أن تعرف الأشياء على نحو أكثر دقة • وأنا أحكى لك ما أحكى من أجل برناباس نفسه ، حتى لا تعقد عليه آمالا كبيرة جدا فيخيب رجاءك ويتألم لخيبتك • فهو حساس جدا ، وهو على سبيل المثال لم ينم فى هذه الليلة لأنك لم تكن راضيا عنه بالأمس ، فقد قلت له انك مستاء أشد الاستياء لأنك أوتيت رسولا مثل برناباس • لقد نفت كلماتك النوم عن عينيه • ويبدو انك لم تلحظ شيئا من الاضطراب الذى استبد به • فمن واجب سعاة القصر أن يضبطوا أنفسهم وأن يتحكموا فيها أشد التحكم • ولكن عمله ليس بالسهل ، حتى معك • وأنت فى تصورك لا تتطلب الكثير منه ، لقد أتيت تحمل تصورات معينة عن السعاة وكيف يكون عملهم ، وأنت تقيس عليها المطالب التى تفرضها عليه • ولكنهم فى القصر يتصورون عمل السعاة على نحو آخر ، وهى تصورات لا تتفق مع تصوراتك ولا يمكن التوفيق بينها حتى لو ضحى برناباس كل التضحية فى العمل وهو ما يبدو عليه أحيانا انه مستعد له • والأحرى بالانسان

أن يطيع وألا يعترض ، لو لم تكن المسألة مسألة العمل الذى يقوم به وهل هو فعلا عمل السعاة • ليس له أن يبين لك اى شك بطبيعة الحال ، لأن ذلك معناه أن يضيع حياته ، وأن يخرج خروجا بشعا على قوانين يظن هو انه لا يزال يخضع له ، وهو لا يتكلم بحرية حتى عندما يتكلم معى ، وليس لدى من وسيلة لتبديد شكوكه الا التدليل والتقبيل ، وحتى عندما أفعل ذلك أجده يمتنع عن اعتبار الشكوك شكوكا • ان لديه شيئا من أماليا فى دمه • وهو بكل تأكيد لا يقول لى كل شىء على الرغم من اننى الوحيدة التى يضع فيها ثقته ويأمن اليها • على اننا نتكلم أحيانا عن كلم، وأنا لم أر كلم بعد — وأنت تعرف أن فريدا لا تحبنى كثيرا وما كانت لتسمح لى بان أتطلع اليه — على أن شكله معروف بطبيعة الحال فى القرية ، فقد رآه بعض الأهالى ، وكلهم سمعوا عنه ، ولقد تكونت صورة لكلم من التصورات والشائعات ومن بعض النوايا الثانوية المزيفة ، وهى صورة صحيحة فى خطوطها الأساسية ، ولكن فى خطوطها الأساسية فقط ، وفيما عدا ذلك فهى صورة متغيرة ، ولعلها ليست متغيرة بالدرجة التى يتغير بها شكل كلم فى الحقيقة • ويقال ان شكله يختلف عنها اختلافا تاما عندما يأتى الى القرية ، ويختلف عنها عندما ينصرف عن القرية ، ويختلف عنها قبل أن يشرب البيرة ، ويختلف بعد أن يشرب البيرة ، ويختلف عندما يصحو ويختلف عندما ينام ، ويختلف عندما يكون وحده ، ويختلف عندما يتحدث ، ويختلف اختلافا أساسيا — وهذا شىء بديهى — عندما يكون فى القصر • بل ان الروايات المتناقلة فى القرية تتضمن اختلافات كبيرة جدا ، اختلافات فى الطول وفى المظهر والبدانة واللحية ، وهى ، لحسن الحظ ، تتفق فيما يتعلق بالثوب الذى يرتديه ، انه يرتدى دائما نفس الثوب : حلة سوداء لها سترة ذات طرفين طويلين • على أن هذه الاختلافات لا ترجع الى أسباب من السحر ، بل هى اختلافات بديهية ترجع الى المزاج فى لحظة بعينها ، والى درجة الانفعال والى درجات متباينة لا حصر لها من الأمل أو اليأس يكون فيها المشاهد الذى لا يكون له فى غالب الأحيان أن يرى كلم الا لحظة • وأنا أحكى لك هذا كما حكاه لى برناباس مرارا ، ولمن لم يتصل بالموضوع اتصالا شخصيا مباشرا أن يكتفى بهذا بصفة عامة وهو قرير العين • أما نحن فلا نستطيع أن نهدأ أو نقر عينا ، هل هذا الذى يتكلم معه هو بالفعل كلم أم لا ؟ ذلك موضوع حياة أو موت بالنسبة لبرناباس •

فقال ك :

— وهو كذلك بالنسبة الى أنا كذلك •

وتقارب الاثنان فى مجلسهما على الأريكة ٠

والحقيقة ان هذه الأخبار الجديدة غير المواتية التى نقلتها أولجا الى ك حزت فى نفسه ، ولكنه وجد الكثير من السلوى فى أنه يلتقى هنا بأناس يجرى عليهم ، على الأقل على قدر ما يبدو فى الظاهر ، شيء شديد الشبه بما يجرى عليه ، فهو يستطيع لذلك أن ينضم اليهم وأن يتفاهم معهم فى كثير من الأمور لا فى بعضها فقط كما هى الحال مع فريدا ٠ وهو اذا كان قد فقد الأمل فى اصابة نجاح عن طريق سعاية برناباس ، فهو يقترب من برناباس هنا فى القرية اقترابا يتزايد كلما يتزايد ما يلقاه برناباس من سوء ، وما كان ك قد فكر قط فى ان هناك مسعى تعيسا ينطلق من القرية مثل مسعى برناباس وأخته ٠ على ان هذا المسعى كان بطبيعة الحال أبعد ما يكون عن الوضوح ، ولعل محاولة توضيحه كانت ستظهره على عكس ما يبدو الآن ، وما كان ينبغى على المرء أن يدع ما فى شخصية أولجا من براءة أو نحوها يغويه توا وينتهى به الى الايمان بصدق برناباس ٠

وأردفت أولجا :

ـ وبرناباس يعرف المقالات التى تتناول شكل كلم معرفة جيـدة جدا ، فقد جمع الكثير منها ، وقارن بينها ـ بل لعله جمع منها أكثر من اللازم ـ ولقد رأى ذات مرة كلم فى القرية من خلال نافذة العربة أو لعله اعتقد انه رآه وبهذا اكتمل له ما يكفى من أساس للتعرف على كلم ، ومع ذلك ـ وكيف يمكنك أن تفسر هذا ؟ ـ فقد ذهب ذات مرة الى مكتب من مكاتب المستشارية فى القصر فأشار له بعضهم على واحد من بين موظفين كثيرين وقال له عنه انه كلم ، فلم يتعرف برناباس عليه ، وظل بعد ذلك وقتا طويلا لا يستطيع أن يقنع نفسه بأن هذا الذى رآه هو كلم ٠ واذا أنت سألت برناباس عن وجه الاختلاف بين ذلك الرجل الذى رآه وبين الصورة الشائعة عن كلم ، لم يستطع الاجابة ، أو أجاب فوصف الموظف الذى رآه فى القصر ، واذا بالوصف يطابق تماما وصف كلم على نحو مانعرفه ٠ وأقول لبرناباس « ومادام الأمر كذلك ، فلماذا تشك يابرناباس ولماذا تعذب نفسك ؟ » فيبـدأ ، وقد استبدت به حـيرة مؤرقة ظاهرة لا تخطئها العين ، فى تعداد صفات خاصة لموظف القصر ، يبدو عليه أنه لا يحكيها عن خبرة بل يبتدعها ابتداعا ، وهى على الرغم من ذلك طفيفة ـ تتناول على سبيل المثال ايماءة خاصة بالرأس أو الصدرية غير المزررة ـ لا يمكن للانسان أن يأخذها مأخذ الجد ٠ أما الشيء الذى يتسم فى نظرى بمزيد من الأهميـة ، فطريقة كلم فى التعـامل مع برناباس ٠ وكثيرا

ما حدثني برناباس عنها ، بل ووضحها لي بالرسم . لقد جرت العادة على اقتياد برناباس الى مكتب كبير من مكاتب المستشارية ، ليس مكتب موظف واحد ، بل هي حجرة تقسمها طوليا منصة عالية واحدة تمتد من حائط الى الحائط الآخر الى قسمين قسم ضيق لا يكاد ليعبر فيه شخصين أحدهما على الآخر : هذا هو مكان الموظفين ، وقسم واسع هو مكان أصحاب الحاجات والمتفرجين والخدم والسعاة . وهناك على المنصة كتب كبيرة مفتوحة ، صفت أحدها بجوار الآخر ، والموظفون يقفون عند غالبيتها ويطالعون فيها . ولكن الموظفين لا يبقون عند كتاب واحد دائما ، بل يتبادلون ، لا الكتب ، بل الأماكن ، وأعجب شيء في رأى برناباس هو مشهد الموظفين وهم يمرون بعضهم على البعض أثناء تبادل الأماكن في هذه المساحة الضيقة . وهناك في المقدمة موائد صغيرة منخفضة ملاصقة للمنصة يجلس اليها كتبة يكتبون ما يمليه عليهم الموظفون . وبرناباس يدهش دائما لطريقة الاملاء والكتابة . فالموظف لا يصدر أمرا واضحا الى الكاتب بأن يكتب ما سيمليه عليه ، والموظف لا يملي بصوت عال ، حتى ان الانسان لايكاد يلحظ انه يملي ، بل يراه وقد بدا عليه انه يقرأ كما كان يقرأ من قبل ، أو هو يهمس ، والكاتب يسمع همسه . وكثيرا ما يملي الموظف بصوت شديد الانخفاض لا يستطيع الكاتب أن يسمعه وهو جالس فهو يهب واقفا ليتلقف الجملة ، ثم يجلس بسرعة ليكتبها ، ثم يهب واقفا مرة أخرى وهكذا دواليك . ما أغرب هذا ! انه شيء لايكاد الانسان يفهمه. أما برناباس فلديه متسع من الوقت بطبيعة الحال ليشاهد هذا كله ، فهو يقف في مكان المتفرجين ساعات بل أياما قبل أن تقع عليه نظرة كلم . وحتى عندما يراه كلم ، ويتخذ برناباس وضع الانتباه ، فان هذا لايعني أن الأمر قد قضي ، فمن الممكن أن ينصرف كلم عنه الى الكتاب وينساه . وهذا ما يحدث كثيرا . فما هو عمل الساعي هذا الذي يتجرد الى هذا الحد من الأهمية ؟ ان الحزن ليتملك نفسي عندما يعلن برناباس في ساعة مبكرة من الصباح انه ذاهب الى القصر . وأفكر في هذا الطريق الذي يقطعه على ما يبدو في غير نفع ، وفي اليوم الذي يبدو انه يضيعه ، وفي هذا الأمل الذي يبدو أنه لا جدوى وراءه . ما فائدة هذا كله ؟ وهنا الكثير من العمل في صناعة الأحذية يتكدس ولا ينجزه أحد وبرونسفيك يلح على برناباس أن يقوم به .

فقال ك :

ـ حسن . اذن فبرناباس يتحتم عليه أن ينتظر طويلا الى أن يكلف بعمل . هذا شيء يصعب فهمه ، ويبدو أن عدد الموظفين هنا كبير مفرط

لا يمكن معه أن يكلف كل ساع بعمل ، ولا ينبغى أن يكون هذا سبب للشكوى فهذا أمر يستوى الجميع أمامه . ثم ان برناباس يكلف هو كذلك ببعض المهام ولقد أحضر الى أنا خطابين .

وقالت أولجا :

ـ من الممكن ألا نكون على حق فى الشكوى ، وبخاصة أنا التى لا أعرف الأمور الا سمعا والتى لا أستطيع باعتبارى بنتا أن أحسن فهمها كما يفعل برناباس الذى يخفى عنى من حين لآخر بعضها . ولكن أسمع حكاية الخطابات ، وعلى سبيل المثال حكاية الخطابات التى تلقيتها أنت . ان برناباس لايتلقى هذه الخطابات من كلم مباشرة ، بل من الكاتب . فى يوم من الأيام ، وفى ساعة من الساعات ـ ولهذا فان عمل برناباس وان بدا سهلا متعب مرهق لأن عليه أن ينتبه دائما وبغير انقطاع ـ يتذكره الكاتب ويشير اليه اشارة . ولا يبدو على كلم انه هو الذى اتخذ بهذا قرارا ، لأنه يكون عاكفا على القراءة فى كتابه ، أو يكون فى تلك اللحظة بالذات مشغولا بتنظيف نظارته ـ وهو ما يفعله كثيرا فى غير هذا الظرف ـ عندما يأتى برناباس ، ولعله ينظر اليه أثناء تنظيفه النظارة ، هذا اذا كان يستطيع الرؤية بدون نظارة ، وبرناباس يشك فى ذلك ، ذلك أن كلم يكون مطبقا جفنيه ويلوح كأنه ينام وكأنه ينظف النظارة فى المنام . وفى هذه الأثناء يبحث الكاتب بين الملفات الكثيرة والرسائل والخطابات التى يحتفظ بها تحت المنضدة خطابا ل ـ ك ، خطابا لم يكتبه لتوه ، بل هو خطاب يدل الظرف الذى يحتويه على انه قديم جدا ظل هناك زمنا طويلا . فاذا كان هذا الخطاب خطابا قديما فلماذا تركوا برناباس ينتظر فيطول انتظاره؟ ولماذا تركوك أنت أيضا تنتظر فيطول بك الانتظار؟ ثم لماذا تركوا الخطاب ينتظر حتى أصبح خطابا قديما ؟ وهم يسيئون الى سمعة برناباس فيظهر بمظهر الساعى الردىء البطىء . ان الكاتب يسهل الأمر على نفسه فيدفع بالخطاب الى برناباس قائلا « من كلم الى ك » وبهذا يكون على برناباس أن ينصرف . ويأتى برناباس الى البيت لاهثا يحمل الخطاب الذى حصل عليه أخيرا ، يحمله تحت قميصه على جسمه ، ونجلس هنا على الأريكة كما نجلس الآن ، فيحكى الحكاية ، ونبحث نحن الأمور تفصيليا ، ونقدر النتيجة التى وصل اليها ، ونتبين فى النهاية انها قليلة جدا ، وأنها مع قلتها مشكوك فيها ، فيضع برناباس الخطاب بعيدا ، فلا هو يجد رغبة فى توصيله ، ولا هو يحس رغبة فى النوم ، ويفكر فى الاشتغال بصناعة الأحذية ، ويظل طوال الليل جالسا على هذا الكرسى الصغير

هناك لا يغمض له جفن . هذا هو الأمر ، وهذه هى يا ك أسرارى ، ولعلك لا تدهش الآن لاعراض أماليا عنها .

وقال ك :

ــ وماذا عن الخطاب ؟

فقالت أولجا :

ــ آه الخطاب ؟ بعد وقت قد يطول الى أيام وأسابيع ، وبعد الحاح شديد على برناباس يأخذ الخطاب ويذهب ليسلمه . وهو فى هذه الأمور الظاهرية يتبعنى ويخضع لى الى حد كبير . وأنا أستطيع ، بعد أن يتبدد الانطباع الأول الذى أحدثته فى روايته ، أن أتمالك نفسى ، وهو مايبدو عليه انه يستطيع فعله ، لأنه يعرف أكثر مما أعرف . فأقول له ما قلته له من قبل مرارا وتكرارا مثلا : « ماذا تريد بالضبط يا برناباس ؟ ماهى الوظيفة وماهى الأهداف التى تحلم بها ؟ أتريد أن تنتهى بتصرفك الى حيث تضطر الى تركنا وتركى نهائيا ؟ هل هذا هو هدفك ؟ ألا ينبغى على أن أصدق أنه من غير المفهوم انك تسخط هذا السخط البشع على ما قد وصلت اليه ؟ فانظر حواليك هل ترى بين جيراننا من وصل الى ماوصلت أنت اليه ؟ حقيقة ان وضعهم يختلف عن وضعنا ، فليس لديهم سبب للطموح الى أبعد مما تحقق لهم ، هذا الى أن المرء ــ حتى اذا لم يقارن حاله بحال الآخرين ــ لابد أن يرى أن كل شىء لديك يسير على خير ماينبغى . هناك عوائق ، وشكوك وألوان من الخيبة ، ولكن هذا لا يعنى الا ما كنا نعرفه من قبل ، وهو أنك لن تنال شيئا هدية ومنحة ، بل ينبغى عليك أن تنال كل صغيرة بالكفاح والنضال.وهذا سبب آخر لفخارك لا ليأسك. ثم انك تناضل كذلك من أجلنا ، أليس كذلك ؟ ألا يعنى هذا بالنسبة اليك شيئا ؟ ألا يمنحك هذا قوة جديدة ؟ أما تحس بالاطمئنان لسعادتى وأكاد أقول كبريائى بأن لى أخا مثلك؟ انك تخيب رجائى لا أقول فيماحققت بالقصر ، بل فيما حققت أنا فيك . ان لك أن تدخل القصر ، وان لك أن تتردد على مكاتب المستشارية زائرا دائما ، وان لك أن تقضى الأيام الطوال فى نفس الحجرة التى يكون كلم فيها ، وانت ساع معترف بك رسميا ، وأنت صاحب حق فى الحصول على بدلة رسمية ، وأنت تأخذ خطابات هامة لتوصلها الى أصحابها ، أنت كل هذا ، ولك ان تفعل كل هذا ، ثم اذا بك تنزل الى هنا ، وبدلا من أن نتعانق باكين من فرط السعادة ، اذا بك عندما ترانى تبدو كأنك تفقد كل شجاعة . انك تشك فى كل شىء ، ولا يستهويك الا العمل فى صناعة الأحذية ، انك لتترك

الخطاب ، ضمان مستقبلنا ، ولا تهتم به • هكذا أتكلم معه ، وأظل الح عليه وأكرر عليه الكلام نفسه الأيام الطوال حتى يتناول الخطاب زافرا ويذهب به • ويبدو انه عندما يفعل ذلك لا يفعله نتيجة لتأثير كلماتى، وانما هو يهفو الى القصر من جديد ، وأنى له أن يجرؤ على الذهاب الى هناك اذا لم ينجز المهمة •

وقال ك :

ــ ولكنك على صواب فى كل ما تقولين له • لقد لخصت كل شيء تلخيصا صائبا صوابا يدعو الى الدهشة • وانك لتفكرين تفكيرا واضحا وضوحا عجيبا •

فقالت أولجا :

ــ لا ، انك تغتر بكلامى ، ولعلى أغره هو كذلك به • فما هذا الذى وصل اليه ؟ ان له أن يدخل الى مكتب من مكاتب المستشارية ، ولكن هذا المكتب ليس على ما يبدو من مكاتب المستشارية ، انه على الأحرى دهليز مكاتب المستشارية ، ولعله ليس حتى دهليزا ، بل ربما كان حجرة يحجز فيها كل الذين لا يسمح لهم بالدخول الى مكاتب المستشارية الحقيقية • وانه يتكلم مع كلم • ولكن هل هو حقا كلم ؟ أليس هو على الأحرى رجل يشبه كلم ؟ لعله على أكثر تقدير سكرتير يشبه كلم قليلا ويجتهد فى أن يكون أكثر شبها به ، فيتصنع الأهمية على طريقة كلم الناعسة الحالمة • وهذه الناحية من شخصيته أسهل ناحية فى التقليد ، وهناك كثيرون يحاولون تقليده فيها ، وينصرفون بطبيعة الحال عن النواحى الأخرى فى شخصيته بدافع الحكمة والفطنة • وان رجلا كثيرا ما تحلق حوله الآمال ولا تصل اليه فيما ندر ، مثل كلم ، ليتخذ بسهولة فى خيال الناس صورا مختلفة • ولكلم على سبيل المثال هنا سكرتيرا فى القرية اسمه موموس • هكذا ؟ انت اذن تعرفه ؟ هذا الرجل يعتزل الناس أشد الاعتزال ، ولكننى رأيته عدة مرات • انه شاب قوى ، أليس كذلك ؟ يعنى أنه لا يشبه كلم بداهة بحال من الأحوال • ومع ذلك فيمكنك أن تجد فى القرية أناسا ، يقسمون الأيمان المغلظة على أن موموس هو كلم • وهكذا يعمل الناس أنفسهم على احداث الاضطراب فى أنفسهم • وهل تختلف الحال فى القصر عنها هنا ؟ لقد قال بعضهم لبرناباس ان ذلك الموظف هناك هو كلم ، والحقيقة أن ثمة شبها بين الاثنين ، ولكنه شبه لا يفتأ برناباس يشك فيه • وكل شيء يدعم شكه وارتيابه • فهل من المعقول أن يزج كلم بنفسه فى هذه الحجرة العامة بين الموظفين الآخرين واضعا

القلم خلف صيوان اذنه ؟هذا شيء مستبعد أشد الاستبعاد . وكثيرا ما قال برناباس بطريقة صبيانية - وهذه نزوة لا ريب فيها - ان هذا الموظف يشبه كلم أشد الشبه . ولو كان يجلس في غرفته الخاصة ، الى مكتبه وكان اسمه مكتوبا على بابه ، لما ساورتني الشكوك . هذا كلام صبياني ، ولكنه معقول . ولو استعلم برناباس ، عندما يكون هناك ، لدى الكثيرين عن حقائق الأمور ، لكان ذلك أكثر معقولية . وهو يقول ان الحجرة تغص بالناس . وحتى اذا لم تكن معلوماتهم أكثر يقينا من معلومات ذلك الرجل الذي أشار له ، دون ما سؤال منه ، الى كلم ، فانها ستؤدي في تنوعها الى نقاط ارتكاز ومقارنة أيا كانت . وليست هذه فكرتي ، بل فكرة برناباس ، ولكنه لا يجرؤ على تنفيذها ، خوفا من أن يفقد وظيفته نتيجة لمخالفة غير مقصودة للوائح لا علم له بها ، فهو لا يجرؤ على الحديث الى آخرين في هذا الأمر لشدة خوفه . وان هذا الخوف في الحقيقة لخوف مؤسف - وانه ليوضح لي مركزه توضيحا دونه كل وصف . ما أشد ما يلوح له كل شيء هناك مريبا مخيفا ، اذا كان لا يجرؤ حتى على فتح فمه بسؤال بريء . وأنا عندما أفكر في هذا ، ألوم نفسي لأنني أدعه يذهب وحده الى هذه الأماكن المجهولة التي تجري فيها الأمور على هذا النحو ، فيضطر - وهو في الحقيقة رجل أقرب الى التهور منه الى الجبن - على ما يبدو الى الارتعاد من الخوف .

فقال ك :

- انك تصلين هنا ، على ما اعتقد ، الى النقطة الحاسمة . هذه هي الحقيقة . انني أعتقد أنني أرى الأمور بوضوح بعد كل هذا الذي رويته . ان برناباس صغير على هذه المهمة . ولا يمكن أن يأخذ الانسان شيئا مما يحكيه ، مأخذ الجد ، هكذا بكل بساطة . فما دام هو يذوب هناك من فرط الخوف ، فانه لا يستطيع أن يلاحظ ما يعرض له ، فاذا ما اجبره أحد هنا على الحديث ، فلن يقوم حديثه الا على حكايات خرافية مضطربة . وأنا لا أعجب لذلك . ان الخوف من السلطات شيء غريزي فيكم هنا ، وانه ليغرس فيكم طوال حياتكم بشتى الطرق ومن كافة النواحي ، وأنتم تعينون على ذلك وتسيرونه ما استطعتم . ومع ذلك فأنا لا أعترض على ذلك في أساسه بشيء ، فاذا كانت السلطات طيبة ، فلم لا يحترمها الانسان ؟ ولكن ما ينبغي أن تبعثوا فجأة بشاب غرير مثل برناباس لم يتجاوز حدود قريته الى القصر ، وتطالبوه بأن ينقل لكم بصدق ما يعرض له ، وتفسروا كل كلمة من كلماته وكأنها من كلمات الوحي وتربطوا مصير حياتكم بهذا التفسير . ليس هناك خطأ أشد من هذا . ولقد تركته

أنا ، يضللنى ، وعقدت عليه صنوفا من الأمل ، وقاسيت منه ضروبا من الخيبة ، وكان الأمل والخيبة لا يقومان الا على أساس كلماته ، أى انهما لم يكونا يقومان على شيء .

وصمتت أولجا . وراح ك يقول :

ـ لن يكون من السهل على أن أخطئك فى الثقة التى تثقينها فى أخيك ، فأنا أرى كيف تحبينه ، وأرى ما تنتظرينه منه . ولكننى فاعل لأسباب كثيرة من بينها على الأقل ، حبك وآمالك . فهناك شيىء ـ ولست أعرف ما هو ـ يعوقك دائما عن أن تتبينينى تماما لا ما قد بلغه بل ما قد ناله منحة . ان له أن يذهب الى مكاتب المستشارية ، أو اذا شئت الى دهليز ، اذن فهو دهليز ، ولكن هناك أبوابا تؤدى الى ما بعدها ، وحواجز يمكن اجتيازها لمن قدر له ذلك . فأنا على سبيل المثال لا أستطيع ، على الأقل مؤقتا ، أن اطأ هذا الدهليز بحال من الأحوال . وأنا لا أعرف مع من يتكلم برناباس هناك ، ربما كان ذلك الكاتب أحط الخدم ، وحتى لو كان أحط الخدم ، فهو يستطيع أن يؤدى الى من يستطيع أن يذكر اسمه ، واذا لم يكن يستطيع أن يذكر اسمه ، فانه يستطيع على الأقل أن يحيل المرء على من يستطيع ذكر اسمه . ومن الممكن الا يكون بين من يقال انه كلم وبين كلم الحقيقى شيء مشترك على الاطلاق ، وربما كان للشبه وجود الا أمام اضطراب عينى برناباس العمياوين ، وربما كان هذا الرجل أحط الموظفين درجة ، وربما لم يكن موظفا على الاطلاق ، بل كان رجلا يقوم بمهمة ما يقف من اجلهاالى المنصة ، فيقرأ شيئا ما فى كتابه الكبير ، ويهمس بشيء ويفكر فى شيء ما ، عندما تقع نظرته بعد حين على برناباس ، وحتى اذالم يكن هذا صحيحا ، ولم يكن هو ولم يكن أى فعل من أفعاله يعنى شيئا ، فربما أوقفه بعضهم هناك لغرض ما . وأنا أعنى بهذا كله ان هناك شيئا ما ، شيئا ما يعرض على برناباس ، شيئا ما على الأقل ، أما أن برناباس لا يصل به الشك والخوف واليأس فذنبه هو وحده . وأنا فى هذا لا أزال أعتمد على أساس الحالة المضطربة أشد الاضطراب بل المستحيلة أشد الاستحالة . فاننا نمسك بالخطابات بين أيدينا ، وأنا لا أثق فيها كثيرا ولكننى أثق فيها على أية حال أكثر من كلمات برناباس . وقد تكون هذه الخطابات قديمة ، عديمة القيمة ، أخرجت من بين كومة من خطابات هى كذلك عديمة القيمة ، أخرجت بلا اختيار وبلا فهم يزيد على فهم العصافير الملونة عندما تستخرج بمنقارها فى سوق العيد من بين كومة من الأوراق الورقة التى تحمل بخت هذا أو ذاك من الناس ، قد يكون أمر هذه

الخطابات على هذا النحو ، ولكنها على الأقل تشير الى عمل اشارة ما ، وهذه الخطابات على ما يبدو لى ، وان لم يكن من المؤكد إنها لصالحى ، وهى كما شهد رئيس مجلس القرية وزوجته ممضاة من كلم بيده ، وتحمل ، على ما يرى رئيس مجلس القرية أيضا ، أهمية كبيرة وان كانت أهمية خاصة وقليلة الوضوح ٠

وسألت أولجا :

ـ هل قال رئيس القرية هذا ؟

فأجاب ك قائلا :

ـ نعم ، هذا هو ما قاله رئيس مجلس القرية ٠

فقالت أولجا بسرعة :

ـ سأحكى ذلك لبرناباس فانه سيشجعه جدا ٠

فقال ك :

ـ انه ليس بحاجة الى التشجيع ، وان تشجيعه لا يتم الا بأن تقولى له انه على حق وان عليه أن يستمر على طريقته الحالية ، على أن يعرف انه لن يصل بها الى شيء أبدا ٠ انك تستطيعين أن تشجعى انسانا معصوب العينين تشجيعا شديدا على النظر من خلال العصابة ، فلن يرى شيئا أبدا٠ انه لن يستطيع الرؤية الا بعد أن تنزع عنه العصابة ٠ ان برناباس يحتاج الى المساعدة لا الى التشجيع ٠ عليك أن تتصورى الوضع : السلطات ترتفع هناك عالية بضخامتها التى تستعصى على البيان ـ ولقد كنت أظن قبل قدومى الى هنا اننى أكون عنها صورة تقريبية ٠٠ وما أشد سذاجة هذا الظن ـ هناك اذن السلطات ، وهذا هو برناباس يواجهها وحده ، ليس هناك غيره ، يواجهها وحده على نحو يثير الشفقة ، وفى هذا شرف فارط له اذا لم يكن سيمضى حياته كلها متواريا قابعا فى ركن مظلم من أركان المكاتب ٠

فقالت أولجا :

ـ لا تظن يا ك اننا نقلل من شأن ثقل المهمة التي تولاها برناباس اننا لا نتجرد من احترام السلطات ، ولقد قلت هذا أنت بنفسك ٠

فقال ك :

ـ انه احترام فى المكان الخاطىء ٠ ان هذا الاحترام يجرد المقصود منه من الكرامة ٠ فهل هذا احترام ، اذا كان برناباس يسيء استخدام منحة الدخول الى ذلك المكان ليقضى هناك الأيام دون أن يفعل شيئا ،

او كان ينزل الى هنا ويشك فى أولئك الذين كان يرتعد حيالهم أو ينتقص منهم ، أو كان لأسباب من الشك أو التعب يهمل توزيع الخطابات أو لايعجل بنقل الرسائل التى حمل بها ؟ ليس هذا إحتراما • على أن اللوم لا يقتصر عليه ، انه يشملك أنت كذلك يا أولجا ، ولا يمكنني أن أعفيك منه • فأنت على الرغم من أنك تظنين أنك تكنين الاحترام للسلطات ، ترسلين برناباس بشبابه واهماله وضعفه الى القصر ، أو أنت على الأقل لم ترديه عنه •

فقالت أولجا :

ـ انني كذلك أوجه منذ وقت طويل الى نفسى اللوم الذى توجهه أنت الى • ولكن لا ألوم نفسى على أنى أرسلته الى القصر ، فأنا لم أرسله فقد ذهب هو ذاته من تلقاء نفسه الى هناك ، ولقد كان ينبغى على أن أحول بينه وبين ذلك بكل الوسائل : بالقوة ، بالمكر ، بالاقناع • كان ينبغى على أن أمنعه • وحتى اذاكنت لأتخذ اليوم فى هذا الأمر قرارا ، وأحسست محنة برناباس ومحنة أسرتنا كما أحسست بها فى ذلك الوقت ، اذا كنت اليوم لأتخذ هذا القرار ، وقد وعى برناباس المسئولية كلها والخطر كله ، وأصبح ينصرف عنى مبتسما رقيقا ليذهب الى هناك ، فلن أقرر منعه على الرغم من خبرات هذه الفترة الماضية كلها ، وأظن أنك لو كنت مكانى لما تصرفت على نحو يختلف عن تصرفى • انك لا تعرف محنتنا ، ولذلك فأنت تظلمنا ، وتظلم بخاصة برناباس • لقد كنا فيما مضى أكثر أملا منا الآن ، ولكن أملنا لم يكن فى ذلك الوقت كبيرا ، كانت محنتنا كبيرة وظلت كبيرة • ألم تقص عليك فريدا شيئا من أخبارنا ؟

ـ تلميحات • لم تقل لى شيئا محددا • ولكن اسمكم يكفى وحده لاثارتها •

وقالت أولجا :

ـ وصاحبة الخان كذلك لم تقص شيئا ؟

ـ لا ، لم تقل شيئا •

ـ ولم يقص عليك أحد غيرهما شيئا ؟

ـ لا ، لا أحد •

فقالت أولجا :

ـ طبعا ، وكيف يمكن أن يحكى أحدهم شيئا ؟ ان كل واحد يعرف عنا شيئا ، وهو اما يعرف الحقيقة على قدر بلوغ الناس اياها ، واما على الأقل شائعة متناقلة أو مخترعة فى غالب الأحوال ، وكلهم يفكرون فينا

أكثر مما ينبغي ، ولكننا لا نحكي هذه الأشياء لأحد . فالجميع يخافون من بلوغها ألسنتهم ·وهم في هذا على حق · وهي أشياء من الصعب التعبير عنها ، حتى حيالك يا ك ، وأليس من المحتمل أن تنصرف أنت بعد سماعها وتعرض عنا على الرغم من أنها على ما يبدو لا تمسك الا قليلا ؟ وهكذا نكون قد فقدناك ، أنت الذى ـ ودعنى أعترف لك بهذا ـ تكاد تعنى الآن بالنسبة الى أكثر مما كانت تعنيه بالنسبة الى خدمة القصر · ومع ذلك ـ وهذا التناقض يؤرقنى المساء بطوله ـ ينبغى أن تعرف هذه الأشياء ، لأنك ان لم تعرفها ، لن تبصر بوضعنا ، وستظل ظالما لبرناباس وهو ما سيحز فى نفسى خاصة ، وسنظل نفتقر الى الاتفاق التام ، ولن تستطيع أنت مساعدتنا ، ولن تستطيع تقبل مساعدتنا التى تفوق المألوف · ولكن هناك سؤالا أحب أن أطرحه عليك : هل تريد أن تعرف ؟ ··

فسأل ك :

ـ لماذا توجهين الى هذا السؤال ؟ اذا كانت هذه الأشياء ضرورية فانا أريد أن أعرفها · ولكن لماذا تسألين على هذا النحو ؟

فقالت أولجا :

ـ من تأثير الخزعبلات · انك تنحرف الى أمورنا بريئا ، ولست أكثر اثماً من برناباس ·

فقال ك :

ـ احكى بسرعة ، أنا لست خائفا · انك بخوفك النسائى تجعلين الأمر أكثر سوءا مما هو ·

سر أماليا

وقالت أولجا :

ـ احكمى أنت بنفسك · والموضوع يبدو فى غاية البساطة ·· والانسان لا يفهم لأول وهلة كيف يمكن أن تكون له أهمية كبيرة · هناك موظف كبير فى القصر اسمه سورتينى ·

فقال ك :

ـ لقد سمعت به ، ولقد لعب دورا فى استدعائى الى هنا ·

فقالت أولجا :

ـ لا أعتقد · فان سورتينى لا يكاد يظهر للرأى العام · ألا تخلط بينه وبين سوردينى ، بالدال لا بالتاء ؟··

فقال ك :

ــ أصبت • لقد قصدت سوردينى •

فقالت أولجا :

ــ نعم ، سوردينى مشهور جدا ، انه واحد من أنشــط الموظفين ، وهم يحكون عنه الكثير • أما سوردينى فهو على العكس رجل شديد الاعتزال والكثيرون لا يعرفونه • ولقد رأيته للمرة الأولى والأخيرة قبل ثلاثة أعوام• كان ذلك فى الثالث من يوليه عنــد الاحتفــال الذى أقامه اتحـاد رجال المطافيء ، وكان القصر مشتركا فى الاحتفال وقدم مضخة حريق جـديدة هدية بهذه المناسبة • واشترك سورتينى فى تقديم المضخة ، ويقال انه يشتغل فيما يشتغل بموضوعات اطفاء الحريق (وربمـا حضر ســورتينى الاحتفال نائبا عن موظف آخر ــ فالموظفون كثيرا ما ينوب أحدهم عن الآخر ولهذا كان من الصعب على الانســان أن يعرف اختصاص هـذا أو ذاك الموظف) • وكان يحضر الاحتفال بطبيعة الحال آخرون ، موظفون وخـدم وكان سورتينى يتخذ مكانه فى أقصى الخلف طبقا لخلقه وطباعه • وهــو رجل قصير ضعيف غارق فى التفكير ، ولقد لفت نظر جميــع من لمحوه شكل ثنيات جبهته فكل هذه الثنيات ، وهى كثيرة على الرغم من أنه لم يتجاوز الأربعين ، تتجه فى خطوط مستقيمة على شكل المروحة من جبينه الى عظمة أنفه ، اننى لم أر شيئا من هذا القبيل قط • كان هذا اذن هو الاحتفال • وكنا ، أماليا وأنا ، ننتظر الاحتفال بشوق قبل أن يقـــام بأسابيع ، وهيأنا ملابس الخروج وجددنا فيها ، وكان ثوب أماليا خاصة جميلا ، كانت البلوزة البيضاء الفضفاضة مرفوعة من الأمام الى أعلى •• وكانت تتحلى بشريط من الدانتيللا استعارته أمى لهذا الغرض ، ولقـد استبد بى الحسد حتى اننى قضيت نصف الليلة السابقـة على الاحتفـال أبكى • فلما جاءت صاحبة حان الجسر صباحا لتشاهدنا •

وســـأل ك :

ــ صاحبة خان الجسر ؟

فقالت أولجا :

ــ نعم ، وكانت ترتبط بنا برباط صداقة قوية • جاءت ، واعترفت بأن أماليا حظيت بأكثر منى ، وأقرضتنى عقدهـــا المصنوع من العقيق البوهيمى لتهدئنى • فلما اكتمل استعدادنا وتهيـــأنا للخروج ، وكانت أماليا تقف أمامى والجميع يعبرون عن اعجـــابهم بحسنها ، وقال والدنا « اذكروا كلمتى هذه ، ستنال أماليا اليوم خطيبا » ، انتزعت ــ ولا أعرف

لماذا ـ العقد الذى كنت فخورة به من جيدى وألبسته أماليا ، ولم أعد أحسدها • لقد انحنيت أمام انتصارها ، واعتقدت أن على الجميع أن ينحنوا أمامها ، وربما فوجئنا فى ذلك الوقت بأنها بدت على هيئة غير التى عهدناها ، فهى فى الحقيقة لم تكن جميلة ، ولكن نظرتها الكئيبة التى احتفظت بها على هذا النحو منذ ذلك الوقت ، تجاوزتنا عاليا •• فاذا بنا ننحنى أمامها بمعنى الكلمة تقريبا وعلى غير ارادة منا • ولقد لاحظ الجميع ذلك ، لاحظه لازيمان وزوجته اللذان أتيا ليأخذانا معهما •

وسأل ك :

ـ تقولين لازيمان ؟ ••

وقالت أولجا :

ـ نعم ، لازيمان • لقد كنا فى ذلك الوقت فى مركز مرموق ، وما كان يمكن على سبيل المثال أن يبدأ الحفل بدوننا ، لأن والدنا كان الرئيس الثالث للتدريب فى المطافىء •

وسأل ك :

ـ هل كان الوالد فى ذلك الوقت قويا الى هذا الحد ؟

وهنا تساءلت أولجا وكأنهما لم تفهم تماما ما قاله ك :

ـ والدى ؟••

ثم راحت تقول :

ـ لقد كان قبل ثلاثة أعوام لايزال شابا تقريبا ، يدل على ذلك مثلا أنه عندما حدث حريق فى حانة السادة حمل أحد الموظفين ، وهو جالاتر البدين ، على ظهره وجرى به الى الخارج • ولقد كنت أنا حاضرة عندما حدث ذلك ، والحقيقة انه لم يكن هناك خطر حريق بمعنى الكلمة ، كل ما حدث أن الحطب الجاف المجاور للمدفأة بدأ يثير الدخان ، ولكن جالاتر خاف وصاح من النافذة طالبا النجدة ، وأتت فرقة المطافىء وكان على بى أن يحمله الى الخارج على الرغم من أن النار كانت قد أطفئت تماما • ذلك أن جالاتر رجل ثقيل الحركة وعليه أن يلزم الحيطة فى مثل هذه الأمور ، وأنا لا أحكى هذا الا من أجل أبى ، ولم يمر منذ ذلك الوقت أكثر من ثلاث سنوات ، فانظر اليه كيف يقعد هناك •

وعند ذاك لاحظ ك أن أماليا قد عادت الى الحجرة ، ولكنها كانت عند منضدة الوالدين بعيدة عنهما ، وكانت تطعم بيدها الأم التى لم تكن تستطيع تحريك ذراعيها المصابين بالروماتزم ، وكانت فى الوقت نفسه

تكلم الأب فتحضه على أن يصبر قليلا الى أن تأتي اليه فتطعمه هو أيضا بيدها • ولـكنها لم تصب مع الأب نجاحا ، لأنه وقد دفعه نهمـــه الى الوصول الى الحساء تغلب على ضعفه الجسمانى • وحاول أن يمتص الحساء من الملعقة ثم حاول بعد ذلك أن يشربها من الصـــحن ، ثم أخذ يزمجر غاضبا لأنه فشل فى هذا وذاك ، كانت الملعقة لا تصل الى فمه الا بعد أن تكون قد فرغت تماما ، ولم يكن يبلـــغ بفمه الصحن ، بل كان يغمس شاربه المتدلى فى الحساء الذى كان يتساقط ويتناثر فى كل اتجاه الا فى اتجاه الفم • وعاد ك يسأل ، ولم يكن يحس حيال العجوزين وحيال ركن منضدة العائلة كله بالشفقة بل بالنفور والنفور فقط :

ــ أعوام ثلاثة فقط أحالته الى هذه الهيئة ؟

فقالت أولجا ببطء :

ــ ثلاثة أعوام ، واذا أردنا الدقة ساعات قلائل من حفل ، كان الحفل مقاما على مجر خارج القرية يطل على جدول ، وكان الزحام شديدا عندما وصلنا ، وكان هناك شعب كثير أتى من القرى المجاورة ، وكان الصخب عنيفا اضطربت من أثره أنفاسنا أشـــد الاضطراب • واقتادنا الوالد فى البداية بطبيعة الحال الى مضخة الحريق ، وما أن رآها حتى أخذ يضحك من شدة الفرح ، كانت المضخـــة الجـــديدة تسعده ، وشرع يتحسسها ويشرح لنا ، ولم يكن يحتمل اعتراضا أو يرضى بتحفظ • وكان يلزمنـــا بأن ننحنى تحت المضـــخة بل وبأن نزحف تحتها تقريبـــا لنرى الأجزاء السفلية منها ، فلما تقاعس برناباس عن ذلك ، انهال الوالد عليه ضربا • أما أماليا فلم تهتم بالمضخة ، وظلت واقفة معتدلة القامة فى ثوبها الجميل ولم يجرؤ أحد على أن يقول لها شيئا ، أما أنا فجريت اليهـــا عدة مرات ولمســـتها من تحت ذراعها ولكنها ظلت صامتة • ولا أزال الى اليوم أجهل كيف وقفنا أمام المضخة هذه المدة الطويلة ، ولم نتبين ، الا عندما انصرف الوالد عنها ، ان سورتينى كان هناك ، ويبدو أنه كان يقف طوال الوقت وراء المضخة مستندا الى رافعة من روافعها ، والحقيقـــة أن الصخب كان فظيعا وكان أكثر من المـــألوف فى مثل هذه الاحتفالات • ذلك أن القصر أهدى الى فرقة المطـــافىء بعض الأبواق ، وكانت آلات خاصة يســـتطيع الانسان بأقل جهد أن يخرج منهـــا أعنف الأنغـــام ــ حتى الأطفال كانوا يستطيعون ذلك بسهولة • وكنا عندما نسمعها نظن أن الأتراك بجيوشهم قد أتوا بالدمار ، ولم نكن نستطيع الاعتياد عليها ، بل كنا كلما نفخ فيها بعضهم ننتفض فزعاً • وكانت الأبواق جديدة ، ولهذا كان كل واحد

يريد أن يجربها ، وكان الحفل حفلا شعبيا ، ولهذا سمحوا للجميع بذلك ٠ وكان حولنا بعض نافخى الأبواق ـ وربما اجتذبتهم أماليا بفتنتها ـ وهكذا كان من العسير على الانسان أن يجمع شتات نفسه ، ثم كان أمر الوالد لنا بالانتباه الى المضخة ، وكان هذا أقصى ما يستطيعه الجهد ٠ وكانت النتيجة اننا ظللنا وقتا طويلا طولا يفوق المألوف لا نتنبه الى سورتينى الذى لم نكن قد رأيناه من قبل ٠ وأخيرا همس لازيمان الى أبى ـ وكنت واقفة قريبة منه : « سورتينى هناك ! » وانحنى أبى انحناءة شديدة ٠ وأشار الينا منفعلا أن ننحنى نحن كذلك ٠ وكان أبى قبل أن يرى سورتينى يبجله كخبير فى شئون الاطفاء ويتحدث عنه فى البيت كثيرا ، ولهذا كانت رؤية سورتينى فى الواقع شيئا مفاجئا وعظيم الأهمية فى الوقت نفسه ٠ أما سورتينى فلم يهتم بنا ـ ولم يكن هذا تصرفا ينفرد به سورتينى ، فقد درج غالبية الموظفين على عدم الاكتراث بالناس عندما يظهرون فى حفل عام ـ ثم انه كان متعبا ، ولم يكن يبقيه فى الحفل الا واجب يفرضه عليه عمله ٠ وليس أسوأ الموظفين هم وحدهم الذين يتأففون من مثل هذه الواجبات التمثيلية ٠ واختلط موظفون آخرون وخدم بين الشعب لا لشىء الا لأنهم كانوا حاضرين ٠ أما هو فقد بقى عند المضخة ، وكان ينفر بصمته كل من حاول أن يقترب منه بالتماس أو تملق وهكذا فانه لم يلحظنا الا بعد أن كنا قد لاحظنا وجوده بوقت طويل ٠ فلما فرغنا من انحناءتنا المليئة بالاحترام وحاول أبى أن يعتذر عنا ، نظر الينا ، نظر الينا الواحد تلو الآخر ، وبدا عليه كأنه ينفث الزفرات استياء من أن كل واحد منا يتبعه آخر ، حتى توقف عند أماليا التى اضطر أن يرفع بصره اليها لأنها كانت أطول منه بكثير ، واذا به ينبهر ويقفز فوق مجر عربة المضخة ليقترب من أماليا ٠ ولقد أخطأنا نحن فهم مسلكه فى بداية الأمر وهممنا بالاقتراب منه تحت قيادة الوالد ، ولكنه ردنا رافعا يده وأشار الينا أن ننصرف ٠ كان هذا هو كل ما حدث ٠ وأخذنا نداعب أماليا كثيرا قائلين لها انها قد وجدت الخطيب بالفعل ، وظللنا طوال الوقت فى عصر الوقت ذلك اليوم فرحين لجهلنا أشد الفرح ٠ ولكن أماليا كانت أكثر صمتا مما عهدناها ٠ وقال برونسفيك : « لقد وقعت فى غرام سورتينى وملك عليها نفسها وحسها ٠ وكان برونسفيك غليظا قليل الفهم للشخصيات من نوع أماليا ٠ ولكن ملاحظته هذه لاحت لنا فى تلك المرة وكأنها توشك أن تكون صائبة ٠ وكنا فى ذلك اليوم فى نشوة فقد شربنا جميعا ، الا أماليا ، من نبيذ القصر الأحمر الحلو حتى أوشكنا أن نفقد الوعى عندما وصلنا الى البيت فى منتصف الليل ٠

وسأل ك :

ـ وماذا عن سورتينى ؟

فقالت أولجا :

ـ آه ، سورتينى ! لقد رأيت سورتينى فى الاحتفال أثناء مرورى مراراً ، كان يقعد على مجر عربة المضخة عاقدا ذراعيه على صـــدره ، وظل هكذا حتى أتت عربة القصر لتأخذه . ولم يذهب حتى الى تدريبات فرقة المطافىء التى كان أبى متفوقا فيها على كل الرجال من سنه على أمل أن يراه سورتينى .

وسأل ك :

ـ وألم تسمعوا منه شيئا بعد ذلك ؟ ويبدو لى أنك تكنين لسورتينى احتراما عظيما ..

فقالت أولجا :

ـ نعم ، أحتراما .. نعم .. لقد سمعنا منه شيئا ! ففى الصباح التالى أيقظتنا من نومنا المخمور صيحة من أماليا ، أما الآخرون فقد خروا من فرط النعاس الى سررهم على الفور ، وأما أنا فقد كنت فى تمام اليقظة فجريت الى أماليا . كانت تقف عند الشباك وتمسك بخطاب فى يدها ، كان أحد الرجال قد دفع به اليها منذ وقت قليل من خلال النافذة ، وكان الرجل لا يزال يقف منتظرا الرد . كانت أماليا قد قرأت الخطاب ـ وكان الخطاب قصيرا ـ وكانت تمسك به بيدها التى تدلت خائرة . كم كنت أحبها خاصة عندما تكون خائرة على هذا النحو ! وركعت بجوارها وقرأت الخطاب راكعة . وما كدت أفرغ حتى جذبته أماليا اليها بعد أن ألقت على نظرة سريعة ، ولم ترض بالعودة الى قراءته ، بل مزقته وألقت به ممزقا فى وجه الرجل المنتظر وأغلقت النافذة . كان هذا هو الصباح الحاسم . وأنا أصفه بأنه حاسم ، ولـكن كل لحظة من لحظات عصر اليوم السابق كانت حاسمة بالقدر نفسه .

وســـأل ك :

ـ وماذا كان بالخطاب ؟

فقالت أولجا :

ـ آه ، لم أقص عليك ذلك بعد . كان الخطاب من سورتينى وكان موجها الى البنت ذات العقد العقيقى . أما المضمون فلا أستطيع أن أرويه بالضبط . ولكنه كان يحتوى على أمر من سورتينى اليها بالحضور اليه فى حانة السادة ، والحضور على الفور لأنه كان ينوى الانصراف بعد نصف

ساعة . وكان الخطاب مكتوبا بأكثر العبارات سفالة ، عبارات لم أسمع بها من قبل ، وانما خمنت معناها من السياق فلم أفهم الا نصفه . ولو أن انسانا لا يعرف أماليا وقرأ الخطاب لأيقن من أن هذه البنت التى يجرؤ بعضهم ويكتب اليها على هذا النحو ، بنت فاجرة هى التى لم تكن لهـــا علاقة بأحد من قبل . ولم يكن الخطاب خطابا غراميا ، ولم يكن فيه لفظ تدليل أو مداعبة ، والظاهر أن سورتينى كان غاضبا لأن منظر اماليا استبد به وعطله عن أعماله . ولقد ذهبنا نحن فيما بعد فى تفسير ذلك الى أن سورتينى كان ينوى على ما يبدو أن يسافر في الليلة نفسها عائدا الى القصر ، وأنه انما بقى فى القرية بسبب أماليا ، فلما جاء الصباح وكان شديد الغيظ لأنه لم يتمكن حتى بالليل من نسيان أماليا ، كتب اليهـــا هذا الخطاب . ان الانسان ليحس حيال الخطاب أول ما يحس بالغيظ حتى لو كان أشد الناس بلادة ، ولو تلقت الخطاب واحدة أخرى غير أماليا فربما غلب عليها الخوف من لهجته الغاضبة المهددة ، أما أماليا فكان الغيظ هو الذى تملكها فهى لا تعرف الخوف لا لنفسها ولا للآخرين . وبينما عدت أنا هامدة الى السرير وأنا أعيد فى ذهنى جزءا من الجمل الختامية : « فعليك اذن أن تأتى فى الحال والا » .. بقيت أماليا على جلسة النافذة تنظر الى الخارج وكأنها تنتظر رسلا آخرين وكأنها مستعدة لكى تعاملهم على النحو نفســه .

وقال ك مترددا :

ـ هؤلاء هم اذن الموظفون .. هكذا يجد الانسان بينهم مثل هــذه النماذج .. فماذا فعل أبوك ؟ أرجو أن يكون قد توجه بالشكاية الشديدة من سورتينى الى السلطة المختصة ، الا اذا كان قد فضل سلوك الطريق الأقصر والأضمن وذهب الى حان السادة . ان أشد ما فى الحكاية قبحا ليس اهانة أماليا ، لأن تصحيحها ممكن ، وسهـــل ، وأنا لا أعرف لمـاذا تنسبين اليها اهمية كبيرة مفرطة فى الــكبر ، لماذا تذهبين الى أن سورتينى قد جرح أماليا بمثل هذا الخطاب الى الأبد ، انتى أكاد أفهم هذا من حكايتك ولــكن هذا الأمر هو بالذات الأمر غير الممكن ، كان من الممكن ومن السهل أن يرضيها فتنسى الحادثة بعد أيام قليلة . والحقيقة أن سورتينى لم يفضح أماليا بل فضح نفسه ، ولذلك فأنا أرتعد لسورتينى ، وأرتعد أمام امكانية أن يكون هناك اساءة استخدام للسلطة يصل الى هـــذا الحد .. انما فشل فى هذه الحالة ، لأنه قيل مكشوفا واضحا لا مراء فيه ، ولأنه وجد فى أماليا عدوا ممتازا ، يمكن أن ينجح تماما فى آلاف الحالات الاخرى وأن يضلل الأعين حتى أعين الضحية ذاتها .

وقالت أولجا :

ـ اسكت ‥ ان أماليا تنظر الى هنا ‥

كانت أماليا قد فرغت من اطعام الوالدين ، وبدأت تخلع عن الأم ملابسها ، فحلت أربطة الجلباب ، ووضعت ذراعى الأم حول رقبتها ، ثم رفعت الأم قليلا وسحبت الجلباب برقة من تحتها ثم أقعدتها حيث كانت · أما الأب ، الذى كان دائما غير راض عن اهتمام أماليا بالأم قبله · ويبدو أن السبب فى ذلك أن الأم كانت أكثر حاجة الى العون منه ـ فقد حاول ربما عقابا لابنته على ما تصور أنه بطء ، أن يخلع هو ملابسه بنفسه ‥ ولـكنه لم يوفق فى ذلك على الاطلاق ، على الرغم من أنه بدأ بالشىء الهين التافه وهو الشبشب الواسع الذى كانت قدماه عائمتين فيه ولم يستطع أن يسحبهما منه ، واضطر وهو يحشرج حشرجة مبحوحة أن يصرف النظر عن ذلك وأن يعود فيستند الى ظهر كرسيه بجسمه المتخشب ·

وقالت أولجا :

ـ انك لا تتبين الشىء الحاسم فى الموضوع · وربما كنت على حق فى كل ما ذهبت اليه ، ولـكن الشىء الحاسم فى الموضوع هو أن أماليا لم تذهب الى حانة السـادة · أما معاملتها للساعى فقد كان من الممـكن التغاضى عنها والتصرف فيها وتضييع معالمها ، وأما عدم ذهابها الى هناك فقد أدى الى وقوع اللعنة على أسرتنا ، وأصبحت معاملتها للساعى بالتالى أمرا لا يغتفر ، بل انهم أبرزوه للناس وأحلوه محل الصدارة ·

وصـاح ك :

ـ كيف هذا ·

ثم كتم صياحه على الفور عندما رفعت أولجا يديهـا متوسـلة ‥ ثم أردف :

ـ لا يمكن أن تذهبى أنت ، الأخت ، الى أن أماليا كان ينبغى عليها أن تطيع سورتينى وأن تهرع الى حان السادة ؟ ‥

فقالت أولجـا :

ـ لا ، عسى ألا يحوم حولى مثل هذا الاشتباه ‥ كيف يمكنك أن تظن هذا الظن ؟ اننى لا أعرف انسانا يلزم الحق فى تصرفاته كما تلزمه أماليا فى كل ما تعمل · لو كانت قد ذهبت الى حان السادة لـكان رأيى انها على حق فى الذهاب ، ولقد كان من البطولة انها أبت الذهاب ‥ أما أنا ، فأعترف لك بصراحة ، لو اننى تلقيت مثل هذا الخطاب لذهبت ‥

ولما استطعت احتمال الخوف من المستقبل • أماليا وحدهـا هى التى استطاعت احتماله • ولقدكانت هناك عدة مخارج يمكن التحايل عنطريقها كان يمكن على سبيل المثال أن تتزين فتاة أخرى وتتجمل ـ وكانت فترة قد مضت ـ وتذهب الى حان السادة لتتبين أن سورتينى قد انصرف ، ولعله قد انصرف بعد ارسال الساعى مباشرة ، وهذا شيء محتمل جدا لأن نزوات السادة نزوات طيارة • ولـكنها لم تتصرف على هذا النحو ، ولم تفعل شيئا من قبيله ، فقد كانت تحس بالاهانة فى أعماقهـا ، فأجابت دون ما تحفظ • ولو انها تظاهرت بالطاعة ، وتجاوزت عتبة حان السادة لحظة ، لـكان من الممكن درء المحنة ، فلدينا هنا محامون بارعون يعـرفون كيف يخلقون من العدم كل ما يريده الانسان ، ولـكننا لم نكن فى هذه الحالة نحتكم حتى على هذا العدم المفيد • بل على العكس كان هناك امتهان خطاب سورتينى واهانة الساعى •

فقال ك :

ـ وما حديثك عن المحنة ، وفيم كلامك عن المحامين ؟ فما يمكن أن تتهم أماليا أو تعاقب على تصرف سورتينى الاجرامى ؟

فقالت أولجا :

ـ بلى • هذا ممكن • ولم يجر هذا بطبيعة الحال طبقا لقواعد التقاضى بل انهم لم يعاقبوها مبـاشرة ، بل عاقبوها بطريقة أخرى ، عاقبوها وعاقبوا أسرتنا كلها ، ولعلك تبدأ الآن فى تبيان عنف هذا العقـاب •• ان هذا يبدو لك ظلما وبشاعة ، ولـكن رأيك هذا رأى فردى لا يشاركك فيه أحد فى القرية ، وهو رأى يميل الينا كل الميل ، ويرجو أن يواسينا ولعله كان يصل الى هذه النتيجة لو لم يكن مبنيا على أخطاء واضحة جلية• وفى امكانى أن أبرهن لك علىهذا بسهولة ، واعذرنى اذا أنا تكلمت فىأثناء ذلك عن فريدا ، ولـكن فريدا وكلم ، بغض النظر عن الصـورة التى اتخذها أمرهما فى النهاية • جرى بينهما شيء يشبه ذلك الذى جرى بين أماليا وسورتينى ، ولعلك تفزع فى البداية ، ولكنك لن تلبث أن ترى أن ما أقوله لك هو الصواب • وليس الأمر أمر تعود ، فان الانسان لايمكن أن يتبلد الى هذا الحد نتيجة للتعود اذا كان الموضوع هو الحكم البسيط . انما الأمر أمر نبذ الاخطاء •

فقال ك :

ـ لا يا أولجا • وأنا لا أعرف لماذا تزجين بفريدا فى الحكاية ، فهذه

حالة مختلفة كل الاختلاف ، فلا تخلطى هكذا أشياء لا صلة بينها أساسا واستمرى فى قصتك ٠

فقالت أولجا :

أرجوك ٠ لا تغضب منى اذا أنا أصررت على المقارنة ، وهناك بقية من الأخطاء حتى فيما يتعلق بفريدا ، اذا كنت لا تزال تعتقد أن عليك أن تدافع عنها فى هذه المقارنة ٠ انك لست بحاجة الى الدفاع عنها ، بل ينبغى أن تمدحها ٠ وأنا اذا كنت أقارن الحالتين فلست أقصد الى القول انهما متساويتان ، انهما كالأبيض والأسود ، والأبيض هنا فريدا ٠ وأسوأ ما يمكن أن يحدث ، هو أن يضحك الانسان من فريدا ، كما أسأت أنا أدبى — ثم ندمت بعد ذلك أشد الندم — وضحكت منها فى الحانة ، هذا الى أن الضاحك هنا يضحك عن شر أو حسد ، ولكنه يضحك على أية حال، أما أماليا فلا يمكن نلانسان أن يحتقرها ، الا اذا كان يرتبط بها برباط القرابة ٠ ولهذا فان الحالتين مختلفتان أساسا كما تقول وان كانتا متشابهتين ٠

فقال ك وهو يهز رأسه كارها :

— ليستا متشابهتين ٠ دعى فريدا جانبا ٠ ان فريدا لم تتلق خطابا نظيفا مثل ذلك الذى تلقته أماليا ، وفريدا أحبت كلم فعلا ، وعلى من يشك فى هذاأن يسألها فهى مازالت الى اليوم تحبه ٠

وسألت أولجا :

— وهل هذه اختلافات كبيرة ؟ ألا تعتقد أن كلم كان يمكنه أن يكتب الى فريدا خطابا مماثلا ؟ ان السادة اذا تركوا مكاتبهم كانوا على هذا النحو فاذا هم لا يعرفون كيف يحسنون التصرف فى الدنيا ، واذا هم يقولون أبشع الكلام ، لا أقول كلهم ، بل أقول كثير منهم ٠ ومن الممكن أن يكون الخطاب الذى تلقته أماليا خاطرا خرج الى الورق دون وعى كامل بما ارتسم على السطور من كلمات ٠ وماذا نعرف عن خواطر السادة وأفكارهم ؟ ألم تسمع بنفسك ، أو ألم تسمع بعضهم يحكى عن اللهجة التى كان كلم يصطنعها مع فريدا ؟! والمعروف عن كلم أنه وقح جدا ، ويقال انه يظل الساعات صامتا لا يتكلم ، ثم اذا به ينطق فجأة بوقاحة يرتعد لها الانسان٠أما سورتينى فلم يعرف عنه هذا ، هذا الى أنه غير معروف بصفة عامة ٠ والحقيقة أن الناس لا يعلمون عنه الا أن أسمه يشبه اسم سوردينى ٠ ولو لم يكن هناك هذا الشبه بين الاسمين لما عرفه على مايبدو أحد ٠ وهو من حيث هو خبير فى شئون المطافىء يختلط على ما يبدو فى

تصور الناس بسورديني والذى هو الخبير الحقيقى فى شئون المطافىء والذى يلقى بالأعباء التمثيلية على سورتينى مستغلا التشابه فى الاسم ، حتى يعكف على عمله دون انقطاع • فاذا ما تملك رجل لا خبرة له بالدنيا حب فتاة من القرية فجأة ، فان هذا الحب يتخذ بطبيعة الحال اشكالا أخرى غير تلك التى يتخذها اذا تملك جارنا مساعد النجار • وينبغى أن يأخذ الانسان فى اعتباره أن هناك بين الموظف وابنة صانع الأحذية فارقا كبيرا ينبغى تجاوزه ، ولقد حاول سورتينى تجاوزه على هذا النحو ، ولعل انسانا غيره يحاول تجاوزه على نحو آخر • حقيقة انهم يقولون اننا جميعا نتبع القصر وانه لا فارق بيننا وانه ليس بيننا ما ينبغى التغلب عليه ، وربما كان هذا صحيحا بصفة عامة ، ولكننا للأسف أوتينا فرصة لنرى أنه ، عندما تدعو الحاجة اليه ، ليس صحيحا • ومهما يكن من أمر فان تصرف سورتينى سيبدو لك بعد هذا كله أكثر معقولية وأقل بشاعة ، وهو فى الحقيقة اذا قورن بمسلك كلم أكثر معقولية ، ويمكن للانسان ، حتى اذا كان مشاركا فى الموضوع عن قرب ، أن يتحمله على نحو أيسر بكثير • ان كلم اذا كتب خطابا رقيقا فانه يكون أنكى من أوقح خطاب يكتبه سورتينى • وأرجو أن تفهمنى كما ينبغى ، اننى لا أجرؤ على الحكم على كلم ، اننى أقارن فحسب لأنك تأبى المقارنة • ان كلم مثل القائد الذى يتأمر على النساء ، فهو يأمر هذه ، ثم تلك ان تأتى اليه ، وهو لا يحتمل طويلة القامة وما الى ذلك ، وهو يأمر بالانصراف كما يأمر بالحضور • آه ، ان كلم لا يكلف نفسه مشقة كتابة الخطابات • وهل لا يزال يبدو من المقارنة أن سورتينى كان يفعل شيئا هائلا عندما جلس وهو الرجل الذى يعيش حياة العزلة الكاملة والذى ظلت علاقاته بالنساء على الأقل مجهولة ، الى المنضدة ويكتب بخط الموظفين الجميل خطابا ، خطابا بشعا ؟ واذا كانت المقارنة لا تؤدى الى ظهور اختلاف فى صالح كلم ، بل العكس ، فهل كان حب فريدا هو الذى السبب ؟ ان العلاقة بين النساء والموظفين فى اعتقادى علاقة يصعب جدا ، أو على الأحرى يسهل دائما الحكم عليها • انها علاقة لا تتجرد بحال من الأحوال من الحب • وليس هناك حب تعيس يكون الموظفون طرفا فيه • وعلى هذا فليس من قبيل المدح أن يقول الواحد عن بنت ــ وأنا لا أتحدث هنا عن فريدا وحدها ــ انها أسلمت نفسها لأحد الموظفين لأنها تحبه • فالحقيقة أنها كانت تحبه ، وأنها أسلمت نفسها اليه ، وليس فى هذا ما يمتدح • ولعلك تعترض بأن أماليا لم تحب سورتينى • آه ، انها لم تحبه ، بل ربما كانت تحبه ، ومن يستطيع القطع بنعم أو لا ؟ حتى هى نفسها لا تستطيع • كيف يمكنها أن تظن أنها لم تحببه ، اذا كانت قد ردته بهذا العنف الذى لم يسبق على مايبدو

ان عومل به موظف من قبل ؟ وبرناباس يقول انها حتى الآن ترتعد أحيانا للحركة التى أقفلت بها قبل ثلاث سنوات النافذة • وهذا صحيح ، ولهذا فلا يجوز أن يسألها الانسان ، فهى قد قطعت علاقتها بسورتينى ولا تعرف الا هذا ، انها لا تعرف هل كانت تحبه أو لا • أما نحن فنعرف أن النساء لا يرضون بحب الموظفين بديلا عندما يلتفت هؤلاء اليهن • انهن يحببنهم من قبل حتى اذا أنكرن ذلك انكارا ، وسورتينى لم يقف عند حد الالتفات الى أماليا ، انه قفز على مجر العربة عندما رآها ، قفز على مجر العربة بساقيه اللتين تخشبتا من كثرة الجلوس فى المكتب • ولكنك ستعترض قائلا ان أماليا شاذة نعم انها شاذة ولقد برهنت على ذلك عندما رفضت الذهاب الى سورتينى ، وفى هذا من الشذوذ كفاية • أما انها لم تحب سورتينى ، فهذا شذوذ يوشك أن يكون فاحشا ، ولا يكاد الانسان أن يفهمه • لقد أصبنا عصر ذلك اليوم بالعمى ، ولكننا رغم الغشاوة اعتقدنا اننا نلاحظ أن أماليا وقعت فى الحب ، وفى هذا دلالة على شيء من الفكر• فاذا نحن جمعنا هذا كله معا فما هو الفارق بين فريدا وأماليا ؟ انه فارق واحد ، وهو أن فريدا فعلت ما رفضته أماليا •

فقال ك :

ـ ربما • ولكن الفارق الرئيسى فى نظرى هو أن فريدا خطيبتى ، وأن أماليا فى الحقيقة لا تهمنى الا لأنها أخت برناباس ، ساعى القصر ، ولأن مقدراتها قد تكون متداخلة فى عمل برناباس • ولو كان أحد الموظفين قد أوقع بها ظلما صارخا ، كما كنت أتصور فى بداية الحكاية ، لاهتممت بها اهتماما كبيرا ، ولكان اهتمامى بها على اعتبار انها مسألة عامة ، لا مسألة آلام أماليا الخاصة • والآن تغيرت الصورة بعد قصتك بطريقة لا أفهمها كل الفهم ، ولكننى أجدها جديرة بالتصديق بما فيه الكفاية لأنك أنت التى تروين ، ولهذا فأنا أحب أن أتجاهل هذا الموضوع كلية ، فأنا لست من رجال المطافيء وفيم يهمنى سورتينى ؟ ولكننى مهتم بفريدا ، ولهذا فأنا أدهش كيف تقومين ، أنت التى وثقت بك كل الثقة والتى أود أن أقيم على ثقتى فيك ، عن طريق الحديث عن أماليا بالهجوم الدائب على فريدا وتحاولين غرس الشك فى نفسى حيالها • وأنا لا أصدق أنك تفعلين هذا عن غرض ، أو عن غرض سيىء ، والا لكان على أن أنصرف• انك لا تفعلين هذا لغرض ما ، ولكن الظروف هى التى تضللك وتسوقك الى هذا ، انك تحبين أماليا وتريدين لهذا السبب أن ترفعيها فوق كل النساء ، ونظرا لأنك لا تجدين فى أماليا من نواحى الفخار ما يكفيك لهذا الغرض ، فانك تستعينين على أمرك بتصغير النساء الأخريات • ان عمل

أماليا عجيب ، ولكنك كلما استرسلت فى الرواية ، كلما تضاءلت امكانية القطع بما اذا كانت أماليا عظيمة أو حقـيرة ، ذكية أو غبية ، بطلة أو جبانة ، وهى تخفى دوافعها فى حنايا صدرها ولن يستطيع انسان أن يستخرجها • أما فريدا فلم تفعل شيئا عجيبا ، لقد اتبعت قلبها مع كل من انشغل به بنيـة طيبة ، هل هذا واضح ؟! انه صـحيح وكل انسان يستطيع أن يتأكد من صحته • وليس فى هذا مكان للثرثرة الفارغة • أما أنا فلا أريد أن أحط من قدر أماليا ولا أن أدافع عن فريدا ، وانما أنا أريد أن أوضح لك موقفى من فريدا وأبين لك أن كل هجـوم على فريدا يعنى هجوما على وجودى أنا • اننى أتيت الى هنا بمحض ارادتى ، وأننى شبكت نفسى هنا بمحض ارادتى ، أما كل ما حدث بعد ذلك وبخاصة كل تطلعاتى الى المستقبل – وهى ، وان كانت قاتمة ، موجودة – فمن أفضال فريدا على ، وهذا شىء لا يمكن أن يؤدى النقاش الى تبديده • حقيقة انهم استقبلونى هنا على أساس اننى موظف مساحة ، ولكن هـذا كان شيئا ظاهريا ، لقد كانوا يعبثون بى ، ولقد طردونى من كل بيت ، وهاهم أولاء يعبثون بى الآن كذلك • ولكن ما أشق ذلك ! لقد زدت حجما على نحو ما ، وهذا شىء له معناه ، لقد أصبحت لى أشياء ، فى ظاهرها قليلة ، ولكنها هناك : لقد أصبح لى بيت ووظيفة وعمل حقيقى ، ولى خطيبة تقوم بالعمل نيابة عنى عندما أكون مشغولا ببعض المهام ، وسأتزوجها وأصبح عضوا فى المجتمع ، ولى علاوة على علاقة العمل بكلم علاقة شخصية به لم أتمكن حتى الآن من الافادة منها • وليس هذا بالقليل ؟ وأنا عندما أحضر اليكم ، فمن هذا الذى تحيوه ؟ من هذا الذى تسرى اليه بقصة عائلتك ؟ من هذا الذى تأملين أن تجدى لديه امكانية مسـاعدة ما حتى وان كانت امكانية ضئيلة شديدة الضآلة ؟ انه ليس موظف المســاحة الذى طرده لازيمان وبرونسفيك بالقوة من بيتهما ، انك تأملين امكانية هذه المســاعدة من الرجل الذى أصبحت لديه بعض وسائل السلطة ، والفضل فى وسائل السلطة هذه يرجع الى فريدا ، فريدا المتواضعة التى اذا ما سألتيها عن شىء من هذا القبيل أبت الادعاء بأنها تعرف عنه أقل القليل • ومع ذلك فيبدو اعتمادا على هذا كله أن فريدا فعلت ببراءتها أكثر مما فعلت أماليا بكبريائها • ذلك اننى أحس بأنك تلتمسين العون لأماليا • وممن ؟ من فريدا ، لا من أحد سواها ؟

فقالت أولجا :

– هل تكلمت أنا فعلا بهذه السوء عن فريدا ؟ أننى لم أكن أقصد ذلك ، واعتقد اننى لم أفعل ، ولكن هذا من المحتمل ، ولقد أصبح وضعنا

يتلخص في أننا على نزاع مع الدنيا كلها ، واذا بدأنا بالشكوى ، جرفنا التيار دون أن نعلم الى أين . وأنت على حـــق فى أن الفارق بيننا وبين فريدا كبير ، ومن الخير أن نؤكد على ذلك مرة أخرى . لقد كنا قبل ثلاثة أعوام من بنات العائلات ، وكانت فريدا ، اليتيمة خادمة فى حان الجسر، وكنا نمر عليها عابرين لا نعرها نظرة . لقـد كنا بكل تأكيد متكبرين ، ولكننا نشأنا على هذا . ولقد رأيت بعينك فى تلك الأمسية بحانة السادة وضعنا الحالى : فريدا تمسك بالسوط فى يدها ، وأنا فى جماعة الخدم . ولكن الأمر أكثر سوءا من هذا . ولفريدا أن تحتقرنا ، فهذا يتناسب مع مركزها ، والظروف الحقيقية تفرضه فرضا . ولـكن أين هـــذا الذى لا يحتقرنا ! ان الذى يقرر احتقارنا يدخل على الفور فى المجتمع الرفيع العظيم . أتعرف البنت التى خلفت فريدا فى الحانة ؟ اسمها بيبى . لقد تعرفت بها لأول مرة أول من أمس ، وكانت من قبل تعمل خادمة . انها بكل تأكيد تتجاوز فريدا فى احتقارى . لقد نظرت الى من النافذة عندما ذهبت لأحضر شيئا من البيرة ثم جرت الى الباب وأغلقته ، وكان على أن أتوسل وأطيل التوسل وأن أعدها بالشريط الذى كنت ازين به شعرى، حتى فتحت لى . فلما أعطيتها الشريط ألقت به فى أحد الأركان . ولها أن تحتقرنى فأنا الى حد ما أعتمد على فضلها وهى حاملة الخمور فى حانة السادة ، وان كانت تعمل هنـــاك مؤقتا ، وكانت بكل تأكيد تفتقر الى الصفات اللازمة لكى تشتغل هناك بصفة دائمة . ويكفى أن يسمع الانسان طريقة حديث صاحب الحان الى بيبى ، ويكفى أن يقارنها بطريقة حديثه الى فريدا . ولكن هذا لا يمنع بيبى من أن تحتقر أماليا ، أماليا التى تكفى نظرة واحدة من نظراتها لتخرج بيبى الصغيرة بكل ضفائرها ولفائفها من الحجرة بسرعة لاتستطيع وهى التى تعتمد على ساقيها البدينتين القصيرتين أن تصطنعها . ولقد سمعت منها بالأمس ثرثرة عن أماليا أثارت غيظى ، حتى اهتم الضيوف أخيرا بأمرى على النحو الذى سبق لك أن رأيته .

فقال ك :

ـ ما أكثر خوفك ! لقد وضـــعت أنا فريدا فى المكان اللائق بها ، ولكننى لم أفكر فى الحط منكم كما فهمت . وان عائلتكم لتتسم فى نظرى بشىء خاص ، وهذا شىء لم أخفه . ولكنى لا أفهم كيف يمكن أن يكون هذا الشىء الخاص مدعاة للاحتقار .

فقالت أولجا :

ـ آه ، يا ك ، سيأتى الوقت الذى ستفهم فيه ، وهذا هو ما أخشاه: انك اذن لا تستطيع أن تفهم بحال من الأحوال كيف يمكن أن يكون تصرف

اماليا حيال سورتيني السبب الأول في هذا الإحتقار ؟

فقال ك :

ـ لو كان هذا قد حدث ، فإنه يكون شيئا غريبا بمفرط الغرابة . من الممكن أن يعجب الانسان بأماليا أو أن يدينها ، أما أن يحتقرها الانسان لهذا السبب ؟ وحتى اذا ذهب الانسان ، عن احساس لا أستطيع فهمه ، الى احتقار أماليا بالفعل ، فلماذا يمد الاحتقار ليشملكم ، ليشمل الاسرة البريئة ؟ وأما أن بيتي احتقرتك فشيء فظيع وسوف أحاسبها على ذلك عندما أذهب مرة الى حان السادة .

وقالت أولجا :

ـ لو أنك يا ك أردت أن تغير فكر كل من يحتقروننا لكان عليك أن تتحمل بعمل عسير ، لأن كل هذا ينبع من القصر . انني أتذكر الساعات التي تلت ذلك الصباح تماما . فقـد أتى برونسفيك ، الذي كان عاملا لدينا ، كما اعتاد أن يأتي في كل يوم ، وكان أبي قد كلفه ببعض الاعمال وأعاده الى بيته . كنا نجلس آنذاك الى مائدة الأفطار ، كلنـا ، الا أنا وأماليا ، وكنا في غاية البهجة ، وكان أبي لا يكف عن الحديث عن الحفل ، وكانت لديه مشروعات خاصة بالمطافيء ، ذلك أن القصر لديه فرقة المطافيء الخاصة به ، وكانت هذه الفرقة قد أرسلت وفدا يمثلها في الحفل ، وقد جرت مع هذا الوفد مناقشة تناولت بعض المسائل ، ورأى السادة الذين حضروا عن القصر جهود فرقة المطافيء لدينا ، وعبروا عن آراء طيبة جدا حيالها ، وعقدوا مقارنة بينها وبين فرقة مطـافيء القصر كانت نتيجتها طيبة بالنسبة لنا ، وجرى الحديث عن ضرورة اعادة تنظيم فرقة مطافيء القصر ، وحاجة ذلك المشروع الى معلمين من القرية ، وكان الواضـح أن الاختيار سيقع على نفر معين ، ولكن أبي كان يأمل أن يقع الاختيار عليه . وكان يتحدث عن ذلك على طريقته اللطيفة وهو يخيـط نصـف المائدة بذراعيه ، وينظر من خلال النافذة المفتوحة الى السماء ، وكان وجهه يبدو أثناء ذلك شابا سعيدا بالأمل ، كانت هذه هي المرة الاخيرة التي أراه فيها على هذا النحو الذي لم يتكرر فيما بعد مطلقا . وهنا قالت أماليا بترفع لم نعهده فيها من قبل ، إنه لا ينبغي أن يثق الانسان كثيرا في مثل هذا الكلام الذي يلقيه السادة ، فقد اعتاد السادة على أن يقولوا في مثل هذه المناسبات كلاما مفرحا ، ولكنه كلام ليس له الا القليل من المعنى أو ليس له شيء من معنى على الاطلاق ، كلام ما يكاد الواحد منهم يفرغ من التلفظ به حتى ينساه الى الأبد ، واذا جاءت مناسبة أخرى تكرر وقوع الناس في الفخ نفسه . وأنكرت الأم على أماليا هذا الكلام ، أما الوالد فقد اكتفى

بالضحك من اصطناعها الفطنة والخبرة ، ثم تعثر فجأة وبدا عليه كأنه يبحث عن شيء لم يتبين ضياعه الا الآن فقط، ولكنه لم يكن قد ضيع شيئا، بل قال : لقد حكى برونسفيك عن ساع وعن خطاب ممزق ، وسألنا اذا كنا نعرف شيئا عن هذا الموضوع ومعناه والمقصود منه • ولكننا صمتنا ، الا برناباس ، وكان آنذاك صغيرا كالحمل الصغير ، فقد قال شيئا شديد الغباء أو الجرأة ، وتحول الحديث الى موضوعات أخرى وتوارى هذا الموضوع فى طيات النسيان •

عقوبة أماليا :

وأردفت أولجا :

ـ الا أن الأسئلة ما لبثت أن انهمرت علينا من كل ناحية عن حكاية الخطاب ، أتى الينا بها الأصدقاء والأعداء ، المعارف والأغراب • ولكن الناس كانوا لا يبقون عندنا الا قليلا ، حتى أحسن الأصدقاء كانوا يستأذنون فى الانصراف معجلين أشد التعجيل • ودخل علينا لازيمان ، وكنا نعهده بطيئا وقورا ، وبدا عليه كأنه أتى ليقيس أبعاد الحجرة ، لأنه دار ببصره دورة ثم انصرف ، لقد كان مشهدا يشبه العبث الصبيانى ، فما أن انصرف لازيمان كالهارب حتى تملص أبى من الآخرين وجرى وراءه الى أن بلغ العتبة ثم تراجع • وأتى برونسفيك وأعلن أبى بأنه لن يعمل لديه بعد الآن ، وقال انه يريد أن يفتتح محلا خاصا به ، قال هذا بكل صدق وأمانة ، وقد كان ذكيا يعرف كيف يستغل الفرص • وأتى العملاء وأخذوا يستخرجون من مخزن أبى أحذيتهم التى كانوا قد أحضروها للتصليح ، وحاول أبى فى بداية الأمر أن يثنى العملاء عن عزمهم ـ وساعدناه نحن جميعا بكل ما أوتينا من قوة ـ ولكنه ما لبث أن كف عن المحاولة وأخذ بدلا من ذلك يساعد العملاء فى البحث عن أحذيتهم ، ويشطب من سجل الاعمال سطرا بعد سطر ، كذلك أتى أصحاب الجلود الذين كانوا قد تركوا كميات من الجلود لدينا فأخذوها ، وأتى أصحاب الديون واستردوا أموالهم ، وتم هذا كله دون أدنى شجار ، فقد كان الناس يفرحون اذا تمكنوا من قطع صلتهم بنا سريعا ونهائيا ولو نجمت عن ذلك خسارة ، ولم يكن للخسارة على أية حال مكان • وأخيرا حدث ما كنا نتوقعه ، فقد أتى لازيمان رئيس فرقة المطافىء ، وما زلت أرى المشهد أمام عينى كأنه حدث لتوه : لازيمان رجل طويل وعريض ولكنه مقوس الظهر ومريض بالسل ، رجل جاد لا يعرف الضحك يقف أمام أبى الذى كان يعجب به ، والذى وعده فى ساعات الصفاء بأن يعينه فى وظيفة مساعد رئيس فرقة المطافىء ، يقف أمام أبى الآن ليقول له ان اتحاد المطافىء

قد فصله ويطالبه برد الشهادة • وترك الرجال الذين كانوا موجودين في تلك اللحظة لدينا أعمالهم وتزاحموا حول الرجلين على هيئة دائرة• لازيمان لا يستطيع الـــكلام ، وهو لا يفتأ يربت على كتفى أبى وكأنه يريد أن يستخرج بالربت منه كلمات يتبغى عليه هو أن يقولها ولا يجدها • وهو لا يكف عن الضـحك ولعـله يريد بذلك أن يهـدىء نفسه وأن يهدىء الآخرين ، ولما كان لا يعرف الضحك ، ولما لم يكن الناس قد سمعوه من قبل يضحك ، فلم يخطر ببال أحد أن يصدق أن هذا ضحك • أما أبى فقد وهن منذ ذلك اليوم ، ويئس من مســـاعدة الآخرين ، بل انه يبدو ضعيفا الى درجة لا يستطيع معها أن يفكر فى الأمر وعم يدور • ولقد كنا كلنا يائسين على النحو نفسه ، ولكننا كنا شبابا فلم نصدق بمثل هذه الهزيمة الكاملة ، وكنا نعتقد أن صف الزوار الكثيرين سيأتينا فى النهاية برجل يأمر بأن تقف الأمور عند حد ، ثم يرغمها على أن تغير اتجاهها • ولقد لاح لنا لجهلنا أن لازيمان هو أنسب الرجال لهذه المهمة • وتوقعنا فى لهفة أن تخرج من بين هذا الضحك المستمر فى النهاية كلمة واضحة • وهل كان هناك شىء يثير الضحك ، شىء غير الظلم السخيف الذى حل بنا • فيا سيادة الرئيس ، يا سيادة الرئيس ، قل هذا للناس • كان هذا هو الذى خطر ببالنا فتزاحمنا مقتربين منه مما اضطره ، لفرط دهشتنا، الى حركات ملتوية غريبة • وأخيرا بدأ ، لا بتحقيق أمانينا الكامنة ، بل بالانصياع لصيحات الناس المشجعة أو الغـاضبة ، وهكذا تكلم • وكان الأمل لا يزال يداعبنا • واستهل بمدح عظيم للوالد ، وقال عنه انه حلية اتحاد المطافىء ، وقدوة للجيل الجديد لا يصل اليها مجتهد ، وعضو فى الاتحاد يكاد يؤدى خروجه منه الى تحطيمه • كان هذا جميلا جدا ، وليته سكت عند هذا الحد ولم يكمل ! ولكنه أكمل • فقال واذا كان الاتحاد قد قرر أن يطالب الوالد بالاستقالة ، الاستقالة مؤقتا ، فواضح أن أسبابا شديدة اضطرته الى ذلك • ولعل الأمور لم تكن لتصل الى هذا الحد لولا الجهود الباهرة التى أظهرها الوالد فى حفل الأمس ، ولكن هذه الجهود أثارت انتباه السلطات بشكل خاص ، وأصبح الاتحاد الآن تحت الأضواء وأصبح عليه أن يهتم بنظافته الآن أكثر مما كان يهتم بها من قبل • ثم جاءت اهانة الساعى ، فلم يجد الاتحاد له مخرجا سوى اتخاذ هذا القرار، وتحمل هو ، لازيمان ، بالمهمة الشاقة ، مهمة تبليغه • ورجا الوالد ألا يصعبها عليه • وما أشد فرح لازيمان عندما تم له هذا البلاغ! ولقد أحس لذلك بالثقـة التى حالت بينه وبين المبـــالغة فى الرقة ، فاذا هو يشير باصبعه الى الشهادة المعلقة على الحائط • وهز الوالد رأسه وذهب ليأتيه بها ، ولكنه لم يستطع أن يرفعها من فوق المســمار بيديه المرتعشتين ،

فارتقيت كرسيا وأعنته على ذلك • ومنذ تلك اللحظة انتهى كل شيء • ولم يخرج أبى الشهادة من الاطار الذى احتواها ، بل قدمها الى لازيمان كما هى • ثم جلس فى أحد الأركان ولم يتحرك ولم يعد يتكلم مع أحد ، وتكفلنا نحن بالتباحث مع الناس على قدر ما استطعنا •

وسأل ك :

ـ وأين هو تأثير القصر هنا فى رأيك ؟ والظاهر حتى الآن انه لم يتدخل • ان ما قصصته الى الآن ليس الا خوف استرسل اليه الناس بدون تفكير ، وفرح منهم للضر الذى لحق بالجار ، وصداقة لم يخلصوا لها ، وهذه أشياء موجودة فى كل مكان • ثم ان الموضوع بالنسبة للوالد ـ على الأقل فيما يبدو لى ـ لا يزيد عن أن يكون تفاهة • فما هى هذه الشهادة ؟ انها بيان بقدراته ، ولقد ظلت لديه هذه القدرات بعد سحب الشهادة ، وهذه القدرات هى التى جعلته رجلا لا استغناء عنه ، وهذا خير • ولقد كان فى استطاعته أن يصعب الأمر على الرئيس لو انه عندما سمع الكلمة الثانية رما اليه الشهادة عند قدميه • وقد لفت نظرى بصفة خاصة انك لم تذكرى أماليا مطلقا وهى التى تسببت فى هذا كله ، ولعلها كانت تقف فى الخلف هادئة وتنظر الى الخراب •

فقالت أولجا :

ـ لا ، لا يمكن أن نوجه اللوم الى أحد ، فما كان فى استطاعة أحد أن يتصرف على نحو آخر ، لقد كان كل شيء من تأثير القصر •

وتلقفت أماليا العبارة فكررتها :

ـ تأثير القصر •

وكانت أماليا قد دخلت من الفناء دون أن يلحظها أحد ، أما الوالدان فكانا قد تمددا فى الفراش منذ وقت طويل • وأردفت أماليا :

ـ هذه حكايات القصر تتحاكيانها ؟ وما زلتما تجلسان معا ؟ ولقد كنت يا ك تريد أن تستأذن فى الانصراف من فورك وها هى ذى الساعة تقترب من العاشرة • هل تهمك مثل هذه الحكايات ؟ لدينا هنا أناس يعيشون على هذه الحكايات ، فهم يجلسون معا ، كما تجلسان الآن ، ويتجادلان فيها ، وأنت على ما يبدو لى لست من هؤلاء الناس •

فقال ك :

ـ بلى ! أنا منهم تماما ! أما أولئك الذين لا يهتمون بمثل هذه الحكايات ويدعون الآخرين يهتمون بها فلا أحفل بهم كثيرا •

فقالت أماليا :

ــ هه ! ولكن اهتمامات هؤلاء الناس مختلفة أشد الاختلاف . ولقـــد سمعت عن شاب كان يشغل نفســه آناء الليل وأطراف النهار بالتفكير فى القصر وأهمل كل ماعداه حتى خاف الناس على عقله الذى كان مشغولا بالقصر كله . وأخيرا تبين أنه لم يكن القصر ذاته ، بل ابنة غسالة تعمل فى مكاتب المستشارية ، ولقد نالها وأصبح كل شىء على مايرام .

فقال ك :

ــ اننى أظن أن هذا الشاب قد يعجبنى .

وقالت أماليا :

ــ أما أن هذا الشاب قد يعجبك ، فهو ما أشك فيه ، وربما كانت زوجته هى التى تعجبك ! ولكن استمرا فيما أنتما فيه دون ما ازعاج منى ، فأنا ذاهبة للنوم ، وأنا مضطرة لاطفاء النور ، بسبب الوالدين ، حقيقة انهما يغطان فى نوم عميق ، ولكن نومهما الحقيقى ينتهى بعد ساعة ، فينزعجان لأخفت ضوء . تصبحان على خير .

وبالفعل أظلمت الدنيا على الفور ، وأعدت أماليا لنفسها فى مكان ما على الأرض قرب سرير الوالدين فراشا .

وسأل ك :

ــ من هذا الشاب الذى تحدثت أماليا عنه ؟

فقالت أولجا :

ــ لا أعرف ، لعله برونسفيك ، وان كانت القصة لا تنطبق عليه تماما ، ولعله آخر . وليس من السهل فهم كلام أماليا ، لأن الانسان لا يعرف هل هى تتحدث بالتهلم أو بالجـد . وهل فى أغلب الأحيـان تقول الجد وان بدأ تهكما .

فقال ك :

ــ لندع التأويلات جانبا . ولكن قولى لى كيف وصلت بك الحال الى التبعية الشديدة لها ؟ هل كانت كذلك قبل المحنة الكبرى ؟ أم صارت الى ذلك بعدها ؟ وألا يحدوك الأمل فى أن تســتقلى عنها ؟ وهل هذه التبعية تعتمد على أساس ما من العقل ؟ ان أماليا هى الصغرى وكان المفروض أن تطيعك هى . ثم انها قد تسببت ، مذنبة كانت أو بريئة ،

فى المحنة التى حلت بالأسرة • وبدلا من أن تتوسل اليكم فى كل يوم من جديد أن تغفروا لها ، اذا هى ترفع الرأس عاليـا فـوق الجميع ، ولا تهتم بشىء ، الا بالوالدين وعلى سـبيل التـكرم والتفضـل ، وهى لا تريد أن تتعلم شيئا ، كما قالت بصريح العبارة ، واذا هى تكلمت معكم ، فان كلامها يكون فى الغالب جادا وان بدا تهكما • أم لعلهـا تتعالى لجمالها الذى أشرت اليه عدة مرات ؟ وأنا أرى انكم متشابهون أشد التشابه ، وليست السمات التى تجعلها تختلف فى الشكل عنك وعن برناباس ، بالسمات المليحة ، اننى عندما رأيتها للمرة الأولى فزعت لنظرتها الباردة البليدة • ثم انها ، وهى الصـغرى ، لا تبدو هكذا للناظرين ، انها تبدو على تلك الصورة النسائية التى لا عمر لها والتى لا توحى بأنهـا كانت فى يوم من الأيام شابة • وأنت ترينهـا فى كل يوم ، ولا تحسين بصرامة وجهها • ولهذا فاننى ، عندما أفكر فى الأمر مليا ، لا أحمل عاطفة سورديني نحوها محمل الجد الشـديد ، ولعله كان يقصد من الخطاب عقابها لا استدعاءها •

فقالت أولجا :

– كل شىء عند سادة القصر ممكن سواء كانت البنت أجمل البنات أو كانت أقبح المخلوقات • الا انك تخطىء فى شأن أماليا خطأ كاملا • وأنا لا أجد من الأسباب ما يدعونى الى استمالتك الى أماليا ، وانما أنا أحاول هذه المحاولة من أجلك أنت • لقد كانت أماليا على نحو ما السبب فى محنتنا ، هذا شىء مؤكد • ولكن الوالد نفسه وهو الذى عانى من المحنة أشد معاناة والذى لم يستطع أن يتحكم فى نفسه وهو الذى عانى من ألفاظه وبخاصة فى البيت ، لم يوجه الى أماليا فى أقسى أوقات المحنة كلمة لوم واحدة • وليس هذا لأنه يقبل تصرف أماليا ، فكيف يمكنه وهو المعجب بسورتينى ان يقبله ؟! انه لم يستطع أن يفهم تصرفها بحال من الأحوال • ولعله كان يرضى بأن يقدم نفسه وما ملك ضحية لسورتينى، ولكن ليس على النحو الذى جرى بالفعل ، على أثر الغيظ الذى استبد بسورتينى على ما يبدو • وأقول على ما يبدو لأننا لم نسـمع عن سورتينى شيئا بعد ذلك مطلقا • واذا كان من قبل يعتزل الناس ، فقد أصبح الآن وكأنه غير موجود • وكان الأحرى بك أن ترى أماليا فى ذلك الوقت • لقد كنا نعرف جميعا أننا لن نلقى عقابا صريحا • كل ما حدث أن الناس نفروا منا • الناس هنا وفى القصر • وبينما لاحظنا نفور الناس هنا ، لم نلحظ شيئا مما جرى فى القصر • ونحن لم نكن فيما مضى نحس شيئا من عطف القصر ، فكيف يمكننا أن نتبين تحولا فيه ؟!

لقد كان هذا الهدوء هو أبشع شيء · لم يكن أبشع شيء هو نفور الناس عنا ، لا ، فقد كان من الممكن أن ينفروا منا اقتناعا برأى ما ، ولعلهم لم يكونوا يحملون لنا شيئا ذال بال ، ولم يكن الاحتقار الحالى موجودا آنذاك ، لقد تصرفوا عن خوف ، ثم أصبحوا يتلهفون على معرفة النهاية · ولم نكن نخشى جوعا ، فقد رد الينا المدينون جميعا مالنا ، وكانت نتيجة تصفية الحساب فى صالحنا ، وكان أقاربنا يساعدوننا سرا بما نحتاج اليه من طعام ، ولقد كان هذا سهلا ، لأن الوقت كان وقت الحصاد · ولكننا لم نكن نمتلك أرضا ، ولم يكن الناس يرضـــون فى أى مكان بتشغيلنا حتى أوشـــكنا لأول مرة فى حياتنا على البطـالة · وهكذا كنا نجلس معا ، مغلقين النوافذ ، فى قيظ يولية وأغسطس · فلم يحدث شىء · لم نتلق دعوة للمثول أمام محكمة ، ولم نتلق خبرا ، ولم نتلق تقريرا ولا زيارة ، لم نتلق أى شىء ·

فقال ك :

ـ لم يحدث شيء ، ولم تتوقعوا عقوبة صريحة ، فمم كنتم تخافون؟ من بشر !

فقالت أولجا :

ـ كيف أشرح لك ؟ لم نكن نخاف من شيء قادم ، بل كنا نعانى من الحاضر ، لقد كنا فى وسط العقوبة · لقد كان الناس فى القرية ينتظرون أن نذهب اليهم ، وأن يفتح الوالد محله من جديد ، وأن تعود أماليا ، التى كانت تجيد حياكة الملابس لا تعمل الا لأوجه الوجهاء ، الى نشاطها ، لقد أسف الناس لما قدمت أيديهم · هذا الى أن القضاء النهائى على أسرة مرموقة فى القرية له نتائجه السيئة التى يحل طرف منها بكل فرد ، ولقد اعتقد الأهالى ، عنـــدما انصرفوا عنا ، انهم يؤدون واجبا ، ولعلنا لو كنا مكانهم لفعلنا نفس الشيء · ثم هم لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمر ، كل ما عرفوه أن الساعى عاد الى حان السادة وقد امتلأت يده بالورق الممزق · ولقد رأته فريدا وهو يخرج من الحان ثم رأته بعد ذلك وهو يعود اليها ، وتبادلت معه بعض الكلمات ثم أذاعت بين الناس على الفور ما نما الى علمها · وهى لم تفعل ذلك لعداء حيالنا ، ولكن لأن هذا كان واجبها ، ولقد كان فى الحالة نفسها واجب كل فرد · والمهم أن أكثر شيء يرحب به الناس هو أن ينتهى الموضوع كله نهاية سعيدة · فلو أننا أتينا فجأة بخبر يقول ان كل شيء قد سوى ، وأن الموضوع كان يقوم على خطأ تكشفت حقيقته تماما ، أو أن الموضـــوع

سيئة تبعتها حسنة فمحتها ، أو انه ـ وحتى هذا كان سيرضى الناس ـ كانت جنايه أمكننا بفضل علاقتنا بالقصر تسويتها • لو فعلنا ذلك لأقبلوا علينا بكل تأكيد باشين فعانقونا وقبلونا وأقاموا لنا الأفراح • لقد شهدت أشياء من هذا النوع من قبل مرارا • بل ان مثل هذا الخبر لا ضرورة له • لو أننا ذهبنا الى الناس أحرارا طلقاء وعرضنا عليهم ان نعيد الصلات القديمة دون أن نشير بكلمة الى حكاية الخطاب ، لكان في ذلك الكفاية ، ولصرفوا النظر جميعا فرحين عن الخوض فى الموضوع • لقد انفض الناس عنا ليس فقط عن خوف ، ولكنهم انفضوا عنا أيضا عن خزى ، لأنهم بكل بساطة لم يكونوا يريدون أن يسمعوا عن الموضوع شيئا ، ولا أن يتكلموا عنه ، ولا أن يفكروا فيه ، ولا أن يتصلوا به بأى شكل • واذا كانت فريدا قد أفشت سر الموضوع ، فهى لم تفعل ذلك لكى تفرح فينا ، وانما لكى تحمى نفسها وتحمى الجميع منها ، لكى تنبه المجتمع الى أن شيئا قد حدث هنا ، شيئا ينبغى على الجميع أن يبذلوا غاية الجهد للابتعاد عنه • ولم نكن نحن ، ونحن عائلة تعيش هنا ، المقصودين بذلك ولكن الموضـــوع نفسه هو الذى كان مقصودا ، ولم نكن نحن مقصودين الا من حيث صلتنا بالموضوع الذى تورطنا فيه • فلو أننا ظهرنا من جديد ، وتركنا الماضى وشأنه ، وبينا بسلوكنا أننا تغلبنا على الموضوع بأى طريقة كانت ، واقتنع الرأى العام على هذا النحو بأن الموضوع ، مهما كان كنهه ، لن يعود الى مائدة المناقشة مرة أخرى ، فان كل شىء يسير الى خير حال • اذن لوجدنا المروءة التى عهدناها من قبل • وحتى لو لم ننس الموضوع القديم الا الى حد ما ، فان الناس كانوا سيفهموننا وسيساعدوننا على نسيانها تماما • ولكننا بدلا من أن نفعل ذلك قعدنا فى البيت • ولست أعرف ماذا كنا ننتظر • ربما كنا ننتظر قرار أماليا ، لأنها كانت قد انتزعت منفسها فى ذلك الصباح القيادة وظلت تتشبث بها • ولم تكن تتوسل الى ذلك بتصرفات خاصة ولا بأوامر ولا برجاء ، بل كانت تعتمد على شىء واحد تقريبا هو الصمت • وكنا نحن الآخرين عاكفين على التباحث والتشاور ، كنا طوال النهار من الصباح الى المساء نتهامس بلا انقطاع ، وكان أبى أحيانا يحس بفزع مفاجىء فينادينى اليه ، فأقضى نصف الليل بجوار فراشه • وكنا فى بعض الأحيان نقعد أحدنا الى الآخر ، برناباس وأنا ، ولم يكن برناباس يفهم آنذاك من الأمر الا قليلا جدا ، وكان يطالب دائما بتوضيحات حارة، يطالب بنفس التوضيحات ، لقد كان على الأرجح يعرف أن السنوات الخالية من الهموم التى يأملها أقرانه لا وجود لها بالنسبة اليه ـ وهكذا

كنا نقعد معا ، على نحو يشبه يا ك جلستنا الآن ، وكنا ننسى أن الليل قد حل وأن الصباح قد انبلج • وكانت الأم هى أضعفنا جميعا ، لأنها على الارجح لم تكن تحمل أحزاننا المشتركة فحسب ، بل كانت تحمل فوقها أحزان كل منا على حدة ، وهكذا لاحظنا مفزوعين تغيرات ظهرت عليها ، كنا نتوقع فى غير وضوح حدوثها ، تغيرات كانت توشك أن تحيق بالأسرة كلها • كان المكان المفضل لها هو ركن أريكة ـ لم تعد الأريكة لدينا ، بعد أن أخذها برونسفيك منذ وقت طويل ، ووضعها فى الحجرة الكبيرة لديه ـ كانت تجلس هناك ، وتنعس ـ ولم نكن نعلم ما بها بالضبط ـ أو كانت ، على ما كنا نستشف من شفتيها ، تكلم نفسها كلاما كثيرا • لقد كان من الطبيعى أن نعكف على مناقشة حكاية الخطاب دواما ، وأن نشقها طولا وعرضا ، وأن نبحث كل تفصيلاتها المؤكدة ، وكل امكانياتها المريبة ، وان نتفوق بعضنا على البعض فى ابتداع وسائل الحل الجيد ، كان هذا أمرا طبيعيا وأمرا محتوما فى الوقت نفسه ، ولكنه لم يكن من الخير فى شىء ، لأننا كنا لا نفتأ ننغمس فى هذا الذى كنا نريد أن نتخلص منه • وماذا كانت فائدة هذه الأفكار الممتازة التى كانت تخطر ببالنا ؟ لم تكن من بينها فكرة يمكن تنفيذها بدون أماليا ، لقد كانت كل هذه الأفكار مجرد تمهيد ، تمهيد أحمق ، لأن نتائجه لم تكن تصل الى أماليا ، ولو وصلت اليها لما لقيت لديها الا الصمت • على أننى الآن لحسن الحظ أفهم أماليا أفضل مما كنت أفهمها فيما مضى • لقد كانت تحمل أكثر مما كنا نحمل جميعا ، وان الانسان ليعجز عن فهم كيف احتملت كل هذا ومازالت تعيش بيننا الى الآن • ولعل أمنا كانت تحمل آلامنا جميعا ، كانت تحملها لأنها حلت بها ، ولكنها لم تستطع أن تصمد طويلا • ولا يمكن أن نقول انها لا تحملها الآن ، فقد كانت فيما مضى كذلك مضطربة العقل • ولكن أماليا لم تكن تحمل الآلام فحسب ، لقد كان لديها العقل الذى يمكنها من النظر فى أعماقها ، فى الوقت الذى كنا نحن فيه لا نرى الا النتائج ، كانت هى ترى القاع ، وكنا نأمل أن تتاح لنا بعض السبل اليسيرة ، وكانت هى تعلم أن الأمر قد قضى ، وكنا لا نجد لنا ما نلوذ به سوى التهامس ، وكانت هى تلوذ بالصمت ، لقد كانت تواجه الحقيقة عينا فى عين وكانت تعيش وكانت تتحمل الحياة فى ذلك الوقت كما تتحملها الآن • لقد كانت أحوالنا فى المحنة أفضل من أحوالنا بكثير • حقيقة أننا اضطررنا الى ترك البيت ليأتى برونسفيك ويقيم فيه ، وعينوا لنا هذا الكوخ لننتقل اليه ، وحملنا أشياءنا اليه على عربة يد نقلة بعد نقلة ،

كنا برناباس وأنا نجر العربة ، وكان أبى وأماليا يدفعان من الخلف ، اما الأم التى كنـا قد نقلناها الى الكوخ فى البـداية فكانت تجلس فى الكوخ على صندوق من الخشب وتستقبلنا بأنين خفيض • ولكننى أذكر اننا حتى فى أثنـاء جر العربه ـ ولقد كان جرها شيئا مخجلا لاننا كنا نلتقى فى الطريق بعربات نقل المحاصيل وكان الذين يرافقونها يتسمرون ويشيحون عنا بأبصارهم ـ كنا لا نكف ، برناباس وأنا عن الحديث عن آلامنا ومشروعاتنا ، وكنا أحيانا نقف أثناء الكلام ولا نعود الى السير الا بعد أن يصيح فينا أبى « هاللو » مذكرا ايانا بالواجب • ولكن هذه المباحثات كلها لم تغير من حياتنا شيئا بعد انتقالنا الى الكوخ ، لم يتغير من حياتنا شيئا بعد انتقالنا الى الكوخ ، لم يتغير من حياتنا الا أننا بدأنا نحس الفقر شيئا فشيئا • فقد توقفت منح الأقارب ، وفرغت أموالنا او أوشكت ، وفى ذلك الوقت بالذات بدأ الاحتقار الذى تعرفه ينصب علينا • لقد لاحظ الناس اننا لم نتمكن من الخلاص من حكاية الخطاب ، وغضبوا لذلك منا ، ولكنهم لم يكونوا يستهينون بصعوبة المحنة التى لم يكونوا يعرفونها ، وان كانوا يعلمون انهم لو حلت بهم هذه البلية لما كانوا على الأرجح سيتغلبون عليها خيرا منا ، وكانوا لذلك يجدون مزيدا من الأسباب التى تحملهم على الانفصال عنا • ولو أننا كنا قد استطعنا أن نتغلب على هذه البلية لاحترمنا الناس أعظم الاحترام جزاء لما تمكنا منه ، أما وقد فشلنا فقد حول الناس المسلك الذى اتخذوه حيالنا مؤقتا الى مسلك نهائى : لقد نبذونا من كل مكان كانوا يختلفون اليه • وكفوا عن الحديث عنا حديثهم عن البشر ، وعن ذكر اسـم عائلتنا ، وكانوا يذكروننا نسبة الى أخينا برناباس ، فهو أكثرنا براءة • حتى كوخنا ساءت سمعته • وأنت لو صدقت مع نفسك لاعترفت بأنك عندما دخلت الكوخ هنا لأول مرة اعتقدت انك تجد المبرر لهذه السمعة القبيحة • كان الناس عندما يأتون الينا يتأففون من أتفه الأشياء ، من أن مصباح الغاز الصغير مثلا يتدلى فوق المنضدة هناك • وهل هناك مكان آخر يتدلى فوقه الا المنضدة ؟ ولكنهم كانوا يجدون هذا شيئا غير محتمل • ولو انك غيرت مكان المصباح لما غير هذا شيئا من نفورهم • كان الاحتقار ينصب على كل ما كنا وكل ما أوتينا •

الالتماسات :

ـ فماذا فعلنا فى تلك الأثناء ؟ فعلنا أقبح ما كان يمكننا أن نفعل، فعلنا شيئا كان ينبغى أن ينصب علينا من أجل الواقعة الاصلية : لقد خنا أماليا ، وانتزعنا أنفسنا من أوامرها الصامتة ، فلم نكن نستطيع أن

تستمر حياتنا على هذا النحو ، لم نكن نستطيع أن نعيش بلا أمل ، وشرعنا ، كل بطريقته ، نتوسل الى القصر أو نندفع اليه راجين المغفرة كنا نعلم أننا لن نستطع أن نصحح شيئا ، وكنا نعرف أن الصلة الوحيدة التي بيننا وبين القصر والتي كان يمكن أن نعلق بها الأمل وأعني بها سورتيني ، الموظف الميال الى أبي ، قد تبددت نتيجة للأحداث، ولكننا مع ذلك بدأنا العمل . وبدأ أبي . وبدأت التوسلات الحمقى الى الناظر والأمناء والمحامين والكتبة . ولم يكن الموظفون في غالبية الأحوال يستقبلونه ، فاذا تمكن بالحيلة أو عن طريق المصادفة من مقابلة ببعض الموظفين — وكم كنا نهلل لذلك فرحين ونفرك أيدينا ! — فقد كان هؤلاء يطردونه بأقصى سرعة ولا يستقبلونه بعد ذلك أبدا . وكان من اليسير عليهم الرد عليه ، وما أسهل هذه المهمة على القصر . فماذا كان يريد ؟ ماذا حدث له ؟ لماذا يطلب الصفح ؟ متى وممن امتد اليه أصبع واحد من القصر ؟ حقيقة انه كان قد انتهى الى الفقر ، وانه قد فقد عملاءه ، وما الى ذلك ، ولكن تلك كانت من الظواهر التي تطرأ على الحياة اليومية للناس ، كانت من مسائل الحرف والأسواق ، وهل ينبغي على القصر ان يهتم بكل شيء ؟ والحقيقة أن القصر يهتم بكل شيء ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يتدخل تدخلا مباشرا غليظا في تطور الامور لا لهدف الا خدمة مصلحة رجل واحد . هل كان ينبغي على القصر أن يرسل موظفيه للجرى وراء العملاء واعادتهم الى أبي عنوة ؟ وكان أبي يعترض قائلا — وكنا نحن نناقش هذه الأشياء بدقة من قبل في البيت ثم نتكور بعد ذلك في ركن من الأركان وكأننا نتوارى عن أماليا التي كانت تلاحظ ما يجرى كله ولا تتدخل فيه — انه لا يشكو من الفقر لأنه يستطيع بسهولة أن يعرض الخسارة التي لحقت بتجارته ، وهذه كلها مسائل ثانوية اذا ما صفح القصر عنه . وكانوا يجيبون عليه قائلين : وكيف يمكن للقصر ان يصفح؟ ليس هناك اتهام الى الآن ، ليس هناك اتهام مثبت في السجلات ، على الأقل في السجلات المسموح للمحامين بالاطلاع عليها ، والنتيجة ، على قدر ما تبين الأوراق ، انه ليس هناك شيء اتخذ ضده ، وانه ليس هناك ما يوشك أن يتخذ ضده . وهل يمكنه أن يذكر القرار الرسمي الذى صدر ضده ؟ لم يكن أبي يستطيع ذلك . أم هل حدث تدخل من جانب جهاز من الأجهزة الرسمية ؟ لم يكن أبي يعلم شيئا عن هذا . ومادام لا يعرف ، واذا لم يكن هناك شيء قد حدث ، فماذا يريد ؟ عم يريد الصفح ؟ ربما عن ازعاج السلطات بلا هدف ، وهذا شيء لا سبيل الى الصفح عنه . ولم يكن أبي يتراجع ، ولقد كان في ذلك الوقت لا يزال

قويا ، وكانت البطالة المفروضـــة عليه تتيح له من الوقت الكثير ٠
« سأسترد لأماليا شرفها وما وقت ذلك ببعيد » ـ هذا ما كان يقوله أبى لبرناباس وأحيانا لى مرارا كل يوم ، ولكنه لم يكن يقوله الا بصوت خفيض ، فلم تكن أماليا لتسمعه ٠ وهو لم يقله الا من أجـــل أماليا ، والحقيقة أنه لم يكن يفكر فى استرداد الشرف ، بل كان يفكر فى شيء واحد هو الصفح ٠ ولكن الحصول على الصفح كان يفترض اثبات الذنب أولا ، وهذا ما كانت المــكاتب تنــكره عليه انكارا ٠ وانتهى الى التفكير ـ وهذا يدل على أن عقله كان قد ضعف ـ فى أنهم يخفون عنه الذنب لأنه لا يدفع بما فيه الكفاية ، فلم يكن حتى ذلك الحين يدفع الا الرسوم المحددة والتى كانت ـ على الأقل بالنســـبة لظروفنــــا ـ مرتفعة ارتفاعا كبـيرا ٠ وهــكذا أصــبح يعتقـــد انه ينبغى عليه أن يدفع المــزيد ، ولا شك انه كان مخطئا فى هذا ، ذلك ان الموظفين فى المكاتب لدينـــا يقبضون الرشاوى ولكنهم لا يفعلون ذلك الا ليوفروا على أنفســـهم كلاما لا يجدى ولا يفيد ، ولكنك لا تحصل لقاء الرشوة على شيء ٠ ولقد كان هذا هو أمل أبى ولهذا فلم نشأ أن نزعجه وبعنا ما بقى لدينا ـ ولم يكن ما بقى لدينـــا الا الأشياء التى لا سبيل للاستغناء عنهـا تقريبا ـ حتى نمد الوالد بالمال اللازم لبحثه وتقصيه ، وظللنا لوقت طويل نجد الرضا عندما نسمع الوالد على الأقل يشخلل ببعض العملة فى جيبه وهو يخرج الى مسعاه فى كل صباح ٠ أما نحن فكنا بطبيعة الحال نجوع النهار ، ولا نصـــل الى نتيجة لتدبير المال الا الى الابقاء للوالد على شيء من الابتهاج بالأمل ٠ ولم يكد يكون فى هـــذا خير ٠ فلم يلبث أن أحس بالتعب فى مشاويره ، وطالت الأمور التى كانت توشك على الانتهاء لولا انسياب المال ٠ ولما لم يكن هناك من يستطيع أن يحقق فى الحقيقة شيئا خارقا للمألوف ، فقد تظاهر بعض الكتبة فى بعض الأحيان بأنه يفعل شيئا ملمحا الى أن بعض الآثار قد ظهرت وانه لن يتتبعها تنفيذا لواجب مفروض وانما حبا فى الوالد ، وبدلا من أن يزداد الوالد ريبة ، ازداد تصديقا ٠ وعاد الوالد بوعد من هذا النوع واضح السخف وكأنه عاد الى البيت بالبركة كل البركة ، وكان من المؤلم أن نراه وهو يحاول من وراء ظهر أماليا ، أن يفهمنا ان نجاة أماليا التى لن تفاجيء انسانا أكثر منها هى ، قد أصبحت بفضل جهوده وشيكة ، وان كل شيء لا يزال سرا ينبغى علينا أن نخفيه أشد الاخفاء ٠ من المؤكد ان الحال كانت ستستمر على هذا المنوال طويلا ، لو لم تتحول الى العجز التام عن امداد الوالد بالمال ٠ حقيقة أن برنسفيك كان ، بعد الحاح كثير وتوســـل ، قد قبل تعيين

برناباس لديه مساعدا ـ على أن يذهب برناباس اليه في الظلام الدامس بالليل ليأخذ ما يكلف به من عمل ثم يعيده بعد ذلك في الظلام الدامس ـ ولا بد أن نعترف بأن برونسفيك قد عرض أعماله من أجلنا لشيء من الخطر ، ولكنه لم يكن يدفع لبرناباس الا النذر اليسير ، وان عمل برناباس لعمل جيد لا يعتوره أدنى عيب ـ ولكن الأجر الذى كان يحصل عليه كان لا يكفى الا بشـــق الأنفس ليدفـع عنا غائلة الجوع ٠ وأعلن الوالد ، بعد تمهيد كثير ، وعلى نحو فيه الترفق الشديد به ، اننـــا سنقطع عنه التدعيم المالى ، ولكنه تقبل اعلاننا فى هدوء كبير ٠ لم يعد فى امكانه أن يرى بالعقل أن مساعيه لا تؤدى الى نتيجة ، ولكنه كان قد تعب على الرغم من ذلك نتيجة لضروب الخيبة المتواترة ٠

حقيقة انه كان يقول ـ ولم يكن آنذاك يتكلم بوضوح وهو الرجل الذى كان من قبل يتكلم بوضوح يوشك أن يكون مفرطا ـ انه لم يكن سيحتاج الا القليل من المال ، لانه كان سيعلم الخبر اليقين فى الغد أو اليوم ، وان كل الجهود التى بذلها راحت أدراج الرياح وانها انما فشلت بسبب المال ، وما الى ذلك ، ولكن نبرة كلامه كانت تدل على أنه لم يكن يؤمن بصحة هذا الرأى ٠ ثم انه بدأ على الفور مباشرة فى مخططات جديدة ٠ ونظرا لأنه لم يتمكن من اثبات الذنب ، ولم يكن فى مقدوره نتيجة لهذا أن يصل الى شيء عن طريق الجهاز الحكومى ، فقد تحتم عليه أن يحول جهوده كلها الى التوسل والالتجاء الى الموظفين شخصيا ٠ ومن المؤكد أنه كان من بين الموظفين رجال قلبهم طيب شفوق ليس له أن يحتكم اليهم طالما كانوا فى المكتب ، ولكنهم قد يلينون له فى خارجه اذا ما فاجأهم الانسان فى ساعة ملائمة ٠

وهنا قطع ك الرواية التى كان حتى ذلك الحين ينصت اليهـا باذن صاغية ، سائلا أولجا :

ـ وأنت لا تستصوبين ذلك ؟

حقيقة أن الرواية كانت ستجيب حتما على هـذا السؤال ، ولـكنه كان يريد أن يعرف الجواب الآن ٠

وقالت أولجا :

ـ لا ٠ فليس هناك مجال للشفقة أو لما شابه ذلك ٠ ولقد كنا نعرف ذلك على الرغم من اننا كنا صغارا غررا ، وكذلك كان أبى بطبيعة الحال يعرف ، ولكنه كان قد نسى ذلك كما نسى غالبية الأمور الأخرى ٠ ووضع الوالد خطة تقوم على أن يقف على مقربة من القصر فى المكان الذى تمر منه

عربات الموظفين ، وأن يحاول ما استطاع أن يتقـــدم بالتماس الصفح • وهذه ، اذا أردنا الصراحة ، خطة مجردة من العقل تماما ، وما كان يمكن أن تؤدى الى نتيجة حتى ولو حدث المستحيل ووصل الالتماس بالفعل الى مسمع أحد الموظفين • فهل يمكن لموظف واحد أن يصفح ؟ لا يمكن ، على أحسن الفروض ، أن يكون الصفح الا من شأن السلطة كلها ، ويبدو أن السلطة نفسها لا تستطيع أن تصفح ، وأن كل ما تستطيع فعله هو نقل ما يصل اليها • ثم هل يستطيع موظف ما، حتى اذا نزل من العربة واهتم بالموضوع ، أن يكون صورة عنه من غمغمة أبى الفقـير المرهق الهرم ؟ والموظفون مثقفون ثقافة جيدة ، ولكنهم متخصصون فى ناحية بعينها ، ويكفى أن يسمع الموظف كلمة واحدة فى ناحية تخصصه ليفهم على الفور الكثير ، أما اذا كان الموضوع خارجا عن تخصصه ، فيمكنك أن تشرحه له ساعات طوال ، ولعله يهز رأسه عن أدب ، ولـكنه لن يفهم منه شيئا • هذه كلها أمور بديهية • ويمكن أن نتأمل المسائل الحكومية التى تخصنا، انها شيء هين ينجزه الموظف بهزة من كتفه ، فاذا ما حاولنا نحن أن نفهم أصلها فقد نضيع حياتنا ولانصل الى شيء • وحتى لو التقى الوالد بالموظف المختص ، فلن يستطيع هذا الموظف أن ينجز شيئا بدون ملفـات ، ولن يستطيع أولا وقبـل كل شيء آخر أن ينجز شـيئا فى الشارع ، وهـــو لا يستطيع أن يصفح ، بل يســتطيع أن ينجز الموضـــوعات بالطريقة الحكومية ، ولهذا فهو سيحيل الطالب الى سبيل الحكومة من أجل هذا الهدف ، ولقد حاول الوالد من قبل أن يصل عن طريق الحكومة الى شيء ففشل كل الفشل • ولا بد أن الوالد قد بلغ من ضـــعف العقل درجة بعيدة فظن انه يستطيع أن يصل بهذا المخطط الجديد الى شيء • ولو كان هناك أدنى احتمال من هـــذا النوع لامتـــلاء الشارع بحملة التوسلات والرجاءات • لقد كانت هناك استحالة يعرفهـا من أوتى أبسط تعليم ، ولهذا كان الشارع خاويا • ولعل تلك الحال كانت تقوى الوالد فيما عقد عليه الأمل ، فقد كان يلتمس القـــوة فى كل ناحية • ولقد كان بحاجة شديدة الى هذا • فما كان ينبغى للعقل السليم أن يستسلم الى مثل هذه الأفكار الكبيرة ، بل كان ينبغى عليه على أقصى تقدير أن يتبين الاستحالة واضحة جلية • والموظفون عندما يستقلون العربات ذاهبين الى القرية أو عائدين الى القصر ، لا يتنزهون ، بل هناك عمل ينتظرهم فى القرية وفى القصر ، ولهذا فهم يندفعون بأقصى سرعة • ولا يخطر ببـــالهم حتى أن يتطلعوا من نافذة العربة بحثا عن طالب حاجة فى الخارج •• وان العربة لتغص بالملفات التى يعكف الموظفون على دراستها !

وقال ك :

ـ ولكنني رأيت باطن زحافة أحد الموظفين ولم يكن بها ملفات ٠

لقد انفتح أمام ك فى حكاية أولجا عالم عظيم يوشك أن يكون عصيا على التصديق حتى ان ك لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتحرك اليه بخبراته القليلة ليقنع نفسه بوجود هذا العالم وليقنع نفسه هو بوجوده الذاتى على نحو أكثر وضوحا ٠

وقالت أولجا :

ـ هذا ممكن ٠ وفى هذا الحالة يكون الموضوع أشد وأعنف ، ومعنى هذا أن الموظف يعالج مسائل هامة جدا ملفاتها ثمينة أو ضخمة لا يمكن أخذها فى العربة ، وفى هذه الحالة يأمر الموظف بأن تندفع الخيول التى تجر العربة بسرعة أكبر ٠ وليس هناك على أية حال من يمكن أن يمنح الوالد شيئا من الوقت ٠ هذا الى أن الطرق الموصلة الى القصر كثيرة ، وتارة تكون هذه الطريق هى المفضلة فاذا الغالبية يسلكونها ، وتارة تكون طريق أخرى هى المفضلة فيندفعون اليها ٠ ولم يتوصل أحد للآن الى القواعد التى يقوم عليها هذا التغيير ٠ فهم فى الساعة الثامنة صباحا قد يتحولون الى طريق أخرى ، وما تمر عشرة دقائق حتى يسلكون ثالثة، وقد يعودون بعد نصف ساعة الى الاولى ويظلون عليها طوال اليوم ، ولكن احتمال التغيير قائم فى كل لحظة ٠ حقيقة أن الطرق كلها تتلاقى على مقربة من القرية ، ولكن العربات كلها تندفع هناك بسرعة هائلة حتى اذا كانت على مقربة من القصر سارت بسرعة معتدلة نوعا ما ٠ وكما أن سير العربات فى الطرقات يستعصى على الفهم ولا يلتزم بنظام ، كذلك عدد العربات ٠ فهناك أيام لا تظهر فيها عربات على الاطلاق ، وهناك أيام تكثر العربات فيها كثرة شديدة ٠ ويمكنك أن تتصور حال والدنا حيال هذا كله ٠ انه يرتدى أحسن حلة ـ وتكاد تكون هى حلته الوحيدة ـ ويخرج فى كل صباح تصحبه دعواتنا ٠ ويأخذ معه شارة صغيرة من شارات المطافىء ـ والحقيقة انه احتفظ بها بغير حق ـ ويعلقها على سترته خارج القرية ، وهو يخشى أن يفعل ذلك فى القرية ، على الرغم من ان هذه الشارة صغيرة جدا لا يكاد انسان يراها على بعد خطوتين ، ولكن الوالد يرى أنها تصلح لاجتذاب أنظار الموظفين المندفعين بعرباتهم اليه ٠ وهناك على مسافة غير بعيدة عن الطريق المؤدية الى القصر مزرعة يمثلها رجل اسمه برتوخ يورد الخضروات الى القصر ، وقد اختار الوالد مكانه على القاعدة الحجرية الضيقة لسور المزرعة الحديدى ٠ ولقد صبر برتوخ على هذه الحال لأنه كان فيما مضى صديقا للوالد وكان من أخلص عملائه ذلك أن قدمه مصابة بشىء من التشويه وكان يعتقد ان الوالد هو الوحيد الذى يستطيع أن يصنع له

حذاء يناسبها • وهناك جلس الوالد اليوم تلو اليوم ، وكان الوقت خريفا تعكر جوه ، وكثرت أمطاره ، ولكن الوالد لم يكن يعبأ بالجو وأحواله على الاطلاق • كان الوالد يضع يده في الصباح في ساعة معينة على مقبض الباب ، ويلوح الينا مودعا ، وكان يعود في المساء ـ وكان يبدو لنا كأنه كان يزداد كل يوم انحناء ـ كان يعود وقد ابتل ما عليه من ثياب أشد البلل ، فيلقي بنفسه في ركن • وكان فيبداية الأمر يحكي لنا عن خبراته اليسيرة ، يحكي مثلا أن برتوخ أخذته الشفقة به والصداقة القديمة فألقى اليه من فوق السور بطانية ، أو يحكي انه يظن أنه تبين في احدى العربات التي مرت به هذا أو ذاك الموظف ، أو يحكي ان حوذيا عرفه فمسه بجلدة السوط مداعبا • ولكنه فيما بعد كف عن هذا الحديث ، ويبدو انه فقد الأمل في أن يصل هناك الى شيء ، على أنه ظل يعتقد ان واجبه أو مهمته الفظيعة تفرض عليه أن يذهب الى هناك وأن يقضي اليوم بطوله هناك • وفي ذلك الوقت بدأت آلامه الروماتزمية ، كان الشتاء يقترب ، وتساقط الثلج مبكرا ، والشتاء عندنا يبدأ مبكرا • وهكذا كان يجلس هناك تارة على الحجر المبلل بمياه المطر ، وتارة يجلس في الثلج • وكان في الليل يتأوه من فرط آلامه ، وكان في بعض الأحيان يحتار في الصبح ولا يعرف هل يخرج أو يبقى ، ثم كان يتغلب على حيرته وينصرف • وكانت الأم تتعلق به وتحاول منعه من الخروج ، فسمح لها ، ويبدو أنه فعل ذلك عن خوف تملكه بعد أن أصبحت أعضاؤه لا تطيعه ، بأن تذهب معه ، وهكذا استبدت الآلام بأمي هي الأخرى • وكثيرا ما كنا نذهب اليهما ، نحمل اليهما الطعام أو نقوم بزيارتهما فحسب ، ونحاول اقنـاعهما بالعودة الى البيت• وكم كنا نراهما هناك خائرين يعتمد أحدهما على الآخر علىمقعدهما الضيق وقد التفا في غطاء واحد رقيق لا يكاد يشملهما معا وليس حولهما الا صفحة رمادية من الثلج والضباب لا يرى الناظر فيها مهما بعد ببصره طولا وعرضا لأيام كثيرة عربة أو انسانا ! يا له من منظر !! يا له من منظر يا ك حتى جاء صباح لم يسـتطع الوالد فيه أن ينزل ساقيه المتخشبتين من السرير • لقد كانت حالة كئيبة ! كان في غمرة هزيان الحمى يتصور كأن عربة وقفت الآن في المكان العالي عند برتوخ ونزل منها موظف وبحث عنه على طول السور ثم عاد الى العربة غاضبا ، يهز رأسه أسفا ! وكان الوالد يصدر في تلك الاثناء صرخات عالية وكأنما كان يريد من مكانه هنا أن يلفت نظر الموظف اليه وأن يشرح له انه لا ذنب له في الغيـــاب عن السور • وطال الغياب ، فلم يعد الى مكانه هناك قط ، وأصبح عليه أن يلزم الفراش الأسابيع الطوال • وتولت أماليا شأن الخـــدمة والرعاية والعلاج ، واستمرت على ذلك حتى اليوم باستثناء فترات قليلة • وهي

تعرف بعض الأعشاب التى تهدىء الآلام ، ولا تكاد تحتـاج الى النوم ، ولا تفزع بحال من الاحوال ، ولا تخاف ، ولا تحيد عن الصبر أبدا ، وهى تقوم الأعمال اللازمة للوالد والوالدة • واذا كنا نحن نحوم هنا وهناك حائرين دون أن نتمـــكن من المســاعدة بشيء ، فانها تظـل هى فى كل المواقف هادئة فاترة • فلما تجاوز الوالد الخطر وأصبح فى مقدور الوالد أن يهبط من الفراش مســتندا على شيء من يمين ويسار فى حيطة وبجهد جهيد ، تراجعت أماليا وتركته لنا •

مخططات اولجا :

ـ واتجه التفكير الآن فى ايجاد عمل للوالد تكون لديه القدرة عليه، أى عمل يجعله على الاقل يعتقد ان الغرض منه هو درء الذنب عن الأسرة • ولم يكن من الصعب العثور على عمل من هذا النوع ، ولم يكن القعود أمام مزرعة برتوخ فى الحقيقة سوى عملا قوامه النية والنية فقط ، ولكننى وجدت عملا اعطانى بعض الأمل • كان الحديث اذا دار فى المكاتب أو على لسان الكتبة عن ذنبنا ، يقتصر على الاشارة الى اهانة ساعى سورتينى ، ولم يكن هناك من يجرؤ على الدخول فى الامر الى أبعد من هـذا الحد • وعلى هذا قلت فى نفسى ، اذا كان الرأى العام ، على الأقـل فيما يبدو ، لا يعرف الا عن اهانة سورتينى ، فمن الممكن ، على الاقل ظاهريا ، اصلاح الموضوع اذا ما طيبنا خاطر الساعى • فليس هناك عريضة اتهـام ، على نحو ما قالوا ، وليس هناك مكتب يعالج الموضوع ، ولهذا فللساعى حرية الصفح عما مس شخصه ، وما يزيد الموضوع فى الحقيقة عن ذلك • ولم يكن من المحتمل أن يتسم هذا الأمر بأهمية حاســمة ، فما كان الا أمرا ظاهريا ، وما كان يمكن أن يتطور على نحو آخر ، وستكون النتيجة أن الوالد سيبتهج ، ولعلنا نستطيع ارضاء له أن نضيق الخناق على أولئك الذين قدموا اليه المعلومات والبيانات وعذبوه بها ، وكان أول ما ينبغى فعله هو بطبيعة الحال العثور على الساعى • فلما حكيت للوالد عن الخطة غضب فى بداية الأمر غضبا شديدا ، لأنه كان قد أصبح عنيدا مفرطا فى العند ، وكان تارة يعتقد ـ ولقد حدث هذا أثناء مرضه ـ اننا عقناه عن الوصول الى النجاح النهائى بقطعنا العون المالى عنه أولا ، وبالزامه الفراش الآن ، وكان تارة أخرى عاجزا عن استيعاب أفكار الآخرين • وكان أن رفض الخطة قبل أن أفرغ من عرضــها ، وكان رأيه انه ينبغى عليه أن يستأنف الانتظار عند مزرعة برتوخ ، ولما لم يكن يســتطيع السعى الى هناك على قدميه كل يوم ، فمن الواجب أن ننقله الى هناك بعربة اليد • ولكننى لم أفقد الأمل ، وكررت المحاولة واذا به يتقبل الفكرة تدريجيا ،

ولم يكن يزعجه الا انه سيكون فى الامر كله تابعا لى ، فأنا التى كنت قد رأيت الساعي آنذاك ، وهو لا يعرفه والحقيقة أن السعاة يتشابهون ، وانني لم أكن واثقة تمام الثقة من أنني سأتعرف على الساعى المقصود ان رأيته • وبدأنا نذهب الى حان السادة ونبحث بين الخدم • والحقيقة أن الساعي كان خادما لدى سورتيني ، وكان من المحتمل جدا أن نجده بين خدم سيد آخر ، واذا لم نتمكن من العثور عليه ، فربما كان من الممكن أن نحصل على أخبار عنه من الخدم الآخرين • وكان ينبغي علينا لهذا أن نذهب فى كل مساء الى حانة السادة ، ولم يكن هناك مكان نلقى فيه ترحيبا ، فما بالك بهذا المكان الذى لم يكن كل من لديه مال يستطيع الظهور فيه • ولكنهم هناك تبينوا انهم يحتاجون الينا ، وأنت لا شك تعرف كيف كانت فريدا تعانى من الخدم معاناتها من الكارثة الحالة ، والحقيقة ان الخدم فى الغالب أناس هادئون دللهم العمل الخفيف وأصابهم بالتثاقل • والموظفون عندما يدعى أحدهم للآخر دعوة طيبة يقولون «عسى تنعم بما ينعم به الخدم !» ، ويقال ان الخدم هم من ناحية التنعم السادة الحقيقيون فى القصر ، وهم يعرفون كيف يظهرون بمظهر هادىء وقور حيث يخضعون لقوانين القصر ــ وقد أكد لى الكثيرون هذه الحقيقة ــ ونحن نجد هنا بقايا من هذا المسلك ، ولكنها مجرد بقايا، وفيما عدا ذلك يبدو الخدم هنا فى القرية حيث لا تسرى عليهم قوانين القصر كاملة وكأنهم يتحولون الى أناس آخرين • انهم هنا جمهرة غاشمة جامحة لا تخضع للقوانين بل تخضع لشهواتها التى لا تشبع • ان فجورهم لا يعرف حدا ، ومن حسن حظ القرية انهم لا يخرجون من حان السادة الا بأمر ، أما فى حان السادة فينبغى على المرء أن يجد وسيلة للتصرف معهم • ولقد لقيت فريدا فى هذا السبيل صعوبة شديدة ، ولهذا رحبت ترحيبا كبيرا باستخدامى لتهدئة الخدم • فأنا أذهب منذ أكثر من عامين على الأقل مرتين اسبوعيا فأقضى الليل مع الخدم فى الحظيرة • وكان أبى فيما مضى ، عندما كان يستطيع الذهاب معى الى حانة السادة ، ينام فى ركن ما بقاعة الشراب وينتظر قدومى فى الصباح المبكرة بأخبار جديدة • وكانت تلك الاخبار قليلة جدا • ونحن الى اليوم لم نعثر على الساعى الذى نبحث عنه ، ويقال انه لا يزال يعمل فى خدمة سورتيني الذى يقدره أشد التقدير ، ويقال انه تبعه عندما انتقل ليعتكف فى مكتب بعيد من مكاتب المستشارية • وكانت حال غالبة عليه مثل حالنا ، قد مضى عليهم وقت طويل لم يروه ، واذا ادعى أحدهم انه رآه ، فلم يكن ادعاؤه الا خطأ • وبهذا قد يمكن القول بأن خطتى فشلت ، ولكنها فى الحقيقة لم تفشل كلية ، فنحن لم نجد الساعى ، وحالة الوالد قد تدهورت للأسف

تماما نتيجة لذهابه الى حان السادة ونومه هناك وربما كذلك نتيجة لاشفاقه على — على قدر ما كان قد بقي لديه من قدرة على الاشفاق — وانتهى الى الوضع الذى رأيته عليه ، ولعل حالته أفضل من حالة الأم التى نتوقع فى كل يوم وفاتها ، وما يؤجل وفاتها الا جهد أماليا الخارقة للمألوف فى العناية بها • أما الشيء الذى حققته فى حان السادة فيتمثل فى ارتباط ما بالقصر • ولا تحتقرنى اذا قلت لك اننى لا أندم على ما فعلت • ولعلك تتساءل عما يمكن أن يكون عليه هذا الارتباط من الاهمية • وأنت على حق • فليس الارتباط كبيرا • فأنا أعرف الآن خدما كثيرين ، أو أعرف على وجه التقريب خدم كل السادة الذين نزلوا الى القرية فى السنوات الماضية ، واذا أنا ذهبت يوما الى القصر ، فلن أكون غريبة هناك • حقيقة ان هؤلاء الذين أعرفهم هم الخدم فى القرية ، وانهم فى القصر غيرهم هنا ، ولعلهم وهم هناك لايعرفون أحدا وبخاصة لايعرفون من كانت لهم به علاقة فى القرية ، على الرغم من أنهم قد أقسموا لى فى الحظيرة مائة مرة على أنهم سوف يفرحون أشد الفرح بلقائى فى القصر • ولقد علمت قلة ما تعنيه مثل هذه الوعود • ولكن هذا ليس أهم ما فى الأمر • فان علاقتى بالقصر لا تقوم على الخدم فحسب ، بل تقوم على أننى أتوقع وآمل أن يكون هناك واحد يلاحظنى ويلاحظ ما أعمل — وليس من شك فى أن ادارة الخدم الكثيرين قسم بالغ الاهمية ، جم الاهتمام فى الديوان — وأن هذا الذى يلاحظنى قد يصل الى حكم على أكثر رقة ، وقد يتبين أننى أقوم — بطريقة مؤسفة حقيقة — بالنضال من أجل أسرتنا وباستئناف جهود الوالد • واذا تصور الانسان الأمر على هذا النحو فقد يغفر لى قبولى المال من الخدم وصرفه على أسرتنا • هذا الى أننى حققت شيئا آخر ، لا شك فى أنك ستضيفه الى ذنبى • لقد عرفت من الخدم شيئا عن كيفية الوصول الى الدخول فى خدمة القصر بطرق ملتوية ، ودون ما حاجة الى طريقة التعيين العامة الصعبة التى تطول الى أعوام ، والحقيقة ان الانسان لا يصبح بهذه الطرق الملتوية موظفا عاما ، بل موظفا سريا بنصف ترخيص ، ليس له حقوق وليس عليه واجبات ، وأقبح ما فى الأمر أن الانسان لا تكون عليه واجبات ، وانما يتحقق للانسان شيء ، وهو أنه يكون بجوار كل الامور : فيستطيع أن يتبين الظروف السانحة وأن ينتهزها ، واذا لم يكن الانسان موظفا ، فقد يجد بالمصادفة عملا ما ، فقد يحدث أن يستدعى موظف ليس موجودا فى تلك اللحظة بالذات ، فيعجل الانسان بتلبية النداء ، واذا به يصبح ما لم يكن منذ لحظة : يصبح موظفا • ولكن متى يجد الانسان مثل هذه الفرصة ؟ ربما فى الحال ، فما يكاد الانسان يدخل ، ما يكاد يتلفت حواليه ، حتى تكون

وهو المبتدىء ، يدركها وينتهزها ، ــ وربما مرت السنوات التى تزيد على المدة التى تتطلبها طريقة التعيين الرسمية دون أن يجد الانسان الفرصة ، ومن كان موظفا بنصف ترخيص من هذا النوع لا يحق له أن يدخل سلك الوظائف بالطريقة الرسمية • وهذا يعنى ان المحــاذير كثيرة • ولكنها قليلة بالقياس الى طريقة التعيين الرسمية التى تدقق أفظع التدقيق فى الاختيار والتى لا تنبذ من البداية من كانت عائلته مشبوهة فى سمعتها، ان من كانت تلك هى حالة يرتعد سنوات طويلة عندما يتقدم للتعيين عن هذا السبيل انتظارا للنتيجة ، والجميع يسألونه من كل ناحية مندهشين منذ اليوم الأول كيف يجرؤ على السعى الى شىء ميئوس منه على هذا النحو، ولكنه يتعلق بشىء من أمل والا كيف يمــكنه أن يعيش ؟! وتمر أعوام طويلة ، ربما يكون قد أصــبح بعـدها شيخا متقدما فى السن ، ويتلقى الرفض ، ويعلم أن كل شىء قد ضاع وان حياته كانت عديمة الجدوى • وهناك بطبيعة الحال استثناءات ، وهذا هو ما يغرى • فقد يحــدث أن يقبل فى نهاية المطاف أناس من ذوى السمعة المشبوهة ، وهناك موظفون يحبون رغم ارادتهم رائحة مثل هــذه الحياة الغشــيمة ، فاذا هم أثنــاء اختبــارات التعيين يشمشمون بأنوفهم ، ويزمون بأفواههم ، ويقلبون عيونهم ، فمثل هذا الرجل المشبوه السمعة يلوح لهم جذابا مثيرا للشهية الى درجة هائلة ، فلا يستطيعون مقاومته الا بالاستمساك العنيف بكتب القانون وما احتوت من مواد • وقد يحــدث فى بعض الأحيان ألا يساعد ذلك الرجل على التعيين ، بل يؤدى الى اطالة اجراءات التعيين اطالة لانهاية لها فهى لا تنتهى الى نهــاية بل توقف بعد وفاة الرجل • وهكذا فان طريقة التعيين الرســمية القــانونية ، وكذلك الطريقة الاخرى تمتلئان جميعا بالصــعوبات المكشوفة والمستترة ، ومن الفطنة أن يزن الانسان الامور كلها وزنا دقيقا قبل أن يقدم على شىء من هذا القبيل • ولقد عكفنا برناباس وأنا على وزن الامور وزنا دقيقا ، كنا نجلس معا ، عندما أعود من حان السادة ، فأحكى الجديد من الاخبار التى نمت الى علمى ، ونظل عاكفين على مناقشتها الايام الطوال ، وكان العمل يظــل فى يد برناباس أطول مما ينبغى • وربما وقع على فى رأيك هنا ذنب • لقد كنت أعرف أن حكايات الخدم لا يعتمد عليهــا كثيرا ، وكنت أعرف أنهم لم يكونوا يحبون الحديث الا عن القصر ، وانهم كانوا يحولون انتبــاهى الى أمور أخرى ، وانهم كانوا لا يقولون الكلمة الا بعد توسل واستجداء ، ولكنهم كانوا اذا تحركت نفوسهم ، يتكلمون فيثرثرون بالكلام الفارغ ، ويبالغون ويتزايدون فى المبالغة والتخريف ، فلا يكون على ما يبــدو فى التصايح اللانهائى الذى يتبع الواحد فيه منهم الآخر على أفضل الفروض أكثر من

بصعة اشارات ضئيلة ٠ أما أنا فكنت أحكى لبرناباس كل شيء على نحو ما شاهدت ولاحظت ، وكان هو ـ ولم تكن لديه القدرة على التمييز بين الصدق والكذب ، وكان نتيجة لوضع أسرتنا متعطشا الى الاستماع الى مثل هذه الأشياء ـ يتجرع هذه الاخبار تجرعا ويتحرق شوقا الى مزيد ٠ وهكذا وقعت خطتى التالية بالفعل على برناباس ٠ لم يعد هناك أمل فى بلوغ المزيد عن طريق الخدم ٠ ولم يكن هناك من سبيل الى العثور على ساعى سورتينى ، ولم يكن هناك أمل فى العثور عليه يوما ما ، ولاح الأمر كان سورتينى وبالتالى الساعى ينحازان الى بعيد ، وكثيرا ما اكتنف منظرهما واسمهما النسيان ، وكنت أضطر فى أحوال كثيرة الى وصفهما باسهاب ولا أصل فى النهاية الى نتيجة أكثر من أن سامعى يذكرهما بصعوبة ولا يستطيع أن يذكر لى من أمرهما أكثر من هذا ٠ أما حياتى مع الخدم فلم يكن لى بطبيعة الحال تأثير على كيفية الحكم عليها ، وكنت آمل أن ينظر اليها على النحو الذى تسير عليه ، وأن يقتطع شيء ولو ضئيل من ذنب الأسرة ، ولكنى لم أجد من الدلائل ما يبين لى ذلك ٠ ومع ذلك فقد بقيت عليها ، نظرا لأننى لم أكن أعرف لى امكانية أخرى للحصول على شيء فى القصر ٠ ولكنى وجدت لبرناباس امكانية فى القصر ٠ ذلك اننى كنت عندما أرغب ـ ولقد كنت شديدة الرغبة ـ أستطيع أن أتبين أن من يدخل فى خدمة القصر يستطيع أن يحقق الكثير لعائلته ٠ والسؤال هو بطبيعة الحال الى حد يمكن تصديق هذه الحكايات ؟ لم يكن من الممكن تبيان هذا ، ولكننى كنت على بينة من ان ما يمكن الوصول ابيه على هذا النحو قليل ٠ فاذا أكد لى مثلا خادم لن أراه فى المستقبل أبدا ، وحتى لو رأيته فلا يكاد يكون فى مقدورى معرفته ، انه سيساعد أخى على الحصول على وظيفة فى القصر ، أو أنه سيساعده على الأقل اذا ما هو أتى الى القصر بأى وسيلة ، فيقدم اليه مثلا ما ينعشه ـ فقد علمت من حكايات الخدم أن المتقدمين للوظائف يفقدون الوعى أثناء فترة الانتظار الطويلة أو يضطربون فيضيع عليهم كل شيء اذا لم يتول الاصدقاء انعاشهم ـ فاننى أحمل هذه الحكايات على انها تحذيرات صحيحة على ما يبدو ، وان كنت متأكدة من أن الوعود المتصلة بها لا أساس لها ٠ ولم يكن الأمر على هذا النحو بالنسبة لبرناباس ٠ حقيقة أننى حذرته من أن يصدق هذه الحكايات ، ولكننى ما كدت أحكى له حتى كفاه هذا سببا لقبول مشروعاتى ٠ ولم تكن حكاياتى أنا هى التى أثرت عليه الأثر الاكبر ، بل اثرت عليه خاصة حكايات الخدم ٠ وهكذا وجدت أننى لا أعتمد الا على نفسى وحدى كل الاعتماد ، فلم يكن هناك من يستطيع التفاهم مع أبى وأمى سوى أماليا ، وكانت أماليا تعتزلنى أكثر فأكثر كلما أمعنت فى

استئناف مخططات أبى على طريقتى ، وهى قد تتكلم معى أمامك أو أمام الآخرين ، ولـكننا لا نتكلم معا مطلقا عندما نكون وحدنا · ولقد تحولت فى يد الخدم فى حان السادة الى لعبة كانوا يبذلون كل الجهود لتحطيمها مغتاظين · اننى لم أتكلم مع واحد منهم فى السنتين الماضيتين كلمة واحدة تقوم على الألفة والود ، فكل الكلام هناك خبث وكذب وجنـون ، وهكذا لم يعد أمامى سوى برناباس ، ولقـد كان برناباس صغير السن جدا · وكنت وأنا أحكى له حكاياتى وأرى فى عينيه البريق الذى احتفظ به منذ ذلك الحـين ، أفزع ، ولكننى لم أكن أتراجع ، لأن اللعبة كانت تغرى بالكثير · وأنا لم أكن أتابع بطبيعة الحال مخططات كمخططات أبى التى كانت كبيرة وان كانت فى الوقت نفسه فارغة جوفاء ، ولم يكن لدى تصميم الرجال ، ولهذا اكتفيت بالسعى لاصلاح اهانة الساعى ، وكنت أرجو أن يذكر التواضع من بين ميزاتى · وهكذا أخذت أسعى عن طريق برناباس سعيا وثيقا وعلى نحو مختلف الى تحقيق ما قد فشلت أنا فى تحقيقه · لقد أهنا ساعيا وتسببنا فى انعزاله عن المكاتب القريبة ، فليس هناك شىء أقرب الى التفكير من أن نقدم فى شخص برناباس ساعيا آخر ، ونجعل برناباس يقوم بعمل الساعى المهان ، ونمكن بهذا للساعى المهان من البقاء فى البعـد هادئا ما شـاء من وقت حتى ينسى الاهانة · والحقيقة أننى تبينت أن هذه الخطة المتواضعة لا تخلو من تكبر ، فهى قد توحى بأننا نريد أن نملى على السلطات كيف تنظم شئون الأفراد أو بأننا نشك فى أن السلطات لها القدرة من تلقاء ذاتها على اتخاذ أفضل التدابير ، بل فى أنها قد اتخذت من تلقاء ذاتها بالفعل أفضل التدابير قبل أن يخطر ببالنا بوقت طويل أن هناك ما يمكن اتخاذه من تدابير · ولكننى عدت أعتقد انه من المحال أن تسىء السلطات فهمى الى هذا النحو ، وان السلطات اذا فعلت هذا فانها لا تفعله الا بغرض وعن قصد ، ومن هنا فان فكرة بحث كل ما أقوم به من جهود مرفوضة أصلا · ولهذا فلم أنصرف عما انتويت عليه ، وأعاننى على ذلك طموح برناباس · ولقـد استبد الكبر برناباس فى فترة التمهيد والاستعداد حتى انه اعتبر العمل فى صناعة الأحذية عملا قذرا بالنسبة اليه عندما يصبح فى المستقبل موظفـا فى المستشارية · بل انه تجاوز ذلك وأصبح يجرؤ على معارضة أماليا اذا تحـدثت اليه بكلمة ، وهو ما كان يحدث نادرا ، وكان يعارضها عن مبدأ · وسمحت له عن طيب خاطر بهذه المتعة السريعة التى انتهت هى والكبرياء بسرعة ، كما كنت أتوقع ، فى اليـوم الأول لذهابه الى القصر · وبدأ برناباس عمله الظاهرى الذى حكيت لك عنه · وكان دخول برناباس للمرة الاولى بدون صعوبة الى القصر أو على الأصح الى هذا القسم من الديوان الذى سيصبح،

ان صح التعبير ، مكان عمله ، مثارا للدهشة . لقد أوشك هـذا النجاح الذى حققه أن يذهب بعقلى آنذاك ، وجريت من فورى الى أماليا ، عندما همس الى برناباس فى طريق عـودته الى البيت بالخبر ، وامسكت بها ، وضممتها الى فى ركن ، وقبلتها بشفتى وأسنانى بعنف فبكت من الألم والفزع . ولم أستطع من فرط انفعالى أن أقول لها شيئا ، ثم اننا لم نكن قد تحادثنا معا منذ وقت طويل ، فأجلت الحديث الى يوم تال . فلما كانت الايام التالية لم يعد هناك كلام يقال . فلم يزد ما بلغناه بسرعة بعد ذلك شيئا . وظل برناباس عامين كاملين يعيش هذه الحياة الرتيبة المقبضة. لقد أعرض الخدم كل الأعراض ، وكنت قد أعطيت برناباس خطابا صغيرا أوصيت الخدم فيه بأن يولوه اهتمامهم ، وذكرتهم فيه بوعودهم . وعلى الرغم من أن برناباس كان أحيانا يقع على خدم لا أعرفهم ، وبالرغم من ان طريقة برناباس كانت تثـير الغيظ فقـد كان ينشر الخطاب ويصمت ولا يجرؤ على الكلام فى المكان العالى ـ فانه من المخجل انهم لم يساعدوه ، حتى جاءه أحدهم بالخلاص ـ خلاصا وكان يمكننا نحن أن نحققه وحدنا ومنذ وقت طويل ـ ولعل هذا الخادم الذى جاءه بالخلاص كان قد رأى الخطاب عدة مرات يبسط أمامه ويفرض عليه فرضا . ولم يكن الخلاص يتمثل الا فى أنه أخذ الخطاب وكمشه فى يده وألقى به فى سلة المهملات. ولقد خطر ببالى انه أوشك أن يقول : « انكم قـد اعتـدتم على معالجة خطاباتنا على النحو نفسه . » وعلى الرغم من ان هذه الفترة ظلت بلا نتيجة فانها كانت طيبة التأثير على برناباس ، اذا شاء الانسان أن يرى أثرا طيبا فى أنه تقدم فى السن قبل الأوان وأصبح رجلا قبل الأوان . أما أنا فكثيرا ما كنت أحس بالحزن عندما أتطلع اليه واقارنه بالصبى الذى كانه قبل عامين . هـذا على الرغم من أننى أفتقر الى السلوى والمساندة اللتين يمكن أن يمنحنى اياهما عندما يكون رجلا . انه ما كان ليصل الى القصر بدونى ، لكنه منذ وصل الى هناك أصبح مستقلا عنى ، وأنا صفيته الوحيدة ، ومع ذلك فهو بكل تأكيد لا يحكى لى الا جزءا صغيرا مما يثقل قلبه . انه يحكى لى كثيرا عن القصر ، ولكن الانسان لا يستطيع استنتاجا من حكاياته ومن الوقائـع الصغيرة التى يذكرها أن يفهم ولو من بعيد ، كيف حوره القصر وجعله على هذا النحو . ان الانسان لا يستطيع بصفة خاصة أن يفهم كيف فقد الآن ، وقد أصبح رجلا ، الشجاعة كل الشجاعة التى كانت لديه صبيا ، والتى كانت آنذاك عنيفة نخشى كلنا نتائجها كل الخشية . ان الوقوف والانتظار باستمرار يوما بعد يـوم بدون فائدة ، وبدون ما أمل فى التغيير ، يصيبان الانسان بالخور واليأس ، ويجعلانه فى النهاية عاجزا عن أن يفعل شيئا سوى هذا الوقوف اليائس . ولكن

لماذا لم يقاوم فيما مضى ؟ انه لم يفعل لأنه تبين بعد قليل انني كنت على حق ، وأن الطموح لا هدف له هناك ، الا احتمال تحسين وضع أسرتنا • ذلك ان كل شيء هناك ـ باستثناء نزوات الخدم ـ متواضع جدا ، ان الطموح يلتمس اشباعه في العمل ، ونظرا لأن الموضوع يكتسى فى هذه الحالة بالاهمية الكبرى ، فان الذات تتلاشى تماما ، وليس هناك مكان للرغبات الصبيانية • ولقد اعتقد برناباس ، على ما حكى لى ، انه رأى بوضوح عظم سلطان وعلم الموظفين ، حتى أولئك الموظفين الذين تحوم حولهم الشكوك الكثيرة ، والذين أتيح له أن يلج حجرتهم • لقد رأى كيف يملون بسرعة بعيون توشك أن تنقفل ، وأيد لا تأتى الا بحركات قصيرة، وكيف ينهون الاعمال مع الخدم الغلاظ بحركة من السبابة لا ينطقون معها بكلمة ، فيهرع الخدم فى تلك اللحظات وهم يلهثون فى صعوبة ويبتسمون فى سعادة ، ورأى كيف يجدون النص المعقد فى كتبهم وينكبون عليه ، وكيف يندفع الآخرون ، على قدر ما يسمح لهم المكان الضيق بالاندفاع ، ويمدون نحوه رقابهم • وكان أن أحدثت هذه الأشياء وأشباهها فى ذهن برناباس صورا عظيمة لهؤلاء الرجال ، وأحس بأنه ، لو تمكن من أن يجعلهم يلحظونه ويسمحون له بأن يتحدث اليهم ببضع كلمات ـ لا باعتباره غريبا ، ولكن باعتباره زميلا فى المستشارية •• زميلا قليل الرتبة بطبيعة الحال ـ فانه سيتمكن من تحقيق أشياء لأسرتنا لا قبل لأحد على التنبؤ بها • ولكنه لم يصل الى هذا الحد ، وبرناباس لا يجرؤ على فعل شيء من شأنه أن يقربه اليه ، على الرغم من انه يعرف تماما ، انه بغض النظر عن شبابه وسط أسرتنا ، قد تقدم نتيجة للظروف المؤسفة الى مرتبة رب الأسرة المثقلة بالمسئولية • وهنا أصل الى آخر ما اعترف لك به : لقد أتيت أنت الى هنا منذ أسبوع • وسمعت أنا فى حان السادة شخصا يشير الى ذلك فلم أعبأ بالامر • لقد أتى موظف مساحة • ولم أكن أعرف حتى معنى العبارة • وفى المساء التالى جاء برناباس الى البيت مبكرا ـ وكنت معتادة على الذهاب لملاقاته فى ساعة معينة والسير معه جزءا من الطريق ، فرأى أماليا فى الحجرة ، ولهذا جرنى الى الشارع ووضع وجهه على كتفى وبكى عدة دقائق • لقد تحول من جديد الى الصبى الذى كانه فيما مضى • لقد حدث له شيء لم ينم بعد النمو الكافى لاحتماله • كان يبدو وكأن عالما جديدا انفتح أمامه فجأة وكأنه لا يستطيع تحمل ما فى هذا الجديد من سعادة وهموم • ولم يكن ما حدث له يزيد عن أنه تلقى خطابا ليسلمه اليك • ولكن هذا الخطاب كان الخطاب الأول ، وكان العمل الأول الذى يوكل اليه •

وسكتت أولجا • وساد المكان سكون ، الا من صوت تنفس الوالدين

الثقيل الذى كان من حين لآخر يتحول الى حشرجة · وقال ك ببساطة وكأنه يكمل رواية أولجا :

ـ لقد تنكرتم أمامى ، وأحضر برناباس الى الخطاب وكأنه ساع قديم كثير العمل ، وكذلك تصنعت أنت وأماليا ـ وفى هذا كنتما متفقتين ـ أن احضار الخطابات ومهمة الساعى من الامور الثانوية ·

فقالت أولجا :

ـ ينبغى أن تفرق بيننا · أما برناباس فقد تحول نتيجة للخطابين على الرغم من شكوكه فى عمله الى صبى سعيد · وهذه الشكوك تمسه هو وتمسنى أنا ، أما أنت فانه يتشرف بأن يظهر حيالك بمظهر الساعى الحقيقى على قدر ما يتصوره · ولقد كلفنى على سبيل المثال ، على الرغم من أن أمله فى الحصول على بدله رسمية قد تزايد ، بأن أغير له فى ظرف ساعتين شكل سراويله حتى يكون شكلها على الأقل مشابها لشكل سراويل البدلة الرسمية ، وحتى يلوح لك ، لأن خداعك فى هذه الناحية بطبيعة الحال أمر هين ، فى هيئة لا تثير شكوكك · هذا عن برناباس · أما أماليا فانها فى الحقيقة تحتقر عمل السعاة ، وهى الآن تحتقره أكثر من ذى قبل بعد أن لاح على برناباس أنه حقق فيه شيئا من النجاح ، ومن السهل عليها أن تتبين ذلك من هيئة برناباس ومن جلوسنا معا وتهامسنا · فهى اذن صادقة فى كلامها ، ولا ينبغى أن تشك فى كلامها هذا بحال من الاحوال والا ضللت فى شكل كل الضلال · هذا عن أماليا · أما أنا فاذا كنت ، يا ك ، قد قللت فى بعض الأحيان من قدر عمل الساعى ، فلم أكن أقصد الى خداعك ، بل كنت أتصرف عن خوف · فهذان الخطابان اللذان مرا عن طريق يد برناباس هما آية المنة الاولى ـ وان كان الشك يكتنفها من كل جانب ـ التى تتلقاها أسرتنا منذ ثلاث سنين · وهذا التحول ـ اذا كان فى الحقيقة تحولا وليس خداعا ، فالخداع أكثر من التحول ـ يرتبط بوصولك الى هنا ، ولقد ارتبط مصيرنا بمصيرك بنوع ما من التبعية ، ولعل هذين الخطابين مجرد بداية ، ولعل عمل برناباس كساع يتجاوز حدود مهمته معك الى ما عداها ـ وهذا شىء نتمناه ما استطعنا · ولكن الأمور الى الآن لا تتجه الا الى هدف واحد هو أنت · أما فيما يختص بالقصر فينبغى علينا أن نرضى بما يقسم لنا هناك ، وأما فيما يختص بالقرية هنا ، فربما استطعنا أن نفعل نحن شيئا ، أعنى : ضمان رضاك أو على الأقل اتقاء نفورك ، وأهم من هذا وذاك حمايتك بكل ما أوتينا من قوة وخبرة حتى لا تضيع عليك الصلة بالقصر ، تلك الصلة التى ربما نستطيع الحياة منها · وكيف السبيل الى تدبير هذا على أحسن وجه ؟

الا تساورك الشكوك حيالنا عندما نقترب منك ، لأنك هنا غريب ولأنك بكل تأكيد تمتلىء من كل ناحية بالشك ، بالشك الذى له ما يبرره ٠ ونحن نتعرض للاحتقار ، وأنت تتأثر بالرأى العام وتتأثر خاصة بخطيبتك ٠ فكيف نتقدم نحوك ، دون أن نقف فى وجه خطيبتك ـ وليس هذا غرضنا ـ ودون أن نحدث بك نتيجة لذلك الألم ؟ ثم ان الرسائل التى قرأتها أنا بدقة قبل أن تتسلمها أنت ـ ولم يقرأها برناباس لأنه لا يسمح لنفسه كساع بمثل هذا التصرف ـ لاحت لى من النظرة الاولى غير ذات أهمية كبيرة ، وقديمة ، ولقد تجردت من الأهمية بتحويلها اياك الى رئيس القرية ٠ فكيف يكون سلوكنا حيالك فيما يختص بهذه الناحية ؟ هل نؤكد لك أهميتها ، فنضع أنفسنا موضع الريبة ؟ اننا بهذا نبالغ فى قيمة شىء تفاهته واضحة ، ونحضك ، باعتبارنا حملة الأخبار على أن تسير الى أهدافنا لا الى أهدافك ، لقد كان فى استطاعتنا أن نقلل من أهمية الأخبار نفسها فى نظرك ، وأن نغشك رغما عنا ٠ هل ننصرف عن اضفاء قيمة كبيرة الى الخطابات ، فنضع أنفسنا كذلك فى موضع الريبة ؟ فلماذا نشغل أنفسنا بتوصيل هذه الخطابات العارية عن الأهمية ؟ ولماذا تناقضت أفعالنا وكلماتنا ، ولماذا خدعناك ، وخدعنا علاوة عليك صاحب العمل الذى لم يسلمنا بكل تأكيد الخطابات لكى نجردها من القيمة لدى متسلمها بما نقدم اليه من تفسيرات ؟! والحل الوسط ، أى اتخاذ موقف بين المبالغة الى هذه الناحية والمبالغة الى تلك ، وبعبارة أخرى الحكم على الخطابات الحكم الصحيح ، مستحيل ٠ فهذه الخطابات نفسها تغير قيمتها باستمرار ، والأفكار التى تدفع الخطابات الى تكوينها ، لا نهاية لها ، والفكرة التى يتوقف الانسان عندها تحدث بالمصادفة ، وهذا يعنى ان الرأى وليد المصادفة ٠ فاذا تدخل الخوف عليك فى الأمر، اضطرب كل شىء ٠ ولا ينبغى أن تحكم على كلامى حكما قاسيا مفرطا فى القسوة ٠ فعندما يأتى برناباس ، على سبيل المثال ـ وهذا قد حدث ـ ويقول انك غير راض عن خدمة الساعى ، وانه عرض ، وهو فى غمرة الفزع الأول وعلى نحو لم يتجرد للأسف من حساسية السعاة ، أن يعتزل هذه الخدمة ، فاننى مستعدة تصحيحا للخطأ للخداع والكذب والغش ، وارتكاب الشرور من كل نوع اذا كانت تعين على شىء ٠ ولكننى فى هذه الحالة أتصرف على هذا النحو ، على الأقل حسب اعتقادى ، من أجلك ومن أجلنا ٠

وقرع أحدهم الباب ٠ وهرعت أولجا الى الباب وفتحته ، فانساب فى وسط الظلام شريط من الضوء المنبعث من المصباح فى الخارج ٠

وألقى الزائر المتأخر أسئلة هامسة ، وتلقى عليها اجابة هامسة ،

ولكنه لم يرض بها ، وأراد أن يدخل الى الحجرة . ويبدو أن أولجا لم تستطع رده فنادت على أماليا والظاهر انها كانت تتوقع منها أن تفعل ما فى مقدورها لتبعد الزائر صونا لنوم الوالدين . وبالفعل أسرعت أماليا ودفعت أولجا جانبا وخرجت الى الشارع وأغلقت وراءها الباب . ولم تبق فى الخارج سوى لحظة واحدة ، وعادت توا ، وقد حققت بسرعة ما عجزت عنه أولجا .

وعلم ك من أولجا أن الزائر كان يريده هو ، وأن الزائر هو احد المساعدين أتى بتكليف من فريدا للبحث عنه . وأرادت أولجا أن تحمى ك من المساعد ، واذا كان ك ينوى أن يعترف فيما بعد بالزيارة فله أن يفعل، ولكنها لم ترد أن يكتشفه المساعد . ووافق ك على رأيها . ولكن ك رفض عرض أولجا بأن يقضى الليلة هنا وينتظر عودة برناباس . والحقيقة انه لم يكن من المستبعد أن يقبل العرض لأن الوقت كان قد تأخر ، هذا الى أن ك تصور أنه ، سواء رضى أم لم يرض ، قد أصبح مرتبطا بهذه الأسرة، بحيث ان قبوله النوم هنا ، وان كان لاعتبارات أخرى شيئا مؤسفا ، هو أكثر الأمور طبيعية بالنسبة اليه فى القرية كلها ، ومع ذلك فقد رفض ، لأن زيارة المساعد قد أفزعته ، ولم يفهم كيف أن فريدا ، التى تعرف ما صمم عليه ، لم تتردد ، وقد عاد اليها المساعدان اللذان تعلما كيف يخشيانه ، فى ارسال أحد المساعدين اليه ، نعم أحد المساعدين ، بينما بقى الآخر لديها . وسأل أولجا عما اذا كان لديها سوط ، فعلم أن ليس لديها ، ولكنه وجد لديها عصا جيدة فأخذها ، وسأل أولجا هل للبيت مخرج آخر ، وعلم ان البيت له بالفعل مخرج آخر يؤدى الى الفناء ، وعلى من يريد أن يصل من خلاله الى الشارع أن يتسلق جدار الحديقة المجاورة وأن يجتاز هذه الحديقة حتى يصل اليه . وقرر ك أن يسلكه . واقتادته أولجا خلال الفناء الى السور ، وكان فى أثناء ذلك يهدىء على عجل من روعها ، ويوضح لها انه غير غاضب عليها لما عمدت اليه من لمسات فنية صغيرة أضافتها الى روايتها ، بل انه على العكس من ذلك يفهمها كل الفهم، ويشكرها على الثقة التى أولته اياها والتى برهنت عليها بروايتها ، وكلفها بأن ترسل اليه برناباس فور عودته الى المدرسة حتى ولو فى ظلمة الليل. وقال لها ان رسائل برناباس ليست فى الحقيقة كل أمله ، والا لكانت حاله فى غاية السوء ، ولكنه لا يريد بحال من الأحوال أن يفرط فيها ، انه يريد أن يتمسك بها ، والا ينسى أولجا ، فهى تكاد تكون أهم من الرسائل: أولجا بشجاعتها وسعة أفقها وفطنتها وتضحيتها من أجل أسرتها . واذا كان عليه أن يختار بين أماليا وأولجا فلن يحتاج فى ذلك الى تفكير كثير . وصافحها بحرارة بينما اندفع متسلقا جدار حديقة الجيران .

الفصل السادس عشر

فلما وصل الى الشارع ، رأى ـ على قدر ما كانت الظلمة العكرة تسمح بالرؤية ـ المساعد الى بعيد أمام بيت برناباس ، يروح ويجىء، ويقف أحيانا ويحاول أن يلقى من خلال النافذة ذات الستارة شيئا من الضوء • ونادى ك عليه ، فلم يبد عليه أنه فزع ، بل ترك التجسس واقبل ناحية ك • وسأله ك وهو على فخذه مرونة العصا :

ـ عمن تبحث ؟

فقال الساعى وهو يقترب :

ـ عنك ؟

وقال ك فجأة وكأنما تصور أن الرجل ليس الساعى • ذلك أن الرجل الذى كان يمثل أمامه كان يلوح له أكثر سنا ، وأشد تعبا ، وأكثر تجعدا ، وأسمى وجها ، بل ان طريقة مشيه كانت تختلف عن طريقة المشى السريعة المكهربة التى كان المساعدان يصطنعانها •• كان بطيئا يعرج ويبدو عليه المرض • وسأل الرجل ك :

ـ ألا تعرفنى ؟ أنا بريمياس مساعدك القديم •

ـ هكذا !

وسحب العصا الى الأمام قليلا وكان قد واراها خلف ظهره وأردف:

ـ ولكن منظرك مختلف تماما !

فقال بريمياس :

ـ السبب فى ذلك اننى وحدى ، وعندما أكون وحدى ، يولى عنى الشباب البهيج •

وسأل ك :

ـ وأين أرتور ؟

فقال بريمياس :

ـ أرتور ؟ الحبيب الرقيق ! لقد ترك الخدمة . لقد كنت غليظا . قاسيا معنا . فلم تحتمل النفس الرقيقة هذه المعاملة . فعاد الى القصر ليقدم شكوى منك .

وسأل ك :

وأنت ؟

ـ كان في مقدوري أن أبقى : وأرتور يتولى تقديم شكواي نيابة عني .

وسأل ك :

ـ وهم تشكوان ؟

فقال بريمياس :

ـ نشكو من أنك لاتفهم المزاح . فماذا فعلنا ؟ لقد مزحنا قليلا ، وضحكنا قليلا ، وعاكسنا خطيبتك قليلا ، أما كل ماعدا ذلك فكان في حدود المهمة . وعندما أرسلنا جالاتر اليك ..

فسأل ك :

ـ جالاتر ؟

فقال بريمياس :

ـ نعم جالاتر ، وكان انذاك يحل محل كلم . اقول عندما أرسلنا جالاتر اليك ، قال ـ وأنا سجلت ذلك بدقة ، لأننا نعتمد الآن في شكوانا ـ اذهبا الى هناك مساعدين لموظف المساحة . فقلنا له : اننا لانفهم شيئا في هذا العمل . فرد علينا بقوله : ليس هذا أهم ما في الأمر ، واذا كانت له بذلك حاجة فسوف يعلمكما . أما أهم ما في الأمر فهو أن تسريا عنه قليلا . فلقد بلغني أنه يحمل الأمور كلها محمل الجد الشديد . ولقد وصل لتوه الى القرية ، وسيبدو له ذلك كأنه حدث عظيم ، وما هو في الحقيقة بشيء ، وينبغي عليكما أن تعلماه ذلك .

فقال ك :

ـ هكذا ! لقد أصاب جالاتر ! وهل قمتما بهذه المهمة ؟

فقال بريمياس :

ـ لا أعرف . ولعل ذلك لم يكن في امكاننا في الفترة القصيرة التي أتيحت لنا . انني لا أعرف الا أنك كنت غليظا جدا ، وهذا هو ما نشكو

منه · وأنا لا أفهم كيف يمكنك ، وأنت مجرد موظف ولست موظفا فى القصر ، ألا ترى أن مثل هذه المهمة عمل شاق وأنه من الظلم البين أن تقوم عامدا ، وبطريقة توشك أن تكون صبيانية ، بتصعيب عمل العامل كما فعلت بعملنا ؟ وهذه البلادة التى تملكتك فتركتنا نرتعد من البرد عند السور ، وعنفك مع أرتور الذى ضربته بقبضتك على الخشية فكدت تفتك به ، وهو الانسان الذى يتعذب اذا قيلت له كلمة ثقيلة ، ومطاردتك اياى عصر اليوم يمينا وشمالا فى الجليد ، ولقد خارت قواى لذلك ولم أفق لنفسى الا بعد ساعة من الراحة ، فأنا لم أعد فى سن الشباب ·

فقال ك :

ـ يا عزيزى بريمياس ، انك على حق فى هذا كله ، وينبغى عليك أن تشكو منه لدى جالاتر · لقد أرسلكما من تلقاء نفسه ، وأنا لم أطلب قدومكما · ولما لم أكن قد طلبتكما ، فقد كان لى أن أعيدكما ، وكان الأفضل أن يتم هذا فى سلام وألا تستعمل له القوة ، ولكن يظهر انكما لم تكونا تريدان أن يسير الأمر على نحو غير الذى سار عليه · ولكن قل لى ، لماذا لم تتكلم معى عندما اتيتما الى بصراحة كما تتكلم الآن ؟

فقال بريمياس :

ـ لأننى كنت فى الخدمة ، هذا شىء بديهى ·

وسأله ك :

ـ وأما الآن فلم تعد فى الخدمة ؟

فقال بريمياس :

ـ لم أعد فى الخدمة · ولقد قدم أرتور فى القصر استقالتنا ؛ أو لنقل على الأقل ان الاجراءات التى ستؤدى الى خلاصنا النهائى تسير فى طريقها·

وقال ك :

ـ ولكنك تبحث عنى الآن وكأنك لا تزال فى الخدمة ·

فقال بريمياس :

ـ لا ، اننى لا أبحث عنك الا تهدئة لفريدا · فأنت عندما تركتها بسبب البنتين البرناباسيتين ، أحست بتعاسة شديدة ولم يكن السبب الأول هو فقدانك بل خيانتك · ولقد كانت تتوقع منذ وقت طويل ماحدث ولهذا عانت الكثير · وكنت أنا أمر بجوار نافذة المدرسة لأرى هل عساك زدت تعقلا ، ولكنك لم تكن هناك ، وكانت فريدا هناك وحدها تجلس

على قمطر وتبكى . فذهبت اليهـا ، واتفقنا . وتم تنفيذ ما اتفقنا عليه بالفعل . أما أنا فأعمل خادما فى حان السادة ، وسأظل على الأقل أقوم بهذا العمل حتى تنتهى ، وأما فريدا فقد عادت الى العمل فى تقـديم المشروبات بالحان . وهذا أفضل بالنسبة الى فريدا . فلم يكن من الحكمة أن تصبح زوجة لك . هذا الى أنك لم تعرف كيف تقدر التضحية التى كانت تريد تضحيتها من أجلك . ولكن البنت الطيبة لاتزال تحس من حين لآخر بالقلق وتظن أنها ربما قد ظلمتك وأنك لم تكن عند البنتين البرناباسيتين . وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك شك بطبيعة الحال فى ذلك ، فقد ذهبت لأتحقق من الأمر نهائيا . وان فريدا لتستحق بعد كل هـذه المتـاعب أن ترتاح ، وأنا كذلك . وهـكذا ذهبت ، ولم يقتصر ما توصلت اليه على أنى رأيتك ، بل لقد تبينت كذلك أن البنتين تتبعانك كان رباطا يربطكم جميعا . وبخاصة السوداء ، القطة الوحشية ، التى دافعت عنك . ولـكل انسان ذوقه . ومهما يـكن من أمر فلم يكن من الضرورى أن تتعب نفسك وتسلك الطريق المار بحديقة الجيران ، فأنا أعرف هذا الطريق .

اذن لقد حدث الشيء الذى كان ك يتوقعه . والذى لم يكن هناك سبيل الى الحيلولة دونه . لقد هجرته فريدا . وليس معنى هذا بالضرورة انها هجرته نهائيا ، وقد يكون الأمر على ما قد يبدو من سوء . لقد كانت استعادة فريدا تبدو له ممكنة . وان ماحدث لأن فريدا تستجيب بسهولة لتأثير الأغراب . وهذان المساعدان يظنان أن مركزها شبيه بمركزهما ، لقد اعتزلا العمل مع ك ودفعنا فريدا الى هجرانه . وما ينبغى على ك الآن الا أن يظهر أمامها . وأن يذكرها بكل شيء فى صالحه ، حتى تندم وتعود اليه ، خاصة ان استطاع أن يبرر زيارته للبنتين بالنجـاح الذى يرجع الفضل فيه اليهما . لقد حاول ك أن يهدىء نفسه بهذه الأفكار من ناحية فريدا ، ولكنه لم يهدأ بالا . لقد كان منذ قليل يفخر أمام أولجا بفريدا التى قال عنها انها سنده الوحيد ، وهاهو ذا يتبين أن هذا السند لم يكن شديد البأس ، فلم يكن هناك داع لتدخل أحد أصحاب النفوذ لانتزاع فريدا من ك ، لقد كان المساعد يكفى لهذه المهمة . هذا المساعد الذى لاينشرح له الصدر كثيرا ، والذى يشبه كتلة من اللحم يظن الانسـان فى بعض الأحيان أنه لا حياة بها بالمعنى الصحيح .

وكان يريمياس قد بدأ فى الابتعـاد ، فصاح فيه ك أن يعود ، وقال له :

ـ يا بريمياس انني أريد أن أكون صريحا معك ، فأجب بصراحة عن هذا السؤال • فنحن لم نعد نرتبط معا بعلاقة السيد والخادم ، وهذا شيء لاتفرح أنت وحدك له ، بل أفرح أنا كذلك له ، ومعنى هذا أنه ليس هناك سبب لكي يخدع أينا الآخر • وهأنذا أحطم أمام عينيك العصا التي أحضرتها لتأديبك ، فأنا لم أسلك طريق الحـــديقة خوفا منك ، ولكنى سلكته حتى أفاجئك وأنهال عليك بالعصا عدة مرات • أما الآن فلا تغضب منى لهذا ، فهو ماض انتهى • ولو لم تكن خادما فرضته على السلطات ، بل رجلا عاديا تعرفت به ، لقامت بيننا علاقة ممتازة على الرغم من أن منظرك يزعجنى أحيانا • وقد يكون فى امكاننا الآن أن نعوض ما فاتنا فى هذه الناحية •

وقال المساعد وهو يطبق عينيه متثائبا في تعب :

ـ أتظن أن هذا ممكن ؟ لقد كنت أود أن أشرح لك الأمر تفصيليا ، ولكن ليس لدى وقت فلابد أن أذهب الى فريدا ، فانها ، البنت الصغيرة الحلوة ، تنتظرنى ، وهى لم تبدأ الخدمة بعد ، فقد منحها صاحب الحانة بناء على الحاحي ـ وكانت تريد أن تلقى بنفسها فى العمل على الفور حتى تنسى على ما يبدو ـ فترة قصيرة للاستجمام ونريد على الأقل أن نقضيها معـــا • أما فيما يتعلق باقتراحك • فليس لدى بكل تأكيـــد ما يدعونى للكذب عليك ، وليس لدى كذلك ما يدعونى للاسرار اليك بشىء • فالأمر بالنســـبة الى يختلف عنه بالنســـبة اليك • فطالما كنت أرتبط بعلاقة الخدمة ، كنت أنت بالنسبة الى شخصا مهما جدا لا لخصال فيك ، ولـــكن بسبب مهمة الخدمة التى كلفت بها ، وكنت آنذاك مستعدا لأن أنفذ لك كل ما تطلب ، أما الآن فأنت بالنسبة الى شخص عديم الأهميـــة • كذلك فان تحطيمك العصـــا لا يؤثر فى بشىء ، كل ما فى الأمر أنه يذكرنى بمدى غلظة السيد الذى عملت تحت أمرته ، وليس من الصواب أن تجذبنى اليك •

وقال ك :

ـ انك تتكلم معى هكذا وكأنك متأكد تماما من أنك لن تعود أبدا الى حيث يكون عليك أن تخشانى • وليس هذا صحيحا • فأنت على الأرجح لم تتخلص منى بعد ، فالأمور لاتنجز هنا بهذه السرعة •

واعترض بريمياس بقوله :

ـ بل انها أحيانا تنجز بسرعة أكبر •

وقال ك :

ـ أحيانا • ولكن هناك ما يشير الى أن هذا حدث فى هذه المرة ، وأقل مايمكن أن يقال هو أنك لاتحتكم على قرار تحريرى فى الموضوع ، كذلك أنا لم أتسلم مثل هــذا القرار • ومعنى هــذا أن الاجراءات تسير فى طريقها ، وأنا لم أتدخل حتى الآن بما لى من صلات ، ولكنى سأفعل ، واذا انتهت الاجراءات الى نهاية فى غير صالحك ، فلن تكون قد بذلت جهــدا كبيرا لاستمالة سيدك اليك ، ولعل تحطيمى العصا كان عملا متعجلا • لقد أخذت فريدا ، وتملكك الزهو لذلك • ولكنى مع احترامى لشخصك ـ وانى لأحترمك حتى اذا لم تعد تحترمنى ـ لن أحتاج الا لتوجيه القليل من الكلمات الى فريدا ، فاذا الافتراءات التى أوقعها بها فى شباكك تتبدد• فما يمكن أن يصرف فريدا عنى الا الافتراء والكذب •

فقال يريمياس :

ـ ان هذه التهديدات لاتفزعنى •انك لاتريد أن تتخذنى مساعدا ، وأنت تخافنى من حيث أنا مساعد ، فأنت تخاف المساعدين بصفة عامة، وأنت لم تضرب أرتور الطيب الا عن خوف •

فقال ك :

ـ ربما ، فهل قلل ذلك ايلام ضربى له ؟ ولعلى أستطيع أن أبين لك على هذا النحو مرارا خوفى • ولقد رأيت أن العمل كمساعد لايسرك الا قليلا ، ولهذا فاننى سأجد بغض النظر عن كل خوف متعة كبيرة فى اكراهك عليه • ويهمنى فى هذه المرة أن أتخذك أنت وحدك بدون أرتور، مساعدا ، وسيكون فى مقدورى هكذا أن أوجه اليك المزيد من الاهتمام•

فقال يريمياس :

ـ أتظن أننى أخاف أقل الخوف من كل هذا ؟

فقال ك :

ـ طبعا ، ولا شك أنك بكل تأكيد تحس ببعض الخوف ، ولو كنت ذكيا لأحسست بكثير من الخوف •. والا لماذا لم تذهب الى فريدا من فورك؟ تكلم ، هل تحبها ؟

فقال يريمياس :

ـ هل أحبها ؟ انها بنت طيبة وذكية ، وكانت فيما مضى عشيقة لكم ولهذا فهى محترمة على أية حال • واذا كانت قد ألحت على باستمرار فى أن أخلصها منك ، فلماذا لا أقدم لها هذا الصنيع ، خاصة واننى

بهذا لاأسبب لك ألما ، أنت الذى ألتمست السلوى لدى البنتين البرناباسيتين الملعونتين ؟ !

فقال ك :

ـ هأنذا أرى خوفك ، أرى خوفك المؤسف ، وأنت تحاول أن توقعنى فى شباك افتراءاتك • لقد كان لفريدا طلب واحد ، وهو تحريرها من المساعدين اللذين تملكهما التوحش ، واستحالا الى الحيوانية • ويؤسفنى أننى لم أجد من الوقت ما يكفى للوفاء بطلبها كاملا ، وهأنذا أرى نتائج ما تخلفت عن فعله •

وصاح بعضهم خلال الحارة :

ـ يا سيادة موظف المساحة • يا سيادة موظف المساحة •

كان الصائح هو برناباس الذى أقبل لاهثا ، ولكنه لم ينسى أن ينحنى أمام ك • وأردف :

ـ لقد نجحت •

فسأله ك :

ـ وفيم نجحت ؟ هل أوصلت التماسى الى كلم ؟

فقال برناباس :

ـ لم يكن هذا ممكنا • لقد بذلت غاية الجهد ، ولكن الأمر كان مستحيلا ، لقد اندفعت الى الأمام ، ووقفت طوال اليوم ، دون أن يطلب الى ذلك أحد ، قريبا من المنضدة ، حتى أن أحد الكتبة دفعنى الى الجانب لأننى كنت أسد عليه سبيل الضوء ، وتقدمت رافعا يدى ـ وهو شىء ممنوع ـ عندما رفع كلم بصره ، وبقيت أطول وقت فى الديوان ، وكنت مع الخدم وحدى ، وسعدت برؤية كلم يعود ، ولكنه لم يعد من أجلى ، بل عاد ليراجع شيئا فى بعض الكتب على وجه السرعة ، ثم انصرف على الفور ، ولما كنت أقف ثابتا لا أتحرك ، فقد انتهى الأمر بالخادم الى كنسى من خلال الباب بالمقشة تقريبا • وأنا أعترف لك بكل هذا حتى لاتعود الى عدم الرضا بما أبذل من جهود •

فقال ك :

ـ وفيم يفيدنى نشاطك يا برناباس اذا لم يكن قد وصل الى نجاح؟

فقال برناباس :

ـ ولكننى حققت نجاحا • فعندما خرجت من ديوانى ـ وأنا أسميه

ديواني ـ رأيت سيدا يأتي من الدهاليز العميقة بخطوات بطيئة ، وكان المكان خاليا تماما ، لأن الوقت كان متأخرا جدا · وقررت أن أنتظره ولقد كانت فرصة طيبة أن أبقى هناك مزيدا من الوقت وكم كنت أود لو بقيت هناك نهائيا حتى لا أعود اليك بخبر سيىء !! ولكن الانتظـار كان بغض النظر عن كل شيء مثمرا ، فقد كان هذا السيد هو ارلانجر · ألا تعرفه ؟ انه واحد من سكرتيرى كلم الأوائل · وهو رجل ضعيف قصير يعرج فى مشيته قليلا · وتعرف ارلانجر على فورا ، وهو مشهور بذاكرته وبمعرفته للنـاس ، فهو يقطب جبينه مرة ويكفيه هـذا للتعرف على أى انسان وكثيرا ما يتعرف حتى على أناس لم يسبق له أن رآهم من قبل بل سمع أو قرأ عنهم ـ وأنا على سبيل المثال لا أظن أنه رآني من قبل · وعلى الرغم من أنه يتعرف على كل شخص على الفور ، فانه يسأل عن نفسه وكأنه غير متأكد ، فسألنى : « ألست أنت برناباس ؟ » ثم سألنى بعد ذلك : « وأنت تعرف موظف المساحة ، أليس كذلك ؟ هذه مصادفة طيبة ، فأنا ذاهب الآن الى حان السادة ، وعليك أن تبلغ موظف المساحة بأن يزورنى هناك · وأنا أنزل فى الحجرة رقم خمسة عشر · وعليه أن يأتى الآن على الفور ، فليس لدى سوى بعض المباحثات ، سأفرغ منها وأعود مبكرا فى الخامسة · قل له اننى مهتم جدا بالحديث اليه ·

وفجأة بدأ بريمياس فى العدو · وسأل برناباس الذى · لم يكن لفرط انفعاله قد لاحظ وجوده تماما :

ـ ماذا يريد بريمياس ؟

فقال ك :

ـ انه يريد أن يسبقنى فى الذهاب الى أرلانجر ·

وعدا وراء بريمياس ، ولحقه وتعلق بذراعه وقال :

ـ هل قد تملكك الحنين الى فريدا فجأة ؟ وما حنينى اليها بأقل من حنينك ، فلنذهب معا ، ساقا على ساق ·

الفصل السابع عشر

ووقفت أمام حان السادة المظلم مجموعة صغيرة من الرجال ، كان اثنان أو ثلاثة منهم يحملون مصابيح ، فظهرت فى ضوئها بعض الوجوه. ولم يجد ك بينها الا وجها آخر يعرفه هو جيرشتيكر ، الحوذى . وحياه جيرشتيكر بهذا السؤال :

ـ أما زلت فى القرية ؟

فقال ك :

ـ نعم ، لقد أتيت لأبقى .

فقال جيرشتيكر :

ـ هذا مالا يهمنى .

وسعل بقوة واتجه الى الآخرين .

وتبين أن الجميع ينتظرون ارلانجر ، وكان ارلانجر قد وصل بالفعل وكان يتباحث مع موموس قبل أن يستقبل أصحاب الحاجات . وكان الحديث العام بين الناس يدور حول منع الناس من الانتظار داخل المبنى وتركهم ينتظرون فى الجليد خارجه . والحقيقة إن الجو لم يكن شديد البرودة ، ومع ذلك فلم يكن من المشقة ترك أصحاب الحاجات ينتظرون بالليل ربما لساعات طويلة خارج البيت . ولم يكن هذا بطبيعة الحال ذنب ارلانجر ، الذى كان شخصا رحب الصدر ، ولم يكن على الأرجح يعلم بذلك ، ولو علم به لغضب أشد الغضب . لقد كان الذنب ذنب صاحبة حان السادة التى كانت فى سعيها المرضى نحو الرونق لاترضى بدخول أصحاب الحاجات جماعة الى الحانة . وكان من عادتها أن تقول :

ـ اذا لم يكن من حضورهم بد ، فليدخلوا ، بحق السماء ، الواحد تلو الآخر .

وفرضت رأيها فاذا أصحاب الحاجات الذين كانوا فيمامضى ينتظرون

فى الممر ، ثم على الدرج ، ثم فى المدخل ، ثم فى قاعة الشراب ، يدفعون الى الخارج للانتظار فى الحارة • ولم يكن هذا يرضيها • فلم تكن تحتمل أن « تحاصر » فى بيتها ، كما كانت تقول • ولم تكن تفهم معنى لحضور أصحاب الحاجات ، ولقد سألت عن ذلك مرة أحد الموظفين فقال لها ، ربما فى غمرة غضبه :

– انهم يحضرون ليوسخوا الدرج الخارجى للبيت !

ولقد كانت هذه العبارة واضحة المرمى • وكانت صاحبة الحان تحب تكرارها والاستشهاد بها وأخذت تسعى – وكان مسعاها يتفق مع أماني أصحاب الحاجات – لانشاء مبنى فى مواجهة حان السادة لينتظر فيه أصحاب الحاجات • وكانت تتمنى لو جرت المشاورات مع أصحاب الحاجات وكذلك الاستجوابات خارج حان السادة ، ولكن الموظفين كانوا يعارضون فى ذلك • وما دام الموظفون قد عارضوا فى جزم ، فلم يكن فى مقدور صاحبة الحان أن تفرض رأيها ، على الرغم من أنها كانت فى الموضوعات الثانوية تمارس نوعا من الاستبداد الصغير اعتمادا على الحاحها الذى كان لا يكل ولا يمل والذى كان يعتمد على الأنوثة الرقيقة • ويبدو أن صاحبة الحان سيكون عليها السكوت على اجراء المباحثات والاستجوابات فى حان السادة فى المستقبل كذلك ، لأن السادة القادمين من القصر يرفضون ترك حان السادة عند معالجة المسائل الرسمية • لقد كانوا دائما على عجل ، ولم يكونوا ينزلون القرية الا على مضض ، ولم يكونوا يرغبون أقل رغبة فى اطالة مدة اقامتهم هنا لأكثر مما تتطلبه الضرورة القصوى ، ولم يكن فى الامكان مطالبتهم ، لا لشىء الا للحفاظ على السكون فى حان السادة ، أن يخرجوا بأوراقهم من حين لآخر من الحان ويجتازون الشارع ويذهبوا الى مبنى آخر ، ويضيعوا على هـذا النحو الوقت • ويفضل الموظفون غاية التفضيل انجاز الأمور الرسمية فى الحمارة أو فى الحجرة، أثناء تناول الطعام أو فى السرير قبل النعاس أو فى الصباح عندما يستبد بهم التعب فلا يستطيعون النهوض ويستلقون فى السرير للتمطى • أما مسألة انشاء مبنى الانتظار فقد بدا انهـا كانت تقترب من حل ملائم ، ولقد كانت معالجة هـذه المسألة بطبيعة الحال عقابا ملموسا بالنسـبة لصاحبة الحان – وكان الناس يضحكون لذلك قليلا – فقد تطلبت العديد من المباحثات ولم تكن ممرات الحان تكاد تخلو لذلك السبب من الناس •

كان المنتظرون يتحدثون عن هذه الأشياء كلها بصوت منخفض ، ولاحظ ك أن عدم الرضى كان واضحا ، ولكن أصحاب الحاجات لم يجدوا

غضاضة فى أن يستدعيهم ارلانجر فى منتصف الليل . وسأل عن ذلك فقالوا له انهم على العكس يشكرون ارلانجر على ذلك ، فلم يأت به الى القرية الا نيته الطيبة وفهمه السامى ووظيفته ، ولقد كان يستطيع ان شاء – وان هذا ليتفق مع اللوائح على نحو أفضل – أن يرسل أى سكرتير ويكلفه بتسجيل المحاضر . ولكنه كان فى غالبية الأحوال يرفض أن يفعل ذلك ، وكان يريد أن يرى كل شىء وان يسمع كل شىء بنفسه ، ولكنه كان لهذا يضحى بالنوم ، فلم يكن برنامج عمله يفسح . وقتا للقيام برحلات الى القرية . واعترض ك على هذا الكلام قائلا ان كلم يأتى الى القرية نهارا ، وانه فى بعض الأحيان يقضى فى القرية أياما عديدة فهل الحاجة الى ارلانجر ، وما هو الا سكرتير ، فى القصر من الحاجة الى كلم فلا سبيل الى الاستغناء عنه ؟ وضحك البعض عن طيبة قلب ، وصمت البعض مذولين ، وكان الصامتين هم الكثرة ، فلم يكد ك يتلقى اجابة . ولا من واحد قال له ان كلم لا غنى عنه بطبيعة الحال لا فى القصر ولا فى القرية .

وهنا انفتح الباب وظهر موموس بين خادمتين يحمل كل منهما مصباحا . وقال :

– أول من يقابل السيد السكرتير ارلانجر : جيرشتكير و ك . هل هما هنا ؟

فأجاب الاثنان بنعم . ولكن بريمياس تسلل قبلهما الى البيت قائلا:

– أنا هنا خادم فى الخان .

فحياه موموس مبتسما بربته على كتفه وتركه يدخل . وقال فى نفسه ، ينبغى على أن أحيط بريمياس بمزيد من الانتباه ، على الرغم من أنه كان يشعر أن بريمياس قد يكون أقل خطورة من أرتور الذى كان يعمل ضده فى القصر . وربما كان من الفطنة أن يدعهما ك يعذبانه كمساعدين ، وألايتركهما كذلك يعبثان فسادا دون أنيراقبهما ، وينطلقان الى تدبير المؤمرات التى يبدو أنهم أوتيا موهبة خاصة لتدبيرها .

فلما مر ك بموموس ، بدا على هذا كأنه لم يتبين الا الآن أنه موظف المساحة ، فقال :

– آه ، السيد موظف المساحة ! هذا الذى يكره أن يستجوب ، يتزاحم الآن على الاستجواب .

ولو رضى آنذاك لكان الاستجواب أيسر • أما الآن فانه بطبيعة الحال من الصعب إختيار الاستجوابات الصحيحه •

ولما أراد ك أن يرد على هذا الكلام وقفُ ، قال له موموس :

– اذهب ! اذهب ! لقد كنت فيما مضى أحتاج الى اجاباتك ، أما الآن فلا أحتاج اليها ومع ذلك فقد قال ك مغتاظا من تصرف موموس :

– انكم لا تفكرون الا فى أنفسكم • ولكننى اعتبارا للديوان لا أجيب، لم أجب آنذاك ولا أجيب الآن •

– وفيمن ينبغي أن نفكر ؟ ومن هنا غيرنا ؟ اذهب •

وفي الممر تلقاهما خادم واقتادهما عبر طريق الفناء الذى يعرفه ك ، ثم اجتازوا البوابة الى الممر المنخفض الذى ينحدر انحدارا قليلا • ويبدو أن الموظفين الكبار يسكنون في الأدوار العلوية ، أما السكرتاريون فسيسكنون فى هذا الممر ، وكذلك ارلانجر على الرغم من أنه أحد كبارهم• وأطفأ الخادم مصباحه لأن المصباح الكهربائى كان ينشر ضوءا وضاحا • كان كل شيء هنا صغيرا ولكنه كان جميلَ البناء • وكان استغلال المكان قد تم على وجه شديد الاقتصاد ، فلم يكن الممر يسمح للانسان بأن يسير قائما الا بشق الأنفس • أما الجانبان فكانت الأبواب فيهما يجاور الواحد منها الآخر • ولم يكن الحائطان الجانبيان يصلان الى السقف ، ويبدو أن السبب فى ذلك كان التهوية ، لأن الحجرات الصغيرة فى هذا الممر العميق الذى يشبه البدروم كانت على ما يبدو بلا نوافذ وكان عيب هذه الحيطان التى لا تصل الى السقف هو الصخب الذى كان يملأ الممر ولابد أنه كان كذلك بلا حجرات • ويبدو أن حجرات كثيرة كانت مشغولة ، وان غالبية من كانوا فيها لم يكونوا قد ناموا بعد ، فقد تناهت الى الأسماع أصوات ودقات شواكيش ورنات أكواب • ولكن الانطباع الذى كان يرتسم فى نفس الانسان لم يكن انطباع بهجة شديدة • كانت الأصوات مكتومة ، ولم يكن الانسان يفهم الا من حين لآخر كلمة ، ويبدو أن الأصوات لم تكن أصوات محادثات ، بل يبدو أن بعضهم كان يملى شيئا أو يتلو شيئا ، أما الحجرات التى كان ينبعث منها رنين الأكواب والصحون فلم يكن يأتى منها صوت كلام ، ولقد تذكر ك عندما سمع دقات الشواكيش ما قيل له من أن بعض الموظفين يشتغلون بالنجارة وصناعة الآلات الدقيقة وما الى ذلك ليستريحوا من الاجهاد العقلى الدائم أما الممر نفسه فكان خاليا ، الا من رجل شاحب نحيل طويل كان يجلس أمام أحد الأبواب مرتديا فراء تظهر من تحته ملابس النوم ، ويبدو أن

الجو فى الحجرة ثقل عليه فخرج وأخذ يقرأ الجريدة ، ولكنه لم يكن يقرأ بانتباه ، بل كان ينصرف عن القراءة متثائبا المرة تلو المرة ، وينحنى الى أمام ويرسل بصره على طول الممر ، ولكنه كان ينتظر واحدا من أصحاب الحاجات طلبه اليه وتأخر عن الحضور • فلما مروا به قال الخادم لجيرشتيكر مشيرا الى السيد :

ـ انه بينتسجاور

فهز جيرشتيكر رأسه بالموافقة وقال :

ـ انه لم ينزل الى القرية منذ مدة طويلة •

فأكد الخادم كلامه قائلا :

ـ منذ مدة طويلة جدا •

وأخيرا وصلوا أمام باب لم يكن يختلف عن الأبواب الأخرى ، قال الخادم ان ارلانجر يقيم وراءه وطلب الخادم من ك أن يحمله على كتفه لينظر من خلال الفراغ بين الحائط والسقف الى داخل الحجرة ففعل • وقال الخادم وهو ينزل :

ـ انه راقد فى السرير ، ولكنه لا يلبس ملابس النوم ، ومع ذلك فأنا أظن أنه ينعس • والتعب يتملكه أحيانا هنا فى القرية حيث تختلف ظروف الحيـاة • وسيكون علينا أن ننتظر • وعنـدما يستيقظ سيدق الجرس • وان كان قد حدث من قبل أن قضى طوال فترة اقامته فى القرية نائما وكان عليه بعد صحوه أن يعجل بالعودة الى القصر • والعمل الذى يقوم به هنا يقوم به على سبيل التطوع •

وقال جيرشتيكر :

ـ ليته ينام الآن الى آخر وقت ، فانه عندما يصحو ولا يكون لديه الا قليل من الوقت • لانجاز الأعمال ، يغتاظ لأنه قد نام ، ويحاول أن ينجز كل شيء بسرعة ولا يكاد الانسان يستطيع أن يتم كلامه معه •

وسأله الخادم :

ـ انك تأتى من أجل الحصول على عمليات النقل اللازمة للبناء ؟

وهز جيرشتيكر رأسه ، وانتحى بالخادم جانبا وتكلم معه بصوت خفيض ، ولكن الخادم كان لايكاد ينصت ، بل كان ينظر من فوق جيرشيكر ـ وكان أطول منه قدر رأس انسان ـ ويمسح شعره هو جادا وبحركات بطيئة •



الفصل الثامن عشر

وبينما ك يجول ببصره بلا هدف رأى فريدا عند أحد منحنيات الممر ، وتصنعت فريدا انها لاتعرفه ، فنظرت اليه نظرة جامدة ، وكانت تحمل فى يدها صينية عليها آنية فارغة . وقال ك للخادم الذى لم يكن يلتفت اليه ـ وكان الخادم يزداد غيبوبة كلما تحدث الانسان اليه ـ انه سيعود بعد قليل ، وأسرع الى فريدا . فلما وصل اليها أمسكها من كتفيها وكأنه يعود الى امتلاكها ، ووجه اليها بعض الأسئلة التافهة بينما كان فى تلك الأثناء يبحث فى عينيها متفحصا . ولكنه مسلكها الجامد لم يكد يلين ، وحاولت وهى مشتتة الفكر أن تغير وضع الآنية على الصينية مرات ثم قالت :

ـ ماذا تريد منى ؟ اذهب الى ـ أنت تعرف اسمها . وأنت تأتى لتوك من عندهما ، وفى امكانى أن أقرأ ذلك على منظرك .

وحول ك الموضوع بسرعة ، فلم يكن يريد أن يأتى العتاب مفاجئا ولا يبدأ من أقبح نقطة وأكثرها حساسية وقال :

ـ كنت أظن أنك فى قاعة الشراب .

وتطلعت فريدا اليه مندهشة ثم مسحت فى رقة بيدها التى لم تكن تمسك بها الصينية على جبينه وعلى وجنته . وبدا عليها كأنها كانت قد نسيت شكله ، فأرادت أن تتذكره ، وكذلك بدا على عينيها الانطباع المحجب لانسان يحاول بصعوبة أن يتذكر شيئا . ثم قالت ببطء وكان ما كانت تقوله بلا أهمية :

ـ لقد قبلونى مرة أخرى فى قاعة الشراب .

ثم دمجت فى الكلام حوارا كان هو الأكثر أهمية :

ـ ولكن هذا العمل الذى أقوم به الآن لا قيمة له بالنسبة الى ، ففى استطاعة كل بنت أن تقوم به . كل بنت تعرف كيف ترتب السرير،

وكيف تصطنع وجها باشا ، ولا ترهب معاكسة النزلاء بل تدفعهم اليها دفعا ، تصلح للعمل خادمة خصوصية • أما العمل فى قاعة الشراب فشيء آخر • ولهذا قبلونى على الفور للعمل فى قاعه الشراب على الرغم من اننى لم أتركها فيما مضى على نحو مشرف ، وأنا أعتمد بطبيعة الحال على حماية • ولقد فرح صاحب الخان بأننى أعتمد الآن على هذه الحماية وأنه استطاع اعادتى الى العمل • بل لقد بدا الأمر وكأنهم كانوا يدفعوننى دفعا الى قبول العمل ، فاذا علمت أن قاعة الشراب تذكرنى بشيء معين سهل عليك أن تفهم الوضع • وأخيرا قبلت العمل • أما هنا فأنا أعمل على سبيل المعاونة • فقد طلبت بيبى ألا نسبب لها عارا باجبارها على ترك قاعة الشراب على الفور ، ولهذا أعطيناها مهلة قدرها أربعة وعشرون ساعة لأنها كانت مجتهدة ولأنها أدت العمل كله على قدر مامكنتها من ذلك قدراتها •

فقال ك :

ـ لقد أحسنتم تدبير هذه الأمور كلها • ولكنك قد هجرت قاعة الشراب مرة من أجلى ، واذا بك الآن تعودين اليهـا ونحن على وشك الزفاف •

فقالت فريدا :

ـ لن يكون هناك زفاف •

وسأل ك :

ـ لأننى كنت خائنا ؟

فأومأت فريدا برأسها ، فقال ك :

ـ اسمعى يا فريدا ، لقد تحدثنا عن هذه الخيانة المزعومة مرارا ، وكان عليك فى كل مرة أن تقرى بأنها لاتعدو أن تكون شبه ظالمة • ولم يتغير من ناحيتى منذ ذلك شيء ، لقد بقى كل ما لدى بريئا كما كان وكما لا يمكن الا أن يكون • فهل يا ترى حدث تغير من ناحيتك نتيجة لايعاز غريب أو غير ذلك ؟ انك على أية حال تظلميننى • فما هو أمر هاتين البنتين ؟ ان السمراء ـ وأنا أوشك أن أحس بالخجل لاضطرارى للدفاع عن نفسى تفصيلا ، ولكنك تطالبين بذلك ـ ان السمراء تثير فى نفسى أسى لا يقـل عن الأسى الذى يعتمـل فى نفسى حيـالك ، واذا كان فى استطاعتى أن أبتعد عنها على أى نحو فاننى أفعل ، وهى تسهل ذلك من ناحيتها فليس هناك انسان أشد احتشاما منها •

وصاحت فريدا :

ـ نعم !

لقد انطلقت الكلمات منها وكأنها تنطلق ضد ارادتها ، وفرح ك عندما رآها قد تلهث على هذا النحو ، لقد كانت على هيئه غير التى كانت تريد أن تبدو عليها :

ـ ان لك أن تعتبرها محتشمة ، وأن تسمى أفحش النساء محتشمة! وأنت تقول ذلك ، على الرغم من بعده عن التصديق ، تقوله مخلصا ، فأنت لاتتلون ، أنا أعرف هذا ٠

ولقد قالت صاحبة حان الجسر عنك : « اننى لا أستطيع أن أحبه ، وكذلك لا أستطيع أن أهجره ، فان الانسان لايستطيع عندما يرى طفلا لايجيد المشى ويندفع رغم ذلك الى الأمام أن يتحكم فى نفسه ، ان الانسان يجد نفسه مضطرا الى التدخل » ٠

فقال ك مبتسما :

ـ فاتبعى الآن مذهبها هذا ـ أما هذه البنت ، ولندع جانبا ما اذا كانت محتشمة أو فاجرة ، فأنا لا أريد أن أعرف عنها شيئا ٠

وسألت فريدا فى تصميم :

ـ ولكن لماذا تقول عنها انها محتشمة ؟ هل جربتها أم هل تريد أن تحط بذلك من قدر آخرين ؟

واعتبر ك هذا الاهتمام من جانب فريدا علامة طيبة ، فقال :

ـ لا هذا ولا ذاك ٠ اننى أقول ذلك عن امتنان لها ٠ فقد سهلت على فهمها ، ولأننى ، حتى اذا نادتنى المرة تلو المرة ، لن أستطيع حمل نفسى على الذهاب الى هناك ، وهذه خسارة كبيرة بالنسبة الى لأننى لابد أن أذهب الى هناك من أجل مستقبلنا المشترك ، كما تعرفين ٠ ولهذا فلابد أن أتكلم أيضا مع البنت الأخرى التى أقدرها لنشاطها وسعة أفقها وأثرتها، البنت التى لايمكن لأحد أن يقول عنها انها جذابة ٠

فقالت فريدا :

ـ ولكن الخدم يخالفونك فى هذا الرأى ٠

فقال ك :

ـ يخالفوننى فيما يختص بهذا الموضوع وفيما يختص بالكثير من

الموضوعات الأخرى . وهل تريدين استنتاجا من شهوات الخدم الحكم بأنني خائن ؟

وصمتت فريدا وتركت ك راضية يأخذ الصينية من يدها ويضعها على الأرض ، ويضع ذراعه تحت ذراعها ، ويبدأ في السير معها في المكان الضيق ببطء جيئة وذهابا .

وقالت وهو يمتنع قليلا عن اقترابه منها :

ـ أنت لاتعرف ما هو الاخلاص . وليس المهم هو موقفك من البنتين . ان ذهابك الى هذه الأسرة وعودتك من هناك حاملا رائحة حجرتهم في ملابسك ، فضيحة لا يمكنني احتمالها . وأنت تجرى من المدرسة ، دون أن تقول شيئا ، وتبقى لدى البنتين نصف الليلة ، واذا سأل أحدهم عنك جعلت البنتين تنكرانك ، تنكرانك عن حب ، وبخاصة المحتشمة التى لانظير لها ! ثم أنت تتسلل من طريق سرى عندما تخرج من البيت ربما حفاظا منك على سمعة البنتين ! نعم سمعة البنتين ! لا . لا نريد أن نعود الى هذا الحديث مرة أخرى .

فقال ك :

ـ لانريد أن نعود الى هذا الحديث ، ولكن لنتكلم يا فريدا فى موضوع آخر . والحقيقة انه ليس هناك شيء يقال فيه . وأنت تعرفين لماذا يتبغى على أن أذهب الى هناك . وليس الذهاب الى هناك بالشيء السهل ، ولكنى أكره نفسى عليه . ولاينبغى أن تجعلى الأمور أكثر ثقلا على مما هى . ولقد كانت فكرتى التى فكرتها اليوم أن أذهب الى هناك للحظة وأسأل عن برناباس الذى كنت أنتظر أن يأتينى برسالة هامة ، عله اتى بعد طول انتظارى له . وعلمت انه لم يأت ، وأنه سيأتى وشيكا، وهو ما لاح لى قابلا للتصديق . ولم أشأ أن أطلب ارساله الى المدرسة ليقابلنى هناك ، لأننى لم أكن اريد أن يتسبب وجوده فى ازعاجك . ومضت الساعات ولم يأت ، للأسف . وانما أتى شخص آخر ، شخص أمقته . ولم أكن أحب أن أدعه يتجسس على ، ولهذا خرجت عن طريق حديقة الجيران ، وكذلك لم أشأ أن أتوارى عنه ، ولهذا ذهبت اليه حرا طليقا فى الشارع ومعى عصا أعترف بانها كانت مرنة جدا . هذا هو كل ما فى الأمر ، وليس هناك ما يقال عنه أكثر من ذلك . ولكن هناك امر آخر لى فيه حديث . ما هو أمر المساعدين اللذين أمقت ذكرهما كما تمقتين أنت ذكر هذه العائلة ؟ قارنى علاقتك بهما ومسلكى حيال العائلة . وأنا أفهم نفورك من هذه العائلة ويمكننى أن أشاركك اياه . اننى

لا أذهب اليها الا من أجل الموضوع ، حتى اننى أكاد أحس أحيانا بأننى أظلمها باستغلالى اياها . اما أنت واما المساعدان . انك لم تنكرى أنهما يلاحقانك ، بل لقد اعترفت بأن هناك شيئا فيك يجذبك اليهما . وأنا لم أغضب منك لذلك وفهمت أن هناك قوى تفعل فعلها وأنك لم تصلى بعد الى حيث تستطيعين مجابهتها ، وسعدت بأنك على الأقل تمنعت وصددت ، وساعدت أنا فى الدفاع عنك ، فلما تركت بضعة ساعات ، واثقا من اخلاصك ، مطمئنا الى أن البيت مغلق اغلاقا محكما ، والى أننى قد اضطررت المساعدين الى الفرار ـ وأنا أخشى اننى لا أزال أستهين بهما ـ أقول لما تركت بضعة ساعات وأهملت أمرهما ، وأوتى هذا البريريمياس ـ وهو اذا تأمله الانسان بدقة تبين انه رجل سمج معتل الصحة متقدم فى السن ـ من الجسارة ما جعله يقترب من النافذة ، أصبح على . لهذا السبب وحده أن أفقدت يا فريدا ، وأن أسمع منك بدلا من التحية : « لن يكون هناك زفاف . » ألست أنا الذى يحق له أن يوجه اللوم ، ولكنى لا اوجه اليك لوما ، ومازلت الى الآن لا أوجه اليك لوما .

وتصور ك مرة أخرى أنه من الخير أن يلهى فريدا قليلا ، فرجاها أن تأتيه بشىء من الطعام لأنه لم يأكل شيئا لتحضر شيئا ، ولكنها لم تتبع الممر الذى كان ك يظن أنه يؤدى الى المطبخ ، بل انحرفت الى الجانب ونزلت بضعة درجات سلم . وعادت بعد قليل بصحن عليه بعض الشرائح وزجاجة نبيذ ، ولكن ما أتت به كان يبدو كما لو لم يكن سوى بقايا وجبة : كانت الشرائح قد سويت على الصحن ، وكانت زجاجة النبيذ قد فرغ ثلاثة أرباعها . ولم يقل ك شيئا وبدأ يأكل بشهية طيبة وسأل :

ـ هل كنت فى المطبخ ؟

فقالت :

ـ لا ، فى حجرتى ، فلى حجرة هنا أسفل المبنى .

وقال ك :

ـ ليتك أخذتنى معك . اننى أريد أن أنزل الى حجرتك حتى أجلس أثناء تناول الطعام .

وقالت فريدا :

ـ سآتيك بكرسى وثير .

وكانت قد اندفعت الى الطريق . ولكن ك استردها قائلا :

ـ تمذرا • لا أريد أن أنزل ، ولا حاجة الى كرسى •

واحتملت فريدا قبضته عنيدة ،وكانت تميل برأسها ميلا شديدا وتعض شفتيها • وقالت : ـ انه فى الحجرة • وهل توقعت أن يكون الأمر على نحو غير ذلك ؟ انه يرقد فى سريرى ، فقد أصيب بالبرد ، وهو يرتعش ، ولم يأكل شيئا تقريبا • والحقيقة أن الذنب كله ذنبك أنت ، ولو لم تطرد المساعدين ، ولو لم تجر وراءهما ، لكنا الآن جالسين فى سلام فى المدرسة • لقد حطمت سعادتنا • هل تظن أن يريمياس كان أثناء الخدمة يجرؤ أن يخطفنى ؟ اذا ظننت ذلك فانك تجهل النظام القائم هنا تمام الجهل • لقد كان يريد أن يأتى الى ، ولقد تعذب ، ولقد تربص بى ، ولكن هـذا كله لم يزد عن أن يكون لعبا من نوع الكلب الجوعاز حول المائدة فهو يدور حواليها ولا يجرؤ على القفز فوقها • وكذلك أنا • لقد جذبنى اليه ، وهو رفيق لى من أيام الطفولة وكنا نلعب معا على سفح جبل القصر ، لقد كانت أوقاتا جميلة ، ولكنك لم تسألنى عن ماضى • على أن هذا كله لم يكن الشىء الحاسم ، طالما كان يريمياس فى الخدمة وكانت الخدمة ترده ، لأننى كنت أعرف واجبى باعتبارى زوجتك فى المستقبل ، واذا بك تطرد المساعدين وتفخر بما فعلت وكأنك فعلت شيئا من أجلى • وهذا صحيح من ناحية بعينها • ولقد تحقق لك ما أردت مع أرتور ، ولكن الى حين فقط ، فهو رقيق ، وهو لا ينفعل بعاطفة جريئة كعاطفة يريمياس ، ولقد أوشكت فى الليلة التى تعرفها أن تفتك به باللكمة التى سددتها اليه ـ ولقد كانت هذه اللكمة أيضا ضد سعادتنا ـ فهرب الى القصر ليشكو ، وعندما يعود عما قريب •• المهم انه الآن ليس هنا • ولكن يريمياس بقى • وهو فى الخدمة يخشى تقطيبة السيد ، أما فى خارج الخدمة ، فهو لا يخشى شيئا • فأتى وأخذنى • ولم أستطع أن أتمالك نفسى بعد أن هجرتنى أنت وتسلط على هو ، الصديق القديم • وأنا لم أفتح باب المدرسة ، فقد حطم هو النافذة وأخرجنى منها • وهربنا الى هنا • وصاحب الخان يقدره قدره ، وليس هناك شىء أحب الى نفوس النزلاء من أن يكون لهم خادم مثله ، وهكذا استقبلنا صاحب الخان ، ويريمياس لا يقيم فى حجرتى ، ان لنا هنا حجرة مشتركة •

وقال ك :

ـ ورغم هذا كله ، فأنا لست آسفا على طرد المساعدين من الخدمة • واذا كانت علاقتنا على النحو الذى وصفته أنت ، وكان اخلاصك رهنا بالتزام المساعدين بقيد الخدمة فقد كان من الخـير أن أنهى كل شىء • فلم يكن من الممكن أن تكون السعادة الزوجية بين حيوانين متوحشين

لا يحنيان الرأس الا تحت المقرعة • وهنا فانني شاكر فضل هذه العائلة التي أسهمت دون ما قصد منها في التفريق بيننا •

وصمت الاثنان وظلا يسيران جيئة وذهابا الواحد بجوار الآخر ، دون أن يكون في امكان أحد أن يعرف أيهما بدأ الآن • وبدا على فريدا قريبا من ك انها اغتاظت لأنه لم يتأبط ذراعها • وأردف ك :

ـ وبهذا يكون كل شيء قد انتهى الى نهايته ، ويمكننا أن نتوادع ، ويمكنك أن تذهبي الى سيدك يريمياس الذي ربما قد أصيب بالبرد من حديقة المدرسة والذي تركته ، اذا أخذنا هذا في الاعتبار ، مدة طويلة جدا وحده ، أما أنا فيمكنني أن أعود الى المدرسة وحدي ، أو أن أذهب الى أي مكان آخر يرضى الناس فيه بقبولي فلن يكون لي بدونك في المدرسة ما أفعله • واذا كنت أنا رغم ذلك أتردد ، فما ذلك الا لأنني أجد سببا قويا يدعوني الى الشك قليلا فيما حكيته لي • ان انطباعي عن يريمياس هو العكس بالضبط • انه طالما كان في الخدمة كان يلاحقك ولا أظن أن الخدمة كانت لتمنعه الى النهاية من الانقضاض عليك مرة • أما الآن وقد أصبح يعتبر الخدمة منتهية فهو يتصرف على نحو آخر • وسامحيني اذا كنت أفسر ذلك كما يلي : منذ انتهت خطبتك لسيدة تلاشى ما كان لك بالنسبة له من قبل من اغراء • ومن الممكن أن تكوني صديقة منذ الطفولة ولكنه ـ وأنا لم أعرفه الا من الحديث القصير الذي جرى بيننا هذه الليلة ـ لا يقيم ، في تقديري ، لمثل هذه المشاعر وزنا كبيرا • وأنا لا أعرف لماذا يلوح لك كشخص عاطفي ، ان خلقه ليلوح لي أقرب الى الفتور منه الى أي شيء آخر • ولقد تلقى ، فيما يختص بي ، تكليفا من جالاتر بمهمة لم أستحسنها استحسانا كبيرا ، وهو بذل جهدا كبيرا في أداء هذه المهمة ، ويفعل ذلك بنوع معين من شغف الخدم ـ وأنا أعترف له بذلك ـ وما هذا الشغف هنا بالشيء النادر ، وهو في معرض هذا الشغف يحطم علاقتنا معا • ولعله جرب طرقا أخرى ، ومن بينها اشتياقه الشهواني الذي سعى به الى اجتذابك ، ومن بينها كذلك ـ وهنا ساعدته صاحبة الحان ـ اختلاقه خرافة خيانتي ، لقد نجحت مؤامرته بالنسبة اليك ، ولعل ذكرى من ذكريات كلم التي تحيط بك قد أعانته ـ واذا كان قد فقد الوظيفة ، فلعله لم يفقدها الا في الوقت الذي لم يكن فيه بحاجة اليها ، وهاهو ذا يجني ثمار عمله ويجرك من نافذة المدرسة ، وبهذا يكون عمله قد انتهى ، ولقد استبد به التعب بعد أن تجرد من الشغف بالخدمة ، ولعله كان يود أن يذهب الى حيث ذهب أرتور الذي لم يذهب حيث ذهب ليشكو بل لينال المديح ويتلقى تكليفا بالمهام الجديدة ، ولكن لابد أن

يبقى واحد هنا ليتابع تطور الأمور · وان الاهتمام بشأنك لواجب ثقيل يسبب له الازعاج · أما أنه يحبك ، فهذا ما لا تبدو عليه علامات ، لقد اعترف لى هو بدلك ، فأنت بالنسبة اليه محترمة لأنك عشيقة كلم ، ولا شك أنه يجد متعة فى القبوع فى حجرتك والاحساس بأنه صورة مصغرة من كلم ، ولكن هذا هو كل ما فى الأمر ، أنت الآن لا أهمية لك بالنسبة اليه ، وليس وضعه اياك هنا الا بندا اضافيا زيد على مهمته الأصلية · ولقد بقى هو كذلك حتى لا يتسرب القلق الى نفسك ، ولكنه لا يبقى هنا الا بصفة مؤقتة ، والى أن يتلقى اخبارا جديدة من القصر ويكون قد فرغ بمعونتك من علاج ما ألم به من برد ·

فقالت فريدا وهى تخبط يديها الصغيرتين المطبقتين معا :

ـ أرأيت كيف تسبه ؟

فقال ك :

ـ أسبه ؟ لا ، أنا لا أريد أن أسبه · ولكن قد أكون ظالما له ، هذا ممكن بطبيعة الحال · وليس ما قلته عنه بالشىء السطحى المكشوف لكل عين · ومن الممكن تأويله على نحو آخر · أما انى أسبه ؟ لا يمكن أن يهدف السب الا الى مكافحة حبك له · ولو كانت هناك حاجة ، ولو كان السب وسيلة ملائمة لما ترددت ، ولا يجوز لأحد أن يديننى لهذا السبب · انه ، اعتمادا على من يسند اليه المهام ، فى وضع متفوق على بينما أنا وحدى ولا سند لى الا ذاتى ، ولهذا فان لى أن ألجأ قليلا الى السب · وما يمكن أن يكون السب على أية حال الا وسيلة بريئة وعاجزة من وسائل الدفاع · فدعى يديك مرتاحتين ·

وتناول ك يد فريدا فى يده ، وحاولت فريدا أن تسحب يدها منه ، ولكنها فعلت ذلك مبتسمة ودون ما جهد · وقال ك :

ـ أما أنا فلا ينبغى لى أن أسبه ؟ ذلك انك لا تحبينه ، بل أنت تظنين انك تحبينه ، وستكونين لى شاكرة اذا أنا خلصتك من هذا الانخداع · ان أى انسان يريد أن يأخذك منى ، دون لجوء الى القوة ، بل الى التدبير الدقيق غاية الدقة ، لا يمكن أن يحقق ذلك الا عن طريق هذين المساعدين · انهما شابان يظهران بمظهر طيب صبيانى مرح مجرد من المسئولية يأتيان من فوق ، نفثهما القصر الى هنا ، ومعهما شىء من ذكريات الطفولة ، هذه كلها أشياء لطيفة وبخاصة عندما أكون على العكس تماما ، أجرى بلا انقطاع وراء أعمال لا تفهمينها كل الفهم ، وتغتاظين منها ، فهى تجمعنى بأناس يلوحون لك أحقاء بالكراهية وينقلون الى على

الرغم من براءتي الكاملة شيئا مما يثير فيك الكراهية • وان كل هذا لا يزيد عن أن يكون اســـتغلالا قبيحا ــ وان كان ذكيـا جدا ــ لعيوب علاقتنا • وكل علاقة بين الناس تعتورها عيوب ، وبخاصة علاقتنا ، فقد أتى كل واحد منا من عالم يختلف عن عالم الآخر تمام الاختلاف، ولقد اتخذت حياة كل واحد منا ، منذ تعارفنا ، طريقا جديدة كل الجدة ، اننا نحس بالاضطراب فكل شيء جديد علينا • وأنا لا أتحدث عن نفسي ، فليس لمثل هذا الحديث أهمية ، ولقد حظيت في الحقيقة وواقع الأمر بنعمة دائمة منذ أن وجهت عينيك ناحيتي ، وليس من الصعب على الانسان أن يتعود على نيل النعم • أما أنت ، بغض النظر عن كل شيء ، فقد انتزعت من كلم انتزاعا ، وأنا لا أستطيع أن أحدد معنى هذا الانتزاع ، ولكنى أحسست تدريجيا بهذا المعنى ، ان الانسان ليترنح وان الانسان ليضطرب ، لقد كنت على الدوام مستعدا لأخذك ، ولكني لم أكن دائما حاضرا ، وحتى اذا كنت حاضرا ، فان أحلامك ــ وأحيانا أشياء حية مثل صاحبة الحان ــ كانت تتملكك • لقد مرت باختصـــار أوقات ، كنت فيهـا تبعدين عنى بنظرك ، وتشـتاقين الى أمور لم تتحدد على نحـو كامل ، أيتهـا البنت المسكينة ! الم يكن الأمر يحتاج في مثل هذه الفترات الا الى أن يوضع في اتجاه نظرتك الأشخاص الملائمون فاذا بك تضيعين ، واذا بك تخرين صرعى الانخداع ظانة ان هذه الأشــياء ــ وهي التي لا تعدو أن تكون لحظات ، خيالات ، ذكريات قديمة ، حياة قديمة مضت ولاتزال تمضي وتمضي ــ هي حياتك الحالية الواقعية لا تزال • هذا خطأ يا فريدا ! هذه هي الصعوبة الأخيرة والدنيئة ــ اذا صح تقديرها ــ التي تواجه اتحادنا النهائي • فعودى الى نفسك ! تمالكي نفسك ! حتى اذا كنت قد فكرت أن المساعدين أرسلا من عند كلم ــ وليس هذا صحيحا فقد أتيا من عند جالاتر ــ وحتى اذا كانا قد استطاعا أن يسحراك بهذا الخداع لدرجة أنك ظننت أنك ترين في قزارتهما وفحشهما آثارا من آثار كلم ، كما يظن الانسان انه يرى جوهرة في وسط الروث ، لأنه كان قد فقدها ، بينما هو في الحقيقة لا يستطيع أن يجد في الروث شيئا حتى لو كانت الجوهرة فيه ــ فما هذان الشابان الا من نوع خدم الحظيرة لا يفترقان عنهم الا في انهما يفتقران الى صحتهم القوية ، وفي أن قليلا من الهواء الرطب يسبب لهما المرض ويلقى بهما في سرير ، سرير يعرفان بشطارة الخدم كيف يختارانه •

وكانت فريدا قد أسندت رأسها على كتف ك وسار الاثنان جيئة وذهابا وقد عقدا ذراعيهما • وقالت فريدا ببطء وهدوء يوشك أن يكون

ارتياحا ، وكأنما كانت تعرف أنها منحت فترة راحة قصيرة ركنت فيها الى كتف ك وأرادت أن تنعم بها الى النهاية :

- لو أننا هاجرنا فى تلك الليلة التى تعرفها لكنا اليوم آمنين ، ولكنا دائما معا ، ولكانت يدك قريبة جدا منى أستطيع أن أمسكها · فما أشد حاجتى الى قربك ! وكم أحس ، منذ عرفتك ، بالهجران اذا لم تكن معى ! ان قربك ، على ما أظن ، الحلم الوحيد الذى أحلمه ، ولست أعرف حلما غيره ·

وجاء صـوت رجل ينـادى من الممر الجـانبى · كان المنادى هو يريمياس · وكان يقف هناك على الدرجة السفلى من السلم ، ولم يكن يرتدى سوى القميص ، وقد التف بملاءة فريدا · وكان يقف هناك أشعث الشعر ، متناثر اللحية وكأنما اجتاحتها الأمطار ، يفتح عينيه بصعوبة وتوسل ولوم ، وقـد احمرت وجنتاه وان بدتا كأنهما تتكونان من لحم مترهل شديد الترهل وارتعدت ساقاه العاريتان من البرد ارتعادا اهتزت له شراريب الملاءة الطوال ، فلاح وهو على هذه الحال كمريض هرب من المستشفى ، لا يستطيع من ينظر اليه ان يفكر فى شىء آخر سوى اعادته الى السرير · وهذا هو بالضبط مادار بخلد فريدا ، فتمصلت من ك وأسرعت الى يريمياس · ويبدو أن قربها ، وطريقتها الحنونة فى أحكام لفة الملاءة حوله ، والسرعة التى حاولت بها أن ترده الى الحجرة ، قد منحته شيئا من القوة ، وبدا عليه كأنه تعرف على ك فى تلك اللحظة · وقال يريمياس :

- آه ، السيد موظف المساحة !

وداعب وجنة فريدا مطيبا خاطرها فمـا كانت تريد مزيـدا من الحديث ، وأردف :

- لا تؤاخذانى على هذا الازعاج ! ولكن صحتى ليست على مايرام ، وهذا سبب كاف لعدم المؤاخذة · أظن أننى أهذى من الحمة ، ولابد أن أشرب شيئا ساخنا وأعرق · يا للسور اللعين عند حديقة المدرسـة ! سأظل طول حياتى أذكره · ثم كان على أن أجرى هنا وهناك فى الليل بعد أن أصبت بالبرد · ان الانسان يضحى ، دون أن يشعر ، بصحته من أجل أشياء لا تساوى التضحية فى الحقيقة · أما أنت ، يا سيادة موظف المساحة فما ينبغى أن تنزعج بسببى · ادخل عندنا فى الحجرة فعد مريضا وقل فى أثناء ذلك لفريدا ما تريد أن تقوله لها · ومن الطبيعى أن يكون لدى اثنين يفترقان بعد الفة كلام كثير فى اللحظات الأخيرة ، لن يفهمـه

شخص ثالث خاصة ان كان راقدا فى السرير ينتظر المشروب الساخن الذى وعد به • فتعال ، ادخل الحجرة ، وسألزم الهدوء تماما •

وقالت فريدا وهى تجذبه من ذراعه :

ـ كفىَ ! كفى ! انه يهذى ولا يعرف ماذا يقول • أما أنت يا ك فلا تذهب معه ، أرجوك ! هذه حجرتى وحجرة بريمياس ، أو هى بالأحرى حجرتى ، وأنا أمنعك من الدخول • انك تلاحقنى ، يا ك ، لماذا تلاحقنى ؟ اننى لن أعود اليك أبدا ، أبدا ، اننى أرتعد عندما أفكر فى هذا الاحتمال• اذهب الى فتاتيك ، انهما تجلسان وليس عليهما من الثياب سوى القميص ، على المقعد الى المدفأة بجوارك ، كما علمت ، واذا ما أتى أحد يناديك ، صرختا فى وجهه ! انك هناك فى بيتك ! أو هل تراك لا تحس ما يجذبك الى هناك ؟؟! لقد حاولت أن أحجزك عنهما ، فلم أنجح الا قليلا، ولكنى حجزتك على أية حال ، ولقد انتهى كل شىء ، وأنت حر • ان حياة جميلة تنتظرك ، وربما سيكون عليك أن تنازل الخدم من أجل أحداهما ، أما الثانية فليس هناك كائن فى السماء أو على الأرض يحسدك عليها ! والبركة معقودة على الرباط مقدما • لا تعارض ! وليس هناك شك فى أنك تستطيع أن تنقص كل شىء ، ولكنك فى الحقيقة لا تصل فى النهاية الى نقض أى شىء ! تصور يا بريمياس أنه نقض كل شىء •

وتفاهما بتبادل الابتسام والايماء بالرأس • وأردفت فريدا :

ـ ولكن لنفرض جدلا أنه نقض كل شىء فما هى النتيجة ؟ وماذا يعنينى هذا ؟ انَ أحوال أولئك الناس وكيف تسير من شأنهم هم وما هى من شأنى • ليس من شأنى الا أن أرعاك وأعنى بك حتى تسترد صحتك كما كانت قبل أن يعذبك ك بسببى •

وسأل بريمياس :

ـ اذن فأنت لن تأتى معى يا سيادة موظف المساحة ؟

وجرته فريدا نهائيا دون أن تلتفت الى ك مرة أخرى • ورأى ك الى أسفل بابا صغيرا أكثر انخفاضا من أبواب الممر الأخرى ، ولم يكن بريمياس وحده الذى اضطر للانحناء حتى يستطيع الدخول بل فريدا كذلك ، ويبدو أن الحجرة فى الداخل كانت مضاءة وكانت دافئة • وتناهى الى السمع شىء من الهمس لعله الحاح رقيق من فريدا على بريمياس أن يأوى الى الفراش • ثم أغلق الباب •

عند ذاك تبين ك مدى السكون الذى خيم على الممر ، والذى لم يقتصر

على هذا الجزء من الممر الذى كانت فيه فريدا والذى يبدو أن حجرات الخدمة كانت متخذة به ، بل شمل كذلك الممر الطويل والحجرات التى كان الصخب يسيطر عليها ، ومعنى هذا ان السادة قد ناموا أخيرا ٠ وكذلك كان ك شديد التعب ، ولعله لم يستطع بسبب هذا التعب أن يدافع عن نفسه ضد بريمياس كما ينبغى ٠ ولعله كان قد تصرف أكثر حكمة ، لو أنه اتبع بريمياس الذى كان على ما يبدو يبالغ فى البرد الذى أصيب به ـ ولم تكن مسكنته ترجع الى برد ألم به ، بل كانت وراثية فيه ولم يكن هناك مشروب ساخن يستطيع أن يخلصه منها ـ ليته اتبع بريمياس وفعل مثله ، فكشف فى مبالغة عن تعبه الذى كان فى الحقيقة تعبا شديدا ، وخر على أرض الممر ونعس قليلا ، ولا شك أن ذلك كان سيتيح له شيئا من الراحة ولعله كان سيتيح له كذلك شيئا من الرعاية ! ولكنه لم يكن سينتهى الى نهاية موفقة كتلك التى سينتهى اليها بريمياس٠ ولا شك فى أن بريمياس كان سـينتصر فى كل منافسة حول اثارة الشفقة ، سينتصر ربما بحق ، سينتصر لا فى هذه المعركة فحسب ، بل فى كل المعارك الأخرى على ما يبدو ٠ وكان ك يحس بتعب شديد ، حتى انه فكر فى أن يدخل واحدة من هذه الحجرات ـ ولا شك أن بعضها كان خاليا ـ وينام فى سرير جميل حتى يستريح تماما ٠ وكان يرى انه لو نجح فى هذا لكان له فيه تعويض عن أمور كثيرة ٠ وكذلك كان لديه ٠ شراب يعين على النوم ، فقد تركت فريدا على الصينية التى خلفتها على الأرض قنينة صغيرة من خمر الروم ٠٠ ولم يتردد ك فى تحمل مشقة العودة الى حيث كانت القنينة ، وأفرغها فى جوفه عن آخرها ٠

فلما شربها أحس ك أنه قد أصبح على الأقل من القوة بحيث يستطيع أن يواجه ارلانجر ٠ وأخذ يبحث عن باب حجرة ارلانجر ، ولكنه لم يستطع العثور عليها لأنه لم يعد يرى الخادم وجيرشتيكر ، ولأن الأبواب كانت كلها متشابهة ٠ ولكنه ظن أنه يستطيع أن يتذكر على وجه التقريب الموضع من الممر الذى كان فيه الباب ، وقرر أن يفتح بابا كان يبدو فى رأيه على الأرجح الباب المطلوب ٠ ولم تكن المحاولة محفوفة بالكثـير المفرط من المخـاطر ، فاذا كانت الحجرة حجرة ارلانجر ، فسيستقبله هذا ، واذا لم تكن حجرته ، فسيكون بطبيعة الحال من الممكن ان يعتذر وأن يعود ادراجه ، واذا كان النزيل نائما ، وهو أقرب الاحتمالات ٠ فانه لن يلحظ دخول ك ٠ وأسوأ احتمال هو أن تكون الحجرة خالية، لأن ك لن يكون فى مقـدوره أن يقـاوم اغـراء الفراش ، وسيستلقى فيه لينام الى ما لانهاية ٠ ونظر ك مرة أخرى الى يمين الممر ويساره عله

يجد شخصا آتيا يبين له المكان الذى يسعى اليه ويوفر عليه المغامرة ، ولكن الممر الطويل كان ساكنا خاليا · أرهف ك السمع عند الباب ، فلم يجد هناك ما يدل على ان فى الحجرة أحدا · وقرع البـــاب برقة لا يمكن ان يستيقظ لها انسان مستغرق فى النوم ، ولما لم يتحرك ساكن فتح الباب بحذر بالغ · واذا بصرخة خفيفة تتلقاه ·

كانت الحجرة صغيرة ، يشغل سرير عريض أكثر من نصفها ، وكان هناك مصباح كهربائى موقد على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير ، والى جانب الموقد حقيبة سفرية صغيرة · وكان هناك فى السرير شـــخص يختفى تماما تحت الغطاء ، يتحرك حركات قلقة ، ويهمس من بين الملاءة والغطاء :

– من هذا ؟

ولم يستطع ك أن ينصرف بكل بساطة ، وتطلع مغضبا الى السرير الفاخر الذى لم يكن للأسف خاليا ، وتذكر السؤال وذكر اسمه · ويبدو أنه أحدث أثرا طيبا ، فقد أبعد الرجل الراقد فى السرير الغطاء قليلا عن وجهه ، وان ظل خائفا مستعدا لاعادة الغطـــاء حيث كان اذا لم تكن الأحوال على مايرام · واذا به يبعد الغطاء عن جسمه فجأة ويقعد · لم يكن الرجل بالتأكيد ارلانجر · لقد كان رجلا قصيرا حسن المنظر ، يجمع وجهه النقيضين ، فقد كانت وجنتاه مكورتين كوجنات الأطفـــال وعيناه فرحتين كعيون الأطفال ، ولكن جبهته العريضة وأنفه المدبب ، وفمه الضيق الذى لم تكن شفتاه تتلاقيان ، والذقن المتلاشية كانت كلهـــا سمات لا تتصل بالطفولة بسبب بل توحى بالتفكير والتأمل · لقـــد كان الرضا ، الرضا الذاتى ، هو الذى حفظ له نصيبا كبيرا من الطفولة الصحيحة · وسأل :

– هل تعرف فريدريش ؟

ورد ك بالنفى · فقال السيد مبتسما :

– ولكنه يعرفك ·

وهز ك رأسه · لم يكن من يعرفه من الناس الا قليل ، بل لقد كانت تلك عقبة من العقبات الرئيسية فى طريقه · وقال السيد :

– أنا سكرتيره ·· واسمى بورجل ·

وقال ك وهو يمد يده الى مقبض الباب :

– معذرة ، لقد خلطت بين بابك وباب آخر • فأنا مدعى لمقابلة السكرتير ارلانجر •

فقال بورجل :

– يا للأسف ! لا أقول يا للأسف لأنك مدعى لمقابلة شخص آخر، ولكن لأنك خلطت بين الأبواب • فأنا اذا أوقظت لا أنعس بعد ذلك مرة أخرى بكل تأكيد • ولكن لا ينبغي أن تحزن لذلك الى هـذا الحـد • هذه محنتي أنا • ثم لماذا لم تصنع الأبواب على نحو يجعـل من الممكن اغلاقها ، هه ؟ ان هذا شيء مقصود له بطبيعة الحال ما يبرره ، فهناك حكمة قديمة تقول ان أبواب السكرتيرين لابد أن تظل مفتوحة • ولكن ليس هناك ما يدعو للأخذ بهذه الحكمة حرفيا •

وتطلع بورجل الى ك في تساؤل وفرح ، وكان يبدو – على العكس توحي به شكواه – مرتاحا راضيا ، ولا يمكن أن يكون بورجل قد أحس في حياته بتعب كالتعب الذى يحس به ك الآن • وسأل :

– والى أين تريد الذهاب الآن ؟ ان الساعة تشير الى الرابعة • وسيكون عليك أن توقظ من تذهب اليه ، وليس كل انسان معتادا على الازعاج مثلى ، وليس في مقدور كل انسان أن يصبر على الازعاج صبرى عليه ، فان السكرتيرين أمة عصبية • فابق هنـا هنيهة • والجميع يبدءون هنا في الاستيقاظ نحو الخامسة ، وفي هذا الوقت يمكنك أن تلبى الدعوة على أفضل نحو • فدع مقبض الباب واجلس حيث تريد والحقيقة ان المكان هنا ضيق والأفضل ان تجلس على حافة السرير • هل تدهش لأننى ليس لدى كرسى وليس لدى منضدة هنا ؟ لقد كان لى أن أختـار بين تأثيث كامل للحجرة يكون فيه السرير ضيقا كحال سراير الفنادق ، وبين هذا السرير الكبير على ألا يكون معه سوى حوض الاغتسال • واخترت السرير الـكبير ، فالسرير هو الشيء الرئيسى في حجرة النوم • آه ! ان من يستطيع ان يتمطى وأن ينام جيدا ، لينعم بهذا السرير فهو متعة لذيذة ! حتى أنا الذى أحس دائما بالتعب دون أن أستطيع النوم ، أرتاح لهذا السرير ، وأقضى غالبية النهار فأنجز المكاتبات واستجوب وأنا فيه أصحاب الحاجات • والأمر يسير على نحو طيب جدا • والحقيقة ان أصحاب الحاجات لا يجدون مكانا للجلوس ، ولكنهم يجدون ما يعوضهم عن هذا ، فانه من الأفضل بالنسبة اليهم أن يظلوا واقفين بينما يرتاح الموظف الذى يستجوبهم ، على أن يجلسوا مرتاحين بينما الموظف يصرخ فيهم • اذن فليس لدى الا هذا المكان على

حافة السرير أقدمه اليك ، وهو مكان غير رسمى خصصـــته للأحاديث الليلية دون ما سواها • ولكنك ســـاكت يا حضرة موظف المساحة ؟

فقـــال ك الذى ما كاد يتلقى الدعوة حتى جلس فى الحال بخشونة وبدون احترام على السرير واستند الى عموده :

ـ أنا أحس بتعب شديد •

وقال بورجل ضاحكا :

ـ هذا شيء طبيعى • فكل انسان هنا تعبان • وأنا على سبيل المثال لم أقم لا الأمس ولا اليوم بعمل ، ومع ذلك فانه من المحال أن أستطيع النوم الآن ، أما اذا تحقق أبعد الأشياء عن التصديق ونعست بينما أنت هنا ، فأرجوك أن تلزم السكون وألا تفتح الباب • ولكن لا تخف ، فأنا بكل تأكيد من أنعس الناس ، وحتى اذا نعست فلن يدوم نعاسى على أفضل الفروض الا لدقائق قليلة • والذى يحدث معى هو اننى ، على مايبدو لأننى معتاد أشد الاعتياد على حركة الجمهور ، أنام بسهولة فائقة عندما يكون عندى بعض الناس •

وفرح ك بهذا الكلام وقال :

ـ نعم ، يا حضرة السكرتير ، أرجوك ، وسأنام أنا كذلك قليلا اذا سمحت لى •

وعاد بورجل يضحك ويقول :

ـ لا ، لا ، أنا لا أستطيع أن أنام اذا دعيت الى ذلك ، ولكن فرصة النوم تأتى من تلقاء ذاتها أثناء الحديث ، والحديث هو أنجع وســيلة لانعاسى ! نعم ، ان الأعصاب تعانى الكثير فى عملنا • وأنا على سبيل المثال ، سكرتير اتصال • وأنت لا تعرف ما هذا ، هه ؟ اننى أمثل أقوى اتصال ••

وهنا فرك يديه بسرعة فى نشوة من الفرح غير مقصودة ، وأكمل:

ـ •• بين فريدريش والقرية ، اننى أمثل الاتصال بين سكرتيرييه فى القصر وسكرتيرييه فى القرية ، وأنا أقيم غالبا فى القرية ، ولكنى لا أقيم فيها بصفة دائمة ، وعلى أن أكون فى كل لحظة مستعدا للسفر الى القصر ، وأنت ترى حقيبة السفر • انها حياة قلقة لا تلائم كل انسان•

على أننى لا أستطيع الاستغناء عن هذا النوع من العمل ، وقد أصبحت أجد كل نوع آخر تافها مجردا من الطعم . وكيف حال المساحة ؟

فقال ك :

ـ اننى لا أقوم بعمل يتصل بالمساحة ، لأنهم لم يكلفونى بعمل من حيث أنا موظف مساحة . ولم يكن ك مركزا أفكاره على الموضوع ، بل كان يتوق الى شيء واحد وهو أن ينعس بورجل ، وهو لم يقل هذا عندما تكلم عن احساس بواجب ما حيال نفسه ، فقد كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه يعرف أن لحظة نعاس بورجل مازالت بعيدة لا يستطيع انسان التنبؤ به . وقال بورجل وقد هز رأسه بشدة وأخرج كراسة المذكرات من تحت الغطاء ليسجل فيها شيئا :

ـ هذا شيء عجيب ! أنت موظف مساحة وأنت لا تقوم بعمل يتصل بالمساحة !

وهز ك رأسه بطريقة آلية ، وكان قد بسط ذراعه اليسرى على شباك السرير وركن رأسه عليها ، وحاول محـــاولات مختلفة أن يجد وضعا مريحا ، وكان هذا الوضع هو أكثرها راحة ، وكان يتيح له فى الوقت نفسه أن ينتبه الى كلام بورجل على نحو أفضل . واســـتأنف بورجل كلامه :

ـ أنا على استعداد لمتابعة هذا الموضوع . ومن المؤكد أن الأحوال عندنا ليست بالتى تسمح بعدم الافادة من المتخصصين . هذا الى أن هذا الوضع فيه جرح لكرامتك . ألا تعانى منه ؟

وقال ك :

ـ اننى أعانى منه .

قالها ك ببطء وهو يبتسم بينه وبين نفسه لأنه لم يكن فى تلك اللحظة بالذات يعانى منه أقل معاناة . هذا الى أن عرض بورجل لم يحدث به أى أثر ، لقد كان عرضا على طريقة الهواة . انه دون علم بالظروف التى تم فى ظلها استدعاء ك الى العمل ، ودون علم بالصعوبات التى تعرض لها هذا الاستدعاء فى القصر وفى مجلس القرية ، ودون علم بالاضطرابات التى حدثت أثناء اقامة ك هنا أو التى أوشكت أن تحدث، دون علم بهذا كله ، ودون أن يظهر عليه أنه ـ وهذا شيء مقبول من السكرتيرين ـ أحس على الأقل بما يشبه العلم بالموضوع ، يعرض أن

يصلح الأمر فى القصر بجرة قلم مستعينا بكراسة المذكرات الصغيرة ؟
وقال بورجل :

يبدو انك تعرضت لضرب من خيبة الأمل .

وأثبت بورجل بهذا مرة أخرى أن لديه شيئا من المعرفة بالناس تلح على ك من حين لآخر منذ أن دخل الحجرة ألا يقلل من شأن بورجل، ولكن الحالة التى كان عليها لم تكن تسمح له بأن يحكم الحكم العادل الا على التعب فقط . وعاد بورجل يقول :

ـ لا ...

وكأنما كان بذلك يجيب على فكرة خطرت ببال ك وكان يريد أن يوفر على ك جهد الكلام اشفاقا به . وأردف :

ـ ... لا ينبغى أن تدع خيبة الأمل تفزعك . ويبـدو أن بعض الأمور قد وضعت هنا بقصد الافزاع ، واذا وصل الانسان هنا لأول مرة فان العوائق تلوح له منيعة لا سبيل الى التغلب عليها بحال من الأحوال . وأنا لا أريد أن ابحث مدى صحة هذا التصور ، وربما كان الظاهر مطابقا للواقع ، وأنا فى مكانى هذا أفتقر الى البعد اللازم لتبيان هذا الأمر ، ولكن عليك أن تلاحظ أن فرصا تسنح أحيانا لا تكاد تتفق مع الوضع العام ، فرصا يصل الانسان فيها بكلمة ، بنظرة ، باشارة ثقة الى أشياء لا يصل اليها بجهود مضنية يبذلها طوال حياته . هذه هى الحال بكل تأكيد . والحقيقة أن هذه الفرص تتفق مع الوضع العام من حيث هى فرص لم تستغل مطلقا . واننى أتساءل دائما عن السبب فى عدم استغلالها .

ولم يكن ك يعرف هذا السبب . والحقيقة انه كان يحس بأن الموضوع الذى يتحدث بورجل عنه يمسه جدا على ما يبدو ، ولكنه كان ينفر نفورا شديدا من الموضوعات التى تمسه ، وحرك رأسه الى جانب وكأنه يفسح المكان لأسئلة بورجل أن تعبر عليه عبورا دون أن تمسه فى قليل أو كثير . واستأنف بورجل الحديث وهو يمط ذراعيه ويتثاءب على نحو يناقض ما فى كلامه من جد ويثير فى النفس الاضطراب :

ـ ان السكرتيرين يشكون دائما من أنهم يضطرون الى اجراء غالبية الاستجوابات بالقرية ليلا . ولكن لماذا يشكون من ذلك ؟ هل لأنهـا تجهدهم ؟ هل لأنهم يفضلون استخدام الليل للنوم ؟ لأنهم لا يشكون من هذا بكل تأكيد . وهناك بطبيعة الحال بين السكرتيرين ، كما هى الحال مع غيرهم ، من اشتد اجتهادهم وبينهم من قل اجتهادهم . ولكن

. . ـ المفرط ، وخاصة ليس بينهم من يشكو علينا . فليس هذا طبعنا . ونحن فى هذه الناحية لا نعرف فرقا بين وقت العمل والوقت العادى . ان هذه الفروق غريبة عنا . فما سبب نفور السكرتيرين من الاستجوابات الليلية ؟ هل الاشفاق على من يقومون باستجوابهم ؟ لا ، لا ، ليس هذا هو السبب . ان السكرتيرين لايعرفون الشفقة مع من يستجوبونهم ، ولكنهم لا يعرفون كذلك الشـــفقة مع أنفسهم ، وليس هناك فرق بين الضربين من التعسف . وليس هـــذا التعسف الا الاتباع العنيف والتنفيذ الصارم للخدمة ، ولهذا فان هذا التعسف هو فى الحقيقة أعظم شفقة يرجوها أصحاب الحاجات . وهذا شيء معترف به تماما ، ولكن المتسرع فى الحكم لا يلاحظه بطبيعة الحال. فالاستجوابات الليلية هى على سبيل المثال فى هذه الحالة الاستجوابات التى تلقى ترحيب المســتجوبين ، وليست هناك شكاوى أســاسية من الاستجوابات الليلية . فما هو اذن السبب فى نفور السكرتيرين منها؟

ولم يكن هذا معروفا لـ ك . لقد كان ك يعرف القليل ، ولم يكن يستطيع أن يتبين ما اذا كان بورجل يطلب منه الاجابة جادا أو يتظاهر بطلبها . كان ك يفكر : لو تركتنى أنام فى سريرك فانى سأحضره لك على كل أسئلتك غدا ظهرا أو مساء على أفضل نحو . ولكن بورجل لم يكن يبدو عليه أنه يتنبه اليه لفرط انشغاله بالسؤال الذى وجهه هو الى ـــه . وأردف بورجل :

ـ ان السكرتيرين ، على قدر ما أعرف وعلى قدر ما علمتنى الخبرة، يوجهون النقد التالى للاستجوابات الليلية : ان الليل لا يناسب المفاوضات مع أصحاب الحاجات لأنه من الصعب أو من المستحيل الاحتفاظ الكامل للمفاوضات بالصفة الرسمية . وليس السبب هو المظاهر والشكليات، فهذه من الممكن مراعاتها بطبيعة الحال على نحو صارم بالليل وبالنهار على السواء . ليس هذا اذن هو السبب الذى يؤثر على التقدير الرسمى للأمور بالليل . ان السبب هو ان الانسان يميل بالليل الى النظر الى الأشياء من ناحية أكثر خصوصية ، فاذا ادعاءات أصحاب الحاجات تتخذ من الأهمية أكثر مما لها ، فتختلط بالأحكام اعتبارات لا تتصل بالموضوع بل تتصل بوضع أصحاب الحاجات وآلامهم وهمومهم .. ان الحــاجز الضرورى الفاصل بين أصحاب الحاجات والموظفين ، وان ظل فى الظاهر قائما لا عبث فيه ، يضعف ، ويتحول الوضع من أسئلة وأجوبة ـ وهو ما ينبغى أن يكون ـ الى ما يبدو على هيئة تبادل غريب غير لائق مطلقا

بين الأشخاص . وهذا هو على الأقل ما يقوله السكرتيرون ، وهم أناس أوتو بسبب الوظيفة احساسا فائقا خارقا للمألوف بالنسبة لهذه الأمور . ولكنهم ـ وكثيرا ما نوقش هذا الموضوع فى جلساتنا الخاصة ـ لايتبينون أثناء الاستجوابات الليلية من هذه المؤثرات غير المواتية الا القليل . بل على العكس ، انهم يجتهدون منذ البداية فى العمل على مجابهتها ويعتقدون انهم حققوا الكثير . أما اذا ما تناول الانسان المحاضر التى سجلوها واطلع عليها فانه كثيرا ما يدهش لما يبدو فيها من نواحى الضعف لديهم. وهذه أخطاء ـ وما هى فى الحقيقة الا مكاسب يحصل عليها المستجوبون بدون وجه حق ـ لا يمكن تصحيحها على الأقل طبقا للوائحنا بالطريق المباشر المعهود . والمؤكد أنها تصح فى وقت ما بواسـطة ديوان من دواوين المراقبة ، ولكن هذا التصحيح لا يفيد الا القانون ولا يمكن أن يضر بمن شملهم الاستجواب بحال من الأحوال . أليست لشـكاوى السكرتيرين والحال هذه ما يبررها ؟

كان ك قد أمضى هنيهة فيما يشبه النعاس ، وهاهوذا ينزعج من جديد . لماذا هذا كله ؟ لماذا هذا كله ؟ كان هذا هو السؤال الذى يتردد فى خاطره وهو يتأمل بجفون مسـبلة بورجل لا من حيث هو موظف يناقش معه مسائل صعبة ، ولكن من حيث انه شيء يعوقه عن النوم ولا يفهم من كنهه غير هذا . أما بورجل فقد ابتسم وهو مندمج أشـد الاندماج فى أفكاره ، وكأنما عبر بابتسامة عن نجاحه فى تضليل ك بعض الشيء . ولكنه كان مستعدا للعودة به الى الصراط المستقيم . فقال :

ـ ولايمكن أن نقول ان هذه الشكاوى لها ما يبررها تمـاما . والحقيقة ان الاستجوابات الليلية غير منصوص عليها فى أى موضع ، أى ان الانسان لا يخرق قانونا اذا هو حاول تجنبها ، ولكن الاستجوابات الليلية أصبحت ضرورة لا سبيل الى تجاوزها نتيجة للظروف ولأمور مختلفة منها كثرة العمل مفرطة ، وانشغال الموظفين فى القصر ، وصعوبة الوصول اليهم ، واللائحة الناصة على أن استجواب أصحاب الحاجات لا ينبغى أن يجرى الا بعد الفراغ تماما من بحث الموضوع من كل نواحيه. واذا كانت قد أصبحت ضرورة ، فاننى أقول ان هذا نتيجة على الأقل غير مباشرة للوائح ، ولهذا فان العيب فى الاسـتجوابات الليلية هو ـ وأنا أبالغ بطبيعة الحال شيئا ما ، ولكنى أسمح لنفسى بالتعبير على سبيل المبالغة ـ هو عيب اللوائح ذاتها . على أننا ينبغى أن نعرف

للسكرتيرين أنهم يحاولون على قدر استطاعتهم أن يحموا أنفسهم فى نطاق اللوائح من الاستجوابات الليلية ومن عيوبها التى قد لا تكون الا عيوبا ظاهرية • وهم بالفعل يتصرفون على هذا النحو ، وعلى أوسع نطاق • فهم لا يقبلون للاستجوابات الا الموضوعات التى يعملون عنها أنها لا تحتمل من أية ناحية أدنى خوف ، وهم يختبرون أنفسهم قبل الاستجوابات اختبارا دقيقا ويرفضون - اذا كانت نتيجة الاختبار تدعو الى ذلك - الاستجوابات فى آخر لحظة ، وهم يقوون أنفسهم باستدعائهم الشخص المطلوب استجوابه عشر مرات قبل أن يقوموا فعلا باستجوابه، وهم يوكلون عنهم زملاءهم الذين لا يكون الموضوع من اختصاصهم والذين يكون فى مقدورهم لهذا السبب معالجته بسهولة أكبر ، وهم يجعلون الاستجواب فى بداية أو فى نهاية الليل ويتجنبون الساعات الوسطى ، وما الى ذلك من الاجراءات الكثيرة ، فان السكرتيرين لا يستسلمون بسهولة ، وان مقاومتهم لشديدة كما ان اصابتهم يسيرة•

ونام ك ، ولم يكن نومه نوما بمعنى الكلمة ، ولعله كان يسمع كلمات بورجل أسهل مما كان يسمعها خلال يقظته الواهنة السابقة ، كان يسمعها كلمة كلمة ترن فى أذنه ، ولكن الوعى المؤرق كان قد اختفى، وأصبح ك يحس أنه حر فلم يعد بورجل يمسكه ، وان كان من حين لآخر يحرك يديه ليتحسسه ، فلم يكن ك فى أعماق النوم ، وان كان قد انغمس فيه • ولم يكن لأحد ان يسلبه النوم • وكان يحس كأنه قد حقق بذلك انتصارا عظيما ، وكأن جماعة أتت للاحتفال به ، وكأنه هو أو كان أحدا غيره يرفع كأس الشمبانيا تمجيدا لهذا الانتصار • كان على الجماعة أن تعرف الموضوع ، ولهذا تكرر الكفاح وتكرر النصر مرة أخرى ، أو لعلهما لم يتكررا بل جريا الآن لأول مرة وكان الاحتفال بهما قد تم من قبل ، ولكنه لم يكن ينصرف عنه لأن النهاية كانت لحسن الحظ مؤكدة • كان هناك سكرتير عار يشبه تمثال اله اغريقى أكبر الشبه يضيق عليه الخناق فى المعركة أمام ك • كان هذا شيئا هزليا جدا ، وابتسم ك ابتسامة رقيقة فى نومه للسكرتير وهو يتعرض للفزع فى موقفه المتكبر نتيجة لتقدم ك ، ثم وهو يضطر الى استعمال ذراعه الممدودة ويده المقبوضة بسرعة ليستر عريه فلا يفلح لشدة بطئه• ولم تستمر المعركة طويلا ، فقد كان ك يتقدم خطوة خطوة الى الأمام وكانت خطاه واسعة • فهل كانت تلك معركة فعلا ؟ لم يكن هناك عائق بمعنى الكلمة ، الا صيحات كالصفير يطلقها السكرتير من حين لآخر • لقد كان هذا الاله الاغريقى يصرخ كالبنت من أثر الدغدغة ، ثم انصرف

فى النهاية ، وأصبح ك بمفرده فى مكان كبير ، والتف حواليه متهيئا للقتال يبحث عن غريمه ، فلم يكن هناك أحد وكانت الجماعة قد انقضت هى الأخرى ، ولم يكن هناك سوى كأس الشمبانيا المحطمة على الأرض ، فداسها ك حتى أتم تحطيمها • ولكن الحظام وخزه فصحا ، وثقل عليه الصحو كما يثقل على الصغار عندما يوقظون • وعلى الرغم من ذلك ، فقد خطرت بباله ، وهو يرى صدر بورجل العارى فكرة من الحلم هاهوذا الهك الاغريق ! انتزعه من الفراش !

وقال بورجل وقد رفع رأسه ، وهو مستغرق فى التفكير ، الى السقف وكأنه اذ يتذكر يبحث عن أمثلة فلا يجدها :

ـ ومع ذلك فهناك على الرغم من كل القواعد المنصوص عليها فى اللوائح امكانية استغلال أصحاب الحاجات لضعف السكرتيرين ليلا ـ على فرض أن هذا الضعف ضعفا حقيقة ـ لصالحهم • هذه فى الواقع امكانية نادرة جدا ، أو على الأصح امكانية لاتكاد تطرأ بحال من الأحوال • وهذه الامكانية تتلخص فى أن يأتى صاحب الحجة فى جوف الليل دون استدعاء وقد تدهش لأن ذلك ، على الرغم من أنه يبدو ممكنا ، لايفترض فيه أن يحدث الا نادرا جدا •

ولا غرو فأنت لاتعرف الأحوال لدينا ، ولكن لابد أنك لاحظت أن النظام الحكومى لدينا محكم لاتعتوره ثغرات • وهذا الاحكام يعنى أن كل من لديه حاجة أو من لديه أسباب تستدعى أن يستجوب ، يتلقى حالا ودون تردد ـ وغالبا دون أن يكون قد رتب موضوعه بدعوة للحضور الى الديوان • وهو لا يستجوب فى هذه المرة ، لأن الموضوع لايكون فى المعتاد قد نضج بعد للاستجواب ، ولكنه يكون قد تلقى الدعوة ، ولا يمكن القول بأنه عندما يحضر انه حضر بلا دعوة ، كل ما يمكن أن يحدث هو أنه يأتى فى وقت ليس بوقت ، وهنا يلفتون نظرة الى تاريخ الدعوة وساعتها ، فاذا أتى فى الوقت الصحيح ، فانهم فى المعتاد يصرفونه دون ما صعوبة • فان الدعوة التى يحملها صاحب الحاجة والتأشيرة المثبتة فى الملفات تمثل فى يدى السكرتيرين أسلحة وقائية قوية وان لم تكن كافية فى كل الأحوال ولا ينطبق هذا الكلام الا على السكرتير المختص بالموضوع •

ولكل انسان الحرية فى أن يفاجىء من يريد بالليل • ولكن لايكاد يكون هناك انسان يفعل هذا ، لأنه يوشك أن يكون عديم الجدوى والمغزى ولو أن الانسان فعل ذلك ، فان أول نتيجة ستترتب على فعله ستكون اغضاب السكرتير المختص ، فنحن جماعة السكرتيرين ، وان لم نعرف

فيما بيننا الغيرة حيال العمل لأن كل واحد منا يحمل - حقيقة ودون ما اسراف فى التقدير - عبئا مسرفا فى الضخامة ، لانقبل بحال من الأحوال أى ازعاج من جانب أصحاب الحاجات • وكثيرا ما خسر أصحاب الحاجات قضاياهم لأنهم ظنوا أنهم لا يحرزون تقدما فى القسم المختص فحاولوا أن يتسللوا الى القسم غير المختص • هذا الى أن مثل هذه المحاولات لابد أن تفشل لأن السكرتير غير المختص - حتى اذا أمكن التأثير عليه بالليل وكان ينوى نية خالصة أن يقدم المساعدة - لن يستطيع ، نتيجة لعدم تخصصه ، أن يقدم من العون أكثر مما يستطيع أى محام ، بل ان مايقدمه من مساعدة يقل فى الحقيقة كثيرا لأنه يفتقر - حتى اذا كان فى مقدوره فعل شيء اعتمادا على أنه يعرف الطرق السرية للقانون أحسن مما يعرفها السادة المحامون - يفتقر حتى بالنسبة للأشياء التى تدخل فى اختصاصه الى الوقت ، فليس لديه لحظة واحدة يضيعها فى مثل هذا المسعى • فأين هذا الذى يبدد لياليه ، والحال على هذا النحو ، فى الارتماء على سكرتيرين غير مختصين ؟ ! هـذا الى أن أصحاب الحاجات يكونون مشغولين جدا اذا هم أرادوا • الى جانب قيامهم بأعمال مهنهم ، أن يلبوا الدعوات والاشارات التى تصدر عن الاقسام المختصة ،« مشغولين جدا » من وجهة نظر أصحاب الحاجات بطبيعة الحال، ومن البديهى أن وجهة النظر هذه لاتطابق نظر السكرتيرين •

وأومأ ك برأسه مبتسما ، فقد كان فى تلك اللحظة يعتقد أنه يفهم كل شيء فهما دقيقا، لا لأنه يهتم به ، ولكن لأنه كان مقتنعا بأنه سيستغرق فى اللحظات التالية فى نوم عميق لا يقضه حلم أو ازعاج • سيستغرق بين السكرتيرين المختصين والسكرتيرين غيرالمختصين وأمام جماعة أصحاب الأعمال المشغولين غاية الشغل فى سبات عميق وسيفلت من كل شيء على هذا النحو • ولقد ألف الآن صوت بورجل الهادىء الخفيض الراضى عن نفسه الساعى فى غير جدوى الى النوم ، لدرجة أنه لم يعد يزعجه بل أصبح يجره الى النعاس • وقال ك فى نفسه : جعجعى أيتها الطاحونة جعجعى ، فأنت لا تجعجعين الا من أجلى !

وقال بورجل وهو يعبث بأصبعين فى شفته السفلى ويفتح عينيه على سعتها ويمد رقبته الى الأمام وكأنه يصل بعد تجوال شاق الى هدف خلاب :

- وأين اذن هـذه الامكانية النادرة التى لا يكاد يكون لها وجود ، والتى أشرت اليها ؟ ان السر يكمن فى اللوائح الخاصة بالاختصاص •

فليس الأمر ، ولا يمكن أن يكون فى حالة جهاز ادارى كبير حى ، على ماقد يخطر بالبال من أن كل قضية توكل الى سكرتير مختص بعينه . وانما الحقيقة هى أن الاختصاص الأساسى يكون لسكرتير بعينه بينما يختص آخرون كثيرون بأجزاء معينة وان كان اختصاصهم بها اختصاصا صغيرا. فأين هذا الشخص الذى ، حتى اذا كان أعظم العاملين ، يستطيع وحده أن يجمع على مكتبه كل جوانب واقعة ما ولو كانت هى أصغر واقعة ؟ ان ما قلته حتى عن الاختصاص الرئيسى مبالغ فيه . وألا يتضمن أصغر اختصاص فى طياته كل الاختصاص ؟ وأليست العاطفة التى يتناول بها الانسان القضية هى التى تحسم أمرها ؟ وأليست العاطفة هى دائما هى وبكل قوتها ؟ ومن الممكن أن يكون هناك بين السكرتيرين اختلافات فى كل الأمور ، والحقيقة أن هنـاك اختلافات لا يحصرها العد ، أما العاطفة فلا يختلف فيها اثنان . ليس بين السكرتيرين من يستطيع أن يضبط نفسه اذا ما طولب بمعالجة قضية لا يختص بها الا أقل الاختصاص . ولكن ينبغى أن تكون هناك من الناحية الظاهرية امكانية منظمة للتفاوض ، وهنا يبرز أمام أصحاب الحاجات سكرتير معين يكون عليهم من الناحية الرسمية أن يتعاملوا معه . وليس من الضرورى أن يكون هذا السكرتير هو صاحب الاختصاص الرئيسى بالنسبة للقضية ، انما الذى فى هذا هو الجهاز الادارى وحاجاته الطارئة الخاصة . ولك الآن ، ياحضرة موظف المساحة ، أن تتصور امكانية مباغتة أحد أصحاب الحاجات فى الليل البهيم نتيجة لظروف ما وعلى الرغم من العوائق التى وصفتها لك والتى تبتسم عامة بأنها عوائق كافية تماما امكانية مباغتة أحد أصحاب الحاجات لسكرتير يكون لديه اختصاص ما بالقضية المقصودة . يبدو انك لم تفكر فى امكانية من هذا النوع ؟ وأنا أصدقك عن طيب خاطر . ثم أنه ليس من الضرورى أن تفكر فيها فانها امكانية لا تطرأ مطلقا . لابد أن يكون صاحب الحاجة الذى يوفق الى هذه الامكانية حبة تشكلت وتحددت على نحو عجيب ، حبة صغيرة وماكرة ، حتى يستطيع أن ينفذ من هذا الغربال العظيم الذى لا يفوقه غربال آخر ؟ اذن فأنت تعتقد أن هذه الامكانية لا تطرأ مطلقا ؟ نعم ، أنت على حق ، انها لا تطرأ . ولـكن أين هذا الذى يضمن هـذه الاستحالة ؟ قد تطرأ هذه الامكانية ذات ليلة ــ ولكننى لا أعرف سكرتيرا واحدا حدث له هذا ، على أن هذا لا يؤكد الا القليل فان من أعرفهم محدودون بالقياس الى العدد الكبير من السكرتيرين الذين يمكن أن يجرى عليهم مثل هذا ، ثم انه ليس من المؤكد أن يعترف سكرتير حدث له هذا، لأن المسألة مسألة شخصية جدا ولأنها تمس الحياء الديوانى اذا صحت

هذه العبارة . ومهما يكن من أمر فان خبرتي تؤكد أن هذه الامكانيه نادرة ولا وجود لها الا فيما تتناقله الشائعات ، ولا برهان عليها ، ولهذا فانه من السرف الخوف منها . واذا طرأت في الواقع ، فان الانسان يستطيع - وهو شيء يمكن للانسان أن يصدقه - أن يدرأ أذاها بأن يثبت لها ، وهذا شيء يسير ليس له مكان في الدنيا . ومهما يكن من أمر فان الانسان يتصرف تصرفا مرضيا اذا ما توارى تحت الغطاء خوفا منها ولم يجرؤ على النظر من تحتها ، واذا حدث أن اتخذت الاستحالة الكاملة نجاة شكلا . فهل معنى ذلك ان كل شيء ضاع بلا رجعة ؟ على العكس . أما أن كل شيء يضيع فأمر أكثر استحالة من أشد الأمور استحالة . ولكن عندما يكون صاحب الحاجة في الحجرة فان الوضع يكون في غاية السوء . ان القلب ليحس نتيجة لهذا بالضيق . الى متى تستطيع أن تقاوم ؟ هذا هو السؤال الذي يوجهه الانسان الى نفسه . ولكن كل واحد يعرف أن المقاومة لن تكون مقاومة . وينبغي عليك أن تتصور الوضع كما ينبغي . ان صاحب الحاجة الذي لم تره من قبل والذي كنت دائما تتوقعه . تتوقعه بشغف حقيقي وتعتبره بالعقل شخصا لا سبيل الى لقياه يجلس هناك . انه يدعوك بوجوده الصامت الى أن تنفذ الى حياته المسكينة وأن تنقلب فيها كأنها ملك لك وان تشترك في معاناة مطالبها التي لا جدوى منها . ان هذه الدعوة في الليل الساكن خلابة ساحرة . والانسان قد يلبيها ، فلا يعود موظفا رسميا . انه وضع لا يلبث أن يتبين الانسان فيه أن رفض الرجاء من المحال . أو بعبارة أدق ان الانسان يحس بالحيرة ، أو بعبارة أكثر دقة ان الانسان يحس بالسعادة الشديدة . والانسان يحس بالحيرة لأن العجز الذي يلازم الانسان هو وينتظر رجاء صاحب الحاجة ويعلم أنه - اذا ما نط صاحب الحاجة برجائه - سيلبيه ، حتى اذا كان التنظيم الاداري الرسمي ، على ما يعلم ، سيضرب به عرض الحائط هو أسوأ ما يقابله في حياته . والسبب هو قبل كل شيء آخر - وبغض النظر عن كل شيء - ارتقاء يفوق المفاهيم كلها ، ارتقاء يتشبث به الانسان عنوة لحظة من اللحظات . ونحن لم نخول ، حسب مركزنا ، صلاحية تلبية رجاءات من نوع الرجاءات التي نعنيها هنا ، ولكن قرب صاحب الحاجة منا في الليل يؤدي الى نشأة مقومات حكومية لدينا اذا صح هذا التعبير ، والى التزامنا بأشياء خارجة على حدود صلاحيتنا ، بل والى تنفيذها . ان صاحب الحاجة يغصبنا في الليل كما يغصبنا قاطع الطريق في الغابة على اعطائه أشياء لا نستطيع في الأحوال العادية أن نمنحه اياها . والأمر الآن على هذا النحو : صاحب الحاجة موجود يقوينا

ويغضبنا ويحفزنا ، والموضوع يسير طريقه ، بينما تجددت الأشياء كلها من الوعى فالأم تسير الحال بعد ذلك عندما يتغير الوضع ، عندما يتركنا صاحب الحاجة راضيا غير عابىء بنا ، ونقف هنا وحدنا عاجزين فى مواجهة تهمة اساءة استخدام السلطه ؟ ! ان هذا شيء لايتصوره الانسان ! ومع ذلك فنحن بالفعل سعداء . وهكذا يمكن أن تكون السعادة انتحارية . ونحن نستطيع أن نبذل الجهود من أجل اخفاء الوضع الحقيقى على صاحب الحاجة . ويكاد لايكون هناك انسان يستطيع أن يتبين شيئا من وضعه الحقيقى وحده . ان صاحب الحاجة ، على ما تظن ، قد اندفع لأسباب مباغتة تافهة ـ واهنا يائسا جريئا بليدا نتيجة للتعب المفرط والخيبة ـ الى داخل حجرة أخرى غير تلك التى كان يريدها ، فهو يجلس جاهلا مشغولا بأفكاره ، اذا كان مشغولا بشيء على الاطلاق ، مشغولا بضلاله أو بتعبه . فهل يمكن أن يتركه الانسان على هذه الحال ؟ لا ، لايمكن ، ان الانسان وهو يثرثر السعداء يشرح له كل شيء . والانسان لايصون نفسه فى كثير أو قليل اذ هو يشرح لصاحب الحاجة تفصيليا ما حدث وأسبابه ، وكيف أن المصادفة نادرة ندرة خارقة للمألوف ، عظيمة عظمة فريدة ، ويشرح له كيف انه قد اندفع الى هذه الفرصة عاجزا كل العجز ، الذى لا يستطيعه الا أصحاب الحاجات ، وكيف أنه يستطيع ـ يا سيادة موظف المساحة ـ إن أراد أن يتحكم فى كل شيء ، وألا يكون عليه أن يقدم لقاء ذلك شيئا آخر سوى رجاء على نحو ما قد جهزت تلبيته لعلاقاته .. يشرح له هذا كله ، تلك هى الساعة العصيبة التى يواجهها الموظف . واذا ما فعل الانسان هذا ، يا حضرة موظف المساحة ، فان الجزء الضرورى يكون قد جرى ، ويكون على الانسان أن يرضى ويقنع وينتظر .

ونام ك ، منقطعا عن كل شيء حدث . وتدلى رأسه ، الذى كان فى البداية يرتكن على ذراعه اليسرى فوق شباك السرير ، ومال فى نومه لا يعتمد على شيء ، وأشد ميلا شيئا فشيئا . لم يعد الاستناد على الذراع يكفى ، فالتمس ك سندا جديدا دون ما قصد ، بأن دس يده اليمنى فى اللحاف ، فأمسك قدم بورجل التى كانت قد خرجت من تحت اللحاف مصادفة . وتطلع اليه بورجل وترك له القدم على الرغم من كرهه لذلك .

ودق بعضهم دقات شديدة على الجدار الجانبى . ففزع ك وتطلع الى الجدار ، فاذا هناك من يسأل :

ـ هل موظف المساحة هناك ؟

فقال بورجل :

ــ نعم ٠

وخلص قدمه من قبضة ك وتمطى فجأة بعنف وعناد كالصبية الصغار وعاد الصوت يقول :

ــ اذن فلديأت الى هنا وقد طال انتظاره له ٠

لم يرع صاحب الصوت بورجل ، ولم يرع خاصة ك ، وكم كانت حاجته شديدة الى أن يرعى الآخرون حاله ٠ وقال بورجل هامسا:

ــ انه ارلانجر ٠

ولم يبد عليه أنه فوجىء بأن ارلانجر فى الحجرة المجاورة ٠ وأردف بورجل :

ــ اذهب الآن اليه ، فقد تملكه الغضب ، وعليك أن تحاول تهدئته وهو فى المعتاد ينام نوما عميقا ، ولكننا تكلمنا بصوت مرتفع ، فان الانسان لا يستطيع أن يتحكم لا فى نفسه ولا فى صوته عندما يتكلم فى موضوعات بعينها ٠ فاذهب الآن ، وانثنى لأرى أنت لاتستطيع أن تخرج بنفسك من النوم الذى يحتويك ٠ اذهب ، فماذا تريد هنا ؟ لا ، ليس عليك أن تعتذر عن نعاسك ، لماذا ؟ ان القوى البدنية لا تصل الا الى حد معين ٠ ومن هذا الذى يستطيع أن يضمن أن يكون هذا الحد عظيم الأهمية ؟ لا ، لا يستطيع انسان أن يضمن هذا ٠ وهكذا يصحح العالم نفسك أثناء دورانه ، ويحافظ على توازنه ٠ وان هذا لتدبير ممتاز ، ممتاز امتيازا لايمكن تصوره هو كذلك ، وان كان من وجهة نظر أخرى تدبيرا مؤسفا ٠ اذهب الآن ، اننى لا أعرف لماذا تطلع الى هكذا !! واذا لم تذهب فسيأتى ارلانجر ويغضب منى وهذا شىء أحب كل الحب أن أتجنبه ٠ اذهب ومن يعلم ماذا ينتظرك هناك ٠ أما هذا فالفرص كثيرة ٠ ولكن هناك امكانيات يصح أن نقول انها كبيرة كبرا مفرطا لايسمح بالافادة منها ، وهناك أشياء لا يرجع فشلها الا اليها هى ٠ نعم ان هذا شىء يثير العجب ! أما الآن فأنا آمل أن أستطيع النوم قليلا ٠ ان الساعة الآن الخامسة ، وسيبدأ الصخب عما قريب ٠ ليتك تنصرف أنت على الأقل !

وظل ك وقتا طويلا ، وقد خدره الايقاظ المفاجىء من نوم عميق ، فى وقت كان فيـــه يحتاج الى النوم حاجة لا حدود لها ، وكان جســمه فيه يعانى كله الآلام نتيجة للوضع غير المريح الذى كان يتخذه ، لا يستطيع أن يقرر النهوض ، فوضع يده على جبينه ، ونظر الى حجره ٠ حتى العبارات

المتوترة التى أخذ بورجل يحثه بها على الانصراف لم تستطع أن تحمله على الانصراف • الى أن دفعه احساسه بعدم جدوى بقائه فى هذه الحجرة مطلقا الى التفكير تدريجيا فى مغادرة الحجرة • وبدت له الحجرة خربة على نحو لا سبيل الى وصفه • ولم يكن يعرف هل كانت الحجرة دائما هكذا ، أم هل قد صارت الى هذه الحالة • انه لن يستطيع أن يبلغ هنا شيئا حتى ولا العودة الى النعاس ! وكان اقتناعه بهذا هو الدافع الحاسم الذى دفعه الى مغادرة الحجرة ، وابتسم لهذا قليلا ، ونهض واتكأ على كل ما أمكنه الاتكاء عليه ، على السرير على الحائط ، على الباب ، وانصرف دون ما تحية وكأنما كان قد ودع بورجل منذ وقت طويل •



الفصل التاسع عشر

ولعله كان سيعبر على حجرة ارلانجر فى غير اكتراث ، لو لم يكن أرلانجر قد وقف بالباب مفتوحا وأشار اليه . وكانت اشارته اشـــارة قصيرة وحيدة بأصبع السبابة . كان أرلانجر قد تهيأ للانصراف تمـاما ، وكان يرتدى معطف فراء أسود له ياقة صـــغيرة مزررة الى أعلى . وكان هناك خادم يقدم اليـــه فى تلك اللحظة القفاز ويمسك فى يده القبعـــة المصنوعة من الفراء . وقال ارلانجر :

ـ كان ينبغى عليك أن تأتى الى منذ مدة .

وأراد أن يعتــذر ، فأظهر له ارلانجر بأغمضة متعبة من عينيه أنه متنازل عن هذا الاعتذار . وقال ارلانجر :

ـ الموضوع هو الآتى . كانت هناك فى الخمارة بنت تعمل بالخدمة اسمها فريدا . وأنا لا أعرف عنها سوى اسمها ، أما هى فأنا لا أعرفها ، وأنا لا أهتم بمعرفتها . وكانت فريدة هذه تقدم الى كلم من حين لآخر البيرة . ويبدو أن هناك الآن بنتا أخرى . ولكن هذا التغيير لا أهمية له بطبيعة الحال ، بالنسبة للجميع، على ما يبدو وبالنسبة لكلم بكل تأكيد. وكلما كبر عمل المرء ، وعمــل كلم هو بطبيعة الحال أكبر الأعمال ، كلما قل ما يبقى لديه من القـــوة لمقاومة العالم الخارجى ، ولهذا فان كل تغيير تافه فى أكثر الأمور تفاهة يسبب للمرء ازعاجا شديدا . ان أقل تغيير على منضدة الكتابة ، كازالة بقعة قذارة كانت عليها منذ الأزل على سبيل المثال ، يسبب للانسان ازعاجا ، وكذلك تعيين خادمة جديدة فى الحانة. على أن هذه الأشياء كلها وان كانت تسبب لكل انسان فى كل عمل من الأعمال ازعاجا ، لا تزعج كلم ، ان هذا شىء من قبيل المحال . ومع ذلك فاننا ملزمون بالسهر على راحة كلم بحيث نزيل كل المنغصـــات التى لا تعتبر بالنسبة اليه من المنغصـــات ـ ويبدو انه ليس هناك من الأمور ما يمكن أن يعتبر من المنغصات بالنســـبة لكلم ـ اذا ما بدت لنا على هيئة

توحى بأنها يمكن أن تسبب ازعاجا · ونحن لا نزيل المنغصات من أجله ولكن من أجلنا نحن ، من أجل ضميرنا وراحتنا · ولهذا فلابد أن تعود فريدا الى هذه الحمارة على الفور ، ولكن ربما سببت عودتها ازعاجا ·وفى الحالة سنبعدها من جديد · أما الآن فينبغى أن تعود الى الحمارة مؤقتا ·

وأنت ، على ما علمت ، تعيش معها فاجعلها تعود على الفور · ولا يمكن أن نقيم وزنا فى مثل هذا الأمر للمشاعر الشخصية ، وهذا شيء بديهى ، ولهذا فأنا لا أقبل الدخول فى أدنى مناقشة للموضوع · اننى أفعل أكثر مما تستدعيه الصورة عندما أذكر لك انك اذا أثبتت جدارتك فى هذا الموضوع المهين فقد تفيد من ذلك فى معاشك · هذا هو كل ما أردت ان أقوله لك ·

وأومأ الى ك برأسه مودعا ، ولبس القبعة المصنوعة من الفراء التى قدمها اليه الخادم ، وسار فى الممر المنحدر بسرعة ، وهو يعرج ، ومن خلفه الخادم ·

كانت هناك أحيانا أوامر تصدر ويسهل تنفيذها جدا ، ولكن هذه السهولة لم تكن تفرح ك ، لا لأن الأمر فى هذه الحالة كان يتصل بفريدا فحسب ، ولا لأنه كان أمرا بدا ل ك كأنه استهزاء ، ولكن لأن ك رأى فيه عدم جدوى الجهود التى يبذلها كلها · لقد كانت الأوامر التى فى صالحه والأوامر التى فى غير صالحه تمر من فوقه ، وحتى الاوامر التىفى صالحه كانت تضم نواة أخيرة فى غير صالحه ، ومهما يكن من أمر فقد كانت الأوامر كلها تمر من فوق رأسه ولقد كانت درجته وضيعة لاتسمح له بأن ينفذ فيها وأن يسكتها أو يجد لصوته آذانا تسمعه · اذ ما لوح لك ارلانجر أن تذهب فماذا تفعل ؟ واذا لم يلوح لك بأن تذهب فماذا يمكنك أن تقول له ؟ والحق أن ك ظل يشعر بأن تعبه قد أضر به اليوم أكثر مما أضر به اضطراب الأحوال ـ ولكن لم يستطع هو ، الذى كان يعتقد انه يمكنه أن يعتمد على جسمه والذى ما كان ليأتى الى هنا لولا هذا الاعتقاد ، أن يحتمل عدة ليال من النوم القلق ، وليلة بلا نوم مطلقا) ولماذا أحس هنا بالذات بتعب استحال عليه أن يتحكم فيه هنا حيث لا يشعر احد بالتعب ، أو على الاحرى حيث يشعر الجميع بالتعب والتعب المستمر دون أن يفسد هذا التعب أعمالهم ، بل ان التعب ليبدو وكأنه ينشطها ، كان معنى هذا أن ذلك التعب من نوع آخر غير تعب ك · لقد كان ذلك التعب تعبا وسط عمل سعيد ، لقد كان شيئا يبدو فى الظاهر تعبا وهو فى الحقيقة راحة لا سبيل الى تبديدها ، وسلام لا سبيل الى

تحطيمه . فاذا ما أحس أحدهم ظهرا بشىء من التعب ، فقد كان ذلك جزءا من المسار الطبيعى لليوم . ولقد خطر ببال ك أن الوقت بالنسبة للسادة هنا دائما ظهرا .

وكان مما يتطابق مع هذا الخاطر تمام التطابق ان الحياة انتشرت فى جوانب الممر كلها الآن ، فى الساعة الخامسة . وكان صخب الأصوات فى الحجرات يتسم بسمة مرحة الى أقصى حد . وكان هذا الصخب يلوح أحيانا كتهليل الأطفال الذين يستعدون للقيام برحلة ، ويلوح أحيانا أخرى كانطلاق الدجاج فى الحظيرة صباحا ، كان كالفرحة التى تتفق تمام الاتفاق مع النهار الطالع ، بل لقد كان هناك رجل فى مكان ما يقلد صياح الديكة . حقيقة أن الممر كان لا يزال خاليا ، ولكن الأبواب كانت تتحرك، كان هناك من حين لآخر باب ينفرج ثم ينقفل بسرعة ، وكان الممر يمتلىء بصوت انفراج الأبواب وانقفالها ، وكان ك يرى فى الفتحة التى تفصل بين الجدران والسقف رءوسا صباحية مضطربة الشعر تظهر ثم تتوارى. وأقبلت من بعيد عربة صغيرة محملة بالملفات يدفعها ببطء أحد الخدم . وكان هناك خادم آخر يسير بجوارها ويحمل قائمة فى يده ويبدو أنه كان يقارن أرقام الحجرات وأرقام الملفات . وكانت العربة تقف عند غالبية الأبواب ، وكانت الأبواب فى المعتاد تنفتح عند ذلك ، وكانت الملفات الخاصة بها تدفع الى داخلها ، ولم يكن يخص بعض الحجرات فى بعض الأحيان سوى ورقة صغيرة ، وكان حديث قصيرا يتصل فى هذه الحالات بين الحجرة والممر ، لعله توبيخ للخادم . فاذا لم ينفتح الباب كوم الخادم الملفات على العتبة بدقة وعناية . وكان ك فى هذه الحالات يظن أن حركة الأبواب المحيطة لم تتوقف ، على الرغم من أن توزيع الملفات عليها قد تم ، بل ازدادت . ربما كان الآخرون ينظرون فى شغف الى الملفات المكومة على العتبة دون ما سبب مفهوم، ولا مفهوم كيف أن الانسان لا يحتاج لتناول الملفات الا الى فتح الباب ، وهو مع ذلك لا يفعل . ربما كان من الممكن أن توزع الملفات التى لا يتناولها أحد على السادة الآخرين الذين كرروا النظر الآن ليتأكدوا من أن الملفات ما زالت فى مكانها ومن أن لهم أن يأملوا فى الحصول عليها . هذا الى أن هذه الملفات المكومة كانت فى غالبها حزما كبيرة . وفكر ك فى أن سبب ترك هذه الملفات على العتبة مؤقتا هو نوع من التحزلق أو الشر أو الفخار الذى له ما يبرره والذى يشجع الزملاء ويزيدهم نشاطا . واستند ك فى هذا الرأى الى أن الحزمة كانت فى بعض الأحيان ــ عندما يبعد عنها ببصره ــ بعد أن تظل فى مكانها أمام الأعين طويلا ، تجذب فجأة وبسرعة الى الحجرة ، ثم يظل الباب

كما كان جامدا لا يتحرك ، وكانت الأبواب المحيطة تهدأ هي الأخرى اما لأن الشيء الذي كان يثيرها قد زال ، ولكن الأبواب كانت بعد الهدوء تعود من جديد الى الحركة - تدريجيا ·

وتأمل ك هذا كله وقد تملكه فضول وتملكه علاوة عليه اهتمام واندماج · كان يحس بشيء كالارتياح وسط هذا النشاط ، وكان ينظر هنا وهناك ويتابع - عن بعد مناسب - الخدم الذين كانوا يلتفون حولهم وينظرون اليه في أحيان كثيرة نظرة عنيفة وقد خفضوا رءوسهم ومطوا شفاههم ، وكان يتطلع هكذا الى قيامهم بتوزيع الملفات · وكانت عملية التوزيع تواجه المزيد من الصعوبات ، اما لأن القائمة تضم بعض الأخطاء واما لأن الخادم لا يستطيع أن يميز بسهولة بين الملفات واما أن السادة يعترضون اعتراضات أخرى ·ومهما يكن من أمر فقد حدث اعتراض على توزيع بعض الملفات ، واضطرت العربه الصغيرة الى الرجوع ، وجرت مفاوضات من خلال فتحة الباب بشأن اعادة الملفات · وكانت المفاوضات ذاتها تواجه صعوبات كبيرة ، وكان يحدث في حالات كثيرة - اذا كان الأمر أمر اعادة الملفات - أن تنقفل أبواب كانت من قبل تتحرك أنشط حركة ، تنقفل بشدة عنيفة وكأنها لا تريد أن تعرف شيئا عن الموضوع · ثم كانت الصعوبات الحقيقية تبدأ ، كان الذي يعتقد أنه صاحب الحق في الملفات فارغ الصبر الى أقصى حد، وكان يحدث في حجرته صخبا عظيما ،ويصفق، ويخبط الأرض برجليه ، ويصيح من خلال فتحة الباب مكررا المرة تلو المرة رقما معينا من أرقام الملفات · وكثيرا ما كان الخادمان يتركان العربة وحدها ، فينشغل أحدهما بتهدئة الثائر الذي فرغ صبره ، ويجتهد الآخر في استعادة الملف من وراء الباب المقفل · وكانت مهمة الاثنين صعبة · أما الثائر فكان يزداد ثورة نتيجة لمحاولات تهدئته ، ولم يعد يستطيع أن يسمع كلمات الخادم الفارغة ، فلم يكن يريد عزاء بل كان يريد الملفات ، ولقد أفرغ أحد هؤلاء السادة على رأس الخادم ذات مرة طست الغسيل من خلال فتحة عالية · أما الخادم الآخر ، ويبدو انه كان أعلى رتبة فقد كان يواجه صعوبة أكبر بكثير · كان ، اذا رضي السيد المقصود بالدخول في مفاوضات معه ، يقوم بمباحثات موضوعية ، يرجع فيها الخادم الى قائمته ، ويرجع فيها السيد الى مذكراته والى الملفات ذاتها التي يرجوه الخادم اعادتها ، والتي يظل ممسكا بها في يده قابضا عليها بحيث لا تبقى منها قطعة صغيرة تقع عليها أعين الخادم المتعطشة للرؤية · وكان الخادم مضطرا للعدو وراء العربة الصغيرة بحثا عن براهين جديدة ، وكانت العربة الصغيرة تسير من تلقاء ذاتها مسافة في هذا الممر المنحدر ، وكان

مضطرا كذلك الى العدو الى السيد المطالب بالملفات وابلاغه اعتراضات السيد الذى وصلت الملفات اليه والحصول منه على اعتراضات لمواجهتها. وكانت تلك المفاوضات تدوم طويلا جدا ، وكانت فى بعض الحالات تنتهى بالاتفاق ، فكان السيد يعيد مثلا جزءا من الملفات أو يتلقى كتعويض ملفات أخرى ، لأن الخطأ كان يتمثل فى ابدال الملفات ؛ وكان يحدث أحيانا أن يتنازل البعض بدون مشاكل عن الملفات التى طالب بها ، اما لأن براهين الخادم قد افقدته الحيلة ، واما لأنه تعب من كثرة التفاوض ، وكان فى هذه الحالة لا يعيد الملفات الى الخادم ، بل يلقى بها ، عن تصميم مفاجىء ، بعيدا فى الممر ، مما كان يؤدى الى تفكك الأربطة وتطاير الأوراق وكان الخادم عند ذلك يتعب كثيرا فى اعادة الملف الى حالته . ولكن هذه الأمور كلها تعتبر بسيطة نسبيا اذا قيست بامتناع السيد كلية من الرد على الخادم وهو يرجوه المرة بعد المرة أن يعيد اليه الملفات ، كان الخادم يقف أمام الباب المغلق ويرجوه ويتوسل ويتلو القائمة ويشير الى اللوائح دون أن يصل الى نتيجة ، ودون أن يسمع صوتا من الحجرة ، ولم يكن للخادم ، على ما يبدو الحق فى دخول الحجرة بدون إذن . وكان هذا الخادم الممتاز يفقد فى بعض الأحيان سيطرته على نفسه ويذهب الى عربته الصغيرة ويجلس على الملفات ، ويجفف العرق المتصبب على جبينه ، ويظل برهة لا يفعل شيئا سوى هز القدمين فى يأس . وكان الاهتمام بالموضوع عظيما فى المنطقة المحيطة ، وكان التهامس كثيرا فى كل مكان ، ولم يكد يكون هناك باب هادىء . وكانت هناك وجوه ملفوفة بأقمشة كثيرة لفا يوشك أن يكون كاملا تظهر أعلى حافة الحائط وتتابع على نحو عجيب دون أن تهدأ لحظة ، كل ما يجرى . ولاحظ ك وسط هذا الاضطراب أن باب بورجل ظل طوال الوقت مغلقا وأن الخادمين قد مرا على هذه المنطقة وفرغا منها دون أن يخصا بورجل بشىء من الملفات . لعله كان لا يزال نائما . ولو صح انه كان نائما فى وسط هذا الصخب ، فمعنى هذا انه سليم تمام السلامة . ولكن لماذا لم توضع له ملفات ؟ ان الخادمين لم يتركا الا القليل من الحجرات دون ملفات ويبدو أنها كانت حجرات خالية . أما حجرة ارلانجر فقد شغلها ضيف جديد شديد القلق ولابد أنه ارلانجر قد طرده بالليل طردا ، والحقيقة أن هذا لا يتفق مع شخصية ارلانجر الفاترة العائمة الا أقل الاتفاق ، ولكن انتظاره ك على العتبة كان يوحى بأن هذا هو ما حدث .

وكان ك بعد كل كل هذه الملاحظات الجانبية لا يفتأ يعود ببصره الى

الخادم . ولم يكن ما قيل لـ ك عن الخدم عامة وعن كسلهم وحياتهم الناعمة وعجرفتهم ينطبق على هذا الخادم مطلقا ، ولابد أن هناك حالات استثنائية، أو لابد ـ وهو الأرجح ـ ان هناك بين الخدم مجموعات مختلفة ، فقد كان هناك ، كما لاحظ ك تقسيمات كثيرة لم يكن يعلم عنها حتى هذا الوقت شيئا . وقد سر ك خاصة بما اتصف به الخادم من العناد . فلم يكن هذا الخادم يتراجع في صراعه مع الحجرات ، فهو لم يكن يرى من فيها الا نادرا حقيقة أنه كان ينهار ـ وأين ذلك الذى لاينهار في مثل ظروفه ؟ ـ ولكنه كان لا يلبث أن يستعيد قواه ، فينزلق من فوق العربة الصغيرة ويذهب زاما أسنانه لمناطحة الباب الذى جاء دور غزوه . ولقد صده بعضهم مرتين أو ثلاث مرات ، بأبسط الوسائل ، بالصمت الشيطاني ، لكنه لم ينهزم. كان عندما يرى انه لا يستطيع أن يبلغ مأربه بالهجوم الصريح ، يحاول بطريقة أخرى ، مثلا عن طريق الحيلة ، على قدر ما فهم ك . فكان يتظاهر بأنه يبتعد عن الباب ، ويتركه حتى يفرغ ما لديه من صمت ـ ان صح التعبير ـ ويتجه الى أبواب أخرى ، ثم يعود بعد برهة وينادى الخادم الآخر، ويفعل هذا كله بشكل ملفت للنظر وبصوت عال ، ويشرع في تكويم الملفات على عتبة الباب المغلق وكأنما قد غير رأيه ، وكأنما لم يكن على حق في أخذ شيء من هذا السيد ، بل كان ينبغي عليه أن يضيف اليه المزيد . وكان عند ذاك يستأنف السير ، ولكنه يظل مثبتا نظره على هذا الباب ، حتى اذا فتح السيد الباب في حذر وتؤدة ، على النحو المألوف ، ليسحب الملفات الى داخل الحجرة اندفع الخادم الى هناك قافزا ودس قدمه بين الباب واطاره وأرغم السيد على الأقل أن يتفاوض معه وجها لوجه ، وهو ما كان يؤدى في المعتاد الى نتيجة لا بأس بها . واذا لم تنجح هذه الوسيلة ، أو اذا تصور أن هذه الوسيلة ليست هي الوسيلة المناسبة لباب معين ، فكان يجرب وسيلة أخرى . كان ينتقل مثلا الى السيد الذى يطالب بالملفات . ويبعد الخادم الآخر الذى لا يفتأ يعمل على نحو آلي ولا يزيد على أن يكون مساعدا عديم القيمة ويبدأ هو نفسه في اقناع السيد هامسا متسترا داسا رأسه الى داخل الحجرة ، ولعله يعده بأشياء ويؤكد له أنه في التوزيع التالي سيعاقب السيد الآخر عقابا مناسبا ، وكان على الأقل يشير الى باب الغريب مرارا ويضحك على قدر ما كان تعبه يسمح له . وكانت هناك حالات ، حالة واحدة أو حالتان ، تخلى فيها عن كل محاولة وكان رأى ك أن هذا التخلي ظاهرى فقط أو انه يعتمد على أسباب صحيحة ، لأن الخادم يسير هادئا في طريقه ، ولا يلتفت حواليه ، راضيا بالضجة التي يحدثها السيد المجاور ، ولا يبين انه يعاني من

الضجة الا من حين لآخر باغماضة عينيه فترة طويلة ٠ وكان السيد نفسه يهدأ تدريجيا وكان صياحه عند ذاك يشبه بكاء الأطفال عندما يستحيل الى بكاء متقطع ثم الى شهقات متفرقة تتباعد تدريجيا حتى تخفت ٠ ولكنه كان حتى بعد أن يهدأ تمام الهدوء يعود فيصدر صرخة واحدة أو يفتح الباب بسرعة ويقفله عنوة ٠ ومهما يكن من أمر فقد كان واضحا ان الخادم تصرف هنا تصرفا يلوح صحيحا تمام الصحة ٠ وبقى فى النهاية سيد واحد لم يهدأ ، بل صمت طويلا ، ولكنه لم يصمت الا ليسترد قواه ، ثم ليستأنف الجولة دون أن يضعف أو يلين ٠ ولم يكن سبب صراخه وشكواه واضحا ، ولعله لم يكن يتصل بتوزيع الملفات ٠ وفرغ الخادم فى هذه الأثناء من عمله ، ولم يبق فى العربة الصغيرة سوى ملف واحد ،أو على الأحرى ورقة صغيرة ، هى صفحة من كراسة ، بقيت نتيجة اهمال المساعد ، ولم يعرف الخادم الى من يحملها ٠ وفكر ك : ربما كانت هذه الورقة ملفى أنا ! ولقد تحدث البيه رئيس مجلس القرية عن هذه الحالة الصغيرة المفرطة فى الصغر ٠ وحاول ك على الرغم من انه كان فى قرارة نفسه يجد فكرته مضحكة سخيفة ، أن يقترب من الخادم الذى كان يتفحص الورقة مهتما ٠ ولم يكن هذا بالعمل السهل ، فلم يكن الخادم يحتمل ميل ك اليه ، وكان حتى أثناء قيامه بأشق الأعمال يجد وقتا لينظر الى ك نظرة غاضبة أو متوترة يحرك لها رأسه حركة عصبية ٠ أما الآن وقد فرغ من التوزيع فقد بدا عليه كأنه نسى ك قليلا ، هذا الى انه قد أصبح أشد بلادة ، وهذا شىء بديهى بعد أن أخذ منه الاعياء كل مأخذ ، كذلك لم يتعب نفسه كثيرا فى الورقة ، ولعله لم يقرأ الورقة مطلقا ، بل تظاهر بذلك ، وعلى الرغم من انه لو قدم الورقة لأى واحد من السادة هنا لأثلج صدره ، فقد قر رأيه ، وقد سئم التوزيع على شىء آخر ،فرفع أصبع السبابة الى شفتيه وأشار الى مرافقه أن يصمت ومزق ــ ولم يكن ك قد وصل اليه بعد ــ الورقة الى قطع صغيرة دسها فى جيبه ٠ وكان هذا ، على ما يبدو ، هو أول خروج على النظام يلاحظه ك هنا فى عمل المكاتب ٠ على أنه كان من المحتمل أن ك لم يفهم الأمر على الوجه الصحيح ٠ وحتى لو كان هذا خروجا على النظام فلم يكن بد من غفرانه ، فلم يكن الخادم يستطيع فى الظروف السائدة هنا أن يعمل على نحو لا يعتوره عيب ، وكان لابد للغضب المتراكم والقلق المتجمع أن ينفجرا واذا لم يتخذ انفجارهما هيئة أخرى سوى تمزيق الورقة الصغيرة ، فما أقربه الى البراءة وكان صوت السيد الذى لم يكن هناك سبيل الى تهدئته لا يزال يدوى فى الممر ، ويبدو أن الزملاء الذين لم يكونوا فى الأمور الاخرى يتصرفون

بعضهم حيال البعض تصرفا يتسم بالود الشديد ، كانوا متفقين كل الاتفاق فيما يختص بالصخب . ولاح الأمر كأنما كان هذا السيد قد تولى مهمة احداث الصخب من أجل الجميع الذين كانوا يشجعونه بصيحات وايماءات ليظل على صخبه . ولم يكن الخادم يهتم الآن لذلك فقد فرغ من عمله ، وأشار الى مقبض العربة الصغيرة حتى يمسك به الخادم الآخر ، وانصرفا كما أتيا ، وقد ازداد رضاء وسرعة حتى ان العربة كانت تتراقص أمامهما . على أنهما انتفضا مرة واحدة ونظرا خلفهما عندما تبين السيد الصارخ الصاخب على ما يبدو - وكان ك يروح ويجيء أمام بابه لأنه كان يود أن يفهم ما كان السيد يريد - انه لا يبلغ بالصراخ ما يريد أن يبلغه، واكتشف زر جرس كهربائي وفرح بأنه سيحمل عنه العبء فبدأ يدق الجرس بلا انقطاع بدلا من الاسترسال في الصراخ . ثم ثارت همهمة عظيمة في الحجرات الأخرى ، ويبدو انها كانت تعني التأييد والموافقة ، ويبدو أن السيد كان يفعل شيئا كان الجميع يتمنون لو فعلوه منذ وقت طويل وانصرفوا عنه لسبب غير معروف . هل كان السيد يريد بدق الجرس أن يستدعي الخدم ؟ أو أن يستدعي فريدا ؟ اذن فعليه أن يدق طويلا . ان فريدا مشغولة بلف بريمياس في فوط مبللة ، وحتى اذا كان قد تماثل للشفاء ، فلن يكون لديها وقت لأنها ستكون راقدة بين ذراعيه . ولكن دق الجرس أحدث في الحال أثرا . فقد أتى صاحب خان السادة بنفسه مسرعا يلبس حلة سوداء مزررة كالمعتاد ، ويبدو أنه نسي وقاره لأنه كان يعدو ، وقد بسط ذراعيه كأنما استدعي لمصيبة هائلة نزلت فعليه أن يمسكها وأن يضمها الى صدره حتى تختنق ، وكان كلما اضطرب دق الجرس يلوح كأنه ينتفض الى أعلى ويزيد من عدوه . وعلى مسافة غير قصيرة من خلفه ظهرت زوجته ، وكانت تجري هي الأخرى باسطة ذراعيها ، ولكن خطواتها كانت قصيرة رقيقة ، وجال بفكرك انها ستصل متأخرة تأخرا مفرطا بعد أن يكون صاحب الخان قد فرغ من اجراء اللازم . والتصق ك بالحائط حتى يفسح لصاحب الحانة الطريق . ولكن صاحب الحانة وقف أمامه بالضبط وكأنما كان هو الهدف الذى سعى اليه ومالبثت صاحبة الحانة أن وصلت هي الأخرى، واخذ الاثنان يكيلان لـ ك اللوم والتوبيخ فلم يفهم ك من ذلك شيئا وقد أخذ على غرة، خاصة وأن جرس السيد كان يندس وسط اللوم والتوبيخ، بل ان أجراسا أخرى بدأت تدق ، لا عن حاجة ولكن للعبث وتعبيرا عن فيض من الفرح . وكان ك موافقا كل الموافقة ، من أجل الوصول الى فهم ذنبه فهما دقيقا ، على أن يأخذه صاحب الحانة تحت أبطه ويخرج به

بعيدا عن هـذا الصخب الذى كان يتزايد فقـد انفتحت الأبواب على سعتها من خلفهما ـ ولم يلتفت ك وراءه لأن صاحب الحان من ناحية وصاحبة الحان من النـاحية الأخرى كانا يكلمانه ـ ودبت الحـركة فى الممر واشتد النشاط فيه وانتشرت الاتصالات فأصبح كالحارة الصغيرة الضيقة التى تعج بالنشاط ، وكانت الأبواب التى أمامه تنتظر بشوق ظاهر ان يعبر ك عليها حتى يفتحها السـادة ، وبين هذا وذاك كانت الأجراس تدق كأنها تحتفل بنصر • وأخيرا ـ وكانوا قد وصلوا الى الفناء الهادىء الأبيض الذى تنتظر فيه الزحافات ـ علم ك تدريجيا بالخبر • لم يكن صاحب الحان ولا صاحبة الحان يفهمان كيف جرؤ ك على فعل شيء من هذا القبيل • وكان ك لا يفتأ يسأل عما فعل • ولكنه ظل وقتا طويلا لا يسـمع جوابا لأن الذنب كان يلوح للاثنين واضحا بديهيا ولم يكونا يتصوران بحال من الأحوال حسن نيته • وعلم ك بكل شيء بسيط شديد • لقد كان فى وقوفه بالممر مخطئا ، فلم يكن له بصفة عامة أن يدخل مكانا سوى الخمارة ، وهذا على سبيل التفضل والامتنان ، وكان احتمال منعه من ذلك قائما فى كل وقت • فاذا كان أحد السادة قد استدعاه للحضور ، فعليه بطبيعة الحال أن يظهر فى مكان الدعوة ولكن عليه أن يعى دائما ـ فله على الأقل ما أوتى كل انسان من بداهة يعى بها مثل هذه الأمور ـ انه يظهر فى مكان لا ينتمى اليه ، استدعاه اليه ، كارها غاية الكره ، سيد من السادة لأمر رسمى ، فكان للاستدعاء عذره • ولهذا كان ينبغى عليه أن يعجل بالحضور ، فيمثل للاستجواب ثم يختفى ان استطاع بسرعة أكبر • ألم يخالجه فى الممر شعور عنيف بعدم الانتماء ؟ واذا كان قد أحس بهذا فكيف أمكنه أن يروح ويجىء هناك كحيوان فى المرعى ؟ ألم يستدعى لاستجواب ليلى ؟ ألم يعلم بسبب الأخذ بنظام الاستجوابات الليلية ؟ لم يؤخذ بالاستجوابات الليلية ـ وهنا سمع ك تفسيرا جديدا لمغزاها ـ الا لسبب واحد ، هو استجواب أصحاب المصالح ، الذين لا يحتمل السادة منظرهم بالنهار ، بسرعة ، فى الليل ، فى نور اصطناعى ، حيث يستطيع السيد بعد الاستجواب أن ينام وينسى كل ما عرض له من قبح وبشاعة • أما مسلك ك فلم يكن به أثر من أصول الحيطة والحـذر • ان الأشباح نفسها تختفى عنـدما يقترب الصباح ، أما ك فقد بقى ، داسا يديه فى جيبيه ، وكأنما كان يتوقع ـ نظرا لأنه لم يبتعد ـ أن يبتعد الممر بكل حجراته وسادته • ولو كانت هناك أقل امكانية ، لاختفى الممر بحجراته وسـادته بكل تأكيد ، وعلى ك أن يوقن من ذلك، لأن السادة حساسين حساسية لا حدود

لها • فليس من بينهم من يمكن أن يطردك أو أن يقول له أكثر الأشياء بداهة وهو أن عليه أن ينصرف • ليس من بينهم من يمكن أن يتصرف على هذا النحو ، على الرغم من أنهم يرتعدون لوجود ك ولافساده عليهم الصباح ، والصباح احب فترة اليهم • وهم يفضلون ، بدلا من اتخاذ اجراء حيال ك ، أن يعانوا ويتحملوا ، والأمل يداعبهم فى أن يتبين ك تدريجيا هذا الشيء الواضح غاية الوضوح ، وأن يعانى من ذلك معاناة مثل معاناة السادة حتى يستحيل عليه احتمال وقوفه هنا على نحو فظيع يراه الجميع في الممر صباحا • ولكن أملهم كان بلا جدوى • انهم لا يعرفون ، أو لا يريدون أن يعرفوا ، في غمرة رقتهم وتواضعهم ، ان هناك قلوبا جامدة ، قاسية ، لا تلين لاى اعتبار • ألا تبحث العثة الليلية ، هذا الحيوان المسكين ، عندما يأتى الصباح عن ركن هادىء ترقد فيه مكومة تود لو توارت ، وتحزن لأنها لا تستطيع التوارى ؟ أما ك فعلى العكس ، انه يقف فى الوضع الذى يظهر فيه للأعين واضحا أشد الوضوح ، ولو استطاع أن يمنع بوقوفه طلوع النهار ، لما تأخر • وهو لا يستطيع أن يمنع طلوع النهار ، ولكنه يستطيع للأسف أن يعطله ويصعبه • ألم يتطلع الى توزيع الملفات ؟ وهذا شيء لا يجوز أن ينظر اليه الا أصحاب الشأن المقربون • شيء لم يكن لا لصاحب الحان ولا لصاحبة الحان أن ينظرا اليه وهو يجرى فى دارهما ، شيء لم يسمعا به الا تلميحا ، كما سمعا به اليوم من الخدم مثلا • ألم يلاحظ الصعوبات التى اعترضت توزيع الملفات ـ وهذا شيء لا سبيل فى الحقيقة الى فهمه ـ فكل واحد من السادة يخدم القضية العامة ولا يفكر فى فائدته الخاصة ، وكان الأحرى به أن يعمل بكل قواه ، حتى تتم عملية توزيع الملفات ، هذه العملية الهامة الأساسية ، بسرعة وبسهولة وبدون أخطاء ؟ والم يخطر ببال ك من بعيد ان السبب الرئيسى وراء كل الصعوبات التى اعترضت توزيع الملفات أن التوزيع الذى تم بينما كانت الأبواب مغلقة أو تكاد ، دون أن تكون هناك امكانية إتصال مباشر بين السادة ، الذين كان يمكنهم التفاهم فى لمح البصر فى حين ضيعت وساطة الخدم الساعات الطوال ؟ والم يخطر بباله أن هذا الأمر لا يمكن أن يظل دون شكوى ، وان التعذيب الطويل الذى تعرض له السادة والخدم سيكون له على الأرجح أثر ضار على العمل فيما بعد • ولماذا لم يستطع السادة أن يتصلوا بعضهم بالبعض ؟ الا يزال ك عاجز عن فهم السبب ؟ ان شيئا من هذا القبيل لم يصادف صاحبة الحان من قبل ، وأكد صاحب الحان كلامها بالنسبة لنفسه هو كذلك ، على كثرة من عرفا من الناس المعاندين •

ان هناك أشياء لم يكونا يجرؤان على النطق بها ، أصبح عليهما الآن أن يوضحاها له بصراحة والا فانه لن يفهم ما هو ضرورى • اذن مادام عليهما أن يتكلما فانهما يقولان : ان السادة لم يخرجوا من حجراتهم وذلك بسببه ، بسببه هو ، لأنهم في الصباح ، ولما يمض على استيقاظهم وقت طويل ، يكونون شديدى الخجل ، شديدى الحساسية لا يستطيعون احتمال النظرات الغريبة • انهم يحسون حقا ، حتى وان كانوا يرتدون الملابس كاملة ، كأنهم عارين لا يستطيعون الظهور أمام الأعين • ومن الصعب أن نذكر سـبب خجلهم ، ولعلهم يخجلون ، هؤلاء العمال النشيطين ، لأنهم ناموا • ولعلهم يخجلون من النظر للغرباء أكثر مما يخجلون من الظهور أمامهم • انهم لا يريدون أن يدعوا ما قد تغلبوا عليه عن طريق الاستجوابات الليلية ، أعنى منظر أصحاب الحاجات ، ذلك المنظر الذى لا قبل لهم على احتماله ، ينصب عليهم فجأة على نحو مباشر وعلى هيئته الطبيعية وقد أصبح الصباح • انهم لم يبلغوا القدرة على احتمال ذلك • وأى انسان هذا الذى لا يحترم هذا الوضع ؟! لابد أن يكون انسانا مثل ك • لابد أن يكون انسانا يستهتر بكل شيء ، بالقانون وباكثر أنواع التحفظ الانسانى بساطة ، وقد تملكته بلادة جامدة وخمول جامد ، لا يهمه أن يحول دون توزيع الملفات ولا يتأثر باضراره بسمعة الدار ، انسانا يفعل ما لم يحدث من قبل ، بحيث يضطر السادة الذين أسقط فى أيديهم الى العمل على الدفاع عن أنفسهم، والى الالتجاء فى تمالك للنفس لا يخطر ببال البشر العاديين الى الجرس، والى طلب النجدة لتطرد ك الذى لم تفلح وسيلة أخرى فى هزه • انهم وهم السادة ، يطلبون النجدة • ولقد أسرع صاحب الحان وصاحبة الحان والعمال جميعا منذ وقت مبكر الى هنا ، وأوشكوا ، لو اسعفتهم الجرأة ، أن يظهروا أمام السادة فى الصباح دون استدعاء ، ليقدموا العون ولينصرفوا على الفور بعد ذلك • لقد انتظروا هنا على أول الممر يرتعدون من الغيظ ، ويحتارون أشـد الحيرة لعجزهم ، وجاء الجرس ـ الذى ما كانوا ينتظرونه ـ بالخلاص • وهكذا انتهى أقبح ما فى الأمر • ليتهم يستطيعون أن يلقوا نظرة على تعبير السادة عن فرحهم بعد أن تم خلاصهم !! أما ك ، فلم ينته الأمر بالنسبة اليه • انه سيسأل بلا شك عن كل ما أحدثه هنا •

وكانوا قد وصلوا فى هذه الاثناء الى قاعة الشراب • ولم يكن من الواضح تماما لماذا اقتاد صاحب الحانة ك الى هناك على الرغم من غضبه

الشديد ، لعله قد تبين أن تعب ك يحول بينه الآن وبين مغادرة الدار وارتمى ك قاعدا على برميل من البراميل دون أن يطلب اليه أحد أن يقعد أو أن ينتظر · وأحس فى الظلمة بالارتياح · ولم يكن هنـاك فى المكان الكبير سوى مصـباح كهربائى واحد ضعيف يضىء فوق صنابير البيرة · كذلك كانت الحلكة مخيمة على الدنيا فى الخارج وكان النشاط المتصل بالخارج يوحى بأن الثلوج متراكمة · فاذا كان الانسان هنا فى الدفء فعليه أن يشكر وأن يعمل ما فى وسعه حتى لا يطرده أحد · وكان صاحب الخان وصاحبة الخان لا يزالان يقفان أمامه ، وكأنما كان خطرا لم يتحول ، أو كأنما كان من الممكن أن يهب فجأة ــ وهو المستهتر المسرف فى الاستهتار ــ ويحاول العودة الى الممر · كذلك كان الاثنـان متعبين من الرعب الذى أصابهما فى الليل ومن الاستيقاظ قبل الموعد ، وبخاصة صاحبة الخان التى كانت ترتدى ثوبا بنيا من قماش يهفهف كالحرير نصفه السفلى واسع ، عقدته واقفلت أزراره على نحو مضطرب ــ من أين أخرجته يا ترى وهى على عجل ؟ ــ وكانت تسند رأسها التى بدت ملوية على كتف زوجها ، وتمسح عينيها بمنديل رقيق وتوجه بين ذلك نظرات صبيانية شريرة الى ك · وأراد ك أن يهدىء من روع الزوجين فقال ان كل ما حكى له جديد عليه كل الجدة ، وانه على الرغم من جهله لم يبق بالممر طويلا ، فلم يكن لديه ما يفعله هناك ، ولم يكن بكل تأكيد يريد أن يعذب أحدا ، وان كل ما حدث انما يرجع الى شىء واحد هو تعبه المفرط · وشكرهما على أنهما أنهيا المشهد الأليم ، وقال انه يرحب كل الترحيب بأن يسأل عما فعل ، فهذا هو السـبيل الوحيد للحيلولة دون تأويل مسلكه تأويلا خاطئا · ان الذنب يرجع الى تعبه لا الى شىء آخر · وتعبه يرجع الى انه لم يألف مشقة الاستجوابات بعد · فهو حديث عهد بالمكان · وعندما يجمع شيئا من الخبرة فى هذه الناحية فلن يحدث شىء من هـذا القبيـل مرة أخرى · وربما كان يسرف فى الاهتمام بالاستجوابات ، ولكن هذا شىء لا يمكن أن يعاب عليه · ولقد تحتم عليه أن يجتاز استجوابين الواحد تلو الآخر ، أولهما عند بورجل ، وثانيهما عند أرلانجر ، وكان الاستجواب الأول هو الذى أعياه أشـد الاعياء ، فلم يطل الاستجواب الثانى فى الحقيقة ولم يزد عن أن توجه اليه ارلانجر طالبا منه مكرمة ، ولكن الاستجوابين كانا أكثر من طاقته ، ولعلهما يزيدان على طاقة الآخرين كذلك ، على طاقة السيد صاحب الخان مثلا · والحقيقة انه لم يخرج من الاستجواب الثـانى الا مترنحا ، لقد أوشكت حاله أن تكون سكرا ، فقد رأى السيدين وسمعهما لأول مرة وكان

عليه فوق هذا وذاك أن يجيب عليهما · ولقد انتهى الأمر ، على قدر ما يعرف ، نهاية طيبه ، ثم حدثت تلك المصيبه التى لا يكاد يمكن لانسان أن يحمله ذنبها بعد كل ما سبقها ، ولقد تبين ارلانجر وبورجل وضعه ، وليس هناك شك فى انهما كانا سيتوليان أمره وكانا سيردان عنه كل شيء ، ولكن ارلانجر كان مضطرا للانصراف بعد الاستجواب مباشرة ليذهب على ما يبدو الى القصر ، أما بورجل فيبدو أنه تعب من ذلك الاستجواب ـ وكيف يمكن أن يكون قد اجتاز الاستجواب دون أن يستبد به الضعف ؟ ـ واستغرق فى النوم فلم يشهد توزيع الملفات · ولو أوتى ك هذه الامكانية ـ امكانية الاستغراق فى النوم ـ لأفاد منها كل الفائدة مسرورا ، ولتنازل راضيا عن كل النظرات المحرمة ، خاصة وانه لم يكن فى الحقيقة قادرا على أن يرى شيئا ، لو علم أكثر السادة حساسية بهذا ، لظهرا أمامه دون ما خجل ·

وكان لاشارة ك الى الاستجوابين ـ وبخاصة الى استجواب ارلانجر ـ وللاحترام الذى تحدث به عن السيدين أثرهما فى استمالة صاحب الحان اليه ، فلما طلب ك لوحا من الخشب ليضعه على البراميل وينام عليه على الأقل الى أن ينبلج الصباح بدا على صاحب الحان ميل الى تلبية هذا الرجاء ، ولكن صاحبة الحان عارضت معارضة واضحة لا لبس فيها ، وهزت رأسها مرارا فوق ثوبها الذى تبينت الآن اضطرابه وحاولت أن تصلحه هنا وهناك دون جدوى · وأوشك خلاف على نظافة البيت ، يبدو أنه كان خلافا قديما ، ان يعود الى الانفجار من جديد ، واتصل بين الزوجين حديث اتخذ فى نظر ك لتعبه أهمية هائلة · ولاح له أن طرده من هنا سيكون مصيبة أضخم من كل ما شهده حتى الآن · لا ينبغيأن يصل الأمر الى ذلك حتى اذا اتفق صاحب الحان وصاحبتها على الوقوف فى وجهه · وأخذ ينظر اليهما متربصا وهو مكوم على برميل · حتى انتحت صاحبة الحان جانبا فجأة نتيجة لحساسيتها الفائقة التى لفتت نظر ك منذ وقت طويل ـ ويبدو أنها تحدثت مع صاحب الحانة عن أشياء أخرى ـ وصاحت :

ـ ما باله يتطلع الى هكذا ! اطرده !

وانتهز ك الفرصة فقال وكان موقنا يقينا تاما يوشك أن يصل الى حد البلادة من انه سيبقى :

ـ أنا لا أتطلع اليك ، بل أتطلع الى الثوب ·

وسألت صاحبة الحانة ثائرة :

ـ ولماذا تتطلع الى ثوبى ؟

فهز ك كتفيه ٠

وقالت صاحبة الحان لزوجها :

ـ تعال ! انه سكران ! هذا الصعلوك ! دعه هنا ينام حتى يفيق من سكره !

ونادت صـــاحبة الحان بيبى فظهرت من وسط الظلام مضطربة الشعر ، متعبة ، تمسك بيدها فى اهمال مقشة ، وأمرتها بأن تلقى الى ك مخدة ٠

الفصل العشرون

فلما استيقظ ك ظن فى بداية الامر انه لم يكد ينام ، كانت الحجرة على حالها لم تتغــير ، خالية ، دافئة ، وكانت الحيطان مظلمة ، وكان المصباح المتدلى فوق صنابير البيرة قد انطفأ ، وكان الليـــل مخيما أمام النوافذ . فلما تمطى ، وقعت المخدة وقرقع ألوح والبراميل ، أتت بيبى من فورها ، وعلم أن الوقت مساء وانه قد نام ما يزيد على اثنتى عشرة ساعة . وكانت صاحبة الحان قد سألت عنــه عدة مــرات . وكذلك جيرشتيكر ـ الذى كان ينتظر هنا ويشرب البيرة فى الظلام عندما كان ك يتكلم مع صاحبة الحانة ، ولم يجرؤ آنذاك على ازعاج ك فقد أتى مرة الى هنا ليرى ك ، وكذلك أتت فريدا ، على حد قول بيبى ، ووقفت عنده لحظة، ولكنها توشك ألا تكون قد أتت من أجل ك بل أتت لتعد بعض الأشياء فى قاعة الشراب اذ أنها ستستأنف عملها القديم عندما يحل المساء . وسألت بيبى وهى تحضر قهوة وفطيرا :

يبدو أنها لم تعد تحبك ؟

ولكنها لم تسأل فى هذه المرة بطريقتها الشريرة السابقة ، بل سألت حزينة وكأنها قد عرفت فى هذه الأثناء أن ما فى الدنيا من شر يضيع أمامه ما لديها من شر ويسخف . لقد كانت تتكلم الى ك وكأنها تحدث رفيقا لها فى الآلام ، فلما تذوق ك القهوة وظنت هى أنه يريدها أكثر حلاوة ، أسرعت وأحضرت له السكرية ملآنة . ويبدو أن حزنهـــا حال بينها وبين أن تتزين أكثر من المرة الماضية . وكانت تضع فى شعرها الكثير من اللفائف والأربطة وقد أزالت من جبينها وفوديها كل شعر زائد ، وعقدت حول رقبتها سلسلة صغيرة كانت تتدلى فى فتحــة بلوزتها الواسعة . فلما مد ك يده ، وقد نعم بنوم مريح ونال قهــوة طيبة ، الى احدى الأربطة سرا وحاول أن يفتحها ، قالت بيبى متعبة :

ـ دعنى !

ثم جلست بجواره على برميل . ولم يكن بـ ك حاجة الى سؤالها

عما بها ، فقد بدأت على التو تروى حكايتها موجهة بصرها جامدا الى ابريق القهوة وكأنما كانت تحتاج الى تلهية حتى وهى تروى ، وكأنها كانت ، حتى وهى تشتغل بمحنتها ، لا تستطيع أن تندمج فيها كلية لأنها تتجاوز ما لديها من قوة · وعلم ك أول ما علم انه فى الحقيقة يحمل الذنب فى المحنة التى تتعرض بيبى لها ، وان بيبى ليست غاضبة عليه · ولقد أومأت برأسها فى همةأثناء الرواية حتى لا تفسح مجالا لاعتراض من جانب ك · فهو قد أخذ فريدا فى البداية من الخمارة ومكن بهذا لبيبى من أن تسلك مدارج الترقى · وليس هناك ، سبيل لتصور الموضوع على نحو آخر ، فما هذا الذى يمكن أن يكون قد دفع بفريدا الى التخلى عن مركزها ؟ لقد كانت تجلس هناك فى الخمارة كالعنكبوت فى شبكتها ، وكانت تمد خيوطها الى كل ناحية ، وكانت هى وحدها التى تعرفها ، ولم يكن من الممكن بحال من الأحوال زحزحة فريدا عن مكانها لم يكن هناك غير شىء واحد يمكنه أن يتسبب فى عزلها ، ألا وهو حب رجل وضيع · وما شأن بيبى ؟ هل كانت فى ذلك الوقت تفكر فى الوصول الى هذا المركز ؟ لقد كانت خادمة تعمل فى تنظيف وتنظيم الحجرات ، أى كانت تشغل وظيفة تافهة ضعيفة المستقبل ، ولكن بيبى كانت تحلم كما تحلم كل فتاة بالمستقبل العظيم ، فليس هناك انسان يمكنه أن يمنع نفسه من الحلم ، ولكنها لم تكن تفكر جديا فى امكانية الترقى ورضيت بما حققته · وفجأة اختفت فريدا من الخمارة · اختفت فجأة ، ولم يكن لدى صاحب الخان بديلة جاهزة لها · فأخذ يبحث حواليه ووقع بصره على بيبى التى كانت بطبيعة الحال قد دفعت بنفسها الى الأمام · وكانت فى ذلك الوقت تحب ك كما لم يحببه انسان · كانت بيبى قد ظلت الشهور الطوال فى حجرتها السفلية المظلمة الضئيلة ، وكانت تعد نفسها لتمضية السنوات ، بل وعلى أسوأ الفروض ، حياتها كلها ، لا يلتفت اليها ملتفت · وظهر ك فجأة ، ك البطل محرر البنات ، وشق لها طريقا الى أعلى · حقيقة أنه لم يكن يعرف عنها شيئا ، ولم يكن قد فعل ما فعل من أجلها ، ولكن هذا لم يبدد امتنانها له ، ولقد أمضت فى الليلة السابقةعلى تعيينها - ولم يكن التعيين قد تأكد بعد ولكنه كان محتملا جدا - الساعات ترجو أن تهمس فى أذنه بالشكر · ولقد رفع من عمله فى نظرها أنه اختار فريدا بالذات لتكون الحمل الذى يضعه فوق ظهره ، لقد كان فى هذا التصرف شىء من الاثرة لا سبيل الى فهمه ، انه فى سبيل بيبى ، يتخذ فريدا عشيقة له ، فريدا البنت القبيحة المنظر ، المسنة ، النحيفة ، ذات الشعر القصير

المضطرب ، البنت الخبيثة التى تخفي دائما أسرارا .. وانها لخبيثة خبثا يتفق مع منظرها ! واذا كان قبحها واضحا فى وجهها وجسمها وضوحا لا أسرار فيه ، فلا بد أن تتخذ على الأقل أسرارا أخرى لا يستطيع أحد أن يكشف أمرها ، من هذا علاقتها المدعاة بكلم . ولقد خطرت ببال بيبى فى ذلك الوقت مثل هذه الافكار : هل من الممكن أن يكون كلم عاشقا لفريدا ؟ ألا يخدع نفسه ؟ أو ألا يخدع فريدا ؟ وهل سيؤدى هذا كله الى ارتقاء بيبى فقط ؟ وهل سيتبين ك الخطأ ؟ وهل سيقرر ألا يغفره ؟ وألا يعود الى رؤية فريدا ؟ ألا يعود الى رؤية بيبى وحدها ؟ ولم يكن هذا خيالا مجنونا تورطت فيه بيبى ، فقد كان فى مقدورها أن تقف من فريدا موقف الند للند ، وهذا شىء لا يستطيع أحد انكاره . ولكن فريدا بهرت بصر ك أولا وقبل كل شىء آخر بمركزها وبالبريق الذى عرفت كيف تضفيه على هذا المركز . وتمنت بيبى فى أحلام استرسلت اليها أن يأتى اليها ، وبعد أن تكون قد نالت المركز ، فيتوجه اليها بالرجاء ، وسيكون عليها فى هذا الوقت أن تختار بين أمرين اما أن ترفع ك وتفقد المركز أو أن تصد ك وترتفع هى . ولقد رتبت أمرها على أن تتخلى عن كل شىء وتنزل اليه وأن تعلمه الحب الحقيقى الذى لا يمكنه أن يعرفه عند فريدا ، الحب الحقيقى الذى لا يرتبط بأى مركز من مراكز التشريف فى الدنيا . ولكن الامور تطورت على نحو آخر ، ومن الذى يحمل ذنب ذلك ؟ ك أولا وقبل كل شىء آخر ، ثم بعد ذلك خبث فريدا . ك أولا : فماذا يريد ؟ وما أغربه من انسان ؟ الام يطمح ؟ ماهى هذه الأشياء الهامة التى تشغله والتى تنسيه الأقرب والأحسن والأجمل ؟ ان بيبى هى الضحية ، وكل شىء قد أصابه السخف ، وكل شىء قد أصابه الضياع . ولو استطاع أحد أن يشعل النار فى حان السادة ويحرقها عن آخرها كما يحرق الانسان ورقة فى مدفأة ، لكان اليوم هو الرجل الذى تختاره بيبى وتصطفيه . نعم، لقد دخلت بيبى فى الحمارة منذ أربعة أيام قبل الغداء بقليل . وليس العمل فى الخمارة بالعمل السهل انه عمل يوشك أن يكون مهلكا ، ولكن ما يمكن أن يبلغه الانسان هنا ليس بالشىء الصغير . ولم تكن بيبى فيما مضى تعيش اليوم ولا تفكر فى الغد ، وهى اذا لم تكن قد تجرأت جراءة مفرطة للاستحواذ على هذا المركز فقد أكثرت من الملاحظة وعلمت أمر هذا المركز ، فلم تكن اذ شغلت المركز تفتقر الى الاستعداد له . وما يمكن أن يشغل الانسان مثل هذا المنصب دون أن يكون مستعدا له ، والا فقده فى الساعات الاولى . وخاصة اذا ما تصرف الانسان هنا على طريقة خادمات الحجرات . وخادمة

الحجرات نفسها بمضى الزمن ضائعة منسية . ان عملها هناك ، أو على الاقل عملها فى الممر ، يشبه العمل فى باطن المنجم . انها تظل الايام العديدة لا ترى باستثناء بعض أصحاب الحاجات الذين يتكورون على أنفسهم ولا يجرءون على رفع أبصارهم ، انسانا ، سوى خادمتين أو ثلاث من الزميلات اللاتى يعانين من المحنة ذاتها . ليس للخادمة أن تغادر حجرتها صباحا ، لأن السكرتيرين يريدون فى هذا الوقت أن يكونوا وحدهم والصبيان هم الذين يأتون اليهم بالطعام من المطبخ ، فليس للخادمات شأن بالطعام ، وليس للخادمة أن تظهر فى الممر فى وقت تناول الطعام . وليس للخادمة أن ترتب الحجرة الا أثناء قيام السادة بالعمل وعليها أن ترتب بطبيعة الحال الحجرات التى تصادف أن غادرها السادة ، وعليها أن تؤدى عملها فى سكون تام حتى لا تزعج السادة وهم يعملون ولكن كيف يمكن ترتيب الحجرة فى سكون تام . اذا كان السادة يقيمون فى الحجرة الأيام المتتالية وكان الخدم الرجال ، هؤلاء الرعاع الأقذار ، يعيثون فيها فسادا ، واذا بالحجرة عندما تدخل الخادمة لترتيبها فى حالة من القذارة لا يمكن حتى للفيضان تنظيفها . والحقيقة أن السادة سادة عظام ، ولكن على الخادمة أن تقهر قرفها حتى تتمكن من ترتيب الحجرة . وليس عمل الخادمة عملا كثيرا مفرط الكثرة ولكنه دقيق . وهى لاتسمع مطلقا كلمة طيبة ، بل تسمع دائما اللوم والتوبيخ ، وخاصة هذا اللوم الضائع الفظيع : ان بعض الملفات ضاعت أثناء قيامها بتنظيف الحجرة . وليس هناك فى الحقيقة شىء يضيع ، فالخادمة تسلم أصغر قطعة من الورق تجدها الى صاحب الحان ، واذا كانت الملفات تضيع ، وهذا مايحدث فان الخادمات لسن هن اللاتى يضيعنها . وتأتى اللجان للتحقيق ، وتضطر الخادمات الى مغادرة حجرتهن ، وتقلب اللجنة السرر رأسا على عقب . وليس لدى الخادمات من الممتلكات سوى أشياء قليلة يحتويها سبت ولكن اللجنة تستمر فى البحث ساعات وساعات . وهى بطبيعة الحال لا تعثر على ملفات ، فكيف يمكن أن تأتى الى هنا ؟ وماذا تعمل الخادمات بالملفات ؟ ومع ذلك فالنتيجة شتائم وتهديدات ينقلها صاحب الحان الى الخادمات عن اللجنة التى خاب رجاؤها . والخادمة لا تعرف الراحة لا بالليل ولا بالنهار ، بل تعانى من الصخب آناء الليل ، وأطراف النهار . والخادمات يتمنين لو سمح لهن بالمبيت خارج الحان ، ولكن المبيت بالحان مفروض عليهن ، لأن عليهن اجابة الطلبات اذا ما طلب السادة أشياء بسيطة من المطبخ ، وبخاصة فى الليل . فجأة يأتى من يدق بلكمته على باب حجرة الخادمات ، ويملى الطلب على الخادمة ، فتجرى الخادمة الى

المطبخ ، وتهز صبى الطباخ فى المطبخ ليصحو ، وتضع الصينية بالطلب امام باب حجرة الخادمات ، فيأتى الخدم الرجال ويحملونها • ما أسوأ هذا كله ! ولكن هذا ليس أقبح ما فى الامر • ان أسوأ ما فى الأمر هو عدم حضور من يطلب شيئا ، انه شروع بعضهم فى التلصص أمام الباب ، بالليل البهيم حيث يحب الجميع أن يناموا ويكون غالبيتهم مستغرقين فى النوم فعلا • عند ذاك تنزل الخادمات من السرر ـ فالسرر متخذة الواحد فوق الآخر لضيق المكان وليست حجرة الخادمات فى حقيقتها سوى دولاب كبير له ثلاثة رفوف ـ وتتصنتن على الباب ، وتركعن عنده ، تعانق الواحدة الأخرى من فرط الخوف • وصوت المتلصص بالباب لا يفتأ يأتى الى السمع ولو أنه دخل لسعدت الخادمات بدخوله ، ولكن هذا لا يحدث ، فالمتلصص لا يدخل اليهن • وينبغى أن يقول الانسان ان هذا التلصص لا ينطوى على خطر محدق ، فربما لم يكن المتلصص سوى شخص يروح ويجىء أمام الباب ويفكر هل يطلب شيئا ، ولا يستطيع أن يتخذ قرارا • وربما كان الأمر كذلك ، وربما لم يكن كذلك • والحقيقة أن الخادمات لا يعرفن السادة قط ، فهن لم يرونهم الا لماما • ومهما يكن من أمر فان الخادمات يذبن فى الحجرة من فرط الخوف ، واذا ما ساد السكون فى الخارج ، فانهن يستندن الى الحائط ، لأن قوتهن لا تمكنهن من العودة الى السرر • هذه الحياة تنظر بيبى مرة أخرى ، فعليها أن تعود الليلة الى حجرة الخادمات وتتخذ فيها مكانها • ولماذا ؟ بسببك ، ولكن بعد جهود هائلة • ذلك ان الخادمات ، حتى اللاتى يهتممن بأنفسهن •عادة غاية الاهتمـــام ، يهملن أنفسهن هنا فى هذا العمل • فلماذا يتزين ؟ ليس هناك انسان يراهن ، فى أفضل الاحوال الا العاملون فى المطبخ ، فمن كان هذا يرضيها فلتتزين ان الخادمات دائما فى الحجرة الصغيرة أو فى حجرات السادة التى يعتبر دخولها بملابس نظيفة من الحماقة والتبذير • وان الخادمات يعشن دائما فى الضوء الصناعى والهواء العطن ـ لأن التدفئة لا تنقطع ـ وهن دائما متعبات• أما فترة الراحة التى يحصلن عليها ، وهى ساعات قليلة فى عصر أحـد الأيام أسبوعيا ، فهن يفضلن قضاءها فى مكان مقفول بالمطبخ : حيث ينمن فى سكون وبلا خوف• فلماذا تتزين الخادمة اذن ؟ انها لاتكاد ترتدى شيئا • ولقد نقلوا بيبى الى الخمارة حيث يتطلب العمل منها ، ان أرادت أن تنجح فيه ، العكس على خط مستقيم • فخادمة الخمارة تحت أعين الناس دائما ومن بين الناس من اشتدت رقتهم وعظم انتباههم • وعليها أن تظهـر

دائما بأحسن مظهر ما استطاعت الى ذلك سبيلا • لقد كان ذلك تحولا فى حياتها • ويمكن لبيبى أن تقول عن نفسها إنها لم تقصر فى شىء • فلم تقلق بالا على مستقبلها فى العمل • لقد كانت تعرف ان لديها الامكانيات اللازمة لهذه المهنة ، بل كانت متأكدة من ذلك تماما ، وما زالت الى الآن مقتنعة بهذا ، ولايوجد انسان يستطيع أن يزعزع اقتناعها هذا حتى اليوم، يوم هزيمتها • ولقد وجدت صعوبات فى فرض نفسها فى الفترة الأولى لأنها كانت بنتا فقيرة بلا ثياب وبلا حلى ، ولأن السادة ليس لديهم من الصبر ما يجعلهم ينتظرون ليروا كيف تتطور هذه البنت الجديدة ، بل همبريدون خادمة للخمارة بمعنى الكلمة على الفور ودون مرحلة انتقال والا نفروا منها وقد يظن الانسان ان متطلباتهم ليست عالية لأن فريدا كانت تفى بها • ولكن هذا ليس صحيحا • ولقد فكرت بيبى فى هذا مليا ، واتصلت بفريدا مرارا بل ونامت معها فترة طويلة • وليس منالسهل سبر أغوار فريدا ، ومن لا يتنبه ـ وأين هم السادة الذين يتنبهون ؟ ـيقع فى غوايتها •وليس هناك انسان يعرف قبح منظر فريدا أدق من فريدا ذاتها ، ان الانسان عندما يراها لأول مرة وهى تحل شعرها ، يضرب يديه معا من الأسى • ان بنتا كهذه لا يصح أن تعمل ، اذا كانت الامور تسير فى طريق العدل والصواب ، حتى خادمة حجرات • وهى تعرف ذلك ، كثيرا ما باتت الليل تبكى ، وتضم نفسها الى بيبى وتلف شعر بيبى حول رأسها هى •ولكنها عندما تعمل فى الخمارة ، لا تحس بشىء من شكوكها ، وتعتبر نفسها أجمل المخلوقات ، وتعرف كيف تفرض ذلك على كل انسان • انها تعرف الناس ، وهذا هو فنها الحقيقى • وهى تكذب وتغش بسرعة حتىلايكون لدى الناس من الوقت ما يكفى للنظر اليها بدقة • ومن الطبيعى أن هذا لا يكفى على مر الزمن ، فالناس لهم عيون ، والعيون ستكون فى النهاية صاحبة الحق ولكن فريدا لديها وسيلة جاهزة تستعملها اذا ما تبينت خطرا من هذا النوع ، انها فى هذه الحالة تستعمل ، على سبيل المثال كما حدث فى الفترة الاخيرة ، علاقتها بكلم • نعم علاقتها بكلم ! اذا لم تكن تصدق ان لها علاقة بكلم فالتمس لك طريقة تتأكد بها ! اذهب ان استطعت الى كلم واسأله ! ما أكثر خبثها ! واذا لم تجرؤ على الذهاب الى كلم لسؤاله عن شىء من هذا القبيل ـ فلن تستطيع الوصول اليه اذا كان لديك أسئلة أهم بكثير لأن كلم بعيد عنك كل البعد •• عنك وعن أمثالك فقط ، لأن فريدا تذهب اليه عندما تشاء ـ فيمكنك والامر كذلك أن تتقصى ، أو عليك أن تنتظر ! وليس من المتصور أن يحتمل كلم اشاعة مزيفة مثل هذه طويلا ، ومن المؤكد أنه يتابع ما يحكى عنه فى الخمارة

وفى حجرات النزلاء ، ويعلق على ذلك أهمية كبيرة ، فاذا كان ما يحكى عنه خطأ ، صححه على الفور ٠

ولكنه لا يصحح الخطأ فى حالتنا هذه ٠ اذن فليس هناك ما ينبغى تصحيحه ، والأمر هو الحقيقة الخالصة ! أما ما يراه الناس فهو لا يتعدى حمل فريدا البيرة الى حجرة كلم وخروجها بالثمن ٠ وأما ما لا يراه الناس فتحكيه فريدا ، وينبغى تصديقها ٠ ثم هى لا تحكيه ، لأنها لا يمكن أن تكشف مثل هذه الأسرار ٠ لا ! ان الأسرار تتكشف وحدها من حولها ! وعندما تتكشف ، فان فريدا لا تتردد هى نفسها فى الحديث عنها ، ولكن على نحو متواضع ، دون أن تجزم بشىء ، بل هى تعتمد فى حديثهـــا على ما قد ذاع بالفعل ٠ ولكنها لا تذكر كل شىء ، فهى لا تذكر على سبيل المثال ان كلم أصبح يشرب ، منذ عينت هى على المشاريب فى الخمارة ، من البيرة أقل مما كان يشرب ، لا أقل كثيرا ، ولكن أقل بشكل واضح والناس يختلفون فى تعليل ذلك ، ولقد مر على كلم وقت كانت البيرة لاتسيغ له كثيرا ، أو لعل فريدا تلهيه عن شرب البيرة ٠ ومهما يكن من أمر ، فان فريدا ، على الرغم مما فى الامر من غرابة ، عشيقة كلم ٠ وليس من شـــك فى أن الآخرين عليهم أن يعجبـــوا بمـــا يرضى به كلم ٠ وهكذا أصبحت فريدا ، دون أن يتدبر الناس الامر ، بنتا رائعة الجمال ،وخادمة خلقت للخمارة ، بل قد تكون مفرطة الجمال ، مفرطة القدرة فلا تكاد الخمارة ترضيها ٠ وهذا هو الواقع — فان الناس يعجبون بها لأنها لا تزال فى الخمارة ٠ والعمل خادمة فى خمارة شىء عظيم ، ولهذا فان علاقتها بكلم تلوح قابلة للتصديق ، ولكن اذا أصبحت خادمة الخمارة عشيقة لكلم فلمآذا يدعها ، يدعها هـــذا الوقت الطويل ، فى الخمارة ؟ لماذا لا يأخذ بيدها الى أعلى ؟ وفى استطاعة الانسان أن يقول للناس ألف مرة انه ليس فى هذا تناقض ، وان كلم لديه أسباب معينة للتصرف على هذا النحو ، أو أن ترقيـــة فريدا ستحدث فجـــأة ربما فى أقرب وقت ، ولكن هـــذا الكلام لا يؤثر عليهم كثيرا ٠ ان الناس يتصورون الامر على ما يبدو معرفة أفضل ، تعبوا تعبا حال بينهم وبين الشك ٠ وقالوا فى أنفسهم ، كونى ان شئت عشيقة كلم ، ولكن اذا كنت قد أصبحت بالفعل عشيقة فدعينا نتبين ذلك من تقيك الى أعلى ! ولكنهم لم يتبينوا شيئا ، وبقيت فريدا فى الخمارة كما كانت ، وكانت بينها وبين نفسها مسرورة لأن الأحوال بقيت على هذا النحو ٠ على أنها فقدت جانبا من هيبتها فى أعين الناس ، ولا بد أنها لاحظت ذلك ، فهى تلاحظ فى المعتاد الاشياء حتى قبل أن تحدث ٠

ولو أن بنتا جميلة لطيفة عملت فى الخمارة ، ألفت شؤونهـا ، فلن يكون بها حاجة الى الالتجاء الى الأفانين للاستمرار فى العمل ، فهى باقية فى مكانها ما دامت جميلة ، الا أن يطرأ طارىء مفاجىء مؤسف • أما اذا كانت البنت على شاكلة فريدا فانها تظل دائما قلقة على وظيفتها ، وهى بطبيعة الحال ـ وهذا شىء بديهى ـ لا تظهر قلقها ، بل على العكس تتظاهر بأنها تشكو من العمل وتلعنه • أما بينها وبين نفسها ، فهى تراقب الجو العام دون ما توقف • وهكذا تبينت أن الناس لا يكلفون بها ، وأن ظهـــور فريدا لم يعد يدفعهم حتى الى رفع عيونهم ، حتى الخدم كانوا لا يهتمون بها ، وكانوا يتعلقون ـ وهذا شىء بديهى ـ بأولجا وبمثيلاتها ، ولاحظت فريدا أن الاحتياج اليها أخذ يفتر فتورا متزايدا ، ولم يكن فى مقدورها ان تستمر فى اختراع حكايات جديدة ، فلكل شىء حدود ، وهكذا قررت فريدا الطيبة أن تفعل شيئا جديدا • وأين هو الانسان الذى كان يستطيع أن يكشف مكنونها ! أما بيبى فقد أحسست بما تدبره فريدا ، وان لم تتمكن من كشف مكنونه • لقد قررت فريدا أن تحدث فضيحة : هى ، عشيقة كلم ، ترتمى فى أحضان أى انسان ، ترتمى فى أحضان أوضع انسان • لسوف يثير هذا الدهشة ، ولسوف يتحدث الناس عنه طويلا ، ثم يتذكرون فى النهاية معنى أن تكون فريدا عشيقة كلم ، وأن تنبـــذ هذا الشرف العظيم فى نشوة حب جديد • وكانت الصعوبة الوحيدة تتلخص فى العثور على الرجل المناسب لهذه اللعبة الماكرة • فلا ينبغى أن يكون هذا الرجل واحدا ممن تعرفهم فريدا ، ولا واحدا من الخدم لأنها لو حاولت أن تتخذ لذلك واحدا من الخدم ، فانه على الأرجح سينظر اليها بعينين واسعتين مدهوشتين وينصرف الى حال سبيله ، وهو لو رضى فلن يستطيع أن يتصنع ما يكفى من الجد ، ولن يكون من الممكن ، مهما أوتى الانسان من الفصاحة ، أن يشيع بين الناس انه تهجم على فريدا ، وانها لم تستطع أن تدافع عن نفسها ، وأنها خضعت له فى ساعة فقدت فيها وعيها • وحتى اذا وجدت شخصا وضيعا غاية الوضاعة ، فلا بد أن يكون شخصا يمكنه أن يوحى على نحـو مقنع ، انه علَى الرغم من بلادته وغلظته لا يشتاق الى شىء شوقه الى فريدا والى ـ آه ، يا للعجب ! ـ الزواج بها • وينبغى أن يكون هذا الرجل الوضيع ـ ولا بد أن يكون على قـــدر الامكان أكثر وضاعة من الخـدم ، أكثر وضاعة منهم جدا ـ على نحو لا تنفر منه كل البنات ، بل قد تجد فيه بنت صحيحة العقل شيئا جذابا • فأين تجد رجلا كهذا ؟ ولو أنّ بنتا غير فريدا بحثت عن هذا الرجلَ ، لما وجدته فى حياتها • أما فريدا فقد ساق اليها الحظ موظف مساحة الى الخمارة

ربما فى نفس الليلة التى فكرت فيها فى هذه الخطة · موظف المساحة !
نعم ، نعم ، ففيم يفكر ك ؟ ما هى الاشياء الهامة الخاصة التى تجـول
بخاطره ؟ هل سيصل الى شىء هام خاص ؟ الى مركز طيب ؟ الى مجـد ؟
هل يريد هو شيئا من هذا القبيل ؟ لو كان الامر كذلك ، لكان قد تصرف
منذ البداية على نحو آخر · وهو فىالحقيقة لا شىء ، ولكم يتحسرالانسان
عندما ينظر الى حاله ! انه موظف مساحة ، وربما كان هذا شيئا ؟ ربما كان
هذا يعنى أنه قد تعلم شيئا ، ولكن اذا لم يكن الانسان يستطيع أن يفعل
شيئا بما تعلم ، فان ما تعلمه يكون لا شىء · وهو مع ذلك يطالب بحقوق
دون أن يكون معتمدا على أدنى سند ، وهو فى الحقيقة لا يطالب بحقوق
بمعنى الكلمة ، ولكن المثير فى الامر هو أن الانسان يلاحظ أنه يطالب بحقوق
ألا يعلم أن الخادمة الوضيعة تفرط فى الكرم حياله ، اذا تكلمت معـه
طويلا ؟! واذا هو بمطالبه العالية هذه يندفع فى الليلة الاولى الى داخـل
مصيدة بشعة · ألا يخجل ؟ ما هذا! الذى أعجبـه فى فريدا ؟ انه الآن
يستطيع أن يقول الحقيقة · أيمكن أن تكون هذه المخلوقة الصفراء العجفاء
قد أعجبته ؟ آه ، لا ، انه لم يتطلع اليها ، كل ما فى الامر انها قالت له
انها عشيقة كلم ، فأحدثذلك فيه أثرا لأنه كان جديدا عليه ·· وكان أن
ضاع ! أما هى فقد أصبح عليهـا أن تترك الحان ، فلم يعـد لها بطبيعـة
الحال مكان فى حان السادة · ولقد رأتها بيبىفى الصباح السابق على
خروجها من الحانة ، وكان من يعملون بالحانة قد تجمعوا تواقين الى النظر
اليها · كان نفوذها لا يزال عظيما لدرجة أنهم أسفوا عليها ، لقد أسـف
عليها الجميع ، ومن بينهم أعداؤها · لقد نجح تدبيرها الى هـذا الحد ·
لقد صعب على الجميع أن يفهموا لماذا ألقت بنفسها الى مثل هذا الرجـل
لقد تصوروا أن نازلة ألمت بها · وكانت خادمات المطبخ الصغيرات ،
اللاتى يعجبن بخادمة الحمارة أيما اعجاب ، فى حالة يرثى لها · حتى بيبى
كانت متأثرة ، ولم تكن تستطيع أن تسيطر على نفسها ، على الرغم من
أن اهتمامها كان مركزا على شىء آخر · ولكنها لاحظت أن ما كان بفريدا
من حزن قليل قلة ملفتة للنظر · لقد كان ذلك الذى حدث لها مصيبـة
بشعة ، ولقد تصنعت هى أيضا التعاسة ، ولكن تصنعها لم يكن كافيا ،
فلم تنخدع بيبى بتمثيلها · فعلام كانت تعتمد ؟ يا ترى على سعادة الحب
الجديد ؟ لقد كان هذا الاحتمال مستبعدا ، فعلام اذن ؟ وما هذا الذى
أعطاها القوة على أن تصطنع كالمعتاد الود البارد حتى حيال بيبى التى
كانت فى ذلك الوقت تعتبر خليفة فريدا ؟ ولم يكن لدى بيبى فى ذلك
وقتا كافيا للتفكير فى هذا ، فقد كانت مشغولة جدا بالاستعداد للوظيفة

الجديدة • وكان المفروض أن تبدأ العمل فيها بعد ساعات قليلة ، ولم تكن قد اتخذت تسريحة جميلة ، ولا لبست ثوبا أنيقا ، ولا ارتدت قميصا رقيقا ولا حذاء صالحا • وكان من الضرورى تدبير كل هذه الاشياء فى غضون ساعات قليلة • واذا لم يكن تدبير هذه الاشياء فى الامكان ، فالأفضل أن يتنازل الانسان عن الوظيفة ، لأنه سيفقدها بكل تأكيد فى نصف الساعة الاول • ولقد تمكنت بيبى من تدبير هذه الأشياء جزئيا • أما تصفيف الشعر فلها فيه موهبة خاصة ، حتى ان صاحبة الحان ذاتها استدعتها ذات مرة اليها لتصفف لها شعرها ، ولقد تمكنت بيبى من تصفيف شعرها تصفيفا حسنا لأنها تحسن العمل بيدها ، ولأن شعرها الغزير يتشكل كما تريد • كذلك وجدت من يعينها على تدبير الثوب • فقد أخلصت زميلتاها لها ، وكانتا تريان فى اختيار بنت من مجموعتهن لتصبح خادمة الخمارة شرفا لهما ، وكانتا تعتقدان أن بيبى ستنعهما فيما بعد عندما تصل الى السلطة • وكان لدى احدى البنتين منذ وقت طويل قطعة من القماش الغالى ، كانت كنزها ، وكانت تعرضها على الأخريات فيعجبن بها ، وكانت بطبيعة الحال تحلم بأن تستعملها ذات يوم فى صناعة ثوب رائع • وما كان أحسن تدبيرها ، فلما احتاجته بيبى الآن ضحت به من أجلها • وساعدت البنتان بيبى عن طيب خاطر فى حياكة الثوب ، ولو كانتا تحيكان لنفسهما ، لما أظهرتا مزيدا من الهمة • بل لقد كان العمل فى الثوب عملا مفرحا سعيدا • كانت كل واحدة تجلس فى سريرها ، الواحدة فوق الأخرى ، وكانتا تخيطان وتغنيان وتقدمان الواحدة الى الأخرى الأجزاء الجاهزة وتتبادلان الكلفة • ان بيبى عندما تفكر فى هذا ، ينقبض قلبها ، لأن هذا الجهد راح هباء ، ولأنها تعود الى صديقتيها خاوية اليدين • يا لها من محنة ! ويا له من دين تحملت به عن حمق ! والذنب ذنب ك قبل غيره • ولقد أعجب الجميع بالثوب ، ولاح هذا الاعجاب به كأنه ضمان للنجاح ، وكان العثور فى الثوب بعد أن تم على مكان لا يزال يحتاج الى شريط يحليه من الصعوبة بمكان • ثم ألم يكن الثوب جميلا بالفعل ؟ لقد أصابه الآن بعض الخلل واتسخ ، فليس لدى بيبى ثوب آخر ، ولهذا كانت مضطرة الى ارتدائه ليلا ونهارا ، ولكن الناظر اليه لا يزال يرى كم هو جميل ، وما كان يمكن حتى لأخت برناباس اللعينة أن تصنع أفضل منه • انه ثوب يمكن تضييقه وتوسيعه من أعلى ومن أسفل حسب الرغبة ، فيظهر بأشكال مختلفة وهو الثوب الواحد — وهذه ميزة خاصة وهى من اختراع بيبى • وليست حياكة ثوب بيبى بالأمر الصعب بطبيعة الحال ، وبيبى لا تتفاخر بذلك ، وان البنت اذا

كانت صغيرة السن صحيحة البدن فكل شيء تلبسه يناسبها ويبدو جميلا
أما تدبير الملابس الداخلية والحذاء فكان أمرا أكثر صعوبة ، وكان هو
فى الحقيقة بداية الفشل . ولقد ساعدت الصـــــديقات هنا على قدر
ما استطعن ، ولكنهن لم يستطعن فعل الكثير . فلم تحصل بيبى الا على
ملابس داخلية خشنة مرقعة ، ولم تجد حذاء له كعب عال ، واضطرت
الى الاكتفاء بحذاء بيبى كان الأحرى بالانسان أن يخفيه لا أن يظهره .
وكان هناك من يواسى بيبى : فلم تكن فريدا تلبس الجميل من الثيــاب ،
بل انها كانت أحيانا تلبس ملابس رثة حتى ان الناس كانوا يفضلون
أن يقدم لهم المشروبات بدلا منها صبيان المخزن . هذا هو الواقع . ولكن
فريدا كانت تسمح لنفسها بذلك لأنها كانت تنعم بالحظوة والتكريم ،
واذا ظهرت سيدة أمام الناس بملابس قذرة مهملة فانها تستهويهم على
نحو أشد ، أما اذا فعلت ذلك بنت جديدة مثل بيبى فما تكون العاقبة ؟
هذا الى أن فريدا لم تكن تستطيع أن تهندم نفسها ، فهى مجردة من الذوق
تماما ، واذا أوتى الانسان بشرة صفراء فهو لا يستطيع أن يغيرها ، ولكن
ليس هناك ما يضطره مثل فريدا الى ارتداء بلوزة مفتوحة فتحة واسـعة
صفراء اللون ، حتى ان العين اذا نظرت اليها تضطرب لهذه الصـــــفرة
المفرطة ! وحتى اذا لم يكن هذا هو حالها ، فانها كانت بخيلة بخلا يمنعها
من الانفاق على الملبس الجميل . لقد كانت تدخر كل ما تكسب ، وليس
هناك من يعرف لماذا . وهى لم تكن تحتاج فى العمل الى المال ، بل كانت
تدبر أمرها بالكذب والخبث ، ولم تكن بيبى تريد ولم تكن تستطيع أن
تتخذ فريدا قدوة لها ، ولهذا كان لها أن تتزين حتى تظهر موهبتهـــا
كاملة وبخاصة فى البداية . ولو انها أوتيت لذلك وسائل أقوى لكانت
هى المنتصرة برغم مكر فريدا وغباء ك . ولقد كانت البداية طيبة جدا .
فقد أتت وهى ملمة بما يتطلبه العمل من نشاط ومعرفة ، وما كادت تدخل
الخمارة حتى ألفت العمل فيها ولم يعد غريبا عليها . ولم يعتور العمل
عيب يجعل كائنا من كان يفتقد فريدا فى اليوم الاول . أما فى اليـــوم
التالى فقد سأل بعض الحاضرين عن فريدا والى أين ذهبت . ولم ترتكب
بيبى خطأ واحدا ، وكان صاحب الخان راضيا ، وكان فى اليوم الأول لايبارح
الخمارة من شدة خوفه ، فلما ارتاح باله قل حضوره ، وأخيرا ترك كل
شيء لبيبى ، عنـدما وجد أن الخزينة مضـبوطة بل وان الوارد زاد فى
المتوسط عما كان عليه أيام فريدا . وأدخلت بيبى بعض التجديدات .
كانت فريدا تراقب الخدم مراقبة جزئية ، وبخاصة اذا كان هناك من
ينظر اليها ، لا عن كلف بالعمل ، ولكن عن بخل ، وعن حب للسيطرة

وعن خوف من النزول عن شيء من حقوقها ، أما بيبى فقد تركت هذه المهمة كلها لصبيان المخزن الذين يصلحون لهذه المهمة أفضل منها · وكانت النتيجة أنها وجدت المزيد من الوقت لخدمة حجرات السادات فكان النزلاء يتلقون ما يطلبون بسرعة · وكانت مع ذلك تتكلم مع كل كلمتين على عكس فريدا التى كانت تدعى أنها حكر على ك وكانت تعتبر كل كلمة توجه اليها وكل محاولة للتقرب منها اساءة الى كلم · ولقد كان ذلك تصرفا ماكرا منها ، لأنها عندما كانت تسمح لشخص بالتقرب اليها كان يعتبر هذا تفضلا من نوع لم تسمع به اذن · أما بيبى فكانت تكره هذه الأفانين ، هذا الى أن هذه الأفانين لا تفيد فى البداية · كانت بيبى تظهر الود لكل انسان ، وكان كل انسان يظهر لها الود · وكان يبدو على الجميع الفرح بالتغيير الذى طرأ على الخمارة · وكان السادة المتعبون إذا ما خلوا فى النهاية الى البيرة ، يتغيرون من حال الى حال لكلمة من بيبى أو نظرة منها أو هزة من كتفيها · وهكذا كانت الأيدى تمتد نشيطة الى خصائل شعرها ، مما كان يضطرها الى اصلاح تسريحتها عشر مرات فى اليوم الواحد ·· ولم يكن هناك من يستطيع أن يقاوم اغراء هذه الخصائل والجدائل ، حتى ك نفسه الذى كان يظهر فى المعتاد مجردا من كل فكر · وهكذا انقضت أيام ، كانت مليئة بالعمل، ولكنها كانت ناجحة · ليتها لم تنقض بهذه السرعة ، وليلتها كانت أكبر مما كانت ! لقد كانت الأيام الأربعة قليلة جدا حتى اذا أنهك الانسان نفسه انهاكا ! ولعلها لو زادت يوما لكفت ، أما أربعة أيام فقط فقد كانت قليلة ·· حقيقة أن بيبى اكتسبت فى الأيام الأربعة المحاسيب والأصدقاء ، ان جاز لها أن تصدق النظرات ، لقد كانت تعوم ، عندما تأتى بأقداح البيرة ، فى بحر من الصداقة ، ولقد هام بها الى الجنون كاتب اسمه بارتماير فقدم اليها هذا العقد وهذه الدلاية هدية وأعطاها صورة فى الدلاية ·· وانه لتصرف جسور ما فى ذلك شك ! لقد جرى هذا وغير هذا فى فترة لم تتجاوز أربعة أيام ·· وان فى استطاعة بيبى، عندما تبذل جهدها ، أن تدفع بفريدا الى ظلام النسيان تقريبا فى هذه الأيام الأربعة ، ولكنها لا تكفى لدفعها الى ظلام النسيان كلية · وربما كان النسيان قد احتوى فريدا بالفعل ، اذا لم تكن قد حرصت على أن تجعل الأفواه تتحدث عنها وتوسلت الى ذلك بفضيحتها الكبيرة التى جددتها فى أذهان الناس حتى استبد بهم الفضول لرؤيتها · لقد تحولت هذه البنت التى ملوها وسئموها ، الى شيء له سحره : والفضل فى ذلك يرجع الى ك الذى يتسم عموما بالبلادة ! ولم يكونوا بطبيعة

الحال ليضحوا ببيبى من أجل هـذا طالما كانت تقف فى الخمارة وتؤثر عليهم بحضرتها . ولكن غالبيتهم من الشيوخ المسنين ، الجامدين فى عاداتهم ، الذين يحتاجون الى وقت طويل لكى يتعودوا على خادمة خمارة جديدة حتى وان كانت أفضل من سابقتها يحتاجون الى عـــدة أيام ، يحتاجون رغم ارادتهم الى عدة أيام ، ربما الى خمسة أيام فقط ، ولكن أربعة أيام لا تكفى .. ولم تكن بيبى فى نظرهم الا خادمة مؤقتة . ثم جاءت المصـــيبة التى ربما كان هى المصـــيبة العظمى : فى تلك الأيام الأربعة لم ينزل كلم فى حجرته بالحان على الرغم من أنه كان فى اليومين الأولين فى القرية . ولو أنه أتى لتم لبيبى الامتحان الحاسم ، الامتحان الذى لم تكن تخشاه الا أقل خشية ، بل كانت ترحب به . ولعلها لم تكن ستصبح - وهذه أمور من الأفضل بطبيعة الحال الا يتعرض الانسان لها بكلام - عشـــيقة لكلم .. ولعلها لم تكن ستكذب وتدعى أنهـــا قد أصبحت عشيقته .. ولكنها كانت ستعرف ، مثل فريدا ، كيف تضع قدح البيرة برقة على المائدة ، وكيف تلقى التحية مهذبة دون الحاح من نوع الحاح فريدا ، وكيف تستأذن مهذبة فى الانصراف .. ولو كان كلم يبحث فى عينى البنات عن شىء ، فلاشك انه كان سيجده وفيرا فى عينى بيبى . ولكن لماذا لم يأت ؟ مصادفة ؟ لقد ظنت بيبى آنذاك أنها مصادفة . وكانت طوال اليومين تنتظر مقدمه بين لحظة وأخرى ، وظلت تنتظر حتى فى الليل . وكانت لا تفتأ تقول فى نفسها ان كلم سيأتى حالا ، وتجرى هنا وهناك بلا سبب سوى قلق الانتظار والحرص على أن تكون أول من يراه عندما يدخل . ولقد أرهقتها هذه الخيبة المستمرة، ولعلها لهذا السبب لم تبذل من الجهد ما كانت تستطيع أن تبذله . وكانت اذا وجدت لديها شيئا من الوقت تصعد الى الممر الذى حظر دخوله على العاملين فى الحانة حظرا باتا ، وتختفى فى تجويف بالحائط وتنتظر. وكانت تقول فى نفسها : ليت كلم يأتى الآن ، وليتنى أستطيع أن أحمل السيد من حجرته على ذراعى الى قاعة الشراب ! اننى لن أنهار مهما كان الثقل من الضخامة ! ولكنه لم يأت . وهذا الممر يخيم عليه سكون هائل لا يستطيع من لم يعرفه أن يتصوره . ان السكون هناك لا يحتمل ، انه يدفع الانسان الى بعيد . ولقد دفع بيبى الى بعيد المرة تلو مرة .. عشر مرات ، ولكنها عادت المرة تلو المرة .. عشر مرات . ولقد كان ذلك حمقا : فلو كان كلم يريد أن يأتى فانه ســـيأتى ، ولو لم يكن يريد أن يأتى فان بيبى لن تستطيع اجتذابه حتى ولو اختنقت فى تجويف الحائط أو كادت أن تختنق لفرط دق قلبها . لقد كان ذلك حمقا ، ولكنه اذا

لم يأت فسيكون كل شيء تقريبا حمقا · ولم يأت · وبيبى تعرف اليوم لماذا لم يأت · ولو رأت فريدا بيبى فى تجويف الحائط واضعة يديهـا على قلبها ، لنعمت بمشهد طريف للغاية · ان كلم لم ينزل لأن فريدا لم تسمح بذلك · ولم يتحقق لها هذا بالالتماس ، فالتماساتها لاتصل الى كلم · ولكنها كالعنكبوت ، على صلات تمتد الى كل ناحية ، ولا يعلم الانسان عنها شيئا · فاذا قالت بيبى لأحد رواد الحان شيئا ، فانها تقوله بصراحة ، ويمكن لمن يجلس الى المائدة المجاورة ان يســمعه · أما فريدا فليس لديها ما تقوله ، انها تضع البيرة على المنضدة وتنصرف، ولا يسمع أحد منها الا هفهفة قميصها الحريرى ، وهو الشيء الوحيد الذى تدفع فيه مالا · واذا حدث أن قالت شيئا ، فانها لا تقوله بصراحة ، بل تهمس به ، وتميل على أذن الشخص فليرهف من يجلس الى المائدة المجاور السمع · ويبدو ان ما تقوله سخف ، ولكنه ليس سخفا كله · وفريدا لها اتصالاتها ، وهى تسند بعضها على البعض الآخر ، فاذا تخلى عنها هذا ـ وأين هذا الذى يمكن أن يهتم بفريدا الى الأبد ؟ ـ فانهـــا تظل معتمدة على ذاك · ولقد تحركت بالفعل لتستغل هذه الاتصالات· ومكنها ك من ذلك ، فهو بدلا من أن يقعد لديها فى البيت وبدلا من أن يحرسها ، لا يمكث فى البيت الا لماما ، بل يتجول ويجرى مناقشات هنا وهناك ، وهو يلتفت الى كل شيء الا الى فريدا ، وهو ينتقل من حان الجسر الى المدرسة الخالية ليتيح لها مزيدا من وقت الفراغ · وكل هذا بداية جميلة لشهر العسل · وبيبى هى بكل تأكيد آخر من يلوم ك على أنه يحتمل الحياة مع فريدا ، فليس هناك انسان يحتمل الحياة معها· ولكن لماذا لم يهجرها كلية ؟ لماذا ظل يعود اليها المرة بعد المرة ؟ لماذا جعل جولاته توحى بأنه يناضل من أجلها ؟ لقد لاح الأمر كأنها قد تبين تفاهته الحقيقية على أثر اتصاله بفريدا ، وكأنه يريد أن يجعل نفسه جديرا بفريدا ، وكأنه يريد أن يرقى متعجلا الى شيء ، وهو لهذا يتخلى عن عشرتها الآن ويرجو أن يجد فى المستقبل تعويضا عن الحرمان · أما فريدا فهى لا تضيع فى هذه الأثناء الوقت ، انها تقعد فى المدرســة التى يبدو أن ك نقلها اليها ، وتتأمل حان السادة وتتأمل ك · ولديها من السعاة اثنان ممتازان تحت أمرها : انهما مساعدا ك وقد تركهما ك لها كلية · وان الانسان لا يفهم لماذا تركهما ك لها ، حتى اذا كان يعرف ك · وهى ترسلهما الى أصدقائها القدامى فتجدد ذكراها لديهم ، وتشكو لهم من أن رجلا مثل ك يحبسها ، وتحرضهم على بيبى ، وتعلن أنهـــا ستعود من جديد عما قريب ، وترجو العون وتتوسل اليهم الا يكشفوا

أمرها لكم ، وتتظاهر بأنها تخاف على كلم ، وترجو الا يتركوه يذهب الى الخمارة بحال من الأحوال . وبينما تتظاهر أمام هؤلاء بأن بعد كلم عن الحمارة يرتجى حرصا عليه ، تستغل نجاحها هذا عند صاحب الحان فتلفت نظـره الى أن كلم لم يعد يذهب الى الحمارة . وكيف يمكنه أن يذهب الى هناك بينما بنت كبيبى هى التى تقوم بالخدمة ؟ والحقيقة ان صاحب الحان ليس مذنبا ، فبيبى هى أفضل بديل لها ، ولكنها لا تكفى حتى ولا لبضعة أيام . وك لا يعلم شيئا عن كل هذا التدبير الذى قامت به فريدا ، فهو ان لم يكن هائما فى جولاته ، يرقد خالى البالى الى قدميها بينما هى تعد الساعات التى لاتزال تفرق بينها وبين العودة الى الحمارة . ثم ان عمل الساعيين لا يقف عن هذا الحد ، انه يهدف كذلك الى اثارة غيرة ك والابقاء على علاقته بفريدا. وفريدا تعرف المساعدين منذ طفولتها، وليس لديها أسرار تخفيها عليهما ، وهما تكريما لـ ك يشغفان بها على التوالى ، ويواجه ك خطر تحول هذا الشغف الى حب شديد . و ك يفعل كل شىء ارضاء لفريدا ، ولا يتورع فى ذلك عن أنكر الأعمال . انه يدع المساعدين يثيران غيرته ، ويقبل مع ذلك ، أن يظل الثلاثة معا ، بينما يذهب هو الى جولاته وحده . وكأنما كانت فريدا المساعد الثالث ! وتقرر فريدا أخيرا اعتمادا على ملاحظاتها ، أن تضرب الضربة الكبرى : انها تقرر أن تعود . والحقيقة أن الوقت قد أزف ، وان الانسان ليدهش كيف تتبين فريدا ، الماكرة ، هذه الحقيقة وكيف تستغلها . ان القدرة على الملاحظة والتصميم هى فن فريدا الذى لا يستطيع غيرها أن يقلده. ولو أوتيت بيبى هذا الفن ، لتغيرت حياتها أيما تغير ! ولو ان فريدا قد بقيت فى المدرسة يوما آخر او يومين ، لما أضحى فى امكانها أن تطرد بيبى ، ولأصبحت بيبى نهائيا خادمة الخمارة يحبهـــا الجميع ويتمسكون بها ، ولربحت من المال ما يكفى لاستكمال هندامها على نحو مذهل . لو بقيت يوما أو يومين لما أمكن منع كلم عن قاعة الشراب مهما كانت الأحاييل . اذن لأتى كلم ولشرب ولأحس بالراحة والرضا ، فاذا ما لاحظ أن فريدا لم تعد هناك ، فانه سيسر للتغيير . ولو بقيت يوما أو يومين لانطوت فريدا فى النسيان بفضيحتها وعلاقاتها ومساعديهـــا وبكل ما أوتيت ، ولما خرجت من ظلمات النسيان بعد ذلك أبدا . واذا وصلت الى هذه الحال فعليها أن تتعلق بـ ك على نحو أشد ، وأن تتعلم كيف تحبه اذا كانت تستطيع ذلك ؟ لا ، انها لا تستطيع حتى هذا . لأن ك لا يحتاج لأكثر من يوم حتى يسأمها وحتى يتبين كيف تخدعه خداعا مزريا ، تخدعه بكل شىء ، بجمالها المزعوم واخلاصــــها المدعى

وخاصة بحبها المفتعل لكلم ٠ انه لا يحتاج الا الى يوم واحد لكى يلقى
بها الى الشارع ومعها أعمالها القذرة التى تعتمد فيها على المساعدين ٠
ان الانسان لا يمكن أن يتصور ان ك يحتاج من الوقت الى أكثر من يوم
واحد حتى يتصرف على هذا النحو ٠ وبينما هى بين هذين الخطرين ،
وقد أوشك القبر أن ينقفل عليها ، وما يزال ك فى سذاجته يبقى على
سبيل أخير مفوحا ، اذا بها تتأجج نارا ، على نحو لم يكن هناك انسان
يتوقعه لأنه يجافى الطبيعة ، واذا بها تطرد ك الذى لايزال يحبها ويجرى
وراءها ، تظهر لصاحب الحان ، تحت ضغط الأصدقاء والمساعدين ،
على هيئة المنقذة التى تأتى اليه بالخلاص والنجدة ، وقد أصبحت نتيجة
لفضيحتها أكثر جاذبية من ذى قبل ، وقد تأكد بالدليل أن الوضيع
والرفيع يشتهيانها ، فهى تغرم بالوضيع الى حين ، ثم تنبذه بعد ذلك
كما ينبغى وتترفع عليه كما كانت تترفع من قبل ، مع فارق واحد وهو
أن الناس كانوا يشكون فى ذلك ، أما الآن فقد اقتنعوا ٠ واذا بها تعود،
وينظر صاحب الحان نظرة تردد الى بيبى ــ هل يضحى بها بعد أن
أثبتت جدارتها ؟ ــ ثم يتخذ قراره فى صالح فريدا ، فكفة فريدا راجحة
لأنها أولا وقبل كل شىء آخر ستعيد كلم الى قاعة الشراب ٠ وهذه هى
الحال الآن ، فى هذا المساء ٠ ولكن بيبى لن تنتظر حتى تأتى فريدا
وتجعل من عودتها الى المنصب انتصارا ٠ لقد سلمت بيبى الخزينة الى
صاحبة الحان ، وفى استطاعتها أن تنصرف ٠ وستذهب الآن الى حجرة
الخادمات حيث ينتظرها سريرها هناك ، وستحييها صديقتاها بالدموع،
وستنتزع هى الثوب من فوق جسمها ، والأشرطة من شعرها وتلقى بها
فى ركن بعيدة عن بصرها حتى لا تذكرها دون ما فائدة بأوقات من
الخير أن تظل منسية ٠ ولسوف تتناول الدلو الكبير والمقشة وتزم
أسنانها وتستأنف عملها ٠ ولكنها لابد أن تحكى كل شىء لـ ك أولا ،
حتى يتبين بوضوح مالم يتبينه حتى الآن وحده بدون مساعدة ، حتى
يتبين بوضوح قبح ما فعله بيبى وكيف أتعسها ٠٠ وان كان كذلك قد
وقع بطبيعة الحال فريسة للاستغلال ٠

وانتهت بيبى من الكلام ٠ وجففت وهى تلتقط نفسا عميقا شيئا
من الدموع من عينيها وخديها ثم تطلعت الى ك وهى تومىء برأسها ،
وكأنها تريد أن تقول ان الأمر ليس فى الحقيقة أمر مصيبتها هى ، فهى
وبخاصة من ك ، وهى على الرغم من صغر سنها تعرف الحياة ،
تستطيع أن تتحملها ولا تحتاج لا الى مساعدة ولا الى عزاء من أحد
وبخاصة من ك ، وهى على الرغم من صغر سنها تعرف الحياة ،

وما مصيبتها الا تأكيد لمعلوماتها السابقة ، وانما الأمر أمر مصيبة ك ، ولقد أرادت أن تصور له الأشياء ، لأنها رأت من الضرورى ان تفعل ذلك قبل أن تنهار آمالها كلها • فقال ك :

ـ ما أفظع خيـالك يا بيبى ! أما أنك لم تكتشفى هـذه الأشياء كلها الا الآن فأمر لا يمكن تصديقه • ان كل ما قلته لا يعدو أن يكون أحلاما انطلقت من حجرتك ، حجرة الخادمات السفلية المظلمة الضيقة، وهى فى الحجرة السفلية المظلمة الضيقة فى مكانها الصحيح ، أما هنا ، فى الحمارة الطليقة ، فهى تبدو غريبة عجيبة • وأما أنك لم تتمكنى من تثبيت أقدامك هنا بهذه الأفكار ، فشىء بديهى • وان ثوبك وتسريحة شعرك اللذين تفخرين بهما لا يزيدان عن أن يكونا وليدى تلك الظلمة وتلك السرر فى حجرتكن وهما بلاشك جميلان جدا فى حجرتكن ، أما هنا فكل انسان يضحك منهما فى سره أو علانيته • وما هذا الذى حكيته ؟ لقد قلت اننى وقعت فريسة للاستغلال والغش ؟ لا ، يا عزيزتى بيبى، اننى لم أقع فريسة للاستغلال والغش مثلك تماما • والحقيقة ان فريدا قد هجرتنى الآن ، أو هى ، كما قلت قد هربت مع أحد المساعدين ، فأنت اذن ترين بصيصا من الحقيقة ، ومن المستبعد جدا بالفعل أن تصبح زوجتى بعد كل ما حدث ، وليس من الحقيقة فى شىء اننى سئمتها ، أو اننى كنت سأطردها فى اليوم التالى ، أو انها خانتنى على النحو الذى تخون الزوجة عليه زوجها • وأنتن ، أيتها الخادمات ، قد أعتدتن على التجسس من خلال ثقب المفتاح ، واحتفظتن من التجسس على هذا النحو بطريقة التفكير المرتبطة به ، فانتن تستنتجن من شىء صغير ترينه بالفعل ، الشىء كله ، على نحو رائع ومزيف معا • والنتيجة فى هذه الحالة مثلا اننى لا أعرف من الأمر الا أقل منك بكثير • وأنا لا أستطيع ـ وقدرتى فى هذا لا تدانى قدرتك من قريب أو بعيد ـ أن أفسر بدقة كدقتك سبب انصراف فريدا عنى • وأقرب تفسير الى الاحتمال يبدو لى ما أشرت اليه أنت اشارة عابرة وهو اننى أهملتهـا • هـــذه هى الحقيقة ، لقد اهملتها • ولكن اهمالى لها كان يقوم على أسباب ليس هذا مكان الافاضة فيها • ولو عادت الى لسعدت بعودتهـــا ، ولكننى سأعود الى اهمالها من جديد • هذه هى الحقيقة • لقد كنت ، طالما كانت فريدا عندى ، مشغولا دائما بجولاتى التى تسخرين منها • أما الآن ، وقد هجرتنى فريدا فاننى غير مشغول بشىء تقريبا ، ومتعب ، وأحس بحاجة الى مزيد من البطالة • ألا تنصحيننى بشىء يا بيبى ؟

وقالت بيبى وقد تملكها الحماس فجأة وأمسكت ك من كتفيه :

— بلى · اننا كلانا مخدوعان ، فلنبق معـا ! تعال معى الى الحجرة السفلية الى الخادمات ·

فقال ك :

— اننى لن أستطيع التفـاهم معك طالما كنت تتحـدثين عن أننـا خدعنا · إنك تريدين دائما أن تكونى قد خدعت ، لأن هذا يروق لك ويحرك وجدانك · أما الحقيقة فهى انك لا تصلحين لهذه الوظيفة · وان عدم لياقتك لهذه الوظيفة لتتضح لك جلية اذا كنت أنا ، وأنا فى نظرك أجهل الناس ، أتبين ذلك · وانت بنت طيبة يابيبى ، ولكن ليس من السهل على الانسان ان يتبين ذلك · فأنا على سبيل المثال عندما رأيتك لأول مرة ظننتك فظيعة ومتكبرة ، ولكنك فى الواقع لست كذلك ·· ان الوظيفة هى التى تصيبك بالاضطراب لأنك غير لائقة لها · وأنا لا أعنى بذلك أن الوظيفة عالية جدا بالنسبة اليك ، وما هى بالوظيفة الفائقة للمألوف ، وقد تكون ، اذا ما دقق الانسان النظر فيها ، أرفع من وظيفتك السابقة ، وان كان الفرق فى مجموعه غير كبير ، فالوظيفتان متشابهتان تشابها يكاد الانسان معه أن يخلط بينهما ، بل ان الانسان ليكاد يقول ان العمل كخادمة حجرات يفضل العمل فى الخمارة ، لأن خادمة الحجرات تكون دائما مع السكرتيرين ، اما خادمة الخمارة فانهـا ، وان كانت تخدم رؤساء السكرتيرين أحيانا ، مضطرة للتنزل الى شعب وضـيع شديد الوضاعة من أمثالى · وأنا غير مسموح لى بأن أظهر فى مكان آخر سوى فى هذه الخمارة ، فهل تعتبرين امكانية مخالطتى شيئا مشرفا يفوق الحدود ؟ انك تظنين هذا . وربما كانت لديك أسبابك · ولكنك لهذه الأسباب بالضبط غير لائقة لهذه الوظيفة · وهذه الوظيفة مثل كل الوظائف الأخرى ، ولكنها بالنسبة اليك الجنة ، ولهذا فأنت تتناولين الأمور كلها بحماس مفرط ، فأنت تتزينين كما تتزين الملائكة — حسب تصورك ·· والحقيقة أنهم يختلفون عما تتصورين كل الاختلاف — وأنت ترتعدين خوفا على الوظيفة ، وتظنين ان هناك من يضطهدك ، وتبحثين عن كل من تظنين أنهم يستطيعون أن يساندوك وتحاولين اجتذابهم اليك بالمبالغة فى التودد اليهم ، ولكنك تسببين لهم بهذا فى الازعاج النفور ، لأنهم يريدون ، اذ يأتون الى الخمارة ، الراحة ، والهدوء ولا يريدون مشكلاتك ومشكلات خادمات الخمارة · ومن المحتمل ، ومن المحتمل فقط، ألا يكون كبار رواد الخمارة قد لاحظوا انصراف فريدا ، أما اليوم فهم

يعرفونه ويشتاقون فعلا الى فريدا ، لان فريدا كانت تدبر أمور العمل على نحو مختلف كل الاختلاف . ومهما يكن من أمرها ، ومهما يكن تصورها لمركزها ، فقد كانت في العمل واسعة الخبرة ، فاترة ، مسيطرة على نفسها ـ وأنت تشيرين الى ذلك دون أن تتعلمي منه . هل تأملت مرة نظرتها ؟ لم تكن نظرتها نظرة خادمة خمارة ، لقد كانت أكثر من ذلك ، كانت نظرة صاحبة حان ، أو توشك أن تكون كذلك . لقد كانت ترى كل شيء ، وكانت ترى كل فرد على حدة ، وكانت النظرة التى تبقى للفرد ، قوية قوة تكفي للسيطرة عليه . وهل يعيبها أن تكون نحيفة قليلا ، ومتقدمة في السن بعض الشيء ، أو أن يكون هناك شعر أفضل من شعرها ؟ ان هذه أشياء طفيفة اذا قيست بما هى عليه فى الحقيقة. وان الانسان الذى تزعجه مثل هذه العيوب ليبين بانزعاجه منهـا انه لا يفهم فى الأشياء العظيمة . ولا يمكن أن يأخذ الانسان على كلم هذا بكل تأكيد . أما أنك لا تصدقين حب كلم لفريدا فيرجع الى وجهة نظر خاطئة تنظر بها بنت صغيرة غريرة الى الأمور . ان كلم يبدو لك ـ بحق ـ بعيد المنال ، ولهذا فانك تظنين أن فريدا لا تستطيع الوصـول اليه . عندى براهين يقينية . ومهما لاح لك الأمر بعيدا عن التصديق ، مختلفا وانت تخطئين . وأنا فى هذا أثق فى كلام فريدا وحده حتى ان لم يكن عن تصوراتك عن العالم والموظفين والعظمة وتأثير جمال النساء ، فانه حقيقى، ولقد كان كلم وفريدا يجلسان كما نجلس نحن الآن الواحد بجوار الآخر ويدك فى يدى ـ ولقد كان هذا أكثر الأمور بداهة .. ولقد كان ينزل اليها ، من تلقاء ذاته ، بل لقد كان يعدو اليها ، ولم يكن هناك من يتربص به فى الممر ويهمل أثناء ذلك عمله ، لقد كان كلم مضطرا الى النزول الى فريدا ولم يكن ما تتحدثين عنه من نقائص فى هندام فريدا يزعجه . اذن فأنت تذهبين الى تكذيبها . وأنت لا تعرفين انك بهذا تكشفين نفسك وتظهرين قلة خبرتك . ان من لا يعرف شيئا عن علاقة فريدا بكلم يمكنه أن يتبين من كيانها أن الذى يحبها شخص أكبر منى ومنك ومن كل من فى القرية من شعب ، وان أحاديثها تتجاوز حدود المزاح الذى يتصل عادة بين خادمات الحانات والرواد والتى تلوح كأنها هى هدف حياتك . ولكننى أظلمك : فأنت فى الحقيقة تعرفين مميزات فريدا ، وتعرفين قدرتها على الملاحظة وقدرتها على التصميم ، وتأثيرها على الناس ، الا أنك بطبيعة الحال تفسرين الأشياء تفسيرا خاطئا ، وتظنين انهـا تستخدم كل شيء استخداما أنانيا لصالحها هى ولضرر الآخرين ، أو تستعمله كسلاح ضدك . لا يابيبى ، انها حتى اذا أوتيت هذه الرماح،

لا تستطيع أن تصيب أحدا يقف على هذا البعد الهين · أما الأنانية ؟ لا ، ان الأحرى بالانسان أن يقول انها ضحت بما كان لديها وبما كان لها أن ترجوه ، لتتيح لنا كلانا فرصة الصعود الى مركز أعلى · أما نحن فاننا تثبت كفاءتنا وخيبنا رجاءها واضطررناها الى العودة الى هنا اضطرارا · وأنا لا أعرف هل الأمر فعلا على هذا النحو ، هذا الى انني لا أحس بذنبى احساسا واضحا ، الا أننى ، عندما أقارن نفسى بك ، أحس شيئا من هذا القبيل يجول بخاطرى ، وكأنما اجتهدنا نحن كلانا على نحو صاخب صبيانى غرير الى أقصى حدود الصخب والصبيانية والغرور للوصول الى شيء كان هدوء وموضوعية فريدا يوصلان اليه بسهولة ودون اثارة ، اجتهدنا نحن كلانا فى الوصول اليه بالبكاء والخمش والشد كما يشد الطفل الصغير فى ملاءة المنضدة فلا يصل الى شيء الا رمى العظمة كلها الى الأرض · فتنقلب بالنسبة اليه الى شيء من المحال الوصل اليه · وأنا لا أعرف هل الأمر فى الحقيقة على هذا النحو ، ولكن أعرف انه أقرب الى هذا منه الى ما تحكمين ·

فقالت بيبى :

– هه ، أنت متيم بفريدا لأنها هجرتك ، وليس من الصعب ان يهيم بها الانسان عندما تكون غائبة · ولكن ربما كان الأمر على ما قلت، وربما كنت على حق فى كل ما ذهبت اليه ، وفى سخريتك منى · وماذا تريد الآن أن تفعل ؟ لقد هجرتك فريدا ، وليس لديك أمل ، لاطبقا لتفسيرى ولا طبقا لتفسيرك أنت ، فى أن تعود اليك ، وحتى اذا كانت ستعود اليك ، فينبغي عليك حتى ذلك الحين ان تقيم فى مكان ما ، فالجو بارد وليس لديك فراش ، وليس لديك عمل ، فتعال الينا ، وستعجبك صديقتاى ، وسنعمل جميعا على راحتك وستساعدنا فى عملنا ، وهو فى الحقيقة صعب علينا وحدنا صعوبة مفرطة ، وهكذا لن نكون نحن البنات بلا سند ولن نحس خوفا بالليل · تعال الينا · وصديقتاى هما أيضا تعرفان فريدا وسنحكى لك عنها من الحكايات حتى تسامها · تعال · ولدينا صور لفريدا سنقدمها اليك لتراها ، لقد كانت فريدا فيما مضى أكثر تواضعا من الآن ، ولو رأيت صورها صغيرة لما تعرفت عليها بسهولة ، الا من عينيها اللتين كانتا فيما مضى تتربصان كما تتربصان الآن · هه ، اذن ستاتى الينا ؟

وقال ك :

– وهل ذلك من المسموح به ؟ لقد حدثت بالأمس فضيحة كبيرة لأنهم قبضوا على فى الممر ·

فقالت بيبي :

ـ آه لأنهم قبضوا عليك ! ولكنهم لن يقبضوا عليك عندما تكون عندنا · لن يعلم عنك انسان شيئا عندما تكون عندنا · لن يعرف ذلك سوى ثلاثتنا · آه ، سيكون ذلك شيئا مفرحا بهيجا ! انني أحس الآن بأن الحياة ستصبح أكثر احتمالا عنهـا قبل هنيهة · ولعلي لا أكون قد فقدت الكثير نتيجة لخروجي من الخمارة · أننا ، نحن البنات الثلاثة ، لم نعان الملل لأننا كنا معا ، وما ينبغي على الانسان الا أن يحلي الحياة المرة ، وهم يجعلون حياتنا من صغرنا مرة ، ولكننا نتكاتف نحن الثلاثة ، ونعيش حياة جميلة على قدر الامكان ، وستعجبك هنريته خاصة ، وكذلك ايميليه ، ولقد حكيت لهما عنـــك ، فسمعتا حكاياتي مكذبتين ، وكأنما لم يكن الممكن أن يجرى شيء فى خارج حدود الحجرة ، الحجرة الدافئة الضيقة التي تتلاصق فيها الواحدة بالأخرى تلاصقا شديدا · لا ، اننا لا نحس بالملل بعضنا من البعض على الرغم من ان كل واحـدة منا تعتمد على الأخرى · بل على العكس · انني عندما أفكر في صديقتي ، أكاد أحس بالرضا لأنني أعود · ولماذا أتقدم وأعلو عليهما ؟ لقد كنا متكاتفات لسبب واحد وهو أن المستقبل موصد أمامنا نحن الثلاثة ، ولقد اندفعت أنا من خلال السد وانفصلت عنهما · ولكني بطبيعة الحال لم أنسهما ، بل كان همي الأول هو فعل شيء من أجلهما · وعلى الرغم من أن اقدامى لم تكن قد رسخت فى الوظيفة بعد ـ ولم أكن أعرف ذلك آنذاك ـ فقد تكلمت مع صاحب الحـان بشـأن هنريته وايميليه · ولم يعترض على هنريته اعتراضا لا سبيل الى التغلب عليه ، أما ايميليه ـ وهي أكبرنا سنا ، وهي في سن فريدا تقريبا ـ فقد اعترض عليهـــا اعتراضا لا أمل فى التغلب عليه · ولـــكن تصور ! انهما لا تريدان الانصراف عن حياتهما الحالية ، انهما تعرفان انها حياة بائسة ، ولكنهما انطوتا لها ، وأظن أن البنتين الطيبتين عندما بكتا عند توديعي ، كانتا حزينتين خاصة لانصرافي عن الحجرة المشتركة ، وذهابي الى البرودة ـ ونحن نتصـور كل شيء خارج الحجرة باردا ـ واضطرابي فى الاماكن الكبيرة الغريبة ومن فيها من أناس أغراب لا لشيء الا لكسب معاشي ، ولقد كنت وأنا معهما أكسب معاشي · ويبدو أنهما لن تدهشا عندما اعود الآن اليهما ، ولسوف تبكيان وتندبان حظي لا لشيء الا لتلينا لي بعـد ذلك · ثم ســتريانك وستتبينان أنني أحسنت صنعا عندما تركتهما وذهبت · ولسوف تسعدان عندما تجدان أننا أوتينا رجلا يكون لنا عونا وسندا ودرعا ، ولســـوف تفرحان أشد الفرح عندما تعلمان أن الأمر لا بد أن يبقى سرا بيننا واننـــا سنتكاتف

بسبب هذا السر تكاتفا أكبر وأمتن • تعال ، أرجوك ، تعال الينا ! ولن يكون فى حضورك الينا التزام بشيء ، فلن ترتبط بالحجرة أبدا مثلنا • فاذا أتى الربيع ووجدت فى مكان آخر مأوى ، ولم يعد المقام لدينا يحلو لك ، فلك أن تذهب • ولن يكون عليك الا أن تحفظ السر حتى بعد أن تنصرف ، والا تفضحنا ، لأن ذلك سيكون معناه دنو ساعتنا الأخيرة فى حان السادة ، هذا الى أنه ينبغى عليك ، وأنت عندنا ، أن تلزم الحذر بطبيعة الحال ، وألا تظهر فى أى مكان لا يكون فى تقديرنا غير خطير ، وعليك بصفة عامة أن تتبع نصائحنا • هذا هو القيد الوحيد الذى يقيدك، وينبغى أن تحرص عليه حرصنا نحن عليه ، أما فيما عدا ذلك فأنت حر تمام الحرية ، ولن يكون العمل الذى نكلفك به صعبا ، وأنا لا أخشى شيئا من هذه الناحية • هل ستأتى الينا اذن ؟

وسألها ك :

ـ وكم يمر من الوقت حتى الربيع ؟

وأعادت بيبى كلامه :

ـ حتى الربيع •••

ثم أردفت :

ـ ان الشتاء لدينا طويل ، طويل جدا ، ورتيب • ونحن فى حجرتنا السفلية لا نشكو من ذلك ، فنحن فى مأمن منه • ولكن الربيع يأتى يوما ما ، وكذلك الصيف ، ولكل موعده • وأنا عندما أعمل ذاكرتى أتصور الربيع والصيف قصيرين جدا وكأنهما لا يزيدان على يومين اثنين ، وحتى فى هذين اليومين يسقط أثناء الجو الجميل بعض الثلج أحيانا •

وهنا انفتح باب • وارتعد بيبى • لقد بعدت بأفكارها عن الحمارة بعدا شديدا ، ولم تكن فريدا هى التى أتت ، بل صاحبة الحان • وتظاهرت بالدهشة لرؤيتها ك هنا • واعتذر ك قائلا انه كان ينتظر قدوم صاحبة الحان ليشكرها على السماح له بقضاء الليلة هنا • ولم تفهم صاحبة الحان سبب انتظار ك لها • فقال ك لها ، انه كان يحس بأنها تريد أن تتكلم معه ، ورجاها أن تغفر له ان كان قد أخطأ فى هذا ، وقال ان عليه فى الواقع أن ينصرف الآن ، فقد طال اهماله المدرسة التى يعمل خادما بها ، والذنب هو قبل كل شيء آخر ذنب الدعوة التى تلقاها بالأمس ، وقال انه قليل الخبرة بهذه الموضوعات ، وانه لن يحدث مرة أخرى أن يسبب للسيدة صاحبة الحان منغصات كتلك التى حدثت بالأمس •

وانحنى وتأهب للانصراف · وتطلعت صاحبة الحان اليه بنظرة وكأنها تحلم ، وأدت هذه النظرة بـ ك الى الانتظار أطول مما كان ينوى · ثم ابتسمت ابتسامة رقيقة ، ولم تفق لنفسها الا عندما رأت ك ينظر اليها نظرة مدهوشة · ويبدو أنها كانت تتوقع ردا على ابتسامتها وانها أفاقت الآن عندما لم تتلق ردا · وقالت :

ـ لقد تجرأت بالأمس على ما أظن وقلت شيئا عن ثوبى ·

ولم يستطع ك أن يتذكر · فقالت له :

ـ ألا تذكر ؟ هكذا يتبع الجبن الجرأة ·

واعتذر ك بتعبه فى الأمس وقال انه من الممكن جدا أن يكون قد ثرثر بشىء ، ولكنه على أية حال لا يذكر · وماذا يمكن أن يكون قد قال فى ثياب السيدة صاحبة الحان ؟ الا أنها جميلة جمالا لم يسبق أن رأى له مثيلا ، أو على انه لم يسبق أن رأى صاحبة حان تلبس هذه الثياب أثناء العمل · فقالت له صاحبة الحان بسرعة :

ـ دع هذه التعليقات · اننى لا أريد أن أسمع كلمة واحدة منك عن ثيابى · وليس لك أن تهتم بثيابى · وأنا أمنعك من ذلك منعا باتا ·

وانحنى ك مرة أخرى واتجه الى الباب · فصاحت صاحبة الحان من خلفه قائلة :

ـ وما معنى قولك انك لم تر من قبل صاحبة حان تلبس مثل هذه الثياب أثناء العمل ؟

ما معنى هذه التعليقات السخيفة ؟ انها سخيفة كل السخف · ماذا تعنى بها ؟

فالتفت ك خلفه ورجا صاحبة الحان ألا تغضب ، وقال ان هذه التعليقات بطبيعة الحال سخيفة ، فهو لا يفهم شيئا فى الثياب ، وانه فى حالته هذه ، يرى كل ثوب نظيف غير مرقع ثوبا جميلا · كل ما فى الأمر انه اندهش عندما رأى السيدة صاحبة الحان بالليل تلبس ثوب سهرة جميل وسط رجال لا يكادون يرتدون شيئا · هذا هو كل ما فى الأمر ·

فقالت صاحبة الحان :

ـ هأنتذا تتذكر ، على ما يبدو ، تعليقاتك التى قلتها بالأمس ، وتكملها بسخف جديد · أما أنك لا تفهم فى الثياب فصحيح · ولكن عليك فى هذه الحالة أن تمتنع ـ وأنا أرجوك فى هذا رجاءا حارا ـ عن

اصدار أحكام عن الثياب الثمينة والثياب التى لا تليــق للسهرة وما الى ذلك .. وعليك ..

ويبدو انها أصيبت هنا برعدة . وأردفت :

ـ وعليك بصفة عامة ألا تنشغل بثيابى مطلقا ، هل سمعت ؟

فلما هم ك بالاتجاه الى الناحية الاخرى فى صمت ، سألته :

ـ ومن أين لك المعرفة بالثياب ؟

وهز ك كتفيه معبرا عن انه لا يعرف شيئا عن الثياب . فقالت له صاحبة الحان :

ـ ليست لديك معرفة بالثياب . ولاينبغى أن تتجرأ على ادعاء معرفة بها . تعال الى المكتب وسوف أريك شيئا وأرجو أن يؤدى هذا بك الى أن تكف كلية ونهائيا عن الجرأة والتهور .

وتقدمته الى الباب وخرجت قبله ، فقفزت بيبى الى ك متظاهرة بأنها تريد أن تأخذ منه الحساب ، وتفاهمت معه بسرعة ، وكان هذا أمرا سهلا، لأن ك كان يعرف الفناء الذى تؤدى بوابته الى الشارع الجانبى ، وكانت بيبى تريد أن تنتظر ك بعد ساعة تقريبا عند الباب الصغير المجاور للبوابة، وتفتح له عندما يدق ثلاث دقات .

كان المكتب الصغير فى الناحية المواجهة للخمارة ، ولم يكن الانسان يحتاج للوصول اليه الا الى اجتياز البهو ، وكانت صاحبة الحان تقف فى المكتب الصغير المضاء ، عندما وصل اليه ك ، وتنتظر مقدمه بفراغ الصبر. وكان ك قد تعطل لأنه وجد جيرشتيكر ينتظر فى الممر ويريد أن يتحدث اليه ، ولم يكن من السهل رده ، حتى تدخلت صاحبة الحان وساعدت ك ولامت جيرشتيكر على الحاحه .

وسمع ك صوت جيرشتيكر يقول حتى بعد أن انقفل الباب :

ـ الى أين ؟ الى أين ؟

وكانت كلماته تختلط اختلاطا قبيحا بتنهداته وسعاله .

كان المكتب عبارة عن حجرة صغيرة ارتفعت درجة حرارتها ارتفاعا مفرطا ، وكانهناك عند الحائطين العرضيين قمطر مرتفع للوقوف وخزينة حديدية ، وعند الحائطين الطوليين دولاب وأريكة . وكان الدولاب يشغل أغلب المساحة ، لا لأنه كان يبتلع الحــائط الطولى فحسب ، بل لأنه كان علاوة على ذلك يمتد الى بعيد وسط الحجرة ، ويضيقها بحيث كان فتحه

على سعته يتطلب ثلاثة أبواب منزلقة • وأشارت صاحبة الحان الى الاريكة ليجلس ك عليها ، أما هى فجلست على الكرسى الوثير الدوار الى القمطر • وسألت صاحبة الحان :

ــ وأنت لم تتعلم حتى الخياطة ؟

فقال ك :

ــ لا ، مطلقا •

ــ فماذا تكون ؟

ــ موظف مساحة •

ــ وما هذا ؟

وشرح لها ك • وأدى الشرح بها الى التثاؤب • فقالت :

ــ انت لا تقول الحقيقة • لماذا لا تقول الحقيقة ؟

ــ وكذلك أنت لا تقولين الحقيقة •

ــ اذن فأنت تعاود الوقاحة • وحتى اذا كنت لا أقول الحقيقة فهل أنا مسئولة أمامك ؟ وما هو موضع كذبى ؟

ــ أنت لست صاحبة حان فقط كما تدعين •

ــ هكذا ! ما أكثر اكتشافاتك ! فماذا أكون غير ذلك ؟ ان وقاحتك تزداد فعلا ازديادا مفرطا •

ــ أنا لا أعرف ماذا تكونين غير ذلك ! كل ما فى الأمر اننى أرى أنك صاحبة حان ، وانك مع ذلك تلبسين ثيابا لا تناسب صاحبة حان ، بل ولا تناسب امرأة قط فى القرية على ما أعلم •

ــ وهكذا نصل الى لب الموضوع • انك لا تستطيع أن تخفى ماتعلم، ولعلك لست وقحا ، لعلك كالطفل الذى يعرف حماقة ما ، ولا يكون هناك من سبيل الى منعه عن كشف سرها • فتكلم • ما هو الشىء الغريب فى هذه الثياب ؟

ــ ستغضبين منى اذا تكلمت •

ــ بل سأضحك ، فلن يكون كلامك سوى ثرثرة صبيانية • فما أمر ثيابى ؟

ــ اذن فأنت تريدين أن تعرفى • انهـا من قماش جيد ، ثمين ، ولكنها قديمة العهد ، كثيرة الزخرف ، كثيرة التعديل ومستهلكة ولا تلائم

لا سنك ولا قوامك ولا مركزك · ولقد لفتت نظرى على الفور عندما رأيتها لأول مرة منذ نحو أسبوع هنا فى البهو ·

ــ لقد وصلنا · انها قديمة العهد ، كثيرة الزخرف ، وماذا أيضا ؟ ومن أين لك هذه المعرفة كلها ؟

ــ هذا هو ما أراه ، ولا يحتاج الانسان فى ذلك الى تعليم ·

ــ انت ترى هذا بكل بساطة · وأنت لا تحتاج الى الاستفسار من أى انسان ، بل تعرف من فورك الشكل اللائق · وما دام الأمر كذلك فلا غنى لى عنك ، لأننى أعشق الملابس الجميلة · وماتقول فى أنهذا الدولاب ملىء بالثياب ؟!

ودفعت الأبواب المنزلقة الى جانب ، فرأى ك الثيـــاب متلاصـــقة فى الثوب ، تملأ الدولاب كله على عرضه ، وكانت الثياب معتمة الألوان فى غالبها ، رمادية وبنية وسوداء ، وكانت كلها معلقة ومنشورة بعناية · وقالت :

ــ هذه هى ثيابى ! كلها قديمة العهد ، كثيرة الزخرف والحشو ، كما تقول · وما هذه الثياب التى تراها هنا الا تلك التى لا أجد لها مكانا فى حجرتى العــلوية ، فلدى بها دولابان كبريان مملوءان ، دولابان كل منهما فى حجم هذا الدولاب تقريبا · هل تدهش لذلك ؟

ــ لا ، لقد كنت أتوقع شيئا من هــذا القبيل · لقد قلت لك انك لست صاحبة حان فقط ، انك تطمحين الى شىء آخر ·

ــ اننى لا أطمح الا الى شىء واحد وهو أن ألبس ملابس جميلة ، أما أنت فمجنون أو طفل أو انسان شرير جدا خطير جدا · اذهب ! اذهب !

وعاد ك الى البهـــو ، وأمسك جيرشتيكر مرة أخرى بكمه ، وهنا صاحت صاحبة الحان :

ــ سأتلقى غدا ثوبا جديدا ، وربما استدعيتك ·

فهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة ..	٣
الفصل الأول ..	٢١
الفصل الثــانى ..	٤١
الفصل الثــالث ..	٦٣
الفصـــل الرابع ..	٧٥
الفصـــل الخامس ..	٨٩
الفصل السادس ..	١٠٩
الفصل الســابع	١٢٥
الفصل الثـــامن ..	١٣٧
الفصل التاســع ..	١٤٧
الفصـــل العاشر ..	١٥٩
الفصـــل الحادى عشر ..	١٦٧
الفصـــل الثـــانى عشر	١٧٣
الفصـــل الثالث عشر ..	١٨١
الفصـــل الرابع عشر ..	٢٠٩
الفصـــل الخامس عشر	٢١٩
الفصل السادس عشر	٢٧٥
الفصل الســابع عشر	٢٨٣
الفصل الثــامن عشر	٢٨٩
الفصل التاســع عشر	٣١٧
الفصل العشرون ..	٣٣١

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــل



ولد فرانتس كافكا فى الثالث من شهر يولية عام **1882** فى براغ التى كانت فى ذلك الوقت تجمع بين ثقافتين: الثقافة الألمانية من ناحية، والثقافة التشيكية من ناحية ثانية.

تقع أحداث رواية "القصر" فى قرية لا نعلم من اسمها إلا "القرية"، وهى تقع عند أسفل التل الذى ترتفع عليه مبانى القصر، حيث يصل فى وقت متأخر من مساء يوم من أيام الشتاء رجل اسمه "ك"، جاء بعد رحلة على الأقدام ليعمل موظفًا للمساحة بناء على دعوة يقول إنه تلقاها من أصحاب الشأن. و"ك" هذا لا يعرف من أمر القرية والقصر إلا القليل..



تصميم الغلاف: نسرين